"الإنسان" الخالد

حياة المسيح

تأليف

فالتون أورسلر

ترجمة

رمسيس جبراوي



الناشر

دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع

عمارة رمسيس ميدان رمسيس - القاهرة

مكتبة
« العقائد والأديان »
(١٦)

"الإنسان" الخالد

حياة المسيح

تأليف
فالتون أورسلر

ترجمة
رمسيس جبراوى

الناشر
دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع
عمارة رمسيس ميدان رمسيس - القاهرة

(١٩٦٦)

هذه ترجمة كتاب

THE GREATEST STORY EVER TOLD

تأليف

FULTON OURSLER

الناشر

Permabooks, edition 1953
A division of :
Doubleday & Company

« الإنســـان الخـالد »

وقعت فى يدى قصة «فالتون أورسلر» — أعظم قصة فى التاريخ — عن أعظم حياة عاشها إنسان ، ورأيت أن مؤلفها لاحظ ما نلاحظه هنا من قلة إلمام الشبان بالأحداث الخارقة فى حياة المسيح ، على عظم تأثيرها فى القلوب والضمائر والأفئدة ، على حين أنهم يقبلون عليها إذا ما ألقيت إليهم فى شكل قصة مشوقة .

لذلك فقد نقل هذه الأحداث من الأناجيل بأمانة مطلقة ، وربط بينهما بما رآه هو يتفق مع سياقها ، وإن خالف ما تذهب إليه كنائسنا الشرقية بشأن «يوسف» و«مريم» ووالديها ؛ وقد جاءت قصة رصينة أخاذة ، تسكب مبادىء المسيحية على سموها حلوة سهلة فى قلوب القراء ، فأقبلوا عليها حتى لقد أعيد طبعها فى سنتها الأولى خمسين مرة ، بيع منها فيها أكثر من ثلاثة ملايين نسخة ، وأذيعت فى الراديو والتليفزيون وترجمت إلى لغات كثيرة ، ثم أخرجت قصة سينمائية تعرض الآن فى الخارج بنجاح عظيم .

لذلك عرضت على الآباء رؤساء الطوائف المسيحية فى مصر أن أقوم بتعريبها فشجعونى على ذلك ، ثم تفضلوا على بالمقدمات التى تتوج هامة هذا الكتاب ، الذى جعلت عنوانه : «الإنسان الخالد» ، لأن المسيح هو الذى قرر أن الإنسان الفرد خالد وجعله ابن الله المحبوب ، ووضع حياته وحريته وأمنه فوق كل اعتبار ؛ حتى لو أخطأ «سبع مرات سبعين مرة» لا يعاقبه ، وإنما يرقب عودته إليه معترفا بخطئه « لأنه يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب » .

وقد تصرفت فى التعريب قليلا ، واستعنت أحيانا فى ترجمة الآيات بترجمتى الإرسالية الأمريكية والآباء اليسوعيين ، ثم ها أنذا أزف هذه القصة إلى قراء العربية آملا أن يجد كل قارىء فيها شيئا يرضيه .

القاهرة — ١٨ ب شارع ٢٦ يوليو
فى مارس ١٩٦٦

رمسيس جبراوى

بطريركية الأقباط الأرثوذكس
بالقـــاهرة
« المقر البابوى »

كلمة بطريركية الأقباط الأرثوذكس

السيد الأستاذ رمسيس جبراوى المحامى

تحية طيبة مع أصدق الدعاء .

نفيد سيادتكم أنه بناء على تكليف قداسة البابا المعظم الأنبا كيرلس السادس بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية قد تصفحت لجنة فحص الكتب الدينية بالبطريركية كتاب « الإنسان الخالد » تعريب سيادتكم ولاحظت :

أولا — أن ما بذلتموه من الجهد فى التعريب وما تحملتموه لإصدار هذا المؤلف المفيد يستحق الشكر . وليس هذا غريبا على ابن الكنيسة الغيور الذى لا يتوانى عن خدمة بلاده لا سيا فيما يؤدى إلى تقويم الأخلاق بتقديم المثل العليا .

ثانيا — أن الأسلوب الروائى الذى ظهر به هذا الكتاب كان اختياراً موفقاً ومتمشياً مع روح هذا العصر الذى يتلمس فيه القارىء أسلوبا شيقا يمكنه من فهم عقائده وآداب دينه بأقل مجهود كما يضع أمامه صورة رائعة لرئيس الإيمان ومكمله الرب «يسوع» فى أقواله وأعماله، ثم هو فى روعة يستعرض المعجزات الباهرات التى أيدت رسالة العهد الجديد وصادقت على رموز وإشارات العهد القديم .

ثالثا — أن انتقاء الألفاظ والدقة فى التعبير يزيد الطمأنينة إلى النفع بهذا الكتاب الذى نرجو له رواجا عظيما .

وقد كلفنى قداسة البابا المعظم الأنبا كيرلس السادس، حفظه الله ، أن أحمل إليكم رضاءه الكبير عن هذا الكتاب ، وخالص الدعوات لكم بالتوفيق ؟

وكيل عام البطريركية
القمص ميخائيل عبد المسيح

بطريركية الأقباط الكاثوليك
بالقاهرة

كلمة « بطريركية الأقباط الكاثوليك »

يسرنا أن نهنىء الأستاذ رمسيس جبراوى على ما بذله من جهد وحكمة كبيرين ، فى تعريب هذه القصة القيمة ، بأسلوب يجعل القارىء يشتاق إلى مواصلة قراءتها . ولاشك أن هذا الكتاب سيفيد الشبيبة التى لا تزال فى حاجة إلى معرفة شخصية «المسيح» . له المجد ، والمثل العليا التى سنها ، والمعجزات التى حببت فيه الشعب الفقير المحتاج المريض البائس ، وجعلت الفريسيين والرؤساء يتوجسون منه شراً إذ يرون فى سلوكه وفى تعاليمه نقداً لاذعاً لطريقة حياتهم وكشفاً لخداعهم وخطراً داهماً على مراكزهم وأرزاقهم ، فحاولوا أن يتخلصوا منه بكل الطرق حتى وصلوا إلى أغراضهم عن طريق خيانة «يهوذا» أحد تلاميذه .

إن هذا الكتاب لا غنى عنه لكل بيت ، لذلك نتمنى له كل رواج ، وللأستاذ رمسيس جبراوى كل توفيق وبركة .

الكاردينال اسطفانوس الأول
بطريرك الأقباط الكاثوليك

طائفة الأقباط الإنجيليين
المجلس الملى الإنجيلى العام
بالقــاهرة

كلمة رئاسة «طائفة الأقباط الإنجيليين»

تصفحت ترجمة هذا الكتاب بقلم أستاذ ناجح فى المحاماة إلى حد بعيد ، عن كتاب بالإنجليزية وضعه خير الكتاب المعاصرين ، عن ترجمة حياة أكمل الكاملين وأقدس القديسين الذى لامست حياته فى الجسد أرضنا المضروبة باللعنة منذ سقوط آدم وحواء ، وإقدام «هابيل» على قتل أخيه «قابيل» ، فطهرت قدماه هذه الغبراء ، بتعاليمه التى تعتبر معجزات الحكمة ، ومعجزاته التى تنطوى على أقدس التعاليم ، وختم حياته على الأرض بإراقة دمه الطهور على أكمة الجلجثة ، فغسلت دماؤه الزكية وجه أرضنا المخضبة بالدماء والدموع ، وافتداها من كل إثم وجرم .

وقد أجاد الكاتب المبدع إذ وضع كتابه الأصلى بأسلوب روائى شائق ، ونجح الأستاذ «رمسيس جبراوى» فى مغامرته إلى حد بعيد ، لأن مجرد الإقدام على نقل هذا الكتاب الممتاز إلى العربية يعتبر من أخطر المغامرات ، ومتى ذكرنا أنه نجح فى هذه المغامرة نجاحاً منقطع النظير ، فى دقة التصور ورقة التصوير ، مع جمال رائع فى الأسلوب العربى تعتبره من أفضل صنوف السهل الممتنع ؛ حق له علينا ومنا كل تقدير وإعجاب .

ونحن نرجو أن ينتفع الناطقون بالضاد ، على الأقل ، ببعض ما تمتع به قراء الكتاب الأصلى ، وكلنا دعاء وصلاة بأن تبلغ الرسالة مداها إلى جميع الأوساط التى لا يلذ لها أن تقرأ كتاباً دينياً ، فتستمتع بقراءة كتاب ظاهره رواية ، وباطنه الحق الصراح الذى لا تلين قناته أمام الباطل مهما هبت رياح التعاليم العصرية المشبعة برياح السموم التى لا تبرح تهب على البشرية .

أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فإنه يبقى إلى الأبد .

ابراهيم سعيد

بطريركية الروم الملكيين الكاثوليك
بالقاهرة

كلمة « بطريركية الروم الكاثوليك »

إن قصة «يسوع» المسيح هي قصة « كلمة الله وقد صار جسداً وحل بيننا» ـ «يوحنا ١» ، هي قصة ابن الله وقد صار ابن الانسان ، لقد ولد « يسوع » المسيح فى زمن معين وفى مكان بالذات « ونما فى الحكمة والسن والنعمة عند الله والناس — « لوقا » ٢ : ٥٢ » — وتجول فى البلاد يصنع الخير ويعمل ويعلم ، وقد تعب من المسير كسائر الناس ، وكسائر الناس أكل وشرب وعطش وجاع . لقد كان يأتى بالعجائب ، ويصنع المعجزات ، لأنه ابن الله ، فجعل « العميان يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون — متى ١١ : ٥ — ٦» — ولكن قوة الله الشافية المحيية كانت تعبر إلى أجساد المرضى والموتى بلمسة من يده أو كلمة من فمه ، لأنه «ابن الانسان» أيضاً ، فقد وضع يده بيد إبنة رئيس المجمع الميتة وأقامها ، وجبل بيده طيناً وطلى به عينى المولود أعمى فأبصر، ولمس يدى حماة «بطرس» فتركتها الحمى وقامت تخدمهم ، وفيما هو يسكب دمعة على قبر حبيبه « لعازر » صرخ بصوت عظيم : « يا لعازر ، هلم خارجاً » فخرج الميت من قبره .

إن قصة « يسوع » المسيح هى قصة كلمة الله المتأنس ، قصة اللقاء الأكبر بين اللاهوت والناسوت ، وبين الله والناس ، وبين حب الله القدير وضعف الإنسان المحبوب .

هى قصة الأجيال ، وضع الله تصميمها فى فجر الخليقة ، وتعاقب الأنبياء على إذاعة أسرارها ، وترنم بها الآباء والأجداد ، وانتظروا بفارغ الصبر إزاحة الستار عن فصولها ، « اقطرى أيتها السماوات من فوق ، ولتمطر الغيوم الصديق ، ولتتفتح الأرض ولتثمر الخلاص ولتنبت البر» — أشعيا ٤٥ : ٨» وقال «يسوع» للجموع : « إن كثيرين من الأنبياء والصديقين اشتهوا أن يروا ما أنتم راءون ولم يروا ، وأن يسمعوا ما أنتم سامعون ولم يسمعوا — متى ١٣ : ١٧» .

تلك هى قصة القصص التى كان للسيد «فالتون أورسلر » شرف صياغتها فى قالب روائى ممتع جذاب جعل الناس يتهافتون على قراءتها ، وهذا هو الكتاب الذى كان للأستاذ «رمسيس جبراوى » شرف نقله بلغة سهلة وأسلوب شيق إلى أبناء العروبة فى كل مكان ، فإذا كان

الإناء ينضح بما فيه ، وإذا كان خير المداد ما يستمده القلم من وعاء القلب ، فلا شك أن المؤلف والمعرب تلميذان أمينان « ليسوع » ، وأنهما جعلا من قصة حياته ، قبل وضعها أو نقلها للناس ، شغلهما الشاغل ومحور اهتمامهما وموضوعاً للتأمل ودستوراً للحياة .

وإنى إذ أشكر للأخ الأستاذ « رمسيس جبراوى » جهوده الموفقة ، أسأل الله أن يلهم الناس الإقبال على مطالعة الكتاب ، لعلهم يجدون فيه خير موضوع للتأمل ، وخير دستور للحياة .

المطران الياس زغبي
النائب البطريركى العـــام

الجزء الأول

ميــلاد طفل

الفصل الأول

نجار الناصرة

كان الناس فى الناصرة يقولون إن «يوسف» إنما هو نسخة من «سميه» ، الإبن المفضل لدى جده الكبير «يعقوب» ، وكان نجار الناصرة هذا ذو اللحية الذهبية يختلف كثيراً عن جيرانه ذوى الشعر الأسود ، كما كان يعيش حياته هادئاً حالماً وطالب علم ومعرفه أكثر منه صانع خشب ، وكان عمه الذى كفله منذ تيتمه صغيراً قد لقنه صناعته ، فكان «يوسف» يستطيع أن يبنى بيديه المعروقتين البارزتى العضلات بيتاً خشبياً ، وأن يشكل كرسياً أو مقعداً طويلا وأن يركب باباً أو يصلح عجلة أو يصنع محراثاً فى خير شكل ، وكان دكانه الصغير الذى يقع أعلا الشارع الصاعد فى الناصرة نظيفاً يفوح برائحة نشارة الخشب ويوصل خلفه إلى مسكنه وفيه موقد صغير كان صاحبه الأعزب يطهى عليه أكلاته الخفيفة ، وقد اعتـــاد أن يمضى أمسيـاته إما جالساً على عتبة دكانه يخيط ثيابه أو سائراً الهوينا أمامه مستنشقاً الهواء العليل فإذا ما اشتد الظلام مضى إلى جوار مصباحه يقرأ الكتب التى يستعيرها من شيوخ بلده .

وكان النـاس يرونه شاباً مثاليـاً لأنه كان يمتنع عن لعب القمار مع قوافل المسافرين التى تحط فى بلده ، ويرفض العلاقة بالنساء ، ولا يجد لذة إلا فى الحديث الهادىء الجاد مع نخبة من جيرانه ، هذا فى حين درج سائر الناصريين على الاندفاع والحدة والضوضـاء الكثيرة ، فقد كانت بلدته التى تكاد تختفى بين الجبال تقع على الطريق التجارى الضخم بين آسيا وأوربا وتحط فيها القوافل الغادية الرائحة ، بجمالها الكثيرة ، المحملة بالروائح العطرية والتوابل وأثواب الحرير المفهاف من الشرق ، وبخير منتجات الغرب وخموره وزيوته ، فضلا عن روائع البلدين الكبيرين الاسكندرية من ناحية ودمشق من ناحية أخرى ، وكان رجال هذه القوافل يقضون الليل فى الحقول وفى سفوح الجبـال فتتلألأ بينها ألسنة نيران معسكراتهم ، ثم تملأ أجواء البلد أخبارهم المشحونة بكل جديد وغريب ومثير ، وكان هؤلاء التجار وقائدو الإبل خشنى المظهر أشداء ، وكان أهل النـاصرة مثلهم خشونة وسرعة استجابة لدواعى الشر مغنين معهم وراقصين ومقامرين ومستعدين أبداً للعراك .

وفى ذات أمسية وقف فوق عتبة مدخل حانوت «يوسف» صموئيل الشاب الفارع الطول البادى القوة ، التاجر الكثير الترحال ، مقرئاً السلام فى رقة ، ووضع «يوسف» قدومه وأزاح رجليه اللتين كانتا تحتضنان قطعة من الخشب كان يعمل فيها ومسح العرق عن جبينه بظـاهر

يده ، وابتسم لصديقه قائلا « السلام لك يا «صموئيل» أدخل ، فقد انتهيت من صنع دولاب من خشب البلوط الجليلي الجيد وأنا على وشك أن أتناول عشائى فأهلا بك شريكا لى فيه » .

— شكراً فقد انتهيت لتوى من العشاء .

وجلس «صموئيل» الضخم على عتبة الباب بينما رتب «يوسف» أدواته فى أمكنتها ثم وضع أمامه طعامه — عيشاً وجبناً دسماً وكوب لبن ساخن . وسأله «صموئيل» فى مكر :

— من أعد لك هذه الأكلة الدسمة ؟ .

وأجاب « يوسف » .

— عندما يكون الرجل يتيما وأعزب فإن عليه أن يتعلم كيف يخدم نفسه .

— ألم تبرح وحيداً يا « يوسف » ؟ .

— أغلب الوقت .

ومضت فترة صمت قطعها « صموئيل » بقوله وفى عينيه بريق :

— أعرف لك دواء للوحدة .

وضحك « يوسف » من قلبه وهو يقول :

— أستطيع أن أحدس .

— كلا يا صديقى فقد عدلت منذ مدة عن أن أحاول أن أجعل منك شاباً كسائر الشبان، فلست أنت ممن يتسلون بالهوى أو يهزلون، ولكنك أنت نفسك لست تعرف ما الذى ينقصك، وقد كنت أفكر فى شىء لمستقبلك بعيد عن كل هذا .

— فأين يكون إذن ؟

— فى « أورشليم » .

— ولماذا فى « أورشليم » بالذات ؟ أليس فى المدينه الكبيرة من يكفيها من النجارين ؟ .

— نجارين ؟ ياه ! ألا تستطيع أن تفكر فى غير عملك ؟ .

وصمت « يوسف » برهة مفكراً ثم قال :

— لماذا تقول هذا يا « صموئيل» ؟ إنى أفكر فى أشياء كثيرة خارج نطاق عملى .

— مثلا . . . ؟.

— الشريعة .

— يـاه . . !

— إن« ياه » ليست رداً ولا هى مناقشة يا « صموئيل » ، إنها مجرد ضوضاء ! .

— لكنها ضوضاء ذات معنى، إنها تعنى أننى وكثيرين مثلى قد تعبنا من تعلم الشريعة وتاريخ رؤساء الدين والقضاة والأنبياء ، إننا نقاسى من حكم الأجانب الآمرين ، فلم نعد إلا عبيداً يسوقنا «هيرودس» حسب مصلحة «روما» ، ثم لماذا يكون لـ «روما» بنا شأن ؟ إننا نريد أن نعيش أحراراً .

— هذا دائماً وأبداً حديثك يا « صموئيل » ، خير لك أن تخفض من صوتك .

وكان الخطر حقيقياً فإن جواسيس الرومان منتشرون فى كل مكان، ومن الجنون المطبق أن يتناقش الناس فى الشئون السياسية فقد طالما ساق جنود الرومان المتحدثين إلى العذاب والموت ، حتى تعلم الناس ألا يعلنوا آراءهم أبداً ، وقد اندلعت فى القرن الأخير ثورات كبيرة ، ولا يزال من المواطنين مئات يعيشون فى جبال الجليل وتلاله ليتصيدوا الرومان حيثما استطاعوا ، ثم لم تبرح الأمة تدفع ثمن كل هذا غالياً ، فكم من خيرة الشبان لاقوا حتفهم فى تلك الثورات الهزيلة المقضى عليها مقدماً ، وكم أعدم الرومان آلافا ليكونوا عبرة لغيرهم ، حتى أقفرت البلاد من شبانها ، ومع ذلك فلا يزال الرومان هناك ليس فى الجليل وحده حيث الناصرة أكبر بلد ولكن فى اليهودية وفى « أورشليم» العاصمة الذهبية ، وفى كل الإقليم الواسع الذى عرف أمجاد «يوشع » وقوة « داود » وحكمة «سليمان» وأبهته ، إنه الآن يدفع الجزية صاغراً للإمبراطور «أوغسطس قيصر» . وقال « صموئيل » :

— ولكن الأحـــوال تزداد سوءاً إذ انقلب أغنياء اسرائيل ورؤساؤهم أعواناً للغزاة مضاعفين ثرواتهم على حساب جمهور الشعب . فإلى متى نستطيع أن نتحمل هذه العبودية الملوثة بالخيانة والغدر ؟ ألا تعلم يا «يوسف» أن الشبان فى كل قرية يجتمعون مفكرين فى الانقضاض على الرومان وطردهم ، حتى يعيش أهل البلد أحراراً ، لماذا إذن لا تنضم إليهم ؟ .

وتذكر «يوسف» أنه منذ طفولته يرى اليافعين يفكرون فى الثورة ويتحدثون عنها ولكنهم لم يتعدوا مجرد التفكير والحديث .

وقال « صموئيل » معاتباً :

— ألست تحب وطنك يا « يوسف » ؟ ألست واحداً منا بدمك وروحك ؟ .

ولم يعجب «يوسف» لهذا الكلام وإنما ابتسم فى عطف، إذ هو يعرف أنه نجار فقير وإن

كان ذا نسب ثابت رسمياً بمجمع الناصرة ، إلى «داود» وإلى «يعقوب» و«اسحق» و «ابراهيم» وحتى « يافث » الذى كان من «آدم» الذى كان من الله .

وازدادت ابتسامته عمقاً وهو يربت فى عطف على ركبة صديقه الخشنة ، عالماً أن هـذا الثائر يريد حقاً أن يخلص إسرائيل ولـكن هو يريد أن يكون الخـــلاص بالثورة وبالدماء وبالموت ... كلا وألف مرة كلا فإن هـذا لا يصح أن يكون بعد إذ وعد الأنبياء الشعب بالخـلاص . هذا الشعب الذى عرف أهوال الحـــروب وذاق العبودية وضل فى الصحراء وقاسى مرارة الأسر فى «بابل» واستعبد أخيراً للرومان وطالت عبوديته . ولـكن الخلاص آت حتما عندما يولد «المسيا» الموعود منذ قديم الزمن ، الذى سيقود شعبه إلى الحرية والسلم الحقيقى ، إن «يوسف» مؤمن بكتبه ولذلك فإنه لايليق فى اعتباره أن يلجأ إلى القتل لكى يستعجل الخلاص ، هذا فوق أن «يوسف» خبير عليم بأنه هو وكل فرد آخر من بيت «داود» موضع مراقبة من السلطات .

وسأله « صموئيل » وقد برم من الحديث عن الـكتب :

— ولـكن ألم تصلك آخر الأخبار عن «أورشليم» ؟ فقد كـنت أتحدث إلى بعض الجالين الذين وصلوا صباح اليوم فأخبرونى أن «هيرودس» قد أضاف الـكثيرين إلى قائمة القتلى من عائلته . ولعلك تذكر أنه قتل زوجة له منذ زمن قريب . فإذا كانت هذه حاله مع عائلته فلا غرابة أن يقتل كل يوم من أهلنا العزل والأبرياء ماشاءت أهواؤه . خبرنى إذن يا «يوسف» كيف يمكنك كرجل عاقل أن تتكل على وعود عفت عليها مئات السنين بينما اليوم . .

وأكمل «يوسف» الجملة قائلا :

— بينما اليوم لا يزال إله الشعب هو نفس الإله لم يتغير ، وبينما علينــــا أن نؤمن بمواعيده ، وأرجوك يا « صموئيل » ... لا تنظر إلى هكذا ولا تقل ثانية « ياه » فإن هذا سيكون كفراً بالله .

ولـكن « صموئيل » كان قد عيل صبره فصرخ :

— « ياه » ومائة مرة « ياه » .. اذهب إذن وأبلغ عنى ودعهم يقتلونى لهذا التجديف ، فإنى أفضل الموت عن أن أعيش هكذا كعبد ذليل .

وأمسك « يوسف » فجأة بمنشاره وأخذ يلفه حول رأسه مرات فى سرعة وعنف ينبئان عن ضيق صدره بعناد صاحبه ، حتى هدأ فقال :

— إن هذا المنشار ليس إلا مجرد أداة لا عقل لها ولا ضمير ، ومن الممكن أن يستعمل ليفتح جبهة رومانى أو ليصنع مهداً لطفل ناصرى ، وإنما يرجع هذا أو ذاك إلى إرادة الرجل الذى يستعمله ، ولكل الرجال أدوات مماثلة ، وصدقنى أن العالم سيكون أفضل كثيراً لو أن هذه الأدوات استعملت لأغراض السلم لا لأغراض الحرب .

— معنى هذا أننا فى رأيك يجب أن تنام على ظلم «هيرودس» و«روما» ، ولا نحرك ساكناً .

وكان فى لهجة «صموئيل» تأنيب بل وتحقير ، ثم لم يستطع أن يكبح جماح عاطفته فهب على قدميه واقفاً مواجهاً صديقه فى تحد عنيف ، ولكن «يوسف» ظل هادئاً وهو يجيب :

— إن خراب شعبنا لم يحصل قط إلا كلما ابتعد عن الإيمان بالله وبمواعيده واتكل على قواه هو ... إننا نعرف أن مخلصاً سيأتى ، وكل ما علينا الآن هو أن ننتظر من الله هذا الخلاص

— أتظن إذن أن « المسيا » آت باكراً أو بعد باكر ؟ .

— من يدرى ؟ . إن الثورة والقتل وكل أنواع الخداع تعلمناها من القوم الذين يعبدون أربعين إلها ثم لا يكتفون بالأربعين لأن أحداً منهم لم يعطهم السلام ولم يعلمهم السبيل إليه .

— ولكنى لا أزال أريد منك أن تجيبنى بصراحة : هل تنتظر أن تحيا حتى تتعرف إلى « المسيا » ؟ .

وهز « يوسف » رأسه وهو يقول :

— يالها من فكرة ضخمة ... عامل صغير مثلى يتعرف إلى « المسيا » . كيف تنتظر من نجار فقير أن يعرف مثل تلك العظمة ؟ كلا يا صديقى ، إن كل ما أطمع فيه هو أن أعيش حياة هادئة فاضلة .

— ووحيداً يا « يوسف » ؟ . أظنك قلت هذا !

واحتج يوسف رافعاً أصبعا فى وجه صديقه محذراً فى رقة ومصححاً .

— كلا لم أقل هذا ، فلست أنوى أن أعيش حياتى وحيداً ، إنى كأى رجل آخر أريد زوجة فى بيتى .

— وأولاداً ؟ .

— كثيراً منهم ، ملء البيت ، فسيسعدنى هذا .

ورقت نظرة « صموئيل » إلى « يوسف » وهو يقول :

ـــ وهل وجدت أخيراً حبيبة قلبك ؟ . ستكون حتماً سعيدة بك ، فلن تخشى يوماً علقة من زوج رقيق مثلك ! .

وبدا كأن « يوسف » لا يسمع . . . كان واقفاً شارد الفكر وفى عينيه حنين ، إذ تسمرتا ناحية الباب وإلى أقصى الشارع من بعيد كأنما تتوقعان رؤية مدهشة . . ثم لم ينطق وإنما أمسك بيده الكبيرة كوع صديقه وهو يقول :

ـــ لقد وجدتها فعلا . . . . . إنها صغيرة ومختلفة جداً عن أية فتاة أخرى فى العالم .

ـــ ألا خرجت من الحلم الذى أنت فيه غارق ، لتخبرنى كيف هى جد مختلفة ؟ .

ـــ لم أر لها قط من مثيل ، إن هذا كل ما أستطيع أن أقوله . . . أنظر يا « صموئيل » لقد كنت أنتظر قدومها وها هى آتية نحونا من بعيد ، إنها ذات العباءة الخفيفة الزرقة التى تحمل على رأسها الوعاء الأحمر .

وتقدم « صموئيل» ناحية الباب وفرك عينه بيده وأمره «يوسف» أن يخفض بصره .

وقال « صموئيل » : « إنى مستعد أن أوافق على أن فى مشيتها وقاراً غير عادى » .

وتمتم « يوسف » :

ـــ إن كل شىء فيها أكثر من عادى .

ثم تقدم « يوسف » بدوره فوقف تحت ذراع صديقه الطويلة الممدودة تحت الباب وفى عينيه الزرقاوين نظرة هائمة كأنما هو فى حلم لذيذ ، وكان الشارع يكاد يخلو من المارة بينما الفتاة تتقدم فى وقار يتوج شعرها الأسود اللامع ووجهها الشاحب وعينيها الواسعتين المتباعدتين العميقتى الزرقة ، ودهش « صموئيل » فلم يستطع إلا أن يتمتم بصوت متلجلج خفيض :

ـــ «يوسف» إنك على حق يا صديقى . . إن هذه الفتاة تختلف عن غيرها . . . نعم إنها جد مختلفة . . . ولكنى لا أدرك على التحديد فيم هى مختلفة . . . أفى الجمال الروحانى الذى يشع منها ؟ أفى الطهر المجسم ؟ أم فى الهدوء الجاد الرصين ؟ ، إن هذا شىء غريب . . أنظر معى وفكر فيم هى تختلف . . . إنى أتلعثم يا رجل ولا أجد الكلمة المناسبة .

ثم خفض « صموئيل » ذراعه واستأنف الحديث :

ـــ لم أر من قبل على وجه فتاة مثل هذه الطمأنينة والهدوء والطهر . . وقد هزنى كل

هذا بحيث أعجز عن وصفه !.

وتابع ببصره الفتاة وهى تنظر أمامها فى ثبات وذراعاها مرفوعتان وأصابعها الطويلة تحوط وعاء الماء ذا اللون الأحمر. وعاد يسائل نفسه ثانية أى شىء فيها يجعلها مختلفة وممتازة إلى هذا الحد ؟ وطال صمته ثم انتفض واستدار إلى صديقه وهو يقول :

— إنى لا أعجب بعد ، لماذا لاتريد أن تذهب معى إلى «أورشليم » .. ولكن خبرنى ، هل قبلت الفتاة طلبك ؟.

وجلس « يوسف » على المقعد وهو يقول فى بساطة :

— لم أتحدث إليها قط .

وضحك « صموئيل » عالياً ومن كل قلبه . . . . ثم وضع يده الكثيفة الشعر على رأس صديقه الصلعاء قائلا :

— لن تبرح يا « يوسف » خجولا ومضحكاً فى تحفظك . اجمع يا رجل أطراف شجاعتك فلم تعد بعد صغيراً . . ثم إن شبان القرية ليسوا عمياناً . . . فلا تضع الوقت ولا تدع الفرصة تفلت من بين يديك .

ولمعت عينا « يوسف » وهو يقول فى هدوء وإيمان :

— لست جزعاً .

وشعر « صموئيل » بالضيق إذ تذكر عند ذلك أنه لا يفهم كيف أن فى هؤلاء الناس الطيبى القلب الرقيق العاطفة قوة وإيمانا خفيين ، فقد كان فى كلام « يوسف » ثقة ويقين . . وأخيراً سأله « صموئيل » :

— قل إنك على الأقل قد عرفت والديها .

— كلا لم أعرفهما فقد قدما من « أورشليم » منذ وقت قصير .

— ألم تعرف حتى اسمها ؟.

— اسمها . . . نعم . . . . . أعرف هذا .

— قل لى اسمها إذن قبل أن أنصرف .

— إن اسمها . . . . هو . . . . . « مريم » !.

الفصل الثانى

الخطوبة

كان « يوسف » قد أعد لهذا اللقاء عدته فاغتسل جيداً وراء الستار الذى يفصل بين دكانه ومسكنه وأزال عن جسمه الممتلىء عرق العمل وبدا جسمه قوياً قوة الثور الناصرى ، فما كان أهون لديه أن يضع كتفه تحت عربة رومانية ثقيلة ويرفعها من المستنقع الذى غرزت وتعطلت فيه ، ومشط شعر رأسه ولحيته وحمل هدية من حلوى دمشق ومضى يشق طريقه خلال شارع النحاسين الرئيسى المزدحم بالرائحين والغادين وعمال الجليل الشرسين الحفاة المتدافعين بالمناكب وقد تملكتهم جميعاً حمى السرعة والتدافع كأن الخشونة هى غرضهم من الحياة . وكان الجو يعج بالشتائم بكثير من اللغات : يونانية ورومانية وعبرية وآرامية ، مختلطة بأصوات الخراف والمعيز والجمال ورنين الأجراس المعلقة فى رقابها ؛ متصادمة أقدامها بالكلاب الضالة الكثيرة المتكفئة تشم الأرض باحثة عن بقايا طعام ، فلا عجب أن استغرق مسير « يوسف » فى هذا الشارع نحو ساعة حتى وصل إلى منتصف تل يقع عنده منزل « مريم » الجميل المنظر والأكثر رواء من كل ما يحيط به من المنازل المبنية بالطوب الأحمر الذى كان يستعمله سكان هضبة « شارون » فى بناء مساكنهم ، إذ كان منزل « مريم » مبنياً من صخور الجبل البيضاء ومدهوناً من الخارج ، وكانت القبة البيضاء الكبيرة فى وسطه محوطة بشرفة مربعة كبيرة ملأى بالفواكه والخضر الموضوعة لتجف ، وكان السقف كله مبنياً مائلا ومعداً بحيث يجمع المطر ويأتى به فى خزان كبير فى الخلف ، إذ كان أهل «فلسطين» العجفاء يحرصون على كل نقطة من المطر ، وكان بابه الكبير يفتح على غرفة كبيرة واحدة يتكون منها المنزل ، فى حين يبلغ سمك أحجار جدرانه الضخمة أربعة أقدام ، تعزل الحرارة والبرودة ، وقد تلون بدخان النار التى ظلت توقد داخله طوال السنين ، وامتلأ فراغ السقف بصوت الحمام الهادر وحفيف أجنحته فى الظلام ، وفى آخر القاعة مسطح مرتفع عن أرض المنزل نحو عشرة أقدام بنى فوق أعمدة وأقبية ، توصل إليه سلالم جانبية سريعة الارتفاع وكان هذا هو المكان الذى تعيش فيه العائلة ، وتأكل وتنام ، بينما حفل المدخل الكبير بمتعلقات الأسرة من غنم ومعيز ودواجن ، وكانت « مريم » إذا ما ازدحم المرتفع

بالضيوف ، تنام إلى جوار غنمها متدفئة بها وهى سعيدة بهذه الحياة .

وحيا «يواقيم» «يوسف» عندالباب بينما كانت فى الداخل «حنة » وابنة أختها «اليصابات» التى كانت تزورهم مرة أو مرتين فى السنة .

وكانت « اليصابات » تكبر « مريم » ابنة خالتها بأكثر من أربعين سنة ، حتى لكأنها ابنة خالة جدتها ، وقد قضت الأربعين سنة الأخيرة زوجة لـ « زكريا » كاهن كنيس « عين كارم » القريبة من « أورشليم » ، وكان « زكريا » أكثر تقدماً فى السن من زوجته وقد تصلب ظهره حتى يستحيل عليه أن ينحنى ليربط حذاءه . وكان هو وزوجته محبوبين ومحترمين من أهل بلدهم . وكانا فقيرين جداً ، فقد كانت « عين كارم » قرية صغيرة يسودها الظلام ، وكان « زكريا » يخدم أهلها الفقراء ويختنهم ويزوجهم ويوفق بينهم ، ثم يصلى عليهم موتى ويدفنهم مواسياً ومجاملا .

وكانت « اليصابات» تحمل إلى خالتها أخباراً طيبة ، فسيخرج «زكريا» حالا إلى النور ، فهو ، كى لا ننسى ، كاهن من بيت « أبيا » ، وقد دعى أخيراً ليصلى ليلة العيد وليقدم الفصح فى الهيكل الكبير فى « أورشليم » ، وقالت « حنة » :

— أحق هذا ؟ . إنه لخبر عظيم .

وأغلقت عينيها وتصورت رواء المعبد الكبير وأبهته ومنظر « زكريا » العجوز وقد لبس الرداء الأبيض والأصفر المفهاف ذا الأشرطة الزرقاء اللامعة وأصبح محط أنظار جميع المتعبدين القادمين من أقاصى الأرض ، رافعاً البخور بنفسه إلى أعتاب عرش الله ، وسألت « حنة » « اليصابات » :

ألست سعيدة بهذا يا « اليصابات » ؟ .

— نعم ياحبيبتى إننى سعيدة جداً .

ودخل « يواقيم » فى هذه اللحظة وتنحنح وهو يقول :

— إن القادم « يوسف » ، وهو يريد أن يقول لكم كم يحب ابنتنا .

ووقعت « حنة » على الأرض وتراخت قدماها وأخذت تهتز يمنة ويسرة وهى تولول كأن مصيبة قد حلت عليها .

وقال « يواقيم » معاتباً :

— أتندبين ؟ ليس فيما أقول شيء يحزن ! .

وقالت « حنة » :

— هذا حق ، وأنا أعرف أنه حق .

ورفعت وجهها المخضب بالدموع وقالت :

— إنى راضية بحكمك ولست أريد أن تلقى بالا إلى حزنى ، وأنا مؤمنة أن « يوسف » لابد أن يكون شاباً مهذباً لأنه وصل إلى قلب « مريم » فنسجت من حوله آمالا كباراً وذهبت تتيه فى عالم من الخيال البديع ، وأنا أريد أن تكون « مريم » سعيدة وأن تعرف الحب العميق والعطف والحنان الذى نعرفه نحن يا « يواقيم » ، أنا واثقة من أن حكمك فى هذا خير من حكمى .

وبسط « يواقيم » ذراعيه ورفع كفيه إلى أعلا وهو يقول :

— إذن بحق السماء لماذا تبكين ؟ .

— لا أعرف . وصدقنى أنى جد مندهشة ، ولكن لا تنس أننا عائلة غير عادية وأنه تنتابنا أحياناً أحاسيس تنبىء عن الكثير الخفى ! .

— فهل كنت تحلمين ؟ .

— كلا ولكنه الخوف ، أو قل إنه ألم عميق فى القلب لم أتخلص منه بعد ، كأن « مريم » ستلاقى بسبب هذه الخطوبة حزناً عميقاً ، وقد كنت أحس بهذا منذ رأيتها عائدة من البئر ولست أعرف ما الذى أخشاه ولكنى أشعر بالألم وأتهيب هذا النذير ، إنى جد خائفة .

ثم تحاملت على نفسها لتقف ، ووقفت أخيراً فى حركة مفاجئة وقد جمعت أطراف إرادتها لتقول :

— يجب أن أتخلص من هذا الشعور ، أدخل الشاب ما دام جاداً ومصمماً إلى هذا الحد ، ألا ترى أن له لحية جميلة يصح أن نعجب بها ؟ .

وخف فعلا مقدار إحساسها بالألم بمجرد أن وقع نظرها على « يوسف » ، وقد أخبرت زوجها بعد ذلك بأنها سرت لمرأى النجار ، وأنها فى حبها لإبنتها تتنبأ بأن هذا الرجل سيكون حامياً لها ومحباً وطيباً وجديراً بالثقة به ، وأنها اطمأنت إلى ابتسامته الصريحة الرصينة وأدركت أنه رجل شريف ، وعندما قادته إلى المصطبة لاحظت أنه رجل رقيق بمقدار ما هو فى تمام القوة .

وكان استقبالهم له حاراً ، فقدموا له شراب التحية الذى أخذ ينتقل من يد إلى يد كالعادة ، ثم بدأ الحديث المصطنع حول الطقس والمحصول والضرائب . ثم ساد بينهم صمت مفاجىء استطال حتى حزم « يوسف » أمره واحمر وجهه وقال فى صراحة :

— إنى أحب ابنتكم « مريم » ، رأيتها أول يوم حضرتم فيه إلى هذا البلد ثم أخذت أراها كل يوم تال ذاهبة إلى العين وراجعة ، إلا فى تلك الفترة الحزينة التى أصابها فيها برد فحجزتموها فى فراشها .

وظهرت الدهشة على وجه « حنة » وقالت : « أو هل تعلم كل هذا ؟ » .

ثم هزت رأسها وهى تشك فى شىء ، ولعلها سمعت مالم يسمعه الآخرون ، رنين ضحكة صغيرة آتية من بعيد . أين إذن « مريم » ؟. لقد صعدت إلى السطح مع ابنة خالتها «اليصابات» ولكنها أينما كانت الآن فإنها تتسمع . وعندئذ تذكرت « حنة » أنها هى أيضا كانت تتسمع عندما كان « يواقيم » يعلن لوالدتها رغبته فى خطوبتها .

وأخبرهم « يوسف » كيف أنه ابن «يعقوب» الذى مات من زمن طويل والذى كان ابن « ناثان » وأن شجرة العائلة تصل به إلى « داود » .

وردت « حنة » :

— إن « مريم » هى الأخرى من بيت « داود » .

وذكر « يوسف » أن عمه الذى رباه وعلمه النجارة مات هو الآخر قبل ثلاث سنوات وأنه يقف الآن وحيداً فى هذه الدنيا بلا أخ ولا أخت ولا عم ولا عمة ولا خال ولا خالة ولا حتى ابن عم ، ثم قال :

— إنى وحيد ، وأريد أن تكون « مريم » زوجتى . وقد حضرت لخطبتها فيما لو أنكم وافقتم .

ثم صمت وقد أزعجته جرأته على النطق بهذه الكلمات الجادة التى لم ينطق بها قط من قبل . وأشارت « حنة » و « يواقيم » برأسيهما موافقين ، ثم مشت الأم فى جدية إلى باب السطح ونادت « مريم » ، وسرعان ما قدمت تلك فى مرح برىء وقد ألقت عباءتها الزرقاء الخفيفة فوق كتفيها ووقفت حافية القدمين أمام «يوسف» ، وتبعتها «اليصابات» التى احتضنت « حنة » ، متأثرة ، فى حين أخذ الأب يد الشاب ووضعها فى يد ابنته وباركهما . وشكر العريس الأم والأب وإن لم يستطع أن يبعد عينيه عن وجه « مريم » التى بدت أمامه صغيرة

جداً وممتلئة صحة وذات خيال بعيد ، وقال « يواقيم » :

— أنتما الآن خطيبان .

وقالت « حنة » :

— يا لكما من عريسين ! .

وقال « يواقيم » و « حنة » معاً :

— ليباركما الله ! .

وتمتم « يوسف » و « مريم » للأبوين :

— وليكن الله معكما ! .

وأمسك « يوسف » يد « مريم » بيده الثانية أيضاً . وأدرك أن الناصرة كلها ستعرف في الصباح النبأ السعيد ، وأن في الموقف جدية الزواج ، وأن هذا هو رباط العمر ، ولا غرو في ذلك ، فإنه في الجليل بل وفي كل « فلسطين » لم يسبق أن فسخت الخطوبة إلا نادراً ولأسباب غاية في الخطورة .

وابتسم « يوسف » مستهزئاً بفكرة الفسخ هذه ، فإنه لأهون عليه أن تخرج روحه من أن تخرج « مريم » من بين يديه ! .

الفصل الثالث

الرسول المجهول

وكان طبيعياً أن تدعو العائلة « يوسف » إلى الذهاب معها إلى « أورشليم » للاحتفال بترؤس العم « زكريا » لصلاة العيد وكان المشروع مثيراً لـ « يوسف » فإنه في طول حياته لم يبتعد عن الناصرة أكثر من عشرة أميال ، وقد آن الأوان لأن يرى «أورشليم» والهيكل العظيم ، إنها أهم زيارة بالنسبة له . .

وفي ذات صباح في فصل الربيع البديع في « فلسطين » امتطت كل من « مريم » و« حنة » حماراً مستأجراً . وأمسك كل من « يواقيم » و «يوسف» بالزمام وتقدما السيدتين في الرحلة إلى الجنوب التي ستستغرق ثلاثة أيام ، وكانت الرحلة سعيدة موفقة ، واستطال بينهم الحديث وشعر كل من « يواقيم » و « حنة » أنه يحب « يوسف » كأنه ابنه ، وتوثقت بينهم الألفة في ذلك الطريق الطويل الذي أدى بهم في مساء اليوم الثالث إلى مشارف العاصمة . وقالت « مريم » هامسة في أذن « يوسف » :

— ياله من منظر رائع ! .

وكان المنظر رائعاً فعلا فضاعف من انفعال « يوسف » ذلك الشاب القروي الكثير الاطلاع الذي يعرف بعين البصيرة أين هو وماذا يرى . إذ بزغت أمامه العاصمة بجدرانها الصفراء الداكنة وحصونها ذات الأسوار المتينة والفتحات المعدة لإطلاق السهام ، والأبراج الضاربة في السماء ، كل هذه أشاعت في نفس النجار إحساساً بالرهبة والخشوع يشبه ذلك الإحساس الذي يشعر به المرء عندما يستغرق في الصلاة .

وسرعان ما ولجوا البوابة ثم انطلقوا في الشوارع المظلمة المزدحمة المسقوفة محترسين في خطواتهم من أحجار الطريق الملوثة الزلجة ورافعين أنوفهم ليتفادوا الروائح الكريهة بلا جدوى ، حتى اقتربوا من قصر « هيرودس » المبنى فوق التل الغربي وقد أخذ عيونهم بريق العاج والذهب الذي يزينه ومدرج الألعاب الواسع في القصر والقلعة الحصينة فيه . وقد أطلق على كل ذلك اسم « انطونيا » ، تبركا باسم مولاه القيصر « مارك أنطونيو » .

وكان ميدان الهيكل واسع الأرجاء ، رحبا يموج بالأعمدة التي تأخذ ضخامتها بالأبصار.

وقدر « يوسف » أن طول الميدان يبلغ نحو أربعمائة قدم وعرضه ثلثمائة تشغله الردهات الموصلة إلى المذابح والأجزاء المقدسة منه ، والسوق الذى يمد المصلين بحاجاتهم ، وعندما اقترب « يوسف » من الهيكل وجد علامات تحذر جمهور الشعب من ولوج القاعات الداخلية وإلا تعرضوا لعقوبة الموت ، ودخلوا إلى القاعة المنخفضة التى تؤدى إلى المذبح الذى سيخرج منه إلى الشعب العم « زكريا » فى أروع وقفاته ، وهو يقدم الذبيحة الرئيسية قبيل الغروب ، وكانت الساحة قد امتلأت بآلاف المصلين الذين ضاقت بهم الردهات الخارجية والممرات المزدوجة وارتفعت بينهم الأعمدة الرخامية عالية حوالى خمسين قدماً فوق الرءوس ، وظللهم سقفه الكبير الفخم المصنوع من خشب أرز لبنان القانى الحمرة .

وأخذ العجب من « مريم » مأخذه إذ أحست أنها عاشت هنا من قبل ، ولكن واقع الأمر أن والديها أحضراها إلى هذا الهيكل وهى بعد طفلة أصغر من أن تعى شيئاً ، ومع ذلك فقد كانت تشعر بأن كل شىء هنا مألوف لها بدءا من الميدان الكبير المزدحم بموائد الصيارفة والذى يعج بأصوات القوم الذين يحصون نقودهم والذين يتزاحمون لشراء الماشية ، وبأصوات النساء المختلطة بهدير الحمام وبالخراف المعدة كلها للتضحية فوق المذابح ليتصاعد دخانها فوق النيران المتأججة .

وأسرعت « حنة » و « اليصابات » و « مريم » للدخول إلى قاعة السيدات ووقفن فى أول صف بينما ارتقى « يوسف » و « يواقيم » السلالم ووقفا عند مدخل القاعة الداخلية ليتمكنا أكثر من غيرهما من رؤية كل ما يدور فيها ووقفت على رأسيهما أشعة الشمس الغاربة وشعرا أن الصلاة ستبدأ فوراً .

وأدرك « يوسف » أنه يقف فى نفس المكان الذى بنى فيه جده « داود » المذبح والذى ابتدأ منه « سليمان الحكيم » بناء معبده الضخم الرائع الذى عاش أربعمائة سنة حتى هدمه « نبوخذ نصر » ، وسرح خيال نجار الناصرة واصفر وجهه وابتلع ريقه فى صعوبة إذ تذكر أنه فى هذا المكان نفسه أخذ أجداده منذ تخلصوا من أسر « بابل » فى بناء معبد صغير انتهى مع الزمن أمره ، حتى أقيم فى نفس المكان هذا المعبد الأخير الأضخم والأكثر روعة ، هدية من الملك « هيرودس » قبلها منه الشعب وإن لم يبرح يكرهه من صميم القلب .

وقد قصد « هيرودس » بهذه الهدية أن يخفف من من حدة كراهية الشعب له ، ولكنه حتى فى هذا فشل ، فلم يكره العابدون هنا فى طوال تاريخهم ظالماً مثلما يكرهون اليوم « هيرودس » . ولم يكن هو من دمهم ، فقد كان إعرابياً من « أشقلون » محارباً ماهراً

شديد المراس يعرف كيف يكسب المعركة ، وسياسياً يعرف كيف يحكم حسب عقلية ذلك الزمن . ولكنهم لم يعتبروه قط ملكا عليهم إلا مرغمين ، وحاول «هيرودس» أن يتداول في معاملتهم القسوة والرأفة ، فصادر أموالهم ثم ردها لهم ثمناً لهذا المعبد الفخم ، الممنوع من أن يخطو في داخله خطوة .

وأخذ « يوسف » يتذكر ما دهى ذلك المكان منذ هجم عليه البابليون كالذئاب ، وهدموا المدينة بعد أن نهبوا ما فيها وتركوها كما يقولون مأوى للذئاب ، وتذكر الحروب التي تسببت في حصار هذه العاصمة ثماني وثلاثين مرة وحطمتها وخربتها ، ومع ذلك ظلت العاصمة تتجدد مرة بعد أخرى رمزاً للمصير الخالد والأقوى من كل قوة زمنية .

وكان مؤمنا بأن « أورشليم » ستبقى طالما بقي الشعب مخلصا لإيمانه متبعا تعاليم دينه ، كما كان يفعل عندما كان حرا يحكمه ملوك من أبنائه . ولكن ، هل يعود ذلك الزمان؟ وهل يمكن أن يعود الآن في الوقت الذي يعمل فيه زعماؤه مع الحاكم المستبد ويتعاونون معه على الشعب كما قال صديقه صموئيل ؟ .

وكان يجلس على جانب من المذبح العالي الواقع أمامهم كاهن قصير القامة حاد النظرات ذو لحية تشبه لحية الجدي ، في أوائل الخمسين من عمره ، وقد ثبت ناظريه على باب جانبي صغير . وعندما رآه «يوسف» توقع منه شراً ، وأنساه تفكيره هذا كل ما يتعلق بالعم «زكريا» ، وفجأة سمع ضحكة هازئة بجوار أذنه اليسرى . فالتفت ورأى وجه « صموئيل » ، الصديق العابث التاجر والثائر معا ، وقد قطب جبينه وأشار بطرف أصبعه إلى الرجل القصير الجالس على المذبح وهمس :

— هذا الرجل الذي ترقبه هكذا هو « حنانيا » الرجل الشهير الخطير . وإنه لمن الغريب حقا أن نراه هنا في مثل هذه المناسبة .

ولم يكن هذا الاسم يعني لدى التجار الريفي شيئا . ولكن « صموئيل » أضاف وهو ينظر شذرا إلى « حنانيا » :

— إنه رئيس كهنة الهيكل ، المعروف عنه أنه رجل سياسة أكثر منه رجل دين ، وأنه في واقع الأمر لا يؤمن بيوم القيامة ، ولعل أهم ما يفعله « حنانيا » هذا هو أنه يتفق مع « هيرودس » سرا على شيء ثم يخرج ويخبر الناس بما يجب عليهم أن يفعلوه . ويقول معارضوه إنه يخون شعبه منذ سنوات طوال .

و « حنانيا » هذا هو الذى يدير سياسة البنوك ويرأس طائفة الصيارفة الذين يمدون موائدهم فى ردهة الهيكل ، وهو صاحب التزام بيع طيور وحيوانات الضحية ، ولذلك فإن أعمال الصرافة وبيع حيوانات الضحية وجهان لوظيفة رئيسية واحدة ، ترتكن على الغش والاحتيال على سلب نقود الناس ، وهكذا استطاع هو ورجاله أن يقتنوا أكبر الثروات فى العالم ، وإنه لصديق قوى ، وعدو لاتأخذه رأفة ، ووحش حاد الأسنان ؛ هذا «الحنانيا» رئيس الكهنة ! .

وسأل «يوسف» نفسه : إنى لأعجب كم تملكنى الخوف من هذا الرجل قبل أن أعرفه ، ثم استدار ليسأل « صموئيل » ولكن هذا كان قد اختفى كما جاء فجأة وبغير ضوضاء ! .

وعاد « يوسف » يتأمل فى عينى « حنانيا » الزرقاوين الباردتين وعجب إذا كانتا قد دفئتا يوما بالرحمة ، وإذا كان هذا الفم المزموم فى قسوة قد تراخى يوماً مفتراً عن ابتسامة حانية ، وكان غريباً حقا أن يتشاءم «يوسف» من «حنانيا» إذ ماذا يخشى نجار ريفى فقير من رئيس كهنة الهيكل العظيم ؟ .

وتنهد « يواقيم » قائلا :

— ها قد أتى إذن العم « زكريا » ... يا «يوسف» أنظر ، إنه هو ، لابد أن زوجته هى التى خاطت له هذا الرداء الرائع .

وبدا «زكريا» العجوز فى ثيابه الجميلة أكثر شبابا واستقامت قامته تحت ثياب الاحتفال الفخمة وارتفعت هامته فوق السبعين سنة التى يحملها على كتفيه . ولمعت عيناه الكالحتان ببريق من الحيوية وهو يرفع يديه ويهيب بالناس أن ينقوا قلوبهم ويطهروا نفوسهم استعداداً لما كان سيقوم به حالا من رفع البخور إلى الله ، ثم استدار « زكريا » نحو المذبح وأغمض عينيه مصليا وتبعه الناس مستغرقين فى صلاتهم .

ولم تكن «اليصابات» تدرى من كل ما توجه الناس به إلى إلههم فى ذلك الوقت من أمنيات ، إلا واحدة تعرف أنها الأمنية التى يرددها زوجها فى صلاته فى هذه الأمسية المقدسة . ولكن «يوسف» كان هو الآخر يحدس هذه الأمنية نقلا عن «مريم» التى أخبرته أن «زكريا» خاشع للرب ومؤمن بأنه سيستجيب لصلاته رغم أن أقاربه الذين يعلمون يستهزئون به ويعتبرونه مخرفا فى أن يطلب إلى الله أن يرزقه وزوجته طفلا بعد أن تخطيا السبعين .

ثم استدار الكاهن وواجه الشعب ممسكا بيدة اليمنى المبخرة التى يتصاعد منها الدخان عاليا بحيث تحمل الرياح عطره الأخاذ إلى ما وراء البحر الميت ، ثم رفع الكاهن مبخرته ثانية إلى أعلا وهو يصعد درجات السلم الإثنتى عشرة التى ترمز إلى أسباط اسرائيل حتى تعلو الأبخرة إلى أعتاب السماء ولتحملها الرياح الجنوبية الشرقية إلى أقصى الأرض ، ثم أزاح حجاب الهيكل بيده اليسرى واختفى داخل المكان المقدس حيث يشعر الكاهن بأنه فى حضرة الله .

وأحنى جمهور المصلين عندئذ رؤوسهم وأغمضوا عيونهم فى انتظار خاشع ، ومضت فترة طويله لم يسمع خلالها صوت ولا حتى سعال إنسان ، واستطالت الفترة حتى فتح « يواقيم » عينيه ناظرا إلى المذبح ومتعجبا. من الذى أبقى «زكريا» فى الداخل طوال هذا الوقت؟ ، ولم يكن بجوار المذبح فى تلك الفترة غير «حنانيا» . واستدار «يواقيم» ناحية «يوسف» متسائلا ، ورأى فى عينى «يوسف» نفس التساؤل وخاف أن يكون قد حدث لـ « زكريا» سوء فإن المتبع ألا تستغرق صلاة الكاهن فى الداخل أكثر من دقيقة ينظر أثناءها إلى الشمعدانات الذهبية الموقدة ثم إلى الإثنتى عشرة فطيرة المصنوعة من القمح والشعير والممزوجة بعسل النحل ثم يرجح المبخرة ثلاث مرات ويخرج من المكان المقدس مواجها الناس وملقيا صلاة الختام .

ومضت خمس دقائق ولم تبد علامة عن « زكريا » وتمتم « يواقيم » فى أذن « يوسف » :
— أيكون أن الكاهن العجوز سقط مريضاً فى لحظة بجده ، وهل يجرؤ إنسان أن يرفع الحجاب ويدخل إلى المكان المقدس ويرى ماذا دهاه ؟ .

ولكن « زكريا » خرج بشكل سريع مفاجىء وقد بدا أنه أصيب بشىء ونزل الدرجات الإثنتى عشرة مترنحاً حتى وصل إلى عتبة المذبح وأسرع إليه الكاهن الأكبر وأحاطه بذراعه لكيلا يسقط . واستطاع الناس فى ذلك الهدوء الغريب أن يسمعوا « حنانيا » ، وهو يسأله ماذا دهاه ؟ . ولكن « زكريا » ، وقد شحب وجهه ولمعت عيناه وتشعث شعره لم يستطع إلا أن يدق برجله على الأرض وأن يشير بيديه يائساً إلى فمه المفتوح كأنه قد ابتلع الأمر الخفى فلم يعد يستطيع أن يخرج صوتاً .

وأدرك الجميع أنهم لايستطيعون أن يصنعوا لـ «زكريا» الآن شيئاً أكثر من أن يتركوه واقفاً حتى تنتهى صلاة الختام التى حل محله فى أدائها « حنانيا » ، ثم صرف الناس . وعندئذ

استطاعت « اليصابات » أن تخرج من قاعة السيدات وأن تشق طريقها إلى الردهة الخارجية حيث كان « يواقيم » يمسك بـ « زكريا » منتظراً ، فأخذته زوجته بين ذراعيها ملتاعة وهى تتمتم :

— لا تبك ولا تحاول أن تتكلم . إننا عائدون إلى المنزل .

وسارت العائلة يتبعها مئات المستفسرين حتى وصلت إلى منزلها فى « عين كارم » وعندئذ جلس « زكريا » إلى المائدة مشيراً إلى اللوح والقلم ليحدثهم عن طريقهما ، وكانت أول جملة له : « إنه ضرب بالخرس » . وولولت زوجته ، لأنه لأول مرة فى حياته يرأس الاحتفال فى « أورشليم » فيصاب بالخرس ، لابد أنهما تحت لعنة قوية .

ولكن « زكريا » رفع أصبعه فى وجهها محذراً كأنه يقول لها إنه ليس أول من يصاب بالخرس فى التاريخ ، وإن لديه ما هو أكثر خطورة من هذا ، وعادت « اليصابات » قائلة :

— نعم إن زوجى دائماً على صواب ، فلنر ماذا لديه أن يقول .

وببطء شديد استأنف «زكريا» الكتابة حتى فرغ من الجملة : «كنت أستمع إلى ملاك» .

وقرأت « اليصابات » الجملة وعادت تولول وهى تروح وتجيء فى الغرفة نادبة حظها أن زوجها لم يصب بالخرس فقط ؛ بل وأصيب أيضا بلوثة فى عقله !

انظروا إذن ماذا يكتب ، إنه يخرف ويكفر ويجدف على الله . اكسروا هذا اللوح إذن قبل أن يحمله أحد إلى الكاهن الكبير ، فليس أسهل عليه من إعدام أى يهودى بسبب مثل هذا التجديف . ولكن « زكريا » قام من جلسته ووقف فى طريق زوجته لكى تكف عن الغدو والرواح والصياح فقد أصيب بالخرس فعلا ، ولكنه لم يصب بالصمم . وضاق صدره بتصرف امرأته فلما هدأت كتب ثانية إنه لا يزال سيد بيته وإن لزوجته أن تقول عنه إنه مجنون إذا راق لها ذلك . ولكن عليها أيضا أن تهدأ حتى تعرف ما يريد أن ينهيه إليها مما قاله الملاك . فهل تكف عن البكاء والولولة وتستمع إليه لحظة ؟ .

وثارت الضوضاء فى البيت إذ أخذ كل إنسان فيما عدا « زكريا » يتكلم فى نفس الوقت ، وكانت « حنة » تحاول أن تهدئ من لوعة « اليصابات » وكان « يواقيم »

واقفاً كالخطيب فى وسط الغرفة يريد أن يشرح وجهة نظره ،سواء سمعه الناس أم لم يسمعوه ، حتى تمكن أخيراً من أن يسمعهم توبيخه وقال :

— منذ متى أصبح من الجنون المطبق أن نتصور أن الملائكة تكلم البشر ، وإلا فهل نتنكر أيضا لألواح « موسى » ولحديث الله معه؟ ومنذ متى يا « حنة » نسيت ، أو أنت يا « اليصابات » . منذ متى نسيت أن عائلتنا وثيقة الصلة بالملائكة ؟ . إن كل جدودنا اتصلت بهم الملائكة وواتهم يقظين وفى الأحلام وفى الرؤى ، فأطاعوا جميعاً أوامر الله . ثم هل يبدو « زكريا » أمامك مجنوناً يا « اليصابات » ؟ دعينا إذن نهدأ لنسأله ماذا حصل له هناك فى الهيكل .

وأحنى « زكريا » رأسه شاكراً لصديقه « يواقيم » سلوكه . ثم جلس متعباً على كرسيه بعد يوم مليء بالمشقة وبالمفاجآت المثيرة وأشار ثانية إلى السطر الذى كتبه أخيرا : « كنت استمع إلى ملاك » .

وهز الآخرون رؤوسهم موافقين .

واستأنف « زكريا » الكتابه : « عندما دخلت إلى قدس الهيكل رأيته هناك واقفاً وقد ضم جناحيه ونظر إلى ، وتملكتنى الرهبة والخوف وكادت المبخرة أن تقع من يدى وتوقف ذهنى عن التفكير وأحسست بالبرودة تتملكنى فى مثل رعشة ورأيت ركبتى . . . .

وقاطعته زوجته :

— أستطيع أن أحدس إحساسك فى تلك اللحظة ، ولكن خبرنى هل تحدث الملاك إليـــك ؟ .

وأشار « زكريا » برأسه أن نعم .

— إذن أكتب ماذا قال لك .

وانحنى « زكريا » على اللوح وتحركت يده فى سرعة متزايدة وهو يكتب : « لقد تكلم فى صوت عميق يختلف كثيراً عن أى صوت سمعته فى حياتى وقال مطمئنا: لا تخف يا « زكريا » فإن صلاتك قد سمعت » .

وسرت رعدة كالكهرباء فى سلسلة « اليصابات » الفقرية ولفت خواطرها كالدوامة

وهى تتساءل : « هل يعنى الملاك ما قال « زكريا » إلى الله فى صلاته قبيل أن يصعد الإثنتى عشرة درجة السلم؟». وتمالكت نفسها وانحنت فرأت العجوز لايزال يكتب: «وأن زوجتك « اليصابات » سوف تحمل لك ابنا ».

واستأنفت « اليصابات » البكاء وبكت معها « حنة » و « مريم » بينما وقف « يواقيم » ضاما يديه منحنيا فوق كتفى «زكريا » ليقرأ ما يكتبه ذلك الكاهن العجوز فى سرعة لاهثة : « وستسميه يوحنا ».

— يوحنا !! يوحنا !! إن هذا يعنى الهدية الكريمة من الرب .

ووافق « زكريا » بحركة من رأسه وكان وجهه لا يزال فى بياض اللوح المستقر تحت يده . وأخذت ذقنه تهبط وترتفع موافقة على ذلك ... نعم سيكون لهم ولد وسيطلقان عليه اسم « يوحنا » ، وكتب ثانية : « وستفرحان به ويكون لكما قرة عين ، وكثيرون سيفرحون بميلاده أيضا ، لأنه سيكون عظيماً أمام الرب ، وخمرا ومسكرا لا يشرب ، ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس » .

ووقفت يد «زكريا» ووقف فى أفواه الشهود جميعاً سؤال واحد ، ما معنى هذا الحديث الغريب ؟وكيف يكون لمثل هذين ولد؟ إن مجرد هذه الفكرة دفعت « اليصابات » إلى أن تضع يديها على ثدييها باكية فى صوت عال . ثم ما معنى هذه الجملة الغريبة « سيكون الولد ممتلئا من الروح القدس؟» إن هذا ما لم يستطع أحد أن يفهمه ، لكن أنظروا إلى «زكريا» هذا العجوز القديس المبارك طوال حياته الذى يكره دائما الكذب والتظاهر . إنه لا يمكن أن يكون فى هذا دعياً أو مجرد ممثل ، ثم من ذا الذى يستطيع أن يشك فى أنه رأى فعلا ملاكا . إن « زكريا » صار أخرس غير مأذون له فى الكلام ، ولابد أن هذه علامة ! .

ودعاهم «زكريا» بيديه إلى الصمت مرة أخرى وأن يبقوا لحظة أسئلتهم لأنفسهم ، ومضى يتابع الكتابة : «إن الملاك لم يكن قد انتهى حديثه بعد ، وإنما مضى متابعا فى صوته الهادىء الغريب متنبئا بأن ابن « اليصابات » و «زكريا » سيكبر ويرد كثيرين من بنى الشعب إلى الرب إلههم ، وأنه سيكون له روح وقوة النبى القديم إيليا » . وعندئذ لم يعد يستطيع الشهود أن يمكثوا هادئين وصاحت « اليصابات » :

— هل تدرك أنت معنى ما تكتب الآن ؟ .

وصاحت « حنة » :

ـــ إنك تبشر بمولد نبي . ألم أقل لكم إننا عائلة غريبة وإننا كنا دائما كذلك ؟ .

وقالت « اليصابات » :

ـــ انتظروا إذن حتى يحدث هذا .

ولعلها رأت أنه من الأكرم لها أن تظهر شكها . ولكن الكاهن الأخرس كان لايزال يكتب بسرعة وبقوة « إنى أعنى ما أقول كلمة كلمة فقد رأيت الملاك وسمعت صوته ، ومرة أخرى أدعوكم لأن تصمتوا وتعرفوا القصة كاملة » .

وساد الصمت وتابع الكتابة .

« وأنهى الملاك ذو الأجنحة المضمومة حديثه هذا بقوله : وسيرد قلوب الأبناء إلى الآباء والعصاة إلى ذكر الأبرار ، لكى يهيء لله شعبا مستعداً » .

ودار الكاهن ببصره على الوجوه المشدودة حوله وكتب : « وشعرت عندئذ أنى أحسن حالا لأننى تذكرت أن هذه النبوة مكتوبة فى « ملاخى » آخر أنبيائنا . ولكنى عندئذ ارتكبت خطأ جسيماً إذ خفت عنى الرهبة التى كانت تتملكنى فعدت إلى طبيعتى وتجرأت ووجهت إلى الملاك سؤالا جاء مهيناً ، وإن كنت قد ألقيته فى خشوع معتقدا أن من حقى أن أعرف . . . قلت له : وكيف أصدق هذا وأنا رجل عجوز وقد تقدمت امرأتى فى العمر ؟ » .

ولم تستطع « اليصابات » أن تتحكم فى أعصابها فانطلقت صائحة :

ـــ وماذا كان رده ؟ .

فكتب زكريا يقول : « لقد أجاب على هــــذا فوراً ، إذ قال ببساطة إنه جبرائيل » :

واصفرت وجوههم فرقا لمجرد الفكرة : إنه الرسول السماوى الذى زار النبى «دانيال» ، وأحد رؤساء الملائكة الأربعة . وهز «زكريا» رأسه فى وقار وكتب : «وهذا ما أنهاه إلى : إنه الملاك الواقف أمام الله ، وإنه أرسل إلى ليحمل هذا النبأ ـ ثم رأيت حالته تتغير إذ انقلب معاتبا وكأنه لم يعجبه شكى وعدم إيمانى . ثم قال « وها هو أنت أخرس وسوف لايعود إليك النطق حتى يتحقق قولى ويولد الطفل ، ذلك لأنك شككت فى صدق قولى » .

وألقى « زكريا » بقلمه ونظر اليهم مبدياً عجزه مشيرا إلى فمه المفتوح ، باذلا جهده وهو يحاول عبثا أن يخرج صوتاً ـ أى صوت ـ حتى لو كان مجرد تنهدة ، حتى اصطبغ وجهه بحمرة قانية .

وتمتمت « الصابات » :

— هل قال شيئاً آخر ؟ .

وهز الرجل رأسه وكتب : «لقد أغمضت عينى وتلوت صلاة قصيرة وعندما فتحتها كان الملاك قد مضى . ولم أتيقن من صدقه حتى خرجت من القدس ووجدت نفسى عاجزاً عن النطق » .

هل يكون أن «زكريا» تخيل كل هذا وهو فى شبه غيبوبة ؟ ثم هل يغير من الأمر شيئاً أن يعتقد « زكريا » صدق ما تخيل؟ ولذلك دعت «اليصابات» طبيب البلد فكشف على المريض دون أن يخبره أحد عن القصة وطلب الطبيب أن يقتصر الأكل على حساء الشعير ، والتين وأن يمكث المريض على ظهره ثلاثة أيام أو أربعة ثم ما أن انصرف الطبيب حتى استغرق « زكريا » فى نوم عميق .

ومكث الأقارب يتحدثون عن هذه الأعجوبة طويلا ، وكان عسيراً على « اليصابات » أن ترى فى كل هذه القصة أكثر من أنها خيال عقل مريض معذب ، وأما « حنة » فكانت جد مندهشة . وبقى « يواقيم » مؤمنا بصدق القصة وعلق على سلوك السيدتين بقوله : « إن مثل هذا الحدث حصل كثيراً فى الأيام الغابرة ولماذا إذن يظن الناس أن عهد المعجزات قد انقضى ؟ أفلسنا الآن أحوج إلى المعجزات ؟ » . أما « يوسف » فقد احتفظ لنفسه برأيه ، أما « مريم » فلم يسألها أحد عن رأيها فقد كانت فى نظر العائلة طفلة لا يسمح لها عمرها بالاشتراك فى مناقشاتهم. ولكن « مريم » قبل أن تنصرف إلى النوم قالت لـ « اليصابات » :

— يا ابنة خالتى العزيزة . لقد صليت لله زمنا طويلا أن يرزقك ابنا وأنت مؤمنة بنتيجة صلاتك . فلماذا أذن تعجبين لأن الله استمع لصلاتك واستجاب لها ؟ لماذا إذن لا تنتظرين الوعد مؤمنه ومطمئنة ؟ .

وقد أثبتت الأيام القريبة أن حديث « مريم » هذا كان أعقل حديث قيل فى تلك المناسبة .

وطلع على الأقارب صباح اليوم التالى وكأنهم اتفقوا ضمنا على ألا يعودوا إلى الحديث عما كان بين الملاك والكاهن . ولعل الناس عندما يفاجأون بالغريب الذى لا يستطيعون

إدراكه أو تفسيره يندفعون بغريزتهم إلى العودة إلى الحياة العادية متناسين قدر الإمكان الأمر العجيب ومندمجين بكلياتهم فى مشاكلهم اليومية . وبدا كأن يداً عصية أزاحت الكتابة عن اللوح نهائياً . ففى الصباح تحدثوا عن الطقس والمحصولات والضرائب وصمم « يواقيم » على أن يعودوا إلى بلدهم بعد الظهر ، ثم لم يتحدثوا خلال رحلتهم عن التجربة العجيبة إلا عرضاً مرة أو مرتين. وبعد ما وصلوا إلى الناصرة ، ذهبت « مريم » تحمل إلى « يوسف » فى دكانه عشاء ساخناً وجلست معه ، على عتبة الباب فوق نشارة الخشب وأخفت قدميها تحت ردائها وأزاحت العباءة الزرقاء خلفها وسألته :

— أتظن أن ذلك الوعد سيتحقق ؟ .

وصمت « يوسف» برهة وأسند ذقنه على كفه وسرح بعينيه بعيداً ثم قال: إن« زكريا» رجل طيب وقد كانت كتابته واضحة ودقيقة . ولم تكن أفكاره مضطربة أو منقطعة الصلة ببعضها ، ولا هو تلجلج . إنه مؤمن بصدق الرسالة .

— نعم يا « يوسف » لقد رأيت مثلى أنه كان يتصرف تصرف عاقل .

وأقبل عليها « يوسف » فى عطف ظاهر .

— أنظرى إلى المسألة هكذا : إن « زكريا » ليس هو أخرس فقط، ولكنه مكلف بمقتضى تلك النبوة بأن يثبت أنه يتحدث فعلا إلى الملاك، وإلا اعتبر مجرد مخرف، وليس بين الاثنين حل وسط ، فإما رزق هو و « اليصابات» ولدا ، وإما أعتبر أنه كان فى نوبة جنون ، ولا يمكن لرجل متمالك قواه العقلية أن يضع نفسه أمام زوجته وأقاربه مثل هذا الوضع ، إلا لو كان يؤمن بصدق مايقول من كل احساسه ، أفلا ترينه إذن يا « مريم » صادقا ؟ .

وتنهدت « مريم » وقد أعجبت بهذا المنطق :

ـ نعم يا « يوسف » . وإنى لأدهش لماذا لم آخذ الرواية من قبل هذا المأخذ .

وقد طربت فعلا لهذا المنطق وسعدت إذ خطبت لرجل ذى بصيرة نفاذة وعقل راجح ولم يعودا يتحدثان عن هذا الحدث حتى وصلت مع قافلة رسالة إلى « حنه » كتبت فيها «اليصابات» تقول «سلام لك أيتها الحبيبة ، لقد سمع الله لصلاتنا وتحقق وعد الملاك الطاهر، « حنة » ياخالتى العزيزة أصغى إلى وأخبرى « يواقيم » و « مريم » الحبيبة وهذا الشاب المهذب « يوسف » : فى عمرى المتأخر هذا سيكون لى ولد ! » .

الفصل الرابع

لا أحلام الليلة

بعد نهاية عمل يوم ما ، جلس « يوسف » داخل دكانه وتناول من أعلا الرف حصالة أفرغ مافيها من النقود وأخذيعدها . وكان يتمنىأن يكون ما اقتصده منذ تحدث إلى « مريم » أكثر من هذا ، ولكنه على أى الأحوال يكفى لشراء مستلزمات الزواج ولتحديد يوم لإتمامه ، وقال لنفسه : « لن تحتاج زوجتى بعد إلى أن تمسك يدها وتقتر » . زوجتى !! لقد أطربته هذه الكلمة وكان لها فىأذنيه وقع السحر. وصمم علىأن يخبر والديها بأنه لاداعى لأن ينتظرأكثر . وكانالوقت ربيعا وكانت حرارة إبريل تملأ قلب «يوسف». كذلك كانت جوانب التلال وسفوحها من حول المدينة تموج بالزهور زرقاء وصفراء وحمراء وداكنة ، وقد رسمت فوق الأرض بساطاً أبهى وأروع من أجمل أبسطة الفرس التى تحملها الجمال ، وإنك لتستنشق عبير الأزهار هذا مع الريح الداخلة من باب الدكان . وكان « يوسف » سعيداً بأن يغادر دكانه بعد يوم عمل طويل، وسعيداً بأن يشعر بأنه جزء من هذا البلد الدافق بالحياة والحركة. ورأى جندياً رومانياً مزهوا بنفسه فوق حصانه وممسكا بزمام حصان آخر أبيض من جياد الضباط ، حصان مزين مكرم لا يأكل إلا الشعير والشوفان . ولكن « يوسف » لا يكره الرومانى بل ولم يكن يكره شيئاً قط فى أمسية ذلك اليوم من إبريل. كان سعيدا يشعر بالسعادة الغامرة فى نفسه ويحب كل العالم . وكان يسير بين الجمهور المزدحم واثقاً بنفسه . وكلما خطا بضع خطوات حياه « زبون» أو مزارع أو راع أو حداد فيرد التحية سعيدا بها مطمئناً إليها . فإنه لحسن أن يكون الإنسان معروفا ومحبوبا . إن ذلك ليعطيه إحساسا بالطمأنينة ، وبأنه أصبح رجلا كامل الحيثية وان يمضى وقت طويل حتى يغدو رجلا متزوجا ورب بيت فى الجليل ، صانعاً ذا سمعة ومنزلة وعائلة تكون إحدى وحدات المجتمع النافع .

ولم يزعجه أن يتذكر عند ذاك أن أدعياء العلم والمدنية فى « أورشليم » ينظرون إلى الناصريين من عل ويعتبرونهم مجرد ريفيين ذوى لهجة مضحكة ، وقد طالما حدثه المسافرون الذين يصلح لهم عجلات عرباتهم عن الكوميديات القصيرة التى تمثل فى « أورشليم » والتى يقلدون فيهاخشونة الحياة فىالناصرة ولهجتها الغريبة فىالكلام، حتىإنهم ليتبادلون سؤالا تهكميا مفضلا لديهم : « هل يمكن أن يأتى من الناصرة شىء حسن ؟ » .

ولكن « يوسف » وأهل بلده كانوا يشعرون أن أهل « أورشليم » قد أفسدتهم المدنية وأصبحوا أدعياء وغير طبيعيين ، وهو على أى الأحوال فخور ببلده واثق بأنه سيكون سعيداً جداً جداً فيه بـ « مريم » وبأولادهما وبعمله . فماذا يتمنى أى رجل لنفسه أكثر من هذا ؟ وليهنأ « صموئيل » بـ « أورشليم » تلك وبثوراته أيضا . وتحركت شفتاه بمزمور لـ « داود » بينما كان يسير وسط المتزاحمين وتتعالى الضوضاء من حوله . ومر فى طريقه بجمهرة من الناس يحيطون بكاهنين عجوزين ويتحدثون جميعا فى نفس الوقت . ووقع ضوء مصباح « يوسف » على ذقونهم وثيابهم ... كانوا خليطا من الناس منهمكين فى حديثهم . وسمع زوجا ثبت خطؤة يستفهم عن نوع اللحم الذى يجب أن يقدمه للذبح كفارة عن ذنبه ، ووالدا محزونا يشكو من أن الكهنة الذين تولوا دفن ابنه يرهقونه بطلباتهم ، ورجالا وسيدات وشبانا وأطفالا كل منهم يشكو شيئا . ولكن الزحام كان يقل كلما تقدم « يوسف » وغدت الشوارع أضيق حتى خلا الشارع إلا من « يوسف » ، حين نظر أمامه إلى المرتفع الذى يقع عند انحناءته بيت « يواقيم » بقبته البيضاء الكبيرة المضيئة وفى ناحية من البيت كانت السلالم التى تؤدى إلى السقف . وارتفع نظر « يوسف » إلى أعلا السلالم فرأى « مريم » وفى يدها فانوس ، منحنية تجمع البلح والتين الذى سبق أن نشرته ليجف فى حرارة الشمس وكانت « مريم » تعرف صوت وقع أقدامه ، فما أن سمعته حتى استقامت واقفة ولوحت بيدها له تحييه ، ثم دلف « يوسف » إلى المنزل فى حرية من يشعر أنه أصبح عضواً من العائلة وكانت « حنة » مشغولة بموقد فحم وقد أعدت العجين بينما تقدم « يواقيم » لتحيته ، وقبل الأصغر لحية الوالد الذى قال من كل قلبه :

ــ أهلا بك مبكراً اليوم .

وجلس « يوسف » إلى جواره واندفع فى الحديث عن شأنه وأخبره أنه اقتصد مبلغا كافيا من المال وأضاف إلى مسكنه تحسينات وسيشترى عنزة وفراخا وديكا وأنه يحتاج لزوجته ولا يرى هناك أى سبب للتأجيل .

وسأل « يواقيم » :

ــ ومن الذى يؤجل ؟ .

ودارت عينا « يوسف » نحو « حنه » التى استدارت إليه وهى تقول :

ــ كلا يا « يوسف » ، إنى أعرف أن « مريم » تحبك . فلم يعد من سبب للانتظار . فهلا حدد بنفسك يوما !.

وضحك « يوسف » وهو يقول :

— إننى أتمنى لو كنت زوجا لها الآن .

وضحك الكل واستأنف « يوسف » :

— كلا لم أحدد تاريخاً وأنا أفضل أن أتحدث إلى « مريم » فى هذا بعد العشاء .

ولم يعلق « يواقيم » على هذا ، ولكن نظرته كان فيها شىء من الدهشة. فهو يتذكر أنه فى حياته الزوجية كان هو دائماً الذى يصدر القرارات . أو لعل « حنة » أفلحت فى أن تجعله يعتقد فى نفسه هذا ! .

وبعد العشـــاء وفى ظلمة الطريق إلى الناصرة كان « يوسف » و « مريم » يتنزهان مأخوذين بالحديث عن مشروعاتهما ومشغولين بكثير من التفصيلات الصغيرة الممتعة حول حفلة الزواج ، وكان كل منهما يشعر بثقل خفيف على قلبه غير مفهوم فى تلك المناسبة . وكانت رياح الليل الرطبة ثقيلة فى نفسها لا تنبىء هى الأخرى بشىء عما سيكون .

وعندما وقف الاثنـان صامتين ناظرين إلى الهلال الذهبى الرفيع اللامع فى كبد السماء وإلى النجوم المتلألئة فى القبة السوداء وكل العالم صامت من حولها مرهف السمع ، لم يسمعا حتى ولا خفقة جناح .

وكان عقلاهما وقلباهما مشغولين بمشروعاتهمـا الشخصية ، وكان الليل قد تقدم عندما تبـــادلا تحية المساء بعد أن انتهيا إلى قرار هو أن يتم الزواج بعد أشهر ثلاثة . وكان « يوسف » يريده قبل ذلك ولكن « مريم » لاحظت أن هناك ملابس يجب أن تحاك وبضعة نقود يجب أبوها أن يجمعها لهذه المناسبة ليتم بها جهـازها ، وما دامت الثلاثة الأشهر قد تحددت فسوف لا يقلقان إذ يحسبانها يوماً بعد يوم .

وقال « يوسف » :

— أتمنى أن أراك مبكراً فى الصباح .

وقالت مريم :

— مبكراً جداً يا « يوسف » ، عندما أذهب لإحضار ماء الصباح من العين .

وتلاقت يداهما فى عطف متبادل وافترقا . ومشى « يوسف » إلى دكانه فى ثقة واعتداد وألقى بنفسه على فراشه فى تنهدة سعيدة . وأخفى رأسه بين ذراعيه مفكراً فى أنه اليوم أسعد رجل فى الناصرة ، وسيكون أكثر سعادة فى غده . وسرعان ما استغرق فى النوم فلم يحلم إلا

بما يحلم بهسائر الرجال فى موقفه : عباءة « مريم » الزرقاء يداعبها الهواء العليل قبيل افتراقهما، وعينى « مريم » المثقلتين بالأحلام !.

لم يحلم بشىء من الأحـــلام العظيمة التى كان يحلمها جدوده الأنبيـاء فى قديم الزمان ، ولا استطاع أن يتنبأ بالحدث العظيم الذى كان يأخذ طريقه من السماء إلى الأرض ، وكذلك لم يحلم « هيرودس » العظيم ولا حلمت ملكته ولاحلم « أوغسطس قيصر » فى ريعان مجده فى « روما » ، لم يحلم أحد من هؤلاء بأن الدنيا ستغير الليلة اتجاهها ، ولاحدس واحد من كل هؤلاء بأن العـالم يقف على أبواب ثورة اجتماعية وأخلاقية أصيلة قادمة بغير ضوضـاء فى سكون ذلك الليل الهادىء .

وإنما صحا « يوسف » فى الصباح المبـكر ليعرف أن مجرى الأمور فيما يتعلق به قد تغير شيئاً ما ، إذ سمع دقاً على الباب ونداء باسمه . وقبل أن يستطيع تماماً أن يفتح عينيه النائمتين استطاع أن يجرى « يواقيم » واقفاً أمامه مصفر الوجه سارح الفـكر رافعاً يديه معا ، وقال وهو يحتضنه : « يوسف » !

ـــ سلام لك يا « يواقيم » خبرنى ماذا دهاك ؟ .

وقال « يواقيم » وهو يضع يداً ثقيلة على كـتف « يوسف » :

ـــ ليكن الله معك يا « يوسف » يا ابنى . إن « مريم » قد اختفت ! .

الفصل الخامس

السلام عليك يا مريم

كانت « مريم » الخطيبة الصغيرة ذات العينين الزرقاوين والشعر الأسود الناعم والتى تحب «يوسف» قلبا وروحا قد هربت من الناصرة لأنها بعد أن ودعت «يوسف» بخمس دقائق لاقت فى روحها وفى جسمها تغييراً مفاجئاً . وكانت التجربة أساسية، أحالتها خلقاً جديداً ، وحتى عندما كان قد مضى على الحادث ساعات لم تكن لتستطيع أن تتكلم بل ولم تكن لتستطيع أن تتنفس بسهولة . وكانت التجربة مثيرة وعسيرة التفسير ومذهلة حتى لم تجد فى إمكانها أن تتحدث عنها لوالدتها أو لوالدها ولا حتى لخطيبها « يوسف » .

إذ كيف تطلب أن يعتقدوا أنها مرت بمثل ذلك العجب ؟ ومع ذلك فقد عرفت ذلك العجب ، ولم تكن قط مستعدة له عندما مشت إليه مباشرة فور أن تبادلت تحية المساء الحنونة مع « يوسف » . وكان «يواقيم» و «حنة» جالسين فوق السطح يتبادلان الحديث فيما يعنيهما من أمر تلك الخطوبة وكانت الماشية والمعيز ناعسة والأفراخ والديكة تغط فى النوم والكلب ينبح خلف الحديقة وأحست بقشعريرة وهى فى صالة المنزل عللتها بأن الليل رطيب ، وبينما كانت تصعد السلالم إلى المصطبة بدأت تحس أنها ليست وحدها هناك ، وسرعان ما رأت خيالا طويلا واقفاً أمام الحائط البعيد المواجه . وكان هذا غريباً إلى درجة كبيرة فقد بدا واقفاً فى النور بينما لا مصباح هناك ، وعندما استطاعت « مريم » أن تحاول أن تسأله من هو وكيف جاء ، وماذا يريد ، سبقها هو بتحية أكثر روعة إذ قال :

— السلام عليك يا « مريم » .

وكان الصوت حنوناً وممعنا فى العمق ، صوتاً لم تسمع « مريم » مثله من قبل ، خفيضاً ورقيقاً وهو يتابع التحية قائلا :

— أيتها الممتلئة نعمة .

وأخجلها أن يحييها أحد بمثل هذا : « السلام عليك يا مريم ، أيتها الممتلئة نعمة » . وربما أرهبها أكثر قوله :

— الرب معك ، مباركة أنت فى النساء .

وضمت ذراعيها إذ قال :

— لا تخافى يا « مريم » .

وأحنت رأسها فقد شعرت بأنه لا يجب عليها أن تخاف وإنما عليها أن تثق بهذا الصوت الحنون . ولكنها لم تستطع أن تتخلص من رعشتها ، فأغمضت عينيهـــا وهى تستمع إلى الحديث المدهش عما غمرها من رضا الله فستحمل وستلد إبناً ، وسرح ذهنها إلى الرسالة المماثلة التى تلقاها « زكريا » عن « اليصابات » ، فإن « اليصـابات » هى الأخرى حملت وستلد إبنا وسيكون إسمه « يوحنا » .

— وستسمينه « يسوع » .

وسألت نفسها :

— هل يكون «يسوع» إبنى ؟ يسوع .. يسوع ابن مريم ، وسأربيه وأحمله على يدى وسأعطيه أحياناً لـ «يوسف» ليحمله بدوره .

وأحست بأن عقلها يكاد يهرب منها هروب الطير الجازع ، ومع ذلك يجب أن تهدىء من روعها وأن تسمع لما لا يزال يقوله هذا السيد :

— وسيكون عظيما وابن العلى يدعى ، وسيعطيه الرب الإله عرش «داود» أبيه ولا يكون لملكه نهاية ! .

وأحست عندئذ بحاجة شديدة لأن تفهم نفس الإحساس الذى دفع «زكريا» لأن يسأل الملاك كيف ينجب وهو وزوجته عجوزان، الذى عوقب عليه بأن منع عنه الصوت . هذا أيضاً تلك «مريم» إذ هى تريد أن تفهم المعجزة على ضوء واقع الأمر الذى درج عليه الإنسان ، وقد أرادت أن تعرف أولا من هـذا الغريب ؟ وأرادت أن تعرف كيف يتأتى ما يقول ؟. ولذلك سألته فى صوت خجل خفيض لا يكاد يسمع :

— كيف يتأتى هذا ولم يمسسنى رجل ؟ .

ولم يتجهم وجه الغريب بل ظهر فى عينيه حنو وعطف . وخطـا خطوة إلى الأمام فاستطاعت أن ترى جناحيه المضمومين وعرفت عندئذ من هو . ثم جاء صوته العميق :

— الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظللك . ولذلك فإن القدوس الذى سيولد منك يدعى ابن الله ! .

وكادت الدهشة من هذا الكلام العظيم أن تحبس أنفاس « مريم » ، أيمكن أن تكون هى والدة طفل يسمى « ابن الله » ، هى الفتاة الناصرية الصغيرة، تحتوى ابن الله فى جسمها؟ .

وتتابع الصوت الخفيض :

— وها أن « اليصابات » نسيبتك . . . .

وصمت حتى أشارت برأسها أنها تفهم وتصغى ، ومضى يقول :

— هى الأخرى حبلت بابن فى شيخوختها ، وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً . لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله .

وكانت هذه هى الحقيقة التى تحتاجها . وقد نطق بهذه الحقيقة فيما يتعلق بـ « اليصابات » كما تعرفها هى . ونظرت إليه متشفعة وهى تقول بصوت لا تكاد تسمعه هى نفسها .

— ها أنا أمة الرب ، فليكن لى بحسب قولك .

وكالسحر تلاشى فجأة من أمامها الملاك ، ومضت «مريم» تترنح وتتمتم حتى وصلت إلى فراشها وركعت على ركبتيها وانخرطت فى بكاء وصلاة عميقة فقد كان كل هذا أكثر من أن تدركه فتاة صغيرة طاهرة القلب والفكر . وأحست بحاجة ملحة إلى أن تجأر بالحديث إلى والدتها وتلقى بنفسها بين ذراعيها الحانيتين القويتين صارخة بما رأت وما سمعت ، ولكن كيف تستطيع أن تقابل الشك لو أن أمها شكت ؟، ثم إن والديها لا يزالان يعاملانها كطفلة وقد يقولان إنها تخيلت كل هذا الحديث ونسجته على غرار ما حدث لـ « اليصابات » و «زكريا» الذى قال إنه رأى الملاك وتحدث إليه . وصمتت بينما كان «يواقيم» و «حنة» يدلفان من السطح فى هدوء ويصليان ثم يذهبان فى النوم ، ولكنها لم تستطع أن تنام . ومضت ساعات على هذا الحال فقامت وكتبت لأمها ورقة وصنعت لنفسها حزمة ومضت فى الطريق الطويل ، إذ لم تجد من تستطيع أن تلقى إليه بهذا السر العظيم غير ابنة خالتها «اليصابات» .

الفصل السادس

ياله من رجل !

سأل « يواقيم » « يوسف » وفى صوته ثورة .

— والآن وقد سمعت ، ماذا أنت قائل ؟ .

وهز « يوسف » رأسه ببطء واستدار إلى حوض الغسيل وأخذ من إبريق كانت « مريم » قدملأته له فى الأمسية ، بعض الماء وألقى به على وجهه وشعره ولحيته وهو يزفر ، ثم جفف نفسه ببعض القش وقال :

— لابد أن لدى « مريم » سبباً معقولا لتصرفها هذا ، أرجو أن تكون واثقاً من هذا .

وهدأت أعصاب « يواقيم » قليلا وتلاشت بعض تجاعيد الغضب فى وجهه .

وعاد « يوسف » يقول :

— كن واثقا أن « مريم » لديها سبب قوى لذلك .

وانفرج وجه « يواقيم » عندئذ وقال :

— يجب أن يكون الأمر كذلك ، ولكن هل يمكنك أن تحدس هذا السبب ؟ إنه لأمر عجيب يا « يوسف » أن تهرب فتاة من أبويها .

وقال « يوسف » :

— ومن خطيبها .

وأجاب « يواقيم » :

— وبالطبع من خطيبها ، إنكما بالأمس فقط كنتما تحددان موعدا للزفاف . هل تظن أنها دهشت ؟ أقصد أنها كانت شديدة الانفعال ؟ إنها مازالت صغيرة جدا .

وقال « يوسف » فى يقين :

— إن هذا لايحدث لـ « مريم » فإنه لا يوجد من هو أكثر منها ثباتاً وصفاء ذهن .

ثم أضاف فى فصاحة غريبة عليه :

— إنها تعرف ماتريد . وهى تحبنى ، وبالأمس وضعنا خططا عظيمة لمستقبلنا ، فلا بد

أن شيئاً ما حدث بعد افتراقنا ، إنى متأكد من ذلك ، وما دمنا لا نعرف ماهية هذا الشيء ، فإن من واجبنا أن نؤمن بأنه شيء حسن .

ومرت بذهنيهما نفس الأفكار : إن طريق الجنوب طويل وشاق ...!

وتنهد « يوسف » وهو يجيب على ظنونه :

— لو أن « مريم » شعرت بأنها محتاجة إلى مساعدتى فى ذلك لقصدت إلى .

ثم أضاف بصوت متهدج :

— وسيحفظها الله من مخاطر الطريق .

وفعلا تحقق إيمان « يوسف » ، فقد اجتازت « مريم » المسافة المرهقة وكأنها تحت رعاية خاصة . إذ ما كادت تقطع بضعة أميال حتى التقت بقافلة صغيرة ضمتها إليها وقدمت لها حمارا تركبه إلى المدينة التالية . والتقت فى معظم الطريق الباقى بغرباء طيبين حملوها معهم ، ووجدت فى ثلاث ليال متتالية مأوى أمينا قدمه لها مسافرون أسعدهم أن يستضيفوها ، وكان فى الحزمة التى حملتها معها طعام كاف ، ولكنها ما كانت فى حاجة إلى إحضاره معها ، فقد قدم لها الجميع طعاما . ولما كانت طوال الطريق غارقة فى تأملاتها فقد شعر المسافرون معها شعوراً فريداً برفعتها وامتيازها ، وسألها أحدهم وهو عجوز أغبر ذو لحية كبيرة أتى من أسواق دمشق ، مسافر شرقاً وغرباً على ظهور الإبل أكثر من أربعين سنة ، سألها وهو يناولها ذات يوم كوبا من الماء المعطر :

— من أين لك كل هذا الهدوء والسكينة ؟ .

ولم يكن لديها عندئذ مرآة لتسألها . فقد مرت أيام كثيرة قبل أن تلاحظ الفتاة الريفية ، الشحوب يبدو كأنه طبقة رقيقة من قشدة وضعت فوق عناب ، وأن لون دم القوة والشباب القانى قد انسحب تاركاً مكانا لمعنى أكثر طهرا وأعمق أصالة ، وبدون مرآة تحققت « مريم » أن شيئاً قد احتواها وغيرها ، وشعرت أنها أصبحت شخصاً جديداً مختلفاً بالرغم من احتفاظها بكل الذكريات القديمة ، وشعرت بمزيج من التواضع والعظمة ، فهى صغيرة وضعيفة ولكن هناك قوة جبارة ترعاها . وسارت فى ثقة جديدة خالية من كل كبرياء ، مملوءة شعوراً عميقاً بأنها جزء من أكسير الحياة أو من الطبيعة نفسها ، فالرحيق فى ساق شجرة الجميز كان أيضاً يجرى مع دمائها ، ومجرد رؤيتها لقطرات الندى فى الصباح تروى ظمأها . ودفء الشمس كان كأنه مختزن فيها ، يشع منها كما يشع عليها ، ولم يكن بريق عين طفل باكية إلا جزءا من حنان أفكارها ؛ وتغريد الطيور ورقة النسيم ومذاق اللبن وكل شيء جميل ونافع كان متحدا مع كيانها ، تشعر شعوراً سماوياً ناعماً بأنها تملكه .

كان هذا شعورها منذ أن بشرها الملاك . وفى يقظتها وفى نومها كانت أفكارها بسيطة غير معقدة ، كأنها صادرة من نجم بعيد ومرتبطة بالزمان والمكان ارتباطا غامضاً ، وكان الحال كذلك حتى عندما كانت تفكر فى واقع الأمور ، وكانت تتذكر « حنة » و « يواقيم » قليلا ، أما «يوسف» فكانت تتذكره أكثر وتعجب ماذا كان يمكنها أن تقول له . لابد أن ابنة الخالة « اليصابات » سوف ترشدها .

وكانت صورة « اليصابات » هى الغالبة على أفكارها ، تشجعها ، طوال الخمسة والسبعين ميلا التى قطعتها . وقرب الغروب فى اليوم الثالث وجدت « مريم » نفسها على بعد أربعة أميال من «أورشليم» فى الضاحية الصغيرة المسماة «عين كارم» . وكان أمامها على مسافة قصيرة بيت « زكريا» و «اليصابات» ، وابنة خالتها جالسة على العتبة وهى حامل فى شهرها السادس .

وهكذا وبعد مشقة الطريق الطويل جاءت «مريم» إلى « اليصابات » ، ليس لأنها كانت تشك فى أمر الملاك بل لأنها كانت مؤمنة ، به وللحظة واحدة فقط أثناء المقابلة الخاطفة تأملت « مريم » الرسالة السماوية التى ألقيت إليها ولم تخامرها ذرة شك فيها ، بل رسخ أيمانها بها فى الحال . ومع ذلك أذهلتها التحية المكررة التى قوبلت بها ، إذ صاحت « اليصابات » فرحة :

— السلام عليك يا «مريم» !.

ولم تبد أية دهشة على وجه السيدة العجوز عند رؤيتها ابنه خالتها الشابة . بل انفرجت أسارير وجهها الصارم وهى تهب على قدميها وترفع يديها صائحة :

— مباركة أنت فى النساء .

وتوقفت « مريم » فجأة عن التقدم ، فهذه الكلمات عينها — كلها — سمعتها قبلا من الملاك ! .

— ومباركة ثمرة بطنك ! .

وقالت « مريم » :

— إنك تعيدين ما قاله الملاك لى يا ابنة الخالة « اليصابات » ، كيف عرفت ذلك ؟ .

واحتضنتها « اليصابات » ثم قالت :

— عندما بلغ صوت سلامك إلى أذنى ارتكض الجنين من الابتهاج فى بطنى ، فطوبى التى أمنت ، لأنه سيتم ما قيل لها من قبل الرب .

وبتنهدة ارتياح ألقت « مريم » بنفسها بين ذراعى « اليصابات » وبقيت فى أحضانها المطمئنة ترتجف لمدة بدت كأنها دهر .

ثم بصوت ناعم رقيق نطقت « مريم » كلمات تمجيد نفسها غير عالمة عند ذاك أن العالم سيظل يرتل هذه الكلمات من بعدها ويرددها فى صلواته لآلاف السنين القادمة ، إذ تدفقت هذه الكلمات من فمها لا إراديا ، فور اطمئنانها إلى الصلة الروحية القوية الناشئة بينها وبين « اليصابات » :

— تعظم نفسى الرب وتبتهج روحى بالله مخلصى لأنه نظر إلى اتضاع أمته ، فهو ذا منذ الآن تطوبنى جميع الأجيال ، لأن القدير صنع بى عظائم واسمه قدوس ورحمته إلى أجيال وأجيال للذين يتقونه .

وأخيرا اصطحبتها « اليصابات » إلى داخل المنزل وهمست فى أذنها :

— هل علمت أنك حامل فعلا ؟

واغرورقت عينا « مريم » وقالت :

— إنى لم ألمس رجلا .

وقالت اليصابات :

— طبعا يا حبيبتى .

وانهمرت الدموع من عينى « مريم » على وجنتيها ، ثم قالت :

— إنك تصدقيننى لأنك تعرفين الحقيقة ، ولكن كيف يمكن أن يصدقنى أى إنسان آخر . أليس من الطبيعى أن يعتقد « يوسف » . . .

وسألت « اليصابات »

— وماذا يعتقد أى إنسان غيره فى مكانه ؟ ولكن الله ، الذى صنع بنا كل هذه العجائب سيخبرنا كيف نتكلم إلى « يوسف » ، اهدئى الآن فإنك متعبة متربة وجائعة . وسنستأنف الكلام عندما تستريحين .

وأخذت « اليصابات » تدلك « مريم » بكل خبرتها التى اكتسبتها كممرضة لأهل البلد ، وغمست يديها القويتين فى الزيت ودلكت ذراعى « مريم » وظهرها ورجليها حتى أحست « مريم » بزوال عناء السفر وآلامه . ثم غسلت « اليصابات » رجليها وقدمت لها الأكل ولبن الماعز الدافىء ونصحتها بأن تنام . فما أن رقدت واغمضت عينيها حتى استغرقت فى نوم عميق .

وكان التكريم والحنان الذى استقبلت به « مريم » أول مرة يتكرر كل يوم بل ويزداد قوة حتى تقدمت بحمل « اليصابات » الأيام ولم تعد تقوى على عمل البيت فأخذت « مريم » بدورها ترد الجميل منتظرة حتى تضع « اليصابات » طفلها لتقوم بخدمتها كاملة ، وعندئذ كتبت « مريم » خطابات لأهلها وذكرت لأمها أنها مرت بتجربة هى الأخرى ولكنها لا تستطيع أن تكتب عنها الآن ، وستنتظر حتى تخبرها بكل شىء عند عودتها إلى الناصرة ،

وكتبت لـ « يوسف » خطابا رقيقا أخبرته أنه قد آن الوقت لتوضح له لماذا آثرت أن تسافر هكذا فجأة ، ولم تتحدث بشيء عن موعد زفافهما ، إذ لم تجرؤ أن تتكلم بعد عن الزواج . ذلك أنها كانت تعرف أن أى رجل فى مثل هـذه الظروف سيرفض أن يصدقها وأن يعيش معها ، وكان هذا هو الكابوس الذى يزعجها طوال الأشهر الثلاثة الماضية ، بينما هى تشغل وقتها كله وترهق نفسها فى العمل وتـكتم فى نفسها ذلك الإحساس العميق بمشاركتها الطبيعـة والأرض والنجوم فى سر الوجود .

واستمرت «مريم» فى « عين كارم» حتى رقدت «اليصابات» تتلوى بآلام الوضع فى فراشها ومكثت بجانبها «مريم» وممرضة القرية تعاونها ساعات طويلة حتى وضعت أخيرا طفلا ذكرا كما قال الملاك يزن أكثر من عشرة أرطال ، صارخا ومتحديا العالم وهو بعد ابن دقيقة ، أحمر البشرة حاد النظر يبدو فى ثنيات وجهه الصغير كأنه يلوم العالم على سلوكه .

وكما قال الملاك فى آخر رسالته للكاهن «زكريا» عاد إليه الصوت فورا وتكلم الكاهن إلى أهل بلده الذين عمتهم الفرحة لعودته إلى الحديث حتى ضاع بينهم صوته وطال ضجيجهم دهرا ثم هدءوا أخيرا ليعطوا لـ « زكريا » فرصة لأن يتحدث إليهم .

وعندما انفرد بأهله أعاد عليهم تساؤل جيرانه :

ـــ أى رجل سيكون هذا الطفل ، فإن يد الله كانت معه ! .

وأبهجته النغمة الموسيقية فى صوته فرفع يديه إلى السماء وهو يصيح :

ـــ تبارك الرب الهنا .

وعندما غسل الطفل ودلك بالزيت جسمه وشعره الأشعث ليهدأ ، حملته أمه ووضعته فى يدى والده وأضاء وجه الوالد بنور السعادة الغامرة وهو ينظر إلى ابن شيخوخته هذا فى عطف وتأثر ويتمتم :

ـــ يوحنا . . . يوحنا . . . هدية الله لنا . . . يوحنا ! .

وكم تمنى أن يعرف الطفل عندئذ كم يحبه أبوه . وربما كان فى صوت « زكريا » رنة أسى إذ كان متحققا أنه لن يعيش طويلا على هذه الأرض ليقود ابنه فيها إلى بر السلام . ولـكن كان يعزيه أنه كان يرجح أن هذا الإبن سيكون قديسا وحاملا رسالة ، وإن كان لم يعرف عند ذاك أن ابنه سيكون أكثر الأنبياء عزوفا عن العالم وتقشفا وتصلبا فى الحق وشجاعة ، وأنه سيختلف عن أترابه منذ صباه الباكر فسوف لا يلعب كما يلعبون ، وإنما سيهرب من رفقائه إلى الطرق الموحشة المؤدية إلى الصحراء وإلى سفوح جبال و براري اليهودية . لن يسيغ ما تقدمه له والدته من طعام؟ سيرفض تناول لبن الماعز مفضلا عليه الجراد وعسل النحل

الفصل السابع

عندما يرحل أنصاف الآلهة!

عاد «صموئيل» التاجر من «أورشليم» فجأة وذهب لزيارة «يوسف».

وقال النجار:

— ألاحظ فيك تغيراً يا «صموئيل».

— كلا لست أعرف أنني تغيرت.

— حسنا.

— أرجوك يا «يوسف» أن تخبرني ما هو التغير الذي لاحظته.

— لا بأس إذا لم يزعجك ذلك.

— أعدك بألا أنزعج.

— إن لهجة حديثك أصبحت مختلفة عن ذي قبل فهي لم تعد تشبه لهجتك في الناصرة.

وقال «صموئيل» موافقا، وقد سره ذلك بدلا من أن يزعجه:

— بالطبع يا «يوسف»، فإن الناس في المدينة الكبيرة يضحكون من الطريقة التي تتحدث بها، وبعضهم يستطيع أن يفرق بين الرجل الآتي من جنوب الجليل والآتي من شماله بمجرد أن يسمع لهجته في الحديث؛ ففي «أورشليم» يتعلم المرء سريعا كيف يتحدث كالرجال المثقفين.

وأومأ «يوسف» بشيء من الإعجاب. ومثل كثيرين من أهل الريف كان يكره مساوىء المدينة العالمية، بالرغم من شعوره بشيء من الفخر بها لاتساعها وأهميتها. وسره اعتقاده بأنه يدرك ما في هذه المدينه العظيمة من محاسن ومساوىء.

وسأله «صموئيل» في حرص:

— وهل كل ما تغير هو لهجتي.

وهز «يوسف» رأسه في بطء وقال:

— هو أكثر قليلا من ذلك، فعندما كنت تعيش في الناصرة كنت تتحدث وتتصرف كتاجر حتى وأنت بعيد عن السوق.

— وكيف يتصرف التاجر؟.

— بكثير من الأدب « ياصموئيل » فصوته خفيض يدعو إلى الاطمئنان إليه ، وإن لم يكن كذلك فان يثق به العميل ، ويجب أن يكون فى نظرته طيبة وإخلاص .

وبدأ « صموئيل » يضحك وقال :

— وقد عدت وأنا أشبه بالمجرمين ، أليس كذلك ؟ .

وهز « يوسف » رأسه وهو يقول :

— كلا إنك لاتبدو مجرما ، وانما تبدو كأنك مراقب ، وهارب ، وخائف .

— إنى دائماخائف على حياتى . إمض فى عملك يا «يوسف» ، فإن وجودى يجب ألا يفقدك عمل يومك وسأتكلم أنا بينما أنت تشتغل ، فإنى عندما كنت عندك آخر مرة كنت أظن أننى أعرف كل شىء عن رب نعمان .

وسأل « يوسف » فى سذاجة :

— ومن يكون رب نعمان ؟ .

وضم « صموئيل » يديه إلى فمه وهمس فى أذن صديقه :

— إنه الملك « هيرودس » . ونحن لانجسر أن ننطق باسمه فى حديثنا فإن مجرد ذكر اسمه يجذب إليك الجواسيس . فلو أنهم أساءوا الظن بك لكلفك ذلك حياتك ، ولذلك فإننا نرمز إليه هكذا ، يا « يوسف » إن أعمال هذا الرجل تخجل الوحش الضارى .

— لعله أقرب إلى الوحش منه إلى الإنسان .

— لا تخفض من قيمته كثيرا فإنه قائد ممتاز .

— أتقول عن مثل هذا الإنسان إنه ممتاز ؟.

— إن الحق يجب أن يقال حتى ولو عن « بعلز بوب » نفسه . إن الرجل عقلا راجحا وهو بارع من الناحية الحربية وشجاع كأن قلبه مصنوع من حجر وأما ضميره فإنه ميت أو معدوم ، هو أو الشيطانة أخته .

— تقصد السيدة التى يسمونها «سالومى ».

— إنها هى ، وإنهما ليتعاونان معا بمهارة شيطانية لإفقار شعبنا وإذلاله . تصور أنه الآن فى التاسعة والخمسين من عمره ، وله تسع زوجات

— تسع زوجات ! أتقول حقا إنهن تسع ؟ .

— والله وحده يعلم كم عدد المحظيات!

ومرت لحظة سكوت اقترب فيها « صموئيل » من « يوسف » ووضع كفيه الكبيرتين على كتفية وقال :

— يا « يوسف » ألم يحن الوقت بعد لكى تغير رأيك؟ كيف يسير الحال معك؟ فى آخر مرة كنت تحلم بالزواج من فتاة لم تقابلها قط . ولكنى أرى مما يبدو حولى أنه لا يعيش معك أحد هنا . إنك مازلت أعزب . هل رفض والدها أن يزوجك إياها ؟ تعال معى إذن إلى « أورشليم » .

فقال « يوسف » معترضا وهو يهب واقفا :

— لقد قبلت الزواج بى ... وسوف نتزوج بعد بضعه أيام .

— بضعه أيام ؟ أحق ما تقول ؟.

— نعم وقد حددنا هذا الموعد منذ ثلاثة أشهر تقريبا .

— إذن أين هى ، وأين مظاهر السرور والانفعال ، وأين استعدادات الزفاف ؟ .

وبدا الأسى على وجه « يوسف » وقال مفسرا :

— إن لها ابنة خالة ليست فى تمام صحتها، وقد ذهبت « مريم » لتراها، وأنا أتوقع رجوعها فى أى يوم .

— لا زلت أجد صعوبة فى فهمك .. ولكن يا « يوسف » إنى آت فى صحبة قافلة حطت رحالها الليلة فى الناصرة وستأخذ معها بالإضافة إلى بضائعنا فرقة من المغنين الرومان تزمع أن تقوم بجولة فى المدن الشرقية لعرض أغانيها الرومانية ، فتعال معى الليلة إلى المعسكر ولنتنفس معا ونغنى بعض الألحان ... تعال بحق صداقتنا القديمة ... ودعنا نتكلم أكثر فى شئوننا ... هل تأتى ؟ .

ما أن غربت الشمس حتى كان «يوسف» جالسا مع صديقه فى المعسكر بجوار نار صغيرة موقدة فى كومة من الحطب الجاف وأكلا خبزا وجبنا واستمعا إلى الألحان المرحة التى غنتها الفرقة بمصاحبة آلة موسيقية وترية .

وقال « صموئيل » :

— إنك تسمع الآن شيئا يختلف عن المزامير المملة القديمة . هل سمعت أغنية الإله والمرأة؟ .
نعم إن هؤلاء الرجال وثنيون عبدة آلهة زائفة ، وهم فى الواقع لا يؤمنون بها . وآلهتهم غير حقيقية ، وقصصهم مختلقة، والمغنون أنفسهم يضحكون منها . فهل يوحى هذا اليك بأى معنى خاص ؟ .

— إنى لا أفهمك يا «صموئيل». أفصح .

— ألم تقل لى منذ سنة مضت إنك لن تحارب من أجل حرية الشعب ؟ .

— أذكر ذلك .

— ولكن هل تذكر أيضا الأسباب التى قلتها لى ؟ .

— بكل تأكيد ، فقد قلت إنه يجب أن نؤمن بما وعدنا الله به .

— وقد وعد أن يرسل مخلصا ، أليس كذلك ؟.

— نعم .

— وأنه سيكون ابن الله ، وستضعه عذراء ؟ ألست أردد الآن النبوءات ؟ .

— نعم يا « صموئيل » .

— وعلى نفس هذه النبوءات كنت تستند؟

— نعم !

— حسنا إذن . . .

وزحف «صموئيل» قليلا وقد كان راقداً على الأرض ورجلاه ممدودتان فى الظلام ، أما وجهه فكان مستنداً على راحتيه وقد احمر لونه أمام النار ، ثم قال :

— ألا ترى يا«يوسف» أن هذا كله ماهو إلا أسطورة قديمة — رويت بكل اللغات؟ ، وتعلمها كل الديانات السخيفة ، وقد يصح القول إنك تتكلم عن الهندوس فى الهند أو عن الإيرانيين فى فارس ، أو عن اليونانيين .

وتوقف « صموئيل » عن الكلام . ولما لم يجب «يوسف» حثه على ذلك قائلا :

— ألا ترى ذلك ؟ .

وقال «يوسف» مظهراً عناداً غير متوقع :

— أرى ماذا ؟ .

— ترى أنك قد أسست قرارك على قصة خرافية . إنك تؤمن بخرافة عالمية .

وانحنى « يوسف » إلى الأمام فأضاء النور وجهه وهو يجيب بنفس اليقين الثابت القوى الذى طالما ضايق « صموئيل » :

— وحتى بالرغم من أن هناك بعض الناس يعبدون تلك الآلهة الكاذبة فإن المسيح لن يأتى لشعبنا فقط بل للجميع .

— ما هذا يا «يوسف» ؟ خذ حذرك . إنك تجدف .

وضحك الرجلان ولكن « يوسف » أكمل كلامه قائلا :

— إن الله ليس ملكا صغيرا مثل «هيرودس» ، ولا هو إله شعبنا فقط . بل هو إله كل الشعوب وكل الكائنات فى هذا الوجود . ولا يهم ماذا يعتقد الآخرون ، فأنا موقن أن المسيح سيأتى ليس فقط لنا ، بل للرومان والهندوس والفرس ولكل شخص آخر .

وقال « صموئيل » متنهداً :

— أظن أن هذا خرافة وتجديف . ومع ذلك فإن به شيئاً جميلا ، إنه يكون مجيدا ورائعاً إذا استطاع أحد أن يصدقه .

— إن شعبنا صدقه من مدة طويلة .

— إنى أعرف ذلك ، فقد ذهبت إلى المدرسة مثلك يا «يوسف» ، وإنى أعترف أن هذا الأمر لم يكن يهمنى . وأتذكر أن الله وعد بأن يخص أبناء آدم بعد الطوفان .

فقاطعه «يوسف» بحماس :

— هل كان هناك زمن من الأزمان احتجنا فيه إلى المسيح أكثر منا الآن ؟ .

— إن هذا المسيح قد استحوذ كلية أنت وكثيرين غيرك، وهذا مايؤخرنا . فأنا واثق من أننا فى حاجة إلى قائد. وقد ذهبت إلى «أورشليم» لأنضم إلى حركة الثوار وكنت مستعداً لأن أضع خدماتى تحت إمرة شخص يستطيع أن ينتفع بها . ولكنى لم أجد للمقاومة قائدا حقيقيا ، وهـــذا ما نحتاج إليه ، إننا نريد قائداً حربياً عبقرياً . هل تنتظر أن يكون مسيحك قائدا ؟

فهز « يوسف » رأسه وابتسم وقال :

— أخشى أن تكون غير قابل للإصلاح يا « صموئيل » . فأنت تريد مسيحاً عسكرياً يستطيع أن يهاجم « هيرودس » ويلقى بجنوده الرومان خارجاً . ولكن هذا لن يكفيك لأنه بعد أن يلقى بالأغراب خارجاً ويقتل « هيرودس » وأتباعه يكون عليه أن يهدىء شعبنا ويوحده . وهكذا بعد القائد العبقرى ستحتاج إلى رجل سياسة ، وقبل مضى وقت طويل ستطلب خبيراً مالياً أيضاً !

وضحك « يوسف » ثم استطرد :

— ولست أنت وحدك يا « صموئيل » الذى يتوقع أن تتوفر كل هذه الأشياء فى المسيح بل إن كثيرين غيرك يتوقعون ذلك أيضاً ، وأنا أخشى أن يخيب أملكم كلكم لأنى لا أعتقد أن المسيح سيكون أياً من هؤلاء !!

ــ وماذا إذن تعتقد أنه سوف يشبه ؟ .

وتبع ذلك سكوت قطعه صوت رجل كان قد ركع فى الطين بينما هو يسقى ناقته فأخذ يسب ويلعن القبيلة بأسرها .

وقبل أن يستطيع « يوسف » أن يجيب شعر بيد تربت على كتفه فأجفل واستدار إلى الخلف ورأى وجه « يواقيم » فى الظلام .

ــ سلام لك ! ..

وانتفض الشاب شاعراً بخوف مفاجىء ، بينما استطرد «يواقيم» :

ــ ليكن الله معك يا «يوسف» ، فقد أتيت إلى هنا لأطلب منك أن تعود إلى دكانك لأن « مريم » هناك تنتظرك وتقول إنها ترغب فى التحدث إليك وحدك فى الحال .

الفصل الثامن

يوسف يرى حلماً

فوق المائدة الخشبية أضاءت الشموع ملقية ظلالا كأنها أشباح متراقصة فوق الحوائط البيضاء ، وكانت « مريم » واقفة أمام الباب ولهب الشموع المضاءة فى الداخل يلقى على وجهها نورا ضعيفاً مرتعشاً كان كافياً ليتبين « يوسف » كم تغيرت . إنها تبدو وكأنها شبح للفتاة التى يتذكرها ، الفتاة ذات الوجنتين الموردتين الحمراوين بتأثير دفء الصحة والشباب ، الفتاة ذات الخطوات الشابة الثابتة المملوءة نشاطا ، الفتاة التى أصبحت الآن خيالا لما كانت عليه ، وبالرغم من ذلك ازدادت طولا . وأما بريق عينيها الواسعتين الذى جمع مظاهر التغيير الغامض فهو الذى جعل « يوسف » يبهت .

— « مريم » ؟

— « يوسف » ؟

— السلام لك .

— والرب معك .

— حبيبتى هل أنت مريضة ؟

— حبيبى لا تقترب منى .. ليس بعد .. فهناك شىء يجب أن أقوله لك ! .

ووقف « يوسف » فى مكانه رافعا قامته الطويله ، عابثا بغطاء رأسه الذى كان ممسكا به بين أصابعه ، وقد ازدادت تقاطيب جبينه .

— أيا كان الأمر فقوليه فوراً يا « مريم » ياحبيبتى ، فإنى مصغ إليك .

— إذن ياحبيبى « يوسف » . . .

— حسنا !

— إنى أحمل طفلا !

لو كان العالم قد انشطر شقين وهوى فى فراغ لانهائى لما كان قد أحدث فى أذنى « يوسف » صوتاً أغرب مما أحدثه صوتها . إنها تكلمت فى هدوء ، كل حديثها كان هادئاً ، وبه رنة عجيبة عذبة لاحظها « يوسف » ، وظن فى أول الأمر أنها باغترابها عن الجليل فقدت لهجتها الريفية

كما حدث من قبل لـ « صموئيل » ولكن الأمر لم يكن كذلك وإنما كان شيئاً جديداً فريداً أكسب صوتها عزة واقتدارا .

« مريم » حامل !!

وبقى « يوسف » واقفاً لا يتحرك وتوقفت أصابعه عن العبث بغطاء رأسه وأحس كأنه سقط فى دوامة . .

« مريم » فرت من بيت أهلها !! « مريم » بقيت بعيداً !! « مريم » عادت !! « مريم » حامل !!

— « يوسف » صدقنى . .

وقال فى همس آت من بعيد .

— ولكنك لم تلمسينى .

— ولم ألمس رجلا قط .

— ومع ذلك تقولين إنك حامل ! .

قال ذلك وفى صوته الجريح آلام رجل لم يدرك بعد مدى بلواه .

— نعم يا « يوسف » !

— ابن من ؟ .

فقالت وقد أضاء وجهها :

— إنه ليس ابن أى رجل ! .

— ما هذا الذى تقولين ؟

وأخذ يكرر قولها عدة مرات محاولا أن يفهم ما به من غموض .

وقالت فى إصرار :

— إنه من الله ... إنه ليس من رجل ، بل من الله ...

ثم قالت : فإن الملاك « جبرائيل » الذى ظهر لزكريا ظهر لى أنا أيضاً . إن « اليصابات » ولدت ولدا ذكرا وسمى « يوحنا » كما قال الملاك . وأنا الآن عبدة الرب وسأصبح أم الشخص الموعود .

— « مريم » أتعلمين ماذا تقولين ؟ .

— نعم .

— إذا سمعك الكبار سيقتلونك ! .

— ومع ذلك فهو حقيقى يا « يوسف » ! .

وألقى يوسف بغطاء رأسه إلى الأرض وألقى بنفسه أيضاً فوق كومة من نشارة الخشب وقال :

— أخبريني عن هذا الشيء العجيب ، فإني مصغ ولن أقاطعك ..

وأخذت « مريم » تروى له الأحداث العجيبة التى مرت بها خطوة خطوة ، من اللحظة التى حيا كل منهما الآخر فيها تحية المساء ، ومقابلتها للملاك والبشارة ، وانصراف الملاك الذى عرفت أنه « جبرائيل » . وفسرت له لماذا لم تستطع أن تلجأ إليه فى الحال أو أن تلجأ لأبويها ، وكيف شعرت أن « اليصابات » هى الوحيدة التى سوف تفهم . وقد فهمت « اليصابات » فعلا ، وفى الواقع كانت «اليصابات» تعلم الأمر من قبل ، فقد رأت حلما وكانت تحيتها لمريم هى نفس كلمات تحية الملاك ، وبقيت « مريم » عندها حتى ولد « يوحنا » ، وأنها حملت من الروح القدس وأنها لا تزال عذراء وسوف تلد ولدا .

وتبع ذلك فترة سكوت طويلة ، قطعتها « مريم » أخيرا قائلة :

— إنك تفكر أفكارا عميقة يا « يوسف » .

وغمغم « يوسف » ببطء وهو يهم بالوقوف :

— نعم إنى أفكر ... أليس غريباً ألا يظهر لى أنا أى ملاك ؟ .

وزفر زفرة يأس طويلة وصاح قائلا :

— من المؤكد أن لى حق فهم هذا الأمر العجيب . أو هل كان ينتظر منى أن أسلم بهذه القصة العجيبة كأنها شيء عادى؟ ليست لى رغبة فى التشاجر ، ويعلم الله أنى أحبك يا « مريم » بكل فكرى وقلبى وروحى . ولم أنظر قط إلى أية فتاة سواك .. ومنذ اللحظة التى رأيتك فيها تركزت آمالى وحياتى فيك أنت .. فإذا كان مثل هذا الأمر قد حدث فعلا فلماذا لم يأت لى ملاك ليطمئنى ؟ . هل يبعد طلبى هذا كثيراً عن المنطق ؟ أو ليس لى أى اعتبار فى الأمر ؟ .

وبكت مريم ... إنه لم يخطر ببالها أن الملاك أهمل أمر « يوسف » ، ولكن هذا هو ما حدث فعلا .

ولم يبق أمام « يوسف » سوى روايتها هى ، أليست هذه الرواية عسيرة التصديق على رجل فى مكانه ؟ .

وسألها « يوسف » عما إذا كانت قد أخبرت أمها فقالت :

ـ كلا لم أخبرها ولا أخبرت أبى ، فقد شعرت بأنه يجب أن أخبرك أنت أولا ...

ومشى « يوسف » نحوها فى بطء ، ولاحظت هى كيف أن هامته قد انحنت ، وأن بريق نظرته خبا .

واجتاحتها نحوه موجة من عطف الأمومة وحنانها ، ورغبة فى أن تضمه بين ذراعيها ، وقال « يوسف » :

ـ يجب أن أفكر فى الأمر ، وسوف نتحدث غدا فى هذا مرة أخرى .

ـ إذن ... فسلام لك يا « يوسف » .

ـ وليكن الله معك يا « مريم » .

وسمع « يوسف » صوتا لحفيف ثوبها وهى تجمع ثنياته حولها وتسير خارجة من الدكان فى ظلام الليل الحالك .

وكانت ليلة حالكة بالنسبة لـ « يوسف » ، إذ رقد فى فراشة ساهدا يتقلب فى يأس وحزن ويضرب الحائط الخشبي بقبضتيه ، مستعدا لأن يطلق صرخة ألم مدوية تصل إلى قمم جبال المدينة وإلى نجوم السماء .

وبعين دامعة أخذ يردد جميع الصلوات والمزامير القديمة محاولا بذلك أن يهدىء من ثورة قلبه ... ما هذا الذى تطلب إليه خطيبته المحبوبة أن يصدقه ؟ عذراء تلد طفلا !! ، وأنها لا زالت نقية طاهرة كما عرفها فى اليوم الذى تواعدا فيه على أن يصبحا زوجاً وزوجة !!

إنها تطلب منه أن يصدق أن الله هو والد ابنها !! إذن فهى تطلب منه أن يصدق شيئاً أكثر غرابة وهو أن ابنهما ـ كلا بل ابنها هى ـ سوف يكون المخلص الذى ينتظره العالم منذ آلاف السنين !! وأنها ستعطى للعالم المسيح !!

وانتفض بقوة وهو يتذكر الأغانى التى سمعها من فرقة المغنين فى المعسكر ... وقال :

ـ يا إلهى ، امنح نفسى الطمأنينة .

ولكن الطمأنينة بدت له بعيدة المنال . ثم طرأت له فكرة : هناك بعيدا ربما يستطيع أن يتخلص من عذابه ، يهرب مع « صموئيل » وينضم إلى المتمردين ، ويتعلم القتل ، فينسى « مريم » والطفل معا !.

ولم يرحب « يوسف » بهذه الفكرة العارضة . وأخذ يقول فى نفسه إنه يجب أن يكون عاقلا وصامدا أمام المصائب ، وإنه يجب ألا يثير الفضائح ، وعزم فى نفسه على أن يترك « مريم » سرا . ومع ذلك فإن من الممكن معالجة مثل هذا الوضع بغير ماضجة فى الناصرة

فهذه أسلم طريقة يعالج بها الأمر فى كل مكان آخر فى الأرض ، عندما تعود « مريم » بعد ذلك فسيتزوجها ولايعود يوجه إليها أسئلة أو يثيرأية شكوك ، ويقبل الوضع كما هو ويقف بجانبها ، فإنه مازال يحبها .

وما أن انتهى إلى هذا حتى انخرط فى بكاء منهمر من قلب كليم . وكان وجهه مبللا بالدموع عندما راح فى نوم عميق . ثم كما سبق أن رأى جده «يوسف» حلما رأى «يوسف» نجار الناصرة الشاب حلما فى تلك الليلة .

لم تكن رؤيا كالتى رآها « زكريا » و « مريم » وهما يقظان بل كان حلما عاديا كالذى يراه أى شخص وهو نائم . إلا أنه كان حلما واضحا متكاملا حتى خيل إليه أنه يعيش فيه . رأى «يوسف» الملاك ، وكلمه هذا بعطف يكاد يكون أبويا وأخبره ألا يخشى أن يأخذ «مريم» زوجة له ، وأن الطفل الذى حملت به هو حقا من الروح القدس وأن اسمه سيكون يسوع وأنه سيخلص الناس من خطاياهم . ثم انتهى الحلم وأخذ «يوسف» يستقيظ ببطء ، وقد لفه الظلام الحالك وخيل إليه أنه راقد فى أعماق الأسى الدامس ، وسرحت به الخواطر حتى وجد نفسه يردد نبوة الله على لسان أشعياه :

« لذلك سيعطيكم الرب نفسه علامة . ها إن العذراء تحبل وتلد ابنا . » .

وشعر « يوسف » بالبرودة تسرى فى أعطافه مع فكرة جديدة : سيتزوج « مريم » ، نعم ، ويقف بجانبها ، ويساعدها فى تربية ابنها المعجز ! .

ولم يدرك « يوسف » عندئذ أنه كما تغيرت « مريم » من قبل أخذ هو الآخر يتغير ـ ليصبح رجلا عظيما ، خالد الذكر . ولقد استطاع أن يتصرف هكذا لأنه يتمتع بنعمة الإيمان ولأنه أدرك أن من واجبه أن يتخذ « مريم » زوجة وأن يكون لها زوجا طهورا .

وبدا له فى حلكة الظلام نور روحانى ! .

الفصل التاسع

أمر من روما

كان حفل الزفاف فى بيت «مريم» بسيطاً ، استندت بعده «مريم» إلى ذراع «يوسف» وهو يقودها بفخر قاطعاً الطريق الطويل المؤدى إلى بيته .

ومنذ ضمهما البيت معاً ،عرفا الزمالة الروحية كيف تكون حقيقية ، فقد كان بينهما زواج روحين طليقين غير مقيدين بزمان ولا بمكان ، وكان حبهما أعمق وأهنأ وأكثر إسعاداً من أى زواج جسدى . وقد أخذ «يوسف» يرعى زوجته الشابة بعطف وتقدير متزايدين مع الأيام ، و « مريم » لا تكل من طهو طعامه ورتق ثيابه وتنظيف بيته ودكانه والسهر على راحته .

وكانا يعملان طوال النهار ، أما فى المساء فكانا يزوران والديهما وبعض الجيران والأصدقاء . وكانا يخرجان أحياناً للتنزه مع بعض الأصدقاء . وكانا يبدوان كزوجين عاديين .

ولكنهما كانا عندما ينفردان يتحدثان غالباً عن هذا الحدث العجيب الذى غير حياتهما . وكان « يوسف » يفكر فى تعجب للمفارقة الغريبة ، فبينما كانت إسرائيل كلها فى متاعب والناس جميعاً يصلون ويأملون أن يأتى المخلص المنشود ، كانت « مريم » تحمل فى أحشائها نفس المخلص ! .

ــ آه يا «مريم» ، إذا تحقق هذا . . .

ــ سيتحقق حتما ، كل ما علينا هو أن ننتظر .

ووصلت من «أورشليم» فى تلك الليلة بعض الأخبار عن عزم «هيرودس» على أن يثقل كاهل الشعب بضرائب أخرى، وقال أحد المسافرين :

ــ كيف يمكننا أن ندفع ؟ إننا حاليا نكاد نموت جوعا . إن أصحاب الماشية يربون الخراف ولا يملكون أن يأكلوها . فما الذى يفكر فيه بعد ذلك ، هذا الملك الغريب ؟ .

ولكن كيف علم هذا المسافر بمخطط «هيرودس» السرى؟ .. لقد همس لـ «مريم» و«يوسف» قائلا إن جماعة الثوار المتمردين يجدون دائماً وسيلة لمعرفة ما يدبر فى الخفاء . إن جواسيسهم

منتشرون حتى فى غرفة نوم « هيرودس » وبين زوجاته ، إنهم يراقبون ويسمعون ! .
وأخبرهما نفس المسافر عن زيارته لـ « زكريا » و « اليصابات » ، وعن ابنها ، « يوحنا » .
وكيف أنه أقوى طفل رآه فى حياته ، ففى يديه الصغيرتين قوة غير مألوفة ، وقد استطاع أن يمشى قبل الأوان بمدة طويلة ، إلا أنه لم يستطع أن ينطق كلمة بعد .

ولم يمض طويل وقت حتى عرف «يوسف» أن زائره كان صادقا فيما رواه عن الضرائب الجديدة . وقد وصلت هذه الأخبار فى الوقت الذى بدأ فيه «يوسف» يقلق لحالة « مريم » ، إذ أجمعت هى و « حنة » على أن ميعاد الوضع قد اقترب . وأصر «يوسف» على ألا تقوم « مريم » بأى عمل منزلى وعلى أنها يجب أن ترقد وتستريح أغلب الوقت فقد تملكته عندئذ جميع مخاوف الزوج الشاب عندما تكون زوجته على وشك أن تلد أول أطفالها .

وفى هذا الوقت انتشر فى كل شوارع الناصرة خبر ورود أمر جديد من روما . إن القيصر يزمع إجراء تعداد شامل للسكان فى أنحاء الإمبراطورية . وكان لهذا الخبر وقع سىء فى البلاد ، فقد كان الناس منذ القدم يكرهون ويتشاءمون من أن يحصى أحد عددهم .

ولكن الأمر باتخاذ هذا الإجراء الضخم كان واردا رأسا من أعلا سلطة ، إنه أمر إمبراطورى صادر من القيصر « أوغسطس » مؤداه أن كل فرد من رعاياه يجب أن يكون معدودا .

وقال صاحب المصبغة الصغيرة المجاورة لدكان « يوسف » :

— ولأى سبب ؟ لأنهم سيزيدون الضرائب ، ولا يجب أن يفلت منها أحد .

وقال « يوسف » ضاحكا :

— يفلت من الضريبة ! إنه لأهون للإنسان أن يفلت من الحياة . فقد أخذ الرومان بواسطة الضريبة على الأرض عشر محصول الفرد من الحبوب وعشرى محصوله من الكروم والفاكهة . ثم إن هناك أيضا ضريبة الرؤوس بواقع واحد فى المائة ، وضرائب كثيرة أخرى ، ثم ها هو بصدد ضرائب جديدة أخرى آتية فى الطريق .

وانتشر الخبر سريعا وأعلن فى جميع المقاطعات . أما فى مقاطعة « أورشليم » فيبدو أن الإمبراطور قد أغفلها إذ أن « أوغسطس قيصر » لا يثق بدميته المسماة «هيرودس» وهكذا صدرت الأوامر من العرش إلى « كيرينيوس » حاكم سوريا العسكرى بأن يقوم هو بعملية إحصاء شعب اسرائيل كله ووضع « كيرينيوس » عقوبات مشددة على كل إنسان فى فلسطين لا ينفذ هذه الأوامر .

وأزعج « يوسف » كثيرا أنه يتعين عليه أن يتغيب عن الناصرة فى الوقت الذى يجب أن يمكث فيه بجوار « مريم » ، لأن على كل شخص أن يسجل اسمه فى سجلات المدينة الرئيسية التى تتبعها قبيلته . وهذا معناه أن على « يوسف » أن يتجه إلى بيت لحم .

وقال له أحد شيوخ مجمع الناصرة :

— الأمر لا يتعلق بك وحدك . . . إن زوجتك أيضا يجب أن تذهب إلى مسقط رأسها لتسجل اسمها .

واعترض « يوسف » قائلا وقد تملكه رعب مفاجىء :

— ولكن كيف تستطيع « مريم » أن تذهب ؟ . . ألا تعلم أنها سوف تضع ابنها فى أى يوم من هذه الأيام ؟ .

— وهل يهم الرومان ما يحدث للزوجات أو لأطفالهن ؟

إلا أن الشيخ وافق « يوسف » عندما ألح عليه فى أن يقدم التماسا ليرى هل من الممكن عمل استثناء فى هذه الحالة . ومن وراء ظهره جاء الرد السريع القاطع أن لا .

إذن يجب عليهما أن يرحلا فى الحال ليتمكنا من الوصول إلى بيت لحم فى اليوم المحدد .

وذهل « يوسف » لهذا الظلم وهذه الوحشية ، حتى لم يسمع ما كان يصدر فى المجمع من أناس ملأ الحزن قلوبهم :

— لقد أحصانا « موسى » من قبل فلماذا يعاد احصاؤنا مرة اخرى ؟ .

ولم يكن هذا التساؤل منطقيا ، ولكن ما من أحد منهم كان منطقيا عند ذاك ، إذ كانوا كلهم يفكرون بأعصابهم وانفعالاتهم وشعورهم المرير بقسوة إرهاق الإمبراطورية لهم .

وأخذ « يوسف » يذكر « مريم » بما مر عليهما من أحداث وكيف أن « موسى » جمع العشائر كلها ماعدا عشيرة كهنة «لاوى» التى أعفت من الخدمة العسكرية ومن الضرائب ، وكيف أنه منذ ذلك الوقت أخذ أجداد « يوسف » و « مريم » ينهجون على هذا المنوال ، يضربون خيامهم ويقدمون ذبائحهم وهم فى أمان من الخضوع لتعداد أى قائد أو ملك أو حاكم ، وكيف أن سجلات مجمع الناصرة تفيد أن على « يوسف » و « مريم » أن يتوجها إلى بيت لحم ، لأن مدينة « داود » كانت هى بيت لحم ولأنهما كانا من بيت « داود » .
وكان « يوسف » تحت تأثير الخوف من خطر الرحلة على زوجته الصغيرة عندما سألها :

— ولماذا يجب أن يتم التعداد بهذا الشكل ؟ إن كهنتنا لهم طريقتهم الخاصة في معرفة العدد وهى طريقة جيدة مضبوطة . فإن كل ما عليهم عندما يريدون هذا أن يضربوا عدد حملان التضحيه فى عشرة.

وسألته « مريم » مسرورة بوفرة معلومات « يوسف » :

— ولماذا « عشرة » يا « يوسف » ؟ .

وقال « يوسف » :

— لأن خروف التضحية يوزع عادة على عشرة أفراد ، وما يفيض منه يوزع على البرص والمعزولين ولذلك فإننا نستطيع أن نعرف دائما كم منا فى مكان معين . أما هذه الرحلة إلى بيت لحم فإنه لا لزوم لها ، ثم إنى خائف .

ولكن « مريم » ابتسمت فى إيمان وثقة وهى تقول :

— حبيبى « يوسف » ألا تذكر ما قال الملاك لى ؟ .

— قال : لا تخافى يا « مريم » .

— وماذا قال لك أنت فى الحلم ؟ .

— نفس الكلمات : لا تخف يا « يوسف » .

— ولذلك لا يجب أن تخاف . ثم هناك شىء آخر يجب أن نتذكره فقد كنت حاضرة فى المجمع وكان الكاهن يقرأ من التوراة وسمعت بعض النبوات .

— عن « المسيا » يا « مريم » ؟ .

— نعم عن « المسيا » فإنه سيولد فى بيت لحم . هل نسيت هذا يا « يوسف » ؟ .

وأخذت « يوسف » الدهشة ، فقالت :

— فهلا زلت خائفا يا « يوسف » ؟ .

— لا يا « مريم » يا حبيبتى . وسنذهب إلى بيت لحم أيضا لأنه هكذا هو مكتوب .

وفى صباح اليوم التالى بدأت الرحلة .

الفصل العاشر

الرحـــلة الطويلة

يطول الطريق بين النـــاصرة وبيت لحم اليهودية إلى خمسة وسبعين ميلا ، وقد كلفت الرحـلة القافلة الصغيرة المكونة من « يوسف » و « مريم » ووالديها ثلاثة أيام من السير المتواصل طوال النهار . ركبت السيدتان حمارين قويين وسار الرجلان ممسكين باللجامين .

وكان الطريق غاصاً بالعائلات الأخرى الذاهبة للتعداد ، آلاف منهم تركوا منـازلهم وساروا راكبين وراجلين لمجرد أن إمبراطور روما أمر بذلك ، ومع أنهم أطاعوا كارهين إلا أن أكثرهم عزم على أن يستمتع بالرحلة . لذلك ذهبوا جماعات من الأصدقاء مغنين أثناء الرحلة ما طاب لهم من مزامير « داود » ، ومعسكرين وطاهين طعامهم معاً فى الليل ، وكان مع بعضهم قيثارات وأدوات موسيقية ، وهكذا اتئنست القافلة الصغيرة وخفت عنها وعثاء الطريق ، وكانت عبـاءة « مريم » الخفيفة الزرقة ملفوفة على عنقها كأنها ياقة عالية بينما لفح الهواء وجهها ولعب بشعرها . وكانت تبدو شـاحبة وأكثر نحافة ولـكن عينيها كانتا هادئتين مطمئنتين وثابتتين ، ولم تشترك فى الغناء لـكنها كانت تستمع إليه صامتة. وكان « يوسف » يحاول أن يسليها . ومع أنه لم يغادر بلده من قبل إلا مرة واحدة إلا أنه كان دائماً تواقاً لأن يرى البلاد التى درس عنها وعرف تاريخها ، لذلك كان يحدث زوجته عن معلوماته . فعندما يمران بالحقول الخصبة والبساتين المورقة على جانبى الطريق ، يحدثها عن المحصول المنتظر فى ذلك العام ، ثم ما أن انتهت الحقول وســار الطريق بين تلال الجليل ووهاده حتى قال « يوسف » :

— « مريم » يا حبيبتى لقد اقتربنا من مدينة شيلوه .

— وهل شيلوه هذه مدينة كبيرة يا « يوسف » ؟ .

— ليست كبيرة جداً إلا فى تاريخها . ويقول شيوخ المجمع إن أم «صموئيل» جاءت إليها لتدعو الله أن يهبها ابناً .

— وطبعاً تحقق طلبها ، إننا يجب أن نواصل صلواتنا مثلها يا « يوسف » .

— نعم يجب .

— الآن وصلنا إلى جلجال .

— جلجال ، لقد سمعت هذا الاسم من قبل . ما الذى حدث بها ؟ .

— كانت مقر « صموئيل » عندما كان يحكم شعبنا منذ أحد عشر قرناً .

— إن هذا الزمن يبدو أبعد من أن يمكن تصوره .

— نعم ، إن التاريخ غالباً ما يبدو هكذا لأمثالنا من أبناء هذا الجيل .

وأخذ « يوسف » يقود الحمار الراكبة عليه « مريم » فى طريق تحفه صخور عالية يطلق عليها اسم وادى الدموع ، وقد اقتربت « حنة » بحمارها من « مريم » وبدأ « يواقيم » يروى قصصاً عن طفولته وشبابه .

كانوا يتحدثون عن الحوادث التاريخية وقد بدت قريبة منهم قرب الأماكن التاريخية التى يجتازونها . فى هذا المكان المدعو « جيبا » كان قائماً قصر الملك الشرس «شاول» ، وهناك فى « باتيل » حيث كان يدق الوثنيون الدفوف أمام العجل المصنوع من الذهب ، أقام « يعقوب » صلواته .

وقال « يوسف » بتأمل :

— وهناك تنبأ « عاموس » عن مجىء « المسيا » .

وفى اليوم الثالث كان السرور غالباً عليهم إذ توقعوا أن تنتهى الرحلة قبل الليل، وكان « يوسف » قد أمضى الليلة السابقة ساهراً إلى جوار « مريم » ، يستمع إلى تنهداتها وهى نائمة ، وكان يصلى داعياً الله أن يصلوا سالمين إلى بيت لحم .

« بيت لحم» ! صيحة انطلقت من حناجر المسافرين عندما ظهرت عن بعد المدينة الصغيرة وأخذوا يرتلون مزامير « داود » وغيرها ويرقصون فرحين بالرغم من شدة تعبهم . وطغى على «يوسف» شعور كئيب عندما رأى السقوف البيضاء وسط خضرة مزارع المدينة ، وأخذ بيد « مريم » وهما ينظران إلى الضوء الذهبى المنعكس على البيوت البيضاء المتناثرة فى التلال الخضراء حيث كانت قطعان الماشية ترعى الكلأ بنهم .

إذن فهذه هى مدينة عشيرتهم . وتذكرت « مريم » قصة الرجل الغنى « بوعز » الذى جاز يوماً نفس هذا الطريق راكباً ناقة ورأى امرأة فقيرة تروح وتجىء فى حقوله وكان عمال الحصاد قد انصرفوا وكانت تلك المرأة الشابة الفاتنة الجائعة تجمع ما تركه الحاصدون

وراءهم من حبوب متناثرة على الأرض . . . « راعوث » و « بوعز » !! . . إنهما أيضاً من أجداد « يوسف » و « مريم » .

وجلس الزوجان يستريحان قليلا على حافة الطريق ويتأملان المنظر الأخاذ المحيط بهما : سفوح التلال وحقول الحنطة وأشجار الزيتون والتين — وأشجار أخرى كثيرة قوية باسقة خضراء تضرب فى زرقة السماء المنشورة عليها هنا وهناك سحب ناصعة البياض .

— كم هى رائعة هذه الأشجار ، أليس كذلك ؟ .

قالت « مريم » ذلك بطريقتها العارضة التى اعتادتها فى المدة الأخيرة ، عندما اقتربت الساعة الحرجة .

وكانت تعلم أن « يوسف » سوف ينظر إلى هذه الأشجار نظرة نجـــار محترف يستطيع بسهولة أن يذكر لها أسماء أنواعها المختلفة ، فهذه أشجار الصنوبر وتلك أشجار الحور والبلوط والقرو والزيتون .

وسألت « مريم » :

— أقلت إن هذه الأشجار تستخدم لصناعة السفن ؟ .

— تماماً يا حبيبتى ، إنها تستعمل فى صناعة الصوارى وألواح السفن ، إن البحر الأبيض ملىء بهذه السفن من بيت لحم .

وعندما استأنفوا السير إلى مدخل المدينة استمر « يوسف » يتحدث بإصرار إذ لاحظ انقباض يدى زوجته وشحوب وجهها ، وقال لنفسه :

— إن الطفل على وشك المجىء ، يجب أن نجد لها فراشا حالا ، وفى نفس الوقت يجب أن يشغل فكرها بأشياء أخرى . ولذلك أخذ يتحدث عن أجدادهما الذين حكموا هـذه المدينة وكيف نالوا كثيراً من الاحترام والتقدير ، فقد نشأفيها « شاول » حيث أسس ملكه . وهنا ضرب « يسى بن عوبيد » خيامه وهنا كان ابنه الأصغر « داود » يرعى غنمه ،« داود» الشاعر المحارب الملك نام على عشب هذه التلال وسمع غناء تلك النجوم . واستاء « يوسف » لتدخل أحد المسافرين فى الحديث ، إذ قال وهو يمسك قبضة « يوسف » :

— أنظر هناك حيث تتلاقى أشجار الزيتون بالطريق ، أترى ذلك البيت المتين المبنى من الأحجار ، ذا السقف الأبيض ؟ .

وقال « يوسف» بلهجه الرجل الذى عليه أن يرى أيضاً أشياء أخرى :

— نعم إنى أراه !

— هذا منظر من أقدم المناظر التاريخية فإنه بداخل هذا البيت يوجد صخر كبير لامع ، أصبح هكذا أملس لتوالى تقبيل النساء له وبكائهن عليه منذ آلاف السنين .

— ولماذا تقبله النساء وتبكين عليه ؟ .

— لأنه مدفن « راحيل » المسكينة .

وارتجف « يوسف » وسحب « مريم » من يدها مبتعداً بها عن هذا الغريب المزعج إذ يجب أن تنسى أنه فى ذلك المكان وقعت مأساة « راحيل » ، حيث ماتت وهى تضع ابنها « بنيامين » .

ودخلا الآن شوارع بيت لحم وكان ضغط المسافرين كبيراً بحيث تعذر على الزوجين أن يتقدما خطوة واحدة ، لم يصغ أحد لـ « يوسف » عندما سأل عن الطريق إلى خان . وضحك أحدهم عندما سمع هذا السؤال. وعبثاً حاول «يوسف» أن يجد مكاناً فى أى خان من الخانات الخمس التى ألح فى سؤال أصحابها ، وأخيراً دفع طريقه دفعاً داخل أحد الخانات وقال لصاحبه متوسلا فى يأس :

— إن زوجتى مريضة وعلى وشك الوضع .

وكان صاحب الخان رجلا أشيب الشعر ضخم الجسم ذا شارب كث تتدلى كتلة من الشحم تحت ذقنه ، وحلق الرجل ناظراً إلى هؤلاء الناصريين الأربعة ، ويداه الحمراوان مضمومتان أمامه ، وخيل لـ « يوسف » أن كل معانى الرحمة قد فرت من هاتين العينين الصغيرتين. وسكت الرجل لحظة ثم ظلل فمه بيده ذات الأصابع الضخمة ونادى بصوت أجش:

— سارة ! .

ومن خلف المنزل جاءت تهرول ، سيدة فى نفس ضخامته قريبة الشبة منه حتى ليخيل إلى الناظر إليها أنها صورة من زوجها فى ثياب امرأة . وقالت فى صوت خشن هو نسخة ثانية من صوت زوجها :

— ماذا تريد ؟

— انظرى إلى تلك السيدة .

— أيتهما ؟

— الشابة لا العجوز .

— نعم إنى أراها .

— هل ستلد الآن أم هى حيلة للحصول على مأوى ؟

وانحنت السيدة إلى الأمام وقد تقلصت ثنايا ذقنها . ثم قالت وقد غلب الخوف على صوتها الخشن :

— هذه السيدة ستلد الآن ، إنى أعلم ذلك . فقد ولدت عشر مرات .

وقال « يوسف » :

— أتوسل إليكما . . . استحلفكما بالله . . .

وقاطعته السيدة قائلة :

— ألا ترى كيف أن المكان مزدحم ؟ إن بيت لحم كلها مزدحمه ولا يوجد بها سرير واحد خال هذه الليلة . ولكنها لا تستطيع أن تضع طفلها هنا على البلاط ، يجب أن نجد لها محلا .

ثم قالت :

— اسمع يا جبرائيل ، يوجد مكان دافىء ومريح لم نضع فيه أحدا بعد .

وسأل « جبرائيل » دهشا :

— أحقا يوجد مكان الآن ؟ أين هو . . أين ؟ .

— فى الإسطبل .

ردد « يوسف » هذه الكلمة فى بؤس .

— الإسطبل !

واحتضنت « حنه » « مريم » بين ذراعيها ، ولكن الزوجة الشابة نظرت بامتنان إلى زوجة صاحب الخان وقالت :

— إنك حقا طيبة إذ فكرت فى هذا . فإن الإسطبل مكان دافىء . وسوف يكون كالبيت إذ كثيرا ما نمت فى أسفل بيتنا مع الخراف والماعز .

والتفتت « مريم » إلى « يوسف » وقالت :

— لابد أن هؤلاء السادة يعنون جيدا بحيواناتهم ، وسوف نكون بخير فى ذلك المكان .

وعادت فالتفتت سريعا إلى السيدة وقالت لها :

— إنك لن تؤجريه لأحد سوانا .

وابتسمت السيدة ابتسامة مغتصبة وقالت :

— كلا لن أؤجره لأحد سواكم . وسوف أساعدك . ويعلم الله أننا نحن معشر النساء يجب أن تساعد إحدانا الأخرى .

وكان الإسطبل كهفا متسعا يمتد أسفل الخان . وقاد « يوسف » « مريم » بيدها ونزلا سلما حجريا ملتويا ، ممسكا بيده الأخرى مشعلا ألقى على الحائط خيالا مكبرا لـ « يواقيم » و « حنة » و « مريم » و «يوسف» . وصرخت « حنة » فى ذهول قائلة :

— إلى أين نحن سائرون ؟ .

وكانت « سارة » تسير خلفهم تتنفس بصوت عال ومن ورائها « جبرائيل »وهو يتنفس بصوت أعلى من صوت زوجته ، وقد حمل كل منهما حزمة كبيرة من التبن النظيف صنعا بها فراشا بجوار الحائط الداخلى، حيث كان دفء أكثر ورطوبة أقل كما أحضرا ملاءات وأغطية ووسادة لـ « مريم » ثم استأذنا فى الانصراف لواجباتهما الكثيرة فى الفندق ولكنهما توقفا ليقولا لـ « مريم » معا :

— ليكن الله معك هذه الليلة .

وتنفس النزلاء الأربعة الصعداء إذ شعروا أخيرا بالخلوة وساعدت « حنة » « مريم » على أن تخلع ملابسها ثم صعدت السلالم باحثة عن آنية للماء الساخن بينما وقف «يوسف» بعيدا مشغول البال يسائل نفسه : لماذا لا يعطينا الله علامة الآن ؟ وأين الملاك إذن ؟ ولماذا لم تعد « حنة » بعد ؟ .

وعادت « حنة » بالماء الساخن ودعت الرجلين إلى الخروج من باب خلفى والانتظار هناك حتى تطلبهما ، وكان فى الخارج ظلام ورطوبة وبرودة .

ودعت «حنة» فى نفس الوقت «مريم» لأن تقوم وتسير فى المكان جيئة وذهابا . وأطاعت « مريم » ، واستمرت تروح وتجىء بين الماشية وقد امتلأت أنفها برائحة الشعير والتبن الهادئة اللطيفة ، وكما كانت هى تسير جيئة وذهابا كان « يوسف » يسير هو الآخر خارج الإسطبل قلقا يشد حزامه مرة ويرخيه مرات ، ويمسك أحيانا بكيس نقوده ليتساءل عما إذا كان مابه سيكفى . ومضت الساعات و « مريم » تتمشى من ناحية وهو من ناحيـــة أخرى . وجلس « يواقيم » القرفصاء ثم مضى فى النوم . وكان « يوسف » ينتظر فى قلق ويمضى مصليا عندما سمع صرخة طفل .

وفى الضوء الخافت ركع « يوسف » بجانب الفراش حيث كانت ترقد « مريم » شاحبة ضعيفة ولكن عينيها الحلوتين كانا مفتوحتين وعلى وجهها كله ابتسامة شجاعة وتمتمت :

— أنظر .

ثم حملت الطفل بين يديها ملفوفاً فى ملابس جدته الكبيرة ورفعته فى إعزاز ، وتعلق مصير العالم عندئذ بكفيها .

وشعر « يوسف » وهو يلقى النظرة الأولى على هذا الوليد أن هناك شيئاً غريباً فيه ، فلم يكن وجهه أحمر مجعداً كسائر من يولدون ، لكنه كان ناعماً وأبيض ، وقد ارتسم عليه طهر ومحبة ، كأنه جاء إلى العالم لا ليأخذ منه شيئاً ولكن ليعطيه كل شيء .

الفصل الحادي عشر

رعاة عند الباب الخلفي

شمل المكان هدوء تام إذ نامت « مريم » سريعا ، ونام كذلك كل من « يواقيم » و « حنة » فى ناحية من الإسطبل ، أما الطفل فقد كان نائما فوق التبن الجديد النظيف الذى وضعه « يوسف » فى المذود المخصص لوضع أكل الماشية .

أما « يوسف » فلم يستطع النوم فى تلك الليلة ، فإن ذهنه وروحه كانا مضطربين ، وعاد يتمشى حول المكان ، وفى كل مرة يمر أمام « مريم » والطفل يقف ليطمئن إلى أنهما نائمان فى هدوء ، وكان كلما نظر إليهما شعر بسرور وانتعاش يدبان فى أوصاله . ولم يكن يضايقه فى ذلك الوقت شيء إلا عدم وجود من يحادثه ، ففى تلك الساعة المعتمة من الليل شعر بحاجة شديدة إلى إنسان يبثه ما يعتلج فى فؤاده من بهجة وفرح .

وقال لنفسه :

— إن أعجب ما فى الأمر هو أنى عندما نظرت إلى عينى هذا الصغير شعرت أنى أعرفه طوال حياتى ، وأنه ليس غريبا عنى .

ترى أ كان هذا الشعور عجيبا لمجرد أن «يسوع» كان طفلا عجيبا ؟ فإن « يوسف » قبل كل شيء لم يكن هو والد الطفل ، ولم يسمح لنفسه قط بأن ينسى هذه الحقيقة . ومع ذلك شعر برابطة قوية جذابة تربطه بالطفل ، أقوى وأصدق من رابطة الأبوة نفسها ، ولكنه كان لا يزال يتعجب لعدم ظهور أية علامة قدسية أخرى ، فقد مضى وقت طويل دون أن يرى أى تأكيد علوى جديد ... تسعة أشهر مضت منذ ظهر الملاك طاويا جناحيه مبشراً «مريم» ثم جاء الحلم الذى رآه هو ، ثم ساد سكون مطبق ، أليس عجيبا أن الطفل موضوع هذه العجائب يولد هكذا دون ظاهرة عجيبة لائقة به ؟ .

ها هو الطفل ، فأين الملائكة إذن ؟ .

وأرهف أذنيه لعله يسمع رفرفة أجنحة الملائكة ، ولكنه لم يسمع إلا همهمة حمل نائم ،

ولكن كانت هناك همهمة أخرى آتية من بعيد ، إنه صوت أقدام وحديث أخذ يعلو مقتربا من الإسطبل من ناحية مدخله الخلفي ، ثم ملأ الضجيج المكان ، وخاف « يوسف » أن تستيقظ « مريم » ، ففتح النصف العلوى من الباب ووضع أصبعه أمام فمه منبها القادمين إلى السكون ، ورأى وجوها ملتحية تحملق فيه وقد رفع أحدهم فانوسا ، وكان من ورائهم الليل مظلما وصافيا ولمعت فيه ملايين النجوم لمعانا غير عادى ، ولم يكن « يوسف » قد تنبه لجمال السماء قبل تلك اللحظة . وقال فى صوت خافت :

— سلام لكم ! ألا ترون أن الوقت غير مناسب للضوضاء؟ .

ورد أحدهم فى صوت خافت أخاذ :

— ليكن الله معك ! إننا لم نقصد إزعاج أحد .

— فمن أنتم إذن ؟ .

— إننا رعاة من التلال المجاورة لهذه المدينة وقد كنا نرعى قطعاننا . . .

— ولكن الساعة متأخرة .

ووضح أن « يوسف » كان ينوى أن يقفل الباب لولا أن المتحدث منعه قائلا :

— انتظر ... إننا لا نبغى إلا سؤالا واحدا : هل ولد الآن فى هذا المكان طفل ؟ .

وشعر « يوسف » بقشعريرة خيفة أن يكون هناك ذنب غير مقصود ، أو أن تكون أوراقه ناقصة ، أو يكون هناك أمر يمنع من النوم فى الإسطبل ؟ إن الإنسان يكاد لا يتنبه لسيل القوانين التى تنهمر من سراى « هيرودس » ، ولكنه تمالك نفسه وسأل :

— لماذا تسأل أيها الراعى وما شأنك أنت بالطفل ؟ .

— لا تخف يا رجل ، إننا أصدقاء .

— إذن فإنى أخبركم أنه فعلا ولد طفل هنا .

— منذ وقت قصير ؟ .

— نعم ، منذ نحو ساعتين .

وبدرت صيحات فرح من هؤلاء الرعاة واستداروا لأنفسهم وأخذ كل منهم يربت على ظهر الآخر ، ثم همس أحدهم :

— إذن فهو حق ما سمعناه ؟ .

ووضع المتكلم الأول يده على كتف « يوسف » فى رفق متسائلا :

— خبرنى ، أهو ولد ؟ .

— نعم ، ولد .

— وهل صحيح أنك وضعت الطفل فى مذود ؟ .

وأجاب « يوسف » وفى عينيه دموع متجمعة :

— نعم فليس هنا مهد كما ترون ، وليس فى المدينة مكان هذه الليلة . فلم أجد غير هذا الإسطبل ملجأ لزوجتى ، وغير المذود مهدا للطفل .

وقال الرعاة :

— اعط مجدا لله يارجل !

وقال حامل الفانوس:

— اسمع يارجل ، لقد رأينا نحن الخمسة منظرا عجيبا ، منظرا لا يكاد أن يصدقه أحد . ومع ذلك فقد وقع ، وهو يتعلق بك.

ودار رأس « يوسف » : منظر عجيب . . . ولا يكاد أن يصدقه أحد ؟ إذن فهناك معجزة أخرى .

وقال آخر :

— أرجوك أن تصدقنا فيما نقول ، فقد كنا نسهر على قطعاننا ولا نفكر إلا فى شأننا ، هذا والليل رائق كما ترى والجو بارد والنجوم ساطعة وكل شىء يسير كالمعتاد وفجأة قطع « يونا » زميلنا الحديث علينا وأشار إلى ناحية فى السماء .

وقال « يونا » :

— نعم فعلت هذا ، لأننى رأيت نورا لامعا جدا فى السماء متجها إلى الأرض فى شكل ملاك أكبر من كل العالم ثم سمعت صوته .

وقال الرجل الأول :

— لقد رأينا جميعا الملاك وسمعنا كلنا الصوت الآتى من السماء .

وسأل « يوسف » فى لهفة :

— وماذا قال الصوت ؟ .

— قال : لا تخافوا . . . . !

— نعم إنه دائما يبدأ هكذا . . . ثم ماذا ؟ .

— ثم قال إنه آت لنا بأخبار عظيمة . . فقد ولد مخلص العالم . . . وأنا أذكر كلماته بالضبط فكيف يمكن أن أنساها ؟ لقد قال : « لأنه اليوم ولد لكم مخلص هو المسيح الرب » .

وهمس « يوسف » :

— المسيح الرب . . .

— نعم يا صديقى إن هذا هو ما قاله الصوت وقال أيضا إنه ولد فى هذا البلد وإننا سنلقاه ملفوفا فى ملابس واسعة وراقدا فى مذود .

واندفع أحد الرعاة الواقفين إلى الخلف قائلا فى حماس :

— ولن تستطيع أن تتصور ما حدث عندئذ ، فقد رأينا السماء وقد انفتحت وانشق حجاب النجوم يمنة ويسرة ، وطلع من الفتحة العظيمة رهط كبير من الملائكة ملأ السماء وكانوا جميعا ينشدون بأعلى أصواتهم .

وقاطعه « يونا » سائلا « يوسف » :

— هل تعرف ماذا كانوا يرتلون ؟ لقد كانت كلماتهم هى « المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة » .

وانطلقت ألسنة الرعاة جميعا متحدثة فى وقت واحد وقد أخذتهم نشوة الرؤيا التى رأوها . وانفلت زمام هؤلاء الرعاة الخشنين الذين تفوح منهم رائحة المرعى الخصيب ، رجال عمل ، عمال واقعيون . ومع ذلك فقد قصوا الرواية وكأنهم يتلون الشعر ، ثم بدا أنهم هدءوا . وقال كبيرهم وهو يخفض فانوسه ويخفض صوته متنهدا :

— نرجوك أن تعذر حماسنا هذا ، فإننا لا نتوقع أن تصدقنا .

ثم نظر إلى « يوسف » فى يقين .

ـــ ولكن ما قلناه حق فقد رأيته أنا وسمعته .

ومد « يوسف » يده إليهم مصافحا فقد صدقهم وآمن بما يقولون ، وأنسوا هم إليه فحكوا له كيف تركوا قطعانهم وأسرعوا إلى بيت لحم وطفقوا يسألون كل من قابلوه حتى اهتدوا إلى الخان الذى ولد فيه طفل ، ثم سألوا هل هو فعلا راقد فى مذود ، فأرسلوهم إلى الإسطبل ليروا ما هناك .

ونزلت قصة الرعاة هذه سلاما على قلب « يوسف » .

إذن فقد ظهرت أخيرا العلامة للرعاة ، وكان هذا أفضل من أن تظهر لـ « يوسف » فهؤلاء الرجال المجدون الذين يأكلون خبزهم بعرق جبينهم ، الأشداء المتواضعون ، قد رأوا أبواب عالم آخر تتفتح وسمعوا ترتيلا آتيا من الأعالى ، فقد فرحت السماوات هكذا بمولد ابن « مريم » . وهؤلاء العمال البسطاء هم أول من حضر ليزور « يسوع » الطفل حديث الولادة . واحتضنهم « يوسف » الواحد تلو الآخر وقبلوا لحيته ، وتقدمهم وهم يسيرون وراءه على أطراف أقدامهم إلى المذود حيث نظروا إلى الطفل النائم فى ملابسه الفضفاضة وركعوا أمامه مصلين خاشعين .

ولما رحلوا استأنف « يوسف » الحراسة وقد اطمأن قلبه إذ أتت أخيرا العلامة . وعاد يسمع بعقله رهط الملائكة خدام الله ترتل للأجيال القادمة «على الأرض السلام... » .

الفصل الثانى عشر

زوج من الحمام

— « يوسف » يا صديق ، أعازم أنت على أن تختن هذا الطفل ؟ .

كان هذا سؤال « صموئيل » عندما أتى إلى الكهف إذ اهتدى أخيراً إلى حيث نزلت العائلة .

وأجاب « يوسف » :

— بالطبع سأفعل ، ولم لا ؟ .

— ولكنك أنت نفسك تقول إنه لم يولد كما يولد باقى الأطفال .

— هذا حقيق ، ولكنى لا أقدم على عمل يخالف الشيء المألوف أو الطبيعى يا « صموئيل » . إنى أحب هذا الطفل أكثر مما أحب نفسى ، ويجب أن أتذكر مكانى بالنسبة إليه . فأنا لست إلا مربياً له وإنى ما زلت أفكر كثيراً فى هذا الأمر . إنها لمسئولية ضخمة على نجار جاهل مثلى .

— إنك لست جاهلا إلى هذا الحد .

— لقد عزمنا « مريم » وأنا على أن نربى الطفل « يسوع » بكل عناية وبكل ما لدينا من علم ومعرفة . وسوف نفعل كل ما يجب علينا فعله .

— هذا رائع يا « يوسف » ، ولكن . . .

— بالتأكيد سيختتن ، وسوف أتبع معه كل ما يخضع له شعبنا من قانون وتقاليد . ويقول قانوننا إن كل طفل ذكر يجب أن يختتن فى اليوم الثامن من عمره .

وقال « صموئيل » فى تهكم :

— اليوم الثامن ، ليس السابع ولا التاسع . . . لماذا يكون لهذه الأشياء التافهة أهمية عند عظماء مثل الله الذى يدير العالم كله ؟ .

وقال « يوسف » مؤكداً فى هدوء :

— ليس لدى أية فكرة . . . وأعتقد أننى لن أستطيع أن أفهم ، حتى لو فسر لى ذلك أحد الناس ، ولكنى أعرف ماهو مكتوب فى الكتب وهذا يكفى لمن هو مثلى .

ونظر « صموئيل » إلى صديقه نظرة شاردة . إنه يحب هذا النجار الطيب بالرغم من اختلاف طباعهما ، ولكن « صموئيل » الخشن المتمرد كان لا يحب إطاعة القوانين والأوامر، ومع أنه لايرغب فى مضايقة « يوسف » إلاأنه شعر بدافع قوى لمداعبته فقال :

— ومن غير شك فإن « مريم » سوف تتطهر ؟ .

— ولم لا ؟ .

— ولماذا تتطهر أية امرأة من الأمومة ؟ .

— احذر التجديف !

— هراء أن تعد المرأة غير طاهرة لمدة سبعة أيام بعد الوضع ثم لا يسمح لها لمدة ثلاثة وثلاثين يوما أخرى أن تلمس أى شيء مقدس وغير ذلك من القواعد السخيفة . إنى لا أجد كلمة أنسب فى هذه المناسبة من كلمة هراء . . .

وأجاب « يوسف » فى هدوء :

— ونحن نطيع هذه القواعد .

— ولكن يا « يوسف » أليس صحيحاً أنك ما زلت تعتقد أن الروح القدس هو والد الطفل ؟ .

— نعم إنه كذلك .

— وهل كان هذا خطيئة ؟ .

— كلا .

— إذن فلا خطيئة ؟ إن زوجتك كانت لا تزال عذراء عندما ولد هذا الطفل ؟ .

— أمام الله ، نعم .

— وما دامت بلا خطيئة فلماذا عليها أن تتطهر ؟ أجبنى يا « يوسف » !

ووضع زوج « مريم » يده على كتف صديقه وابتسم فى صبر وقال :

— إن تغيير قانون الطبيعة ليولد هذا الطفل هكذا لم يكن نتيجة لتدخلنا . فلم يكن فى

استطاعتنا أن نفعل هذا لو أردناه . إننا لسنا مشرعين ولذلك لا يمكننا تغيير القانون . وعلينا أن نحاول أن نفهم القوانين ونطيعها ، وليس لنا أن نبحث عن حكمتها وأسبابها وأن ندخل عليها استثناءات لصالحنا ، ثم ليس عندى من الذكاء ما يكفى لإدراك حكمة الرب يا «صموئيل» ولا تؤاخذنى يا صديقى إذا قلت ولا أنت أيضاً ! . ولذلك يجب أن تنفذ القوانين كما هى .

وهكذا وتنفيذاً لهذه القوانين ترك «يوسف» و«يسوع» و«مريم» و«حنة» و«يواقيم» الكهف فى اليوم الثامن وركبوا حميرهم مسافة ستة أميال على التلال شديدة الانحدار المؤدية إلى «أورشليم» ، وكان الجو دافئاً ونسمات الهواء العليل تنطلق فى ضوء الشمس الساطع وتتلاعب بالمزروعات وتهز الأشجار فى رقة ، وبدت الدنيا جميلة أمام الأم الحاملة ابنها بين ذراعيها :

ولفتت أنظارهم روعة العاصمة العظيمة القابعة أمامهم ، تلك المدينة الفخورة ذات الحوائط والأبراج المشيدة على مرتفعاتها الجنوبية الشامخة . وقال يوسف .

— تخيلى هذا يا « مريم » . . إن بعض سكان بيت لحم الذين حادثتهم لم يروا هذه المدينة العظيمة القريبة منهم ، تخيلى هذا . . . يعيشون هكذا قريباً ولا يهتمون بالذهاب إليها ورؤية روائعها ! !

وقالت « مريم » :

— أعتقد أن الناصرة مكان أكثر جمالا .

ووافق الآخرون على ذلك وأضافوا أن « أورشليم » بلد عظيم جداً للزيارة ولكنهم لا يودون أن يعيشوا فيه ، ومع ذلك فقد حركت أحاسيسهم قوة المدينة ومرتفعاتها ومنحدراتها.

وانتهوا من الطريق المنخفض بين الجبال الكثير التعاريج المطل على هوة عميقة من هذه الناحية وفجوة فاغرة فاها من الناحية الأخرى ، المليء بعلامات الكوارث الطبيعية الممعنة فى القدم . وبدت أمامهم جدران المدينة الشامخة ، وأخذهم الإحساس بالكبرياء ، وكانوا قد وصلوا إلى مستوى الحائط المرتفع غير المنتظم البناء الملون كالقطة الشهباء المكدسة أحجاره الضخمة فوق بعضها طبقات على ارتفاع ثلاثين قدما والممتدة على مدى النظر حتى تتلاقى مع الأفق ، ظاهرة أبوابها الثمانية والأبراج الستون المحروسة بجلادى «هيرودس» ، ثم دخلوا من بوابة الماشية . وفى ظلال أقواس النصر نظرت « مريم » إلى وجه الطفل فرأت عينيه مركزتين نظراتهما على شيء ما وفيهما ذكاء خارق وبدا لها أن الطفل يدرك دخوله الأول هذا إلى «أورشليم» ، ويدرك أنه سيدخلها مرات يعلم هو وحده كيف تنتهى . ولكن عينيه سرعان

ما أغمضنا ومضى فى نوم هادىء لا يبالى فيه بالعجائب من حوله ، أما الكبار فقد كانوا يستمتعون بالنظر إلى حلبات الرياضة حيث يشجع « هيرودس » الشبان على التمرين وتقوية أجسامهم ليكونوا جنوداً أشداء فى المعارك .

وانطلق قلب «مريم» إلى الله فى صلاة أن يجنب «يسوع» أن يكون جنديا . وأدارت نظرها من ناحية حلقة المصارعة إلى ناحيـة المسرح الذى كانت تمثل فيـه روايات خليعة تنحط حتى تساوى وقذارة الشوارع الضيقة المظلمة فى البلد ، وقد أدهشت المفارقة هؤلاء الريفيين الطيبين السذج ، إذ تجمع هذه المدينة بين الأكواخ والفقر المدقع فيها ، والقصور ذات الثراء الفاحش ، كما تجمع بين الحوارى المظلمة القذرة التى تمرح فيها الأمراض وتستشرى الجرائم ، وبين الطرق المتسعة المشمسة التى تصل إلى الهيكل نفسه وإلى قصر «هيرودس» بقبابه الثلاث المسلحة المليئة بحرس الملك الخائف أن يقوم الشعب ويذيقه جزاءه الحق .

وكان «صموئيل» قد أخبر «يوسف» عن الشرور والمفاسد المنتشرة فى ذلك المكان ، وعن عربة الملك المصنوعة من الذهب والعاج والمخمل الأبيض وعن زوجاته ومحظياته وخـدمه وخادماته وطهاته ومهرجى قصره ومطربيه وراقصيه ووسائل لهوه التى لا نهاية لها المنتشرة فى أروقة القصر وأبهائه وقاعاته المختلفة .

وسر المسافرين الأربعة أن يجدوا أنفسهم عند الباب الخارجى للهيكل وأن يجدوا بعض أقربائهم ينتظرونهم للترحيب بهم فقد كان «زكريا» واقفا فرحا بجوار «اليصابات» التى حملت ابنها يوحنا على ذراعيها ، ووجدوا أيضا صديقهم المخلص ، «صموئيل» الساخر .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تلتقى فيها «اليصابات» و «مريم» منذ ميلاد «يسوع» ، فقد توجهت «اليصابات» و «زكريا» ثلاث مرات إلى بيت لحم فى الأسبوع الأخير . وتقدم الجميع إلى داخل أسوار المعبد والبشر ظاهر على وجوههم ثم توقفوا فى بهوه الخارجى لشراء القرابين التقليدية ، وهنا نظرت «مريم» إلى «يوسف» نظرة تساؤل لترى ماعسى أن يقرره .

وطبقـا للقوانين كان على « يوسف » أن يشترى حملا لتقـديمه كمحرقة وحمامة صغيرة لتقديمها كفارة كما كان عليه أن يشترى يمامتين أو زوج حمام أيهما يرضيه ويتناسب مع ماليته .

وقرر « يوسف » أن يشترى حمامتين سمينتين ، فقد شعر أنهما أحسن ما فى استطاعته أن يقدمه بعد أن أرهقه «جبرائيل» و«سارة» بأجر إقامتهم فى الكهف ، واختار إحدى الحمامتين

واختارت « مريم » الأخرى ، وحملهما « يوسف » عندما استأنف الجميع سيرهم إلى داخل الهيكل . ونظر «يوسف» حوله وقد عاوده مرة أخرى شعوره بأنه ينتمى إلى ذرية «داود» ويكمل تاريخ البشرية الذى كان هـذا الهيـكل رمزا له ، الهيكل الذى ولو أن « هيرودس » دفع نفقات بنائه إلا أن مهندسيه من الشعب هم الذين صمموا رسومه ، ثم بناه أبناء الشعب بعرقهم وإليه يلجأ الشعب مستجيرا بالله من الطغاة الظالمين ، وفيه ينطلق الشعب على سجيته غير واقع تحت أى تأثير من العالم الخارجى ، ويصر على التمسك بأدق شعائره الدينية بالرغم من جيش الرومان والملك ، وتحت سمع « هيرودس » الساكن بجوار الهيـكل ، كان الشعب يقيم بانتظام صلواته لا تمجيداً لله فقط وإنما ضراعة له أن يخلصهم من هؤلاء الدخلاء المغتصبين ، وكان « يوسف » على وشك اجتياز القاعة التى تقدم فيها القرابين وتقام فيها الشعائر الدينية عندما حدث ما جعلهم يتوقفون فجأة عن السير .

فبينما كانت « مريم » تضم الطفل النائم إلى صدرها وتسير وراء «يوسف» ببضع خطوات إذ اندفع بينهما خارجا من طريق الأقواس رجل مقوس الظهر شبه أعمى ذو وجه كثير التجاعيد ، وسأل « صموئيل » بسرعة :

— ماذا يريد هذا ؟.

ولـكن « زكريا » الـكاهن الذى يعرف دخائل الهيكل رفع يده مطمئنا وقال :

— لا تنزعجوا ، إنه «سمعان» ، وكل الناس حول الهيكل يعرفون «سمعان» الشيخ هذا ، إنه طيب لا يؤذى أحدا .

وقال «صموئيل» :

— إنه لعجوز فعلا !.

فقد كان «سمعان» من الـكبر حتى ليتعجب الناظر إليه كيف أن ظهره المقوس لم يقصم بعد على شدة انحنائه وضعفه البالغ .

واستأنف « زكريا » يقول :

— إنه رجل تقى صادق يقول للجميع إن ملاكا زاره مرة وأخبره أنه لن يموت حتى يرى المسيح المتجسد .

ونظر «صموئيل» فى حذر إلى « زكريا » الذى كان وجهه شديد الهدوء ، ووقف الباقون صامتين عندما أخذ « سمعان » يزحف مقتربا من « مريم » و « يوسف » .

وسادت لحظة صمت وتعجب عندما وقف رافعا يديه المعروقتين شاكرا الله وقائلا له في صوت مرتعش : الآن أطلق يارب عبدك بسلام فقد رأت عيناى خلاصك . . ! .

ولما سمع « صموئيل » هذه الصلاة سرت في أوصاله رجفة شديدة ، بينما وقف الباقون دون حراك وقد اندفعت الجموع نحوهم من كل ناحية يرقبون « سمعان » وهو يقترب وجهه النحيل من الأم الشابة . ويقول وقد لمعت عيناه الذابلتان الناظرتان إلى « مريم » :

— إن هذا الطفل قد جاء لقيام وسقوط كثيرين ، ولكى يخلص الشعب.

ورفع يده اليمنى البارزه العظام وأشار بإصبعه المقوس إلى صدر الأم وتنبأ قائلا :

— وأنت أيضا سيمزق نفسك سيف ألم قاطع !.

وقبل أن يستطيع أحدهم أن يتكلم سمع صوت آخر كأنه نحيب ، وظهرت في نفس الطريق الذى أتى منه « سمعان » امرأة تزحف على ركبتيها .

وغمغم « زكريا » :

— إنها «حنة» النبية ،هي الأخرى متقدمة جدا في السن بل هي أكبر سنا من«سمعان» . وقد ترملت منذ أربع وثمانين سنة ، ولم تبرح صائمة ومتعبدة في الهيكل منذ يوم بنائه .

وقال « صموئيل » مقاطعا « زكريا » :

— وماذا تقول هي الأخرى ؟ .

— أنصت إليها .

وكانت « حنة » في هذه اللحظة تجاهد لكى تقف أمام « مريم » ، ونظرت إلى الطفل وقالت في صوت واضح حتى أن سمعان المحتضر كان يستطيع أن يسمعه :

— هذا هو حقا مخلص الشعب ! .

الفصل الثالث عشر

الملك والطفل

بالطبع سمع « هيرودس » ذو البشرة القاتمة اللون بجميع هذه الأمور ، فمنذ أن أصيب « زكريا » بالخرس وهو أمام المذبح ، انتشرت الشائعات بأن هناك أشياء عجيبة تحدث فى « أورشليم » ، وأخذ جواسيس «هيرودس» ينقلون له كل ما يسمعونه ومن بين ذلك همسات من الشمال تقول إن عذراء من الناصرة ستلد طفلا . ثم أخذ الرعاة أيضا يتحدثون هنا وهناك عن تجربتهم الخارقة للطبيعة . ولما أعلن « سمعان » الشيخ فى فناء الهيكل أن هذا الطفل من عند الله وأنه هو الذى كان ينتظر طوال تلك السنين أن يراه ليموت ، ومات ، ثم أيدت العجوز «حنة» هى الأخرى هذه الشهادة ، احتار «هيرودس» وارتبك . ثم لما أخبر «صموئيل» « يوسف » بأخبار « هيرودس » هذه سأله هذا بخوف :

— هل يقبض الملك علينا ؟ .

— إنى آسف أن أقول إن هذا الأمر محتمل جدا . إن « هيرودس » الآن يخاف من ظله ، فكيف لا يخاف من منافس لعرشه ؟ إذ أن كل ما يصله من قصص معناه أن طفلك هو ذلك المنافس .

وكان جواسيس الثوار الذين ما زالوا يعملون فى خدمة قصر « هيرودس » يسمعون جواسيس الملك النشطين وهم يروون له هذه الروايات العجيبة !!

إلا أن هذه الروايات كانت غامضة وخالية من التفصيلات . لذلك فإنه حتى ذلك الحين لم يكن « هيرودس » يعلم أن « يوسف » نجار الناصرة و«مريم» زوجته هما بيت القصيد وأنهما معا فى كهف فى بيت لحم .

ودارت بين « هيرودس» وجواسيسه عدة مناقشات مثيرة فقد أخذ ينتهرهم ويزأر قائلا :

— ما هذه المعلومات الناقصة ؟ إنى أريد الحقائق ! .

وعادوا بحقائق مذهلة ، فقد وصل إلى العاصمة ثلاثة رجال من الشرق ، ليس معهم قافلة وإنما أربعة جمال فقط أحدها يحمل بصناديق وطرود يحتفظون بها معهم فى الخان ، ويقال إنهم ملوك متخفون . وقال « هيرودس » لجواسيسه :

— ثلاثة أغراب وأربعة جمال فى الخان؟ ترى أى نوع من الرجال هم؟ وإلى ماذا ينتمون؟.

ثم أضاف :

— أهم تجار أم سفراء جاءوا لى بهداياهم ؟ ما شأنهم ؟ .

وقال الجواسيس :

— يقولون إنهم مجوس .

— وما المجوس هؤلاء ؟.

— المجوس هم أناس حكماء ، إلا أن هؤلاء الثلاثة لا يبدو عليهم أنهم حكماء ، فإنهم راحوا يقطعون المدينة من الهيكل إلى حلبة المصارعة روحة وجيئة لا ليلقوا الحكمة إلى الناس بل ليلقوا عليهم أسئلة .

— ما هذه الأسئلة ؟ .

وأجفل الجواسيس وابتلعوا ريقهم وظهر عليهم الارتباك .

— أية أسئلة أيها الأغبياء ؟ تكلموا وإلا أمرت بجلدكم .

— إنهم يسألون عن مولد طفل عجيب سيأخذ عرش « أورشليم » . ويقولون إنهم رأوا نجمه فى المشرق وإنهم تبعوا النجم وحضروا ليسجدوا له .

وبقبضتيه الحديديتين ضرب الرجلين فأوقعهما على الأرض وأخذ يركلهما بحذائه ويصرخ ، ثم أمر بأخذهما وإعدامهما . وشرب إبريقين من الخمر المعتق وأمر بالموسيقيين والراقصات والراقصين المصريين ، ولكن ما أن بدأت الموسيقى حتى صرخ غاضباً وطرد الجميع من أمامه . ثم رقد على أريكة وهو يتنفس بصوت عال ووقف غلام يحرك مروحة . وكان الغلام جاسوساً لحركة المقاومة التى يشترك فيها «صموئيل» . وعندما هدأت ثورته دعا «هيرودس» سكرتيره «نيسوس» الذى يعلم عن المجوس أكثر مما يعلم الجواسيس ، وقال ذاك :

— إنهم يستطيعون أن يأتوا بالأعاجيب .

وسأل «هيرودس» :

— أيكونون سحرة ؟ .

ـــ كلا ولكنهم مقدسون فى بلادهم وكهنة أديان شرقية وهم من الكفاءة بحيث يفهمون أسرار الماضى ويتنبأون بالمستقبل .

وتعجب «هيرودس» وقال :

ـــ إذن احضر لى « حنانيا » ورؤساء الكهنة والكتبة .

ولكن عندما حضر إليه كل هؤلاء لم يعبأ بهم واستدعى « حنانيا » وحده . وكان كل منهما يفهم الآخر تماماً .

وحتى فى هذه الأيام المبكرة كان « حنانيا » هو داهية « أورشليم » فى السياسة . وكان مكروهاً من الشعب لأنهم يعرفون أنه باع نفسه لروما ، وكان « هيرودس » يفهم أنه لو أن ثورة نشبت فإن « حنانيا » زعيم الأربعين عائلة الأكثر ثراء فى البلد سيكون أول من يعدمه الشعب . وكان الناس يعرفون جيداً علة تفاهم هذا الكاهن مع العدو الغاصب ، فقد سأل هو « هيرودس » عما تريده الإمبراطورية من فلسطين ، فأجاب هذا :

ـــ الضرائب والهدوء والسكينة .

وقال « حنانيا » :

ـــ أما الضرائب فسنجبيها لكم ، وأما الهدوء فإننا نضمنه ، وكل ما نطلبه هو أن نحافظ نحن على النظام ونجبي نحن الضرائب .

ووافق « هيرودس » واستأجر « حنانيا » وأصدقاؤه الجباة وفرضوا على الناس ضعف الضرائب المطلوبة ، واحتفظوا هم لأنفسهم بالنصيب الأكبر وأدوا الباقى للرومان. وأفرطوا فى استعمال الجواسيس ليتنسموا مقدماً أخبار المؤامرات وليعاقبوا الثوار مقدماً . وهكذا ساد التفاهم بين « حنانيا » و « هيرودس » .

وقال « هيرودس » فى مكر :

ـــ «حنانيا» ، لقد دارت مناقشة بينى وبين أصدقائى فى القصر هنا ، وأحببت أن أحتكم إليك فى هذا .

ومد « حنانيا » ذراعيه نحو الأرض وانحنى وهو يقول :

ـــ لكم أتمنى أن أخدم جلالتكم ! .

ولم يكن هو يخشى « هيرودس » ولكنه كان حريصاً على مراعاة آداب التخاطب مع الملوك ، ولهذا أضاف :

— كل ما على جلالتكم هو أن تأمر ، فإن حياتى كلها فى خدمتكم ! .

وابتسم « هيرودس » الذى يرضيه دائماً المداهنة وآيات الخضوع ، حتى ولو كان هذا مجرد رسميات وقال :

— إنه شىء يتعلق بدياناتكم .

وبلع « حنانيا » ريقه وسأل :

— أيكون أن جلالتكم تهتم بدياناتنا ؟ .

— أنا لا أعرف شيئاً عنها ولا أريد أن أعرف . كل ما أريده هو أن أنهى مناقشة .

ثم سأله « هيرودس » :

— هل صحيح أن لديكم كتابات تتنبأ عن قدوم مخلص لشعبكم ؟ .

— هذا صحيح يا صاحب الجلالة .

ومال « هيرودس » إلى الأمام فى وحشية وقد احمرت عيناه الجاحظتان ، فلعله كان مريضاً بالتهاب الغدة الدرقية وسأل فى غضب :

— هل تفهم أن هذا يعنى الخلاص من سلطتى الملكية وهل تفهم أن هذا خيانة ؟ .

ونفى « حنانيا » هذا بهزة من رأسه مطمئناً وهو يبتسم خلال لحيته التى تشبه ذقن الجدى، وبدا عليه أنه هو الآخر مطمئن وهو يقول :

— يا صاحب الجلالة أرجو أن تعفو عنى عندما أصحح خطأ بسيطاً ، فإن هذه النبوات صدرت عندما كان الشعب فى الأسر فى « بابل » منذ مئات السنين .

واطمأن « هيرودس » قليلا واضطجع إلى الخلف وسأل :

— ولكن قومك لا يزالون يؤمنون بهذه النبوات .

ورد « حنانيا » مصححاً :

— بعضهم فقط . ولكن ألا ترى يا صاحب الجلالة أن هذا حاصل فى كل دين ؟ وفى كل دين يأخذ الجهلة التنبؤات حرفياً ؟ وليس من الحكمة أن نحاول أن نخرج الأغبياء من غبائهم ، خصوصاً إذا كان هذا الغباء يجعلهم أبداً مطيعين للرؤساء ومطمئنين إليهم . وليس هناك من رجل ذكى يعتقد صدق روايات تلك الكتب أو تنبؤاتها .

— وأنت يا « حنانيا » — كرجل دين — ألا تؤمن بهذه النبوات ؟ .

— لا يا مولاى فإنى صدوقى ولا أؤمن البتة بهذا ، بل إننا لا نؤمن بوجود حياة بعد هذه الحياة ولا بالقيامة .

وقال « هيرودس » متبرماً :

— ولا أنا أيضاً أومن بهذا . إننا نعيش اليوم ونموت غداً وينتهى كل شىء . وأى إنسان يعتقد فى أكثر من هذا ، ليس إلا مجرد غبى .

— بالضبط يا صاحب الجلالة .

وتمنى «حنانيا» أن ينتهى هذا النقاش ، ولكن « هيرودس » لم يكن قد أشبع فضوله بعد ، ولذلك سأل :

— أليس فى كتبكم القديمة هذه ما يشير إلى مكان ميلاد ذلك المخلص ؟ ثم ألم تعطه الكتب أيضاً لقباً آخر ؟.

— نعم يامولاى : « المسيح » .

— آه نعم هذا هو اللقب الذى سمعته ، الم تذكر الكتب شيئاً عن الزمان والمكان اللذين سيولد فيهما المسيح ؟ .

وتنهد « حنانيا » وهرش رأسه وهو يعترف :

— نعم هناك شىء من هذا يا مولاى ولكنى آسف أن أقرر أنى نسيته ، وهذا يظهر لجلالتكم كيف أن هذه النبوات لا قيمة لها فى اعتبارى .

— حسنا . ولكن ألا تستطيع أن تبحث عنها لأجلى ؟ .

— فوراً يا مولاى .

— إذن تعال غدا فى نفس هـــذه الساعة ، وقل لى مكان ميلاده وتاريخه . أترانى قد أوضحت قصدى ؟ .

— تماماً يا صاحب الجلالة !

ولم يكد يخرج «حنانيا» حتى أمر «هيرودس» بإحضار المجوس الثلاثة إلى قاعة العرش . وكان « هيرودس » قد أعد نفسه لهذه المقابلة إعداداً فخماً . فقد اكتسى أبهى حلله الملكية ليؤثر قدر الإمكان على الحكام العلماء الآتين من وراء دجلة والفرات . ولبس تاجاً من الماس

والأحجار الكريمة كان يلمع بشدة فوق جبهته ويسمى « تاج يهوذا »، يعلوه ريش بديع فى ألوان قوس قزح.

وكان اللقاء غريباً. وتصرف الرجال العظماء الآتون من الشرق أمام الملك تصرف العالمين بآداب البلاط. وعندما أتى وقت تقديمهم أنفسهم وقف كل منهم على التوالى معلناً اسمه : « جاسبار »، و« ملشيور » و« بالشازار».

ورد « هيرودس » على كل منهم بابتسامة عظيمة محبة وهادئة وقال :

— إننا جد تواقين لأن نعرف لماذا ننال شرف زيارة عظماء مثلكم ؟.

وردوا عليه بكل بساطة قائلين إنهم يتتبعون نجماً.

وتعجب « هيرودس »، فقد ذكر جواسيسه شيئاً مبهماً عن نجم ما. وكان واقفاً فى ركن بعيد من الغرفة فلكى القصر « مارتو » فأشار إليه « هيرودس » وقال : اسمع يا « مارتو »، ثم سأل :

— أهو نجم كبير ذلك الذى تتبعونه إلى هنا أيها الأصدقاء ؟

وأشار المجوس إلى أنه نجم كبير ظهر من المشرق لامعاً لمعاناً غريباً، وإلى أنه يتقدمهم إلى هنا، وقد ساروا وراءه أياماً طويلة.

وسأل الملك :

— أتعلم ما هو هذا النجم يا «مارتو» ؟.

وقال « مارتو » إنه تمت أخيراً فى السماء مقابلة لم يسبق لها مثيل بين الزهرة وزحل والمريخ وإنها مقابلة لا تحدث إلا مرة فى كل أكثر من مليون سنة. وكان لمعان هذه المقابلة شديداً وجميلا ولكنه انتهى منذ أسبوع.

وسأل « هيرودس » متعجباً :

— إذن فقد رأيتم أنتم الثلاثة نجماً لم يره فلكى القصر.

ولم يرد ملوك المجوس على ذلك.

واستأنف « هيرودس » :

— حسنا. ولكن على أى حال بماذا ينبىء هذا النجم ؟.

وعندئذ قال « بلشازار » العجوز وهو يغمض عينيه :

— ينبىء عن طفل !.

وقال « هيرودس » وكأن الفضول أثاره فجأة :

— طفل ؟ وماذا يعنى هذا الطفل ؟ .

وأجاب « ملشيور » :

— إننا لا نستطيع أن نتكلم إلا بعد أن نصل إلى من نقصد .

وسلم « هيرودس » بالأمر الواقع قائلا :

— حسناً جداً ! فأين تتوقعون أن تجدوا الطفل ؟ .

— فى بيت لحم .

— بيت لحم فقط !.

وهز المجوس أكتافهم وقالوا إن كل ما عليهم هو أن يتبعوا النجم . وما دام الوقت نهاراً فإنهم صابرون فى انتظار الليل حتى يبدو النجم ثانية .

وأدرك « هيرودس » أن من العبث أن يعامل الحكماء بالقوة ، ولذلك رسم ابتسامة ماكرة على وجهه وقال فى مجاملة مصطنعة :

— حسنا ما دام هذا هو ما يجب أن تفعلوا ، فاذهبوا إذن باحثين عن الطفل ، ولكن عندما تجدونه عودوا واخبرونى أين وجدتموه لأذهب أنا الآخر إليه وأسجد له .

ورفع يده إلى جبهته محيياً ، وكان عرق الجهد الذى تحمله من أجل إخفاء شعوره ينضح منه ، ثم ما أن أغلق الباب خلفهم حتى أعطى إشارة لجواسيسه ليتبعوهم كالظل وليداوموا البحث هم أيضاً عن الطفل الذى ولد تحت نجم سحرى .

ولكن «جاسبار» و«ملشيور» و« بلشازار » ومعهم جمالهم الرابع استطاعوا أن يتخلصوا فى الظلام من متابعة جواسيس « هيرودس » . ومضوا فى درب جانبى إلى بيت لحم مطمئنين إلى أنه ليس هناك من مكر الناس ما يخشونه ، ووجدوا البلد ووجدوا الفندق ووجدوا الإسطبل وركعوا أمام الطفل وفى عيونهم تمجيد له وعبادة وخشوع . ثم قام الحكماء فعانقوا « يوسف » وقبلوا لحيته وانحنوا له فى احترام ، وقدموا هداياهم . ثم انصرفوا لا ليعودوا إلى « أورشليم » ، فإنه لم يكن مقدراً لـ « هيرودس » أن يراهم ثانية إنما ذهبوا إلى فندق آخر للمبيت ، ثم ما أن استغرقوا فى النوم حتى رأى كل منهم نفس الحلم ، واستيقظوا جميعاً عندما انتصف الليل وامتطوا جمالهم وانطلقوا فى الظلام الدامس إلى بلادهم من طريق آخر

مضللين كثيرين جداً من جواسيس القصر . وكما دخلوا من باب التاريخ هكذا فجأة دون مقدمات وأدوا رسالتهم وخرجوا منه ، فلم يعد أحد يسمع عنهم شيئاً ، وكما كان ذاك الليل لهم مليئاً بالأحلام كان كذلك لـ « مريم » و « يوسف » ، فقد كان هو ليل اليوم الذى عادا فيه إلى بيت لحم بعد زيارة الهيكل فى « أورشليم » حتى أثارتهما فى الصباح رؤية « سمعان » العجوز وهو يقترب نحوهما متعباً يجرجر أذياله طوال القاعة الفسيحة ذات القباب والأعمدة، ثم إعلانه أنه وقد رأى مخلص كل العالم ، آن له أن يموت ، ثم منظره منصرفا ليموت فى أقصى الهيكل ، فما أن ولى ظهره حتى زحفت نحوهم « حنة » الأرملة منذ أربع وثمانين سنة لترى - كما تقول - الطفل الذى سيرفع خطية العالم .. ثم ما أن عادوا إلى بيت لحم حتى فوجئوا بزيارة ملوك المجوس وعبادهم للطفل التى كانت أكثر إثارة . ثم ما أن انصرفوا وحاول «يوسف» النوم حتى رأى نفس الملاك البهى الذى رآه فى الناصرة عندما قال له أن يأخذ « مريم » بلا خوف لأن الطفل الذى تحمله معجز . وقد ألقى إليه بتعليمات جديدة إذ قال له :

— قم خذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وامكث هنـــاك حتى أقول لك ، لأن « هيرودس » مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه ! .

وصحا « يوسف » بدوره يسائل نفسه : ولكن كيف والرحلة طويلة تحتاج لمال كثير وليس معه إلا دراهم معدودات ؟ وظل « يوسف » مكدوداً ثقيل القلب مصمما على تنفيذ الأمر رغم كونه معدما حتى رأى حماه قادما نحوه فى الظلام إذ هرب النوم من « يواقيم » هو الآخر فشغل نفسه بفك الهدايا التى تركها الملوك المجوس للطفل ، وقال لـ « ليوسف » إنها زجاجات من العطور ولبان معطر ومر ثمين .

وقاطعه « يوسف » واضعاً يده على كتفه ومتنهداً :

— « يواقيم » ، حسن لنا أن نفكر فى أشياء أكثر خطورة .

ولكن « يواقيم » مضى يشرح قيمة الهدايا وهو يقول :

— ثم ما رأيك فى هذه الهدية الثالثة ؟ إنها أصغر الهدايا وأكثرها ثقلا . فهل تستطيع أن تعرف ما هى ؟ .

— ماذا تكون إذن ؟ .

وهز « يواقيم » الربطة وعلا رنين ما فيها حتى السقف وهمس :

ـــ إنهم احضروا لنا لبانا ومرا وذهبا وكأنهم كانوا يعرفون مقدما ما نحن فى حاجة إليه !

وشهق « يوسف » وهو يصيح :

ـــ ليتمجد الله وليتقدس اسمه .

وخر على ركبتيه ساجدا شاكرا الله وحامداً نعماءه .

الفصل الرابع عشر

اقتلوهم جميعا !

جن جنون « هيرودس » عندما علم أن الحكماء قد أفلتوا من يديه .

فمن أى طريق ذهبوا يا ترى ؟ . لقد جرى جواسيسه فى كل الطرق جنوبا فى وديان شرق الأردن ، وشمالا فى السامرة والجليل حتى سوريا ، وإلى أقصى الشرق . وأشرع الجنود سلاحهم وانطلقوا بخيولهم وجمالهم فى كل النواحى وعادوا صفر اليدين . وأحس « هيرودس » بأن شيئا فى نفسه ينفجر وانتابته نوبة جنون وأقسم أن : « سأجد هذا الطفل العجيب وسأتحدى الشياطين » . وأخذ يفكر أين يكون الطفل ، إن كل ما يعرفه عنه هو أنه يرجح أن يكون فى بيت لحم . ولكن بيت لحم المزدحمة على آخرها مليئة بالأطفال من كل عمر ، فكيف يمكن أن يهتدى إليه من بين كل هؤلاء الأطفال ؟ .

وطرأت على باله فكرة بشعة وتردد برهة ثم أخذ يفكر : يجدر به ألا يلجأ إلى هذه الطريقة فقد سبق أن لامته روما على قسوته . وكانت روما عند ذاك لا تخشى القسوة ، فكيف وهى الآن تحت حكم « أوغسطس » القيصر المسالم الهادىء الفكر ؟ ولكن « هيرودس » الأسمر لا يهمه فى العالم شىء أكثر من العرش ، وهذا الطفل خطر أكيد على العرش ، ولذلك فإنه يجب التخلص منه . ولكن يجب أن يكون حريصا فى التخلص منه . ولكن لماذا إذن يجب هذا الحرص ؟ أهو ملك اليهودية أم أنه ليس بملك على الإطلاق ؟ .

ومضى يقول لنفسه : « لقد كنت طوال حياتى قويا فى تصرفاتى فلماذا لا أكون الآن كذلك ؟ ولكننى رجل عجوز وسأموت قريبا فماذا يهمنى من العرش من بعدى ؟ ولكن لا ، إنى سأعيش طويلا وسأكون على العرش عندما يكبر هذا الطفل وتنمو لحيته ، على أى الأحوال يجب أن أتخلص من هذا الطفل ، فلا يجب أن يعيش حتى تنمو له لحية .

واصفر وجهه ثانية للفكرة التى تراوده ، ولكن الرعب تبخر وبقى الخوف على العرش يطن فى أذنه ، وأحس بمغص يهصر أمعاءه وارتعش ونضح عرقه . وصفق بيديه فدخل إليه قواده ، وألقى إليهم بأمره باختصار ووضوح وثبات وقد وضع يده على رأس الخنجر

المعلق فى حزامه ، إذ أنه لم يكن أمامه من حل للموقف غـــير هذا ، وأنهى حديثه إليهم قائلا :

ـــ افعلوا كما أمرتكم .

وكان على هؤلاء القادة أن يخرجوا من القصر على رأس جنودهم وأن يتوجهوا إلى بيت لحم لينفذوا هذه الأوامر البشعة . وهكذا حاصروا البلد وأخلوا شوارعها وأخذوا يهجمون على بيوتها بيتا بيتا ورماحهم مشرعة وسيوفهم مسلطة ليقتلوا بأمر الملك كل طفل فى البلد ، فلم ينج من هؤلاء الأطهار الأبرياء طفل فيما عدا « يسوع » !

ذلك أن « يوسف » و « مريم » و « يسوع » كانوا قد أطاعوا رسالة الملاك وخلفوا وراءهم ميدان هذه المذبحة بعد أن ودعوا «حنة» و«يواقيم» . وأجلس «يوسف» الأم والطفل على الحمار ومضى حاملا كل ذى قيمة من متعلقاتهم وهدايا ملوك المجوس وممسكا بالأخرى زمام الحمار ، وغادروا هكذا بيت لحم يلفهم الظلام ، مستقبلين أمامهم صحراء سيناء حيث جال جدودهم أربعين سنة بعد أن خرجوا من مصر هاربين ، ولكنهم كانوا عند ذاك عائدين إلى مصر من نفس الطريق .

الجزء الثاني

صبي الناصرة

الفصل الخامس عشر

على ضفاف النيل

أخذ جواسيس « هيرودس » يبحثون عنهم حتى فى مصر . فهل رأى أحد نجارا ذا رأس أصلع ولحية ذهبية تختلط بها خيوط من الفضة ، وزوجة ذات عينين زرقاوين وضفائر سوداء لم تكد تتعدى مرحلة الصبى الباكر ، وطفلا له ابتسامة فى مثل بهاء الشمس ودفئها ؟ .

وكم من مرة اقترب الجواسيس منهم إلى حد الخطر ، وخصوصا عندما قادهم الأثر إلى المسلات الكبيرة التى أقامها الفراعنة فى مدينة عين شمس الذهبية حيث كانت العائلة القادمة من الناصرة قد ألقت رحالها .

وسيأتى يوم تزين فيه هذه المسلات ميادين باريس ولندن ونيويورك والقسطنطينية وعواصم أخرى كثيرة لم تكن بعد قد خلقت ولا فكر الناس فيها أنهم سيرون بأعينهم ما سبق أن رأته العائلة المقدسة ، وقد عرفت العائلة كيف كانت هنـــاك فى مصر روح عدائية وكراهية مستحكمة ضد أبناء شعبها . ذلك أنه فى ذات الوقت الذى ذهب فيه «يسوع» إلى مصر كان قد أخذ بعض كارهى الجنس اليهودى فى الاسكندرية يحكون قصة قديمة مؤداها أن اليهود الذين قادهم « موسى » فى الصحراء كانوا جميعا من البرص ، وأن هذا هو السبب الذى جعل فرعون يتركهم يرحلون ، ففى هذا الجو الخانق المملوء بالعداء المتأصل كان على «مريم» و «يوسف» أن يعيشا ليرعيا الابن الصغير . وهكذا بدأ «يسوع» يتعلم أولى صلواته فى بلد وثنى ملىء بالكراهية وعاش أولى سنى حياته بين مصريين يسجدون للتماثيل الصخرية الضخمة للإله « رع » إله شمس منتصف النهار ، و « إيزيس » الأم ، و « أزوريس » الأب ، و «حوريس» الإبن ، ويسجدون أيضا أمام تماثيل العجول المقدسة وقطط «بوبسطس» . وبين هذا الجهل المطبق والخوف المسيطر بدأ الطفل « يسوع » يتعلم من « مريم » أمه الحانية على مهده أن يقول : « ... إن الرب إلهنا إله واحد » .

وكان منزلهم الجديد فى عين شمس يبعد حوالى عشرة أميال عن الأهرامات وقد لاقوا

فيه من التجاهل؛ أقل' مما لاقوه من كراهية أهل الإسكندرية ولذلك هربا من جواسيس « هيرودس » وكانت العائلة كثيرة الترحال وكان « يوسف » الذى أخذ يزاول مهنته يتحين الفرص ليبحث عن المسافرين الآتين من «فلسطين» ليتقصى أخبار وطنه ، ولكنه لم يجد بينها أخبارا طيبه فقد كان ظلم « هيرودس » وطغيانه يزدادان كل يوم .

وهكذا مرت سنتان ونصف دون أن تحدث لـ «يوسف» أية ظاهرة خارقة للطبيعة ، ولكنها أخيرا حدثت ، فرة أخرى قطعت حياتهم الهادئة علامة من العالم الآخر إذ رأى «يوسف» نفس الملاك فى حلم حاملا إليه أنباء عظيمة وآمراً :

— قم خذ الصبي وأمه وعد ، لأنه قد هلك الذين كانوا يطلبون نفس الصبى !

إذن فقد هلكوا . وصيغه الجمع هنا قد تعنى «هيرودس» وحاشيته ، وقد تعنيه هو وحده ، فقد كان ملكا وكان يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع .

وأطاع « يوسف » و « مريم » مرشدهما دون أن يخطر ببالهما أدنى شك ، إذ كانا فى كل وقت أكمل الناس إيمانا . فما أن انقضى الحلم حتى هب « يوسف » واقفاً وبدأ يحزم أمتعته . ثم أركب الطفل وأمه على الحمار وأخذهما عائدا إلى الصحراء الصفراء الموحشة القابعة بينهم وبين وطنهم .

وتحققت النبوءة القديمة : «من مصر دعوت ابنى . . . . » .

الفصل السادس عشر

آخر ليلة فى حياة «هيرودس»

بينما كانت أيام الصحراء الطويلة تمضى ببطء وتقترب العائلة المقدسة من وطنها ، كان «يوسف» و « مريم » يسمعان من المسافرين المعسكرين فى الطريق ما يؤيد حلم «يوسف» .

نعم ، لقد مات « هيرودس » العظيم . . . وأى ميتة !

قال أحد المسافرين :

ــ لا بد أن يكون « هيرودس » قد جن ليقتل كل أطفال بيت لحم إذ ما كادت أجسادهم أن تبلى فى القبور حتى لحق بهم قاتلهم ، إنكم تستطيعون أن تتصوروا كيف كانت حال «أورشليم» فى السنتين الأخيرتين حين علموا أن ابن «هيرودس» نفسه حاول أن يقتل أباه بالسم .

وأضاف المسافر :

ــ هل وصلت هذه الأنباء إلى مصر ؟ وهل علم الناس فيها كيف قتل «هيرودس» ابنه ؟! .

وقال آخر :

ــ نعم ! لقد مرت علينا أوقات عصيبة ، وكان أبناء الشعب جميعاً يصلون مبتهلين إلى الله نهاراً وليلا أن يعجل بموت « هيرودس » ، وأخذت النساء تروى روايات عن طيور تحلق فوق سطح القصر وطيور جارحة ترفرف بأجنحتها فوقه وكأنها تشم رائحة وليمة آتية . وكان كل الناس يتهامسون عن نذر الشؤم الآتى ، وكان خدم القصر يعلمون أولا بأول كل ما يجرى فيه ، وهكذا عرفنا أنه مرت بـ«هيرودس» أقسى آلام الاحتضار . فقد كانت تسرى فى أحشائه نار بطيئة تزداد حرارتها شيئاً فشيئاً . ومن العجيب أنها كانت تعطيه شهية كبيرة، فإنه لم يكن يستطيع أن يتوقف عن الأكل ، ولكن أمعاءه كانت ملتهبة وتؤلمه أقسى الألم . ولذلك فقد كان يأكل كثيراً ثم لا يلبث أن يصرخ من شدة الألم ، ويتكرر ذلك عدة مرات فى اليوم، وكانت قدماه متورمتين وبهما فقاعات مملوءة سائلا شفافا تنفجر كلما سار ، وهكذا لم يكن يستطيع أن يضع أقدامه على الأرض . وكانت رائحة أنفاسه النتنة تملأ القصر. ولم يكن يكف عن الشخير . ومن حين لآخر كانت تنتابه نوبات هياج هستيرية ، قوة وحشية خارقة حتى ليصرع أقوى الرجال ، ويحطم رؤوسهم على الحوائط . ومع ذلك فقد كان «هيرودس» حتى النهاية يعتقد أنه سيشفى ثانية كما حدث له من قبل . وكان يجتمع لديه مائة طبيب من جميع

أنحاء العالم ، ويتناول جميع الوصفات التى يصفونها له حتى أسخفها وأكثرها غرابة ، ولكن بلا جدوى . وقبل أشهر قليلة حملوه على محفة وساروا به إلى ما وراء نهر الأردن حيث استحم فى مياهه الدافئة . ومرة أخرى وضعوا جسمه كله فى الزيت ، وعندئذ أغمى عليه وتمنى الناس جميعاً أن يكون قد مات ، ولكن صرخات السرور التى أطلقها الخدم عندما ظنوا ذلك أفاقته من إغمائه . . .

« وعندما أيقن أنه هالك لا محالة ، عاد لفترة قصيرة يتصنع الرحمة والشفقة ، فأمر بأن يمنح كل جندى خمسين درهما ، وأن يمنح ضباطه وقواده وأصدقاؤه مبالغ أضخم ، ولكنه سرعان ما عاوده جنونه فأخذ يصرخ ويسب شعبنا ، وأخيراً ابتكر ضدنا خطة جهنمية أخذ فى تنفيذها على الفور . . .

« ففى صباح أحد الأيام استدعى رئيس وزرائه وأمره بأن يقبض على مائتين من زعماء شعبنا . وأمر الصناع بأن يصنعوا قفصاً ضخماً يحشدفيه المائتين ثم يقام حوله سور مرتفع . إلا أن هذا لم يكفه ولذلك فقد غير أوامره فحبسوا فى اسطبلات خيل السباق فى «أورشليم» . ولماسأله رئيس الوزراء عما يزمع أن يفعل بهؤلاء المسجونين وكلهم من العلماء والزعماء ، أمره « هيرودس » بالانصراف من حضرته . ثم استدعى أخته « سالومى » وزوجها «ألكسيس» وإليكم ما قاله لهما ونقله لنا أحد أتباعنا الذى كان مختبئاً وراء ستار :

« يا أختاه وزوج أختى ! إننى سوف أموت بعد قليل ، فقد نئت بآلامى فعدت أرحب بالموت كما يجب أن يرحب به كل إنسان ، إلا أن ما يزعجنى هو أن موتى لن يحزن أحداً ، وذلك لمجرد أنى كنت أقوم بواجبى كملك فلن يذرف أحد دمعة ولن يعلنوا حداداً ، كل الناس يكرهوننى ويحتقروننى وسيفرحون لذهابى ، عليهم اللعنة جميعاً ، لذلك فقد وضعت خطة أتغلب بها عليهم وأضيع قصدهم ، ففى اللحظة التى تتأكدان فيها أنى مت فعلا ، يجب أن تتصرفا بهدوء ولباقة ، فلا تجعلا أحداً يعلم بموتى ، أبقيا موتى سراً عميقاً ، واستدعيا الجنود وأرسلاهم إلى إسطبل الخيل ليقتلوا كل زعماء اليهود المسجونين فيه ، المائتين جميعاً ، واحذروا أن يهرب منهم أحد .. وعندئذ ماذا يفعل شعب هذا البلد اللعين ؟ سوف يبكى «ويولول» ويندب أقرباءه ، الذين قتلناهم . وعندما يبلغ البكاء والحزن على هؤلاء ذروته ، أعلنا خبر موتى ، وهكذا سيكون حزن وبكاء عند موتى . أليست هذه فكرة عظيمة يا أختاه ؟ » .

ثم استطرد المسافر قائلا :

« وهذا أيها الأصدقاء هو ما حدث قبل وفاة « هيرودس » . وبعد خمسة أيام من هذا الحديث توفى الملك الطاغية ولكن ليس قبل أن يقتل ابنه «أنتيباتر» ، مات ولكن الأسرى الموجودين فى الإسطبل لم يذبحوا كأوامره ، إذ لم يطع أهله أوامره الأخيرة ، وفشلت خطته الهمجية المشئومة وانتهت هكذا السبع والثلاثين سنة المفزعة التى حكم خلالها . ويقول الناس إنه زحف إلى العرش كالثعلب وحكم كالنسر ومات كالكلب . كان متوحشاً فى معاملة الناس جميعاً وكان عبداً لشهواته ، وكان حكمه حكم ظلم وطغيان ، ومن العجيب أنه بالرغم من ذلك كان الحظ حليفه ، كيف ؟ لا أدرى ! » .

واستمع « يوسف » و « مريم » إلى هذه الأنباء وهما يرتجفان من هول النهاية المؤلمة لعدوهما القوى ، وأنصتا باتنباه إلى التفاصيل الدقيقة عن كيفية نقل جثمانه فى نعش ذهبى ليدفن فى حفل عظيم على الربوة المشرفة على «أورشليم» ، واستمر الحديث طوال الطريق عن الأمور السياسية وشئون الدولة وعما سوف يحدث بعد ذلك فى العاصمة .

وعلما من مسافر آخر أن وصية «هيرودس» قد فتحت ، وبالطبع كانت هى وصيته الأخيرة إذ أنه مزق الوصية القديمة أثناء مرضه وكتب غيرها ثم مزق هذه وكتب أخرى ، ومات قبل أن يجد فرصة لتمزيق تلك الأخيرة ، وحملت هذه الوصية « يوسف » على أن يغير خطته إذ حطم « هيرودس » بوصيته الأخيرة مملكته الصغيرة التى عمل على تجميعها طوال سنى حكمه ، ونصب ابنه «أرخلاوس» على اليهودية ومنحه لقب ملك . وهتف له الجيش بمجرد أن تليت الوصية . وعرف الجميع أنه الحاكم الجديد فى العاصمة ولكن ليس فى الجليل ، فقد منحها « هيرودس » لابن آخر له هو « هيرودس انتيباس » ومنحه معها « بيريا » ، ولكنه لم يمنحه لقب ملك وإنما عينه والياً .

وتساءل الناس كيف تكون الحياة فى « أورشليم » إذن أو فى أى جزء آخر من اليهودية تحت حكم الملك الجديد ؟ وسمع « يوسف » أن « أرخلاوس » من بين كل أبناء «هيرودس» هو أقربهم إلى طباع أبيه ، ولذلك صمم «يوسف» على أن يعدل عما كان يفكر فيه خلال السنتين الماضيتين من الإقامة فى اليهودية ، إذ من ذا الذى يستطيع أن يتنبأ بأن «أرخلاوس» إذ ورث عرش أبيه لم يرث أيضاً مخاوفه التى أدت به إلى مذبحة بيت لحم ، خصوصاً وإن «أرخلاوس» كما قال رجال القوافل ذهب إلى «روما» ليتثبت من موافقة الإمبراطور على احترام وصية أبيه ومنحه عرشه وتاجه ؟ . كما قالوا أيضاً إن بعض معارفه حاولوا فى غيبته هدم عرشه والتخلص منه .

ولما فرغ « يوسف » و « مريم » من عبور صحراء سيناء مضيا يقلبان وجهات النظر فى

كل هذه الإشاعات، وأزمعا أن يعدلا عن الإقامة فى « أورشليم » أو ما يجاورها وولّيا وجههما شطر الناصرة فى الجليل حيث يتمتع « يوسف » بسمعة طيبة كنجار .

وهكذا انتهت فترة اتصالهما بالملائكة ، فترة الدهشة والمخاوف والهجرة والتغرب، ولم تكن تلك التجارب لتعاود « يوسف » البتة . وكان أمام الأم والإبن سبع وعشرون سنة من الهدوء والاستقرار ، بعيدين فيها كثيراً عن انتباه العالم ، قبل أن تأتى العلامات ثانية متكاثرة ودافعة بهما إلى مهاوى الخطر .

أما « يوسف » فسيكون عندئذ قد قضى .

الفصل السابع عشر

خلف الستار

كان «يسوع» يسير خلف أمه ويتبعها فى تجوالها فى المنزل وينشد معها بينما هى تؤدى عملها ، ويلعب بالدمى الخشبية والمراكب الصغيرة التى يعدها « يوسف » ، وكانت له ابتسامة ساحرة تشيع الهدوء والهناء من حوله ، ومع ذلك فقد كان حتى فى تلك الطفولة المبكرة كثيراً ما يهيم فى بيداء الفكر سارحا بنظره متأملا السماء والغيوم المتجهمة أو راقدا فى الحقول فى الصباح الندى مسندا رأسه إلى الحشائش الرطبة أو متسمعا من نافذة البيت لهمسات الهواء كأنما هى تناجيه وكأنه يفهم نجواها ، ومتأملا أحياناً طهارة أيدى أمه وهما تعدان الخبز وطهارة اللبن البارد إذ يتناوله رشفة رشفة .

وكان فى حواس الطفل «يسوع» حدة مرهفة فقد كان هو الإنسان الوحيد الكامل منذ آدم ، وبهذه الحواس كان يرى ويسمع ويحس فيما حوله ما لا يدركه غيره . فالأصوات التى كان يسمعها والألوان التى كان يراها والروائح التى كان يشمها والأطعمة التى كان يتذوقها ، كل نعم الطبيعة هذه كانت تشعره بسعادة ونشوة لا يشعر بها إلا من كان ذا نفس وجسد كاملين .

وكان « يوسف » يقول لـ «مريم» فى تعجب :

— إنه يرى أكثر مما نراه نحن !

وكانت « مريم » تبتسم كأنها تقول : ولم لا ؟ . ولذلك لم تكن تعجب لصداقة الطيور والحيوانات له أو تدهش لحنانه وعطفه على المخلوقات جميعها حتى الحشرات والديدان التى نراها قبيحة المنظر .

ومع ذلك فإن « مريم » و « يوسف » كانا متفقين على وجوب إرساله إلى مدرسة « شماع » الصارمة ليتعلم تعليما سليما !.

ومنذ البداية درس «يسوع» التوراة وسير أنبياء شعبه وهو جالس على الأرض فى المجمع. واهتم « يوسف » و « مريم » بتثقيفه فى المنزل فى رهبة شديدة غير محاولين أن يخفياها ،

ملتمسين ارشاد السماء لهما عن الطريق السوى ، فقد كان كل همهما أن يعرف أقصى ما يمكن من العلم والسلوك والدين . وطالما صليا إلى الله فى ذلك وبذلا من نفسيهما ومن محبتهما أكثر مما يبذل أى إنسان آخر ، وبالرغم من ذلك فإنهما كثيرا ما شعرا بالحيرة تلقاءه . فكم أسر « يوسف » إلى « مريم » بعد نوم « يسوع » بقوله :

— إنه لينظر إلى أبعد من بلدنا هذا ، وإنه ليفهم أكثر مما نفهم !

وكان ذلك عندما حاول « يوسف » أن يلقن « يسوع » حب القبيلة والألفة بين أفرادها والرباط العائلى ، وكان « يسوع » يصمت عندئذ فى أدب وإن بدا أنه يفضل الولاء للإنسانية جمعاء . وليس معنى هذا أن « يسوع » كان يتعالى على أمه ومربيه وأقاربه وإنما معناه أنه كان يظهر صداقته ومحبته لهؤلاء جميعا ولغيرهم من الغرباء . وكان هذا شيئا جديدا كل الجدة بالنسبة لـ « يوسف » ، ولذلك كان يتحدث عنه لـ « مريم » ، ولم يزعج حديثه « مريم » إذ كانت تؤمن بأن لابنها آفاقا أوسع بكثير من آفاق سائر الناس ، ولم تكن لتنسى قط معجزة الحبل به ومعجزات ميلاده ، وتبتلها و « يوسف » من أجله ، وتوقيرا له .

وكانت تقاليد الحياة العائلية متبعة فى منزلهم فى صرامة ، وكانوا مطيعين لشكليات الناموس فى هذا طاعة عمياء ، فإنه لأيسر أن يقتلوا رجما بالحجارة من أن يأكلوا طعاما غير مطهر . كما كانوا يتبعون حرفيا تقاليد اللاويين فى أعيادهم ومختلف العادات الدينية فى كل مناسبة ، ويحفظون الأيام التى يشتغلون فيها والأيام التى يكفون فيها عن أداء أى عمل . ويؤدون الصلاة فى مواعيدها وينشدون المزامير ولا يحيدون قيد أنملة عن تعليمات الفريسيين فى هذا . وهكذا نشأ « يسوع » فى جو يتقدس فيه الواجب ويتحدد فيه ما يسمح به من عمل وما لا يسمح به وما يجب أن يعمل .

ففى أيام السبت مثلا ، لم يكن أحد فى بيت « يوسف » و « مريم » يستطيع أن يوقد نارا أو يطفئها ، أو أن ينزع قشرة ثمرة ، ولا أن تعجن امرأة عجينها أو أن يغسل غلام كلبه أو أن تضفر فتاة شعرها . ولم يكن أحد يستطيع أن يكتب حرفاً أو يمحو ما سبق أن كتب . كل شيء كان ممنوعا ، إلا أن يمد رجل يده لينقذ بقرة غرقى أو خروفا فى ضيق .

وكان « يسوع » يرضخ لهذه التقاليد ويتبعها ويمرح مع لداته فى نفس الوقت ، نحيفا قوى العضلات سريع الخطو لايهاب تسلق المرتفعات وخصوصا ، « جبل طابور » ذا الشعاب والنتوءات القاسية ، الذى يبعد عن البلد نحو خمسة أميال ونصف ، كما كان يقتحم أحيانا

الكهوف الممعنة فى جوف الجبل ، وكانت صيحته تعلو كصيحة أى صبى آخر وتنطلق من أعماق القلب . ولكنه لم يكن ليأبه للتوافه ولا هو يرتاع كغيره ، ولا يتهم ولا يوجه اللوم أو يثور فى وجه أقرانه أو يشتكى ، وكان يتسابق مع أخوانه ولكنه لا يزهو بالنصر ولا يعنى بالجائزة ، ولا يفتخر عل صديقه المهزوم . كانت كل لذته فى التمرين نفسه وفى اللعب للعب والرياضة البريئة ذاتها .

وكان يتبع نفس النهج فى دراسته ، كان يذاكر ويكتب المعلومات فى يسر ويتفوق على كل أقرانه . وكان هؤلاء يكرهون الدرس وإن كان لا بد أن يذهبوا إلى المدرسة سواء رضوا أم لم يرضوا . فقد كان التعليم فى تلك القرية منذ ألفى سنة إجباريا ، ولم تكن تطيق اللجنة المكلفة بالتعليم فى البلدان أن ترى فى الشارع صبياً فى السادسة فى الوقت المخصص للمدرسة .

وكان «يسوع» يقرأ بسرعة الكتب التى يعيرها له أساتذته ، وكان أكثرها يتعلق بتاريخ «موسى» والأنبياء وأعمالهم ، حتى ليكاد مدرسوه يرون أنه يعرف الكتب من قبل أن يقرأها ، وأن قراءته إنما هى للإعادة أو التذكير ، فبعد فترة وجيزة من بدء دراسته كان يحفظ كل الكتب عن ظهر قلب ويجيب عن الأسئلة على الفور كأنها — كل الصفحات — موجودة فى ذاكرته وجاهزة تحت الطلب !

وكان « يوسف » يصحبه أحيانا فى رحلة إلى أعلا قمة فوق الناصرة ليريه كل البلاد التى تحيط بها ومكونة مقاطعة الجليل الممتدة خمسين ميلا من الشمال إلى الجنوب وثلاثين ميلا من شاطىء البحر حتى حدودها الشرقية ، فكم نظرا من قمة الجبل إلى زرقة مياه البحر الأبيض المتوسط وكم سرحا ببصريهما وراء أصبع « يوسف » من قمة جبل الكرمل ، ودارا مع الأفق هكذا حتى قمة جبال السامرة المحرمة ، وهناك السهول الخضراء المترامية التى يعشقها « يوسف » ، السهول التى تموج بالأزهار البرية لعلها تغسل دماء المعارك العديدة التى خضبت أرضها فى تاريخها الطويل . من هناك ، وادى الأردن والطريق إلى جلعاد ، ومن الناحية الأخرى يمر الجليل وجبال لبنان التى يعلوها الجليد كأنه فوق جيدها عقد من اللؤلؤ ، حتى إذا ما تعبت أبصارهما وامتلأ قلباهما من ذكريات المعارك التى خاضها أجدادهما ، وكيف هزم «جدعون» ، وأين مات «شاول» و«يوناثان» معا ، فتحا السلة التى أعطتهما إياها «مريم» وأكلا مما أعدته لهما ثم رقدا على الحشائش متناسين المناظر الرائعة من حولهما والوديان

الخصبة والمراعى الخضراء وحوادث التاريخ الخالدة ، ومتشاركين فى صمت يدع روحيهما أن تتقابلا وتتفاهما وتتصلا معا برباط أقوى من كل الأحداث .

ولكن « يسوع » لم يكن يكف عن تمعن ماحوله ملاحظا لنفسه ودارسا ومتحديا فى قرارة نفسه ما لايعجبه من سلطة الرؤساء الدينيين الاستبدادية ، ولم يرض قط عن إسراع أهل الناصرة إلى المجمع لأخذ رأى رجال الدين فى كل تافه من شئونهم العائلية والمنزلية ، فكلما عرض لإنسان أمر فإنه لا يأمن الحلال منه والحرام إلا بعد أخذ رأى الكهنة وموافقتهم . وكان على « يسوع » نفسه وهو صبى ناصرى أن يقوم بأية مهمة يكلفه بها أحد الكتبة سريعا وفى طاعة مطلقة ، يحمل له أثقاله ويجرى هنا وهناك ليحضر له ماشاء ، حتى ليغسل له حماره ويحمل له وعاء الماء . ولم تكن لتظهر على « يسوع » المضايقة ولكنه كان يحتفظ لنفسه بأفكاره ولا يصرح بها لأحد اللهم إلا مرة واحدة وبعد ذلك بسنوات .

ولم يرض « يسوع » عن الطقوس الدينية المحفوظة المرهقة ، فقد كان على كل إنسان أن يقف طوال الساعات التى تستغرقها الصلاة وكلها التماسات إلى الله معادة ومكررة مرات ومرات ولم ينس هذا التكرار والإرهاق فى الصلاة حتى حين علم الناس الصلاة القصيرة التى لا يتكرر فيها معنى ولا كلمة .

وكان المجمع بالنسبة إلى « يسوع » ، كما هو بالنسبة إلى أى صبى ناصرى آخر فى وقته هو مدرسة الحياة ، ولكن « يسوع » الصبى سرعان ما أدرك أن مايتعلمه فى المجمع وما يلقنه الكهنة والمعلمون له فيه لا يكاد يتعدى الشكليات وحرفية القانون فى حين أن معناه ومرماه مهملان تماماً .

وبنظره الثاقب أدرك أن الدين الحق هو الذى يتعدى حدود العائلة والقرية والبلد والأمة ، ويجمع العالم كله فى وحدة ذات هدف واحد حتى ليغدو العالم منزلا مشتركا للناس جميعاً ويغدو الناس جميعاً أبناء الله الواحد سواء بلا تفرقة ! .

الفصل الثامن عشر

يسوع براباس

كان صبية القرية لا يكفون عن الحديث فى شأن الخلاص من الحكم الأجنبى الظالم وكانوا جميعاً فى قلوبهم ثوارا فى دور التكوين ، وكانت ألعابهم المفضلة هى الحروب فيقسمون أنفسهم فريقين : يهوداً ، ورومان ؛ أو مواطنين ، وظلمة ؛ ثم يتعاركون فى حمية وحماس . وكان الأكثر منهم باعة ورعاة ومن كل درجات المجتمع يتحدثون عن الملك الموعود الذى سيحرر الشعب بقوة السلاح . أما « يسوع » فقد كان يعف عن ألعاب الثورة ولكنه يسمع كل يوم عن مظالم الحكم وقسوته ، ولم يتحسن الوضع قط بالنسبة إلى أبناء الشعب عما كان عليه فى عهد الملك « هيرودس » وقد دعا البؤس أهل الجليل يوما إلى ثورة حينما كان « يسوع » فى الحادية عشرة من عمره ، ونشأت الثورة ثم قضى عليها فى بلدها التى لا تبعد عن الناصرة غير أربعة أميال ، إذ كان هناك مواطن يدعى « يهوذا » ينتمى إلى جماعة الثوار وقد قاد رهطاً من الثوار الناقمين ، وكان شعارهم هو أن يتحرر كل إنسان من نير الرومان بالسيف والدم . وكانوا يتصايحون : لا سيد إلا يهوذا ولا ضريبة إلا للهيكل ولا ولاء إلا لله . هكذا قاد يهوذا الجليلى جيشا من الثوار الشجعان غير المنظمين الذين هاجموا جيش الملك ثم بدأوا يزحفون . وسرعان ما توجه إليهم الجنرال « فاروس » الرومانى على رأس جيشه فمزق جيش « يهوذا » إربا وأحرق البلد عن آخره وساواه بالأرض .

ولم ينس « يسوع » قط رائحة البلدة المحترقة التى كانت تزكم أنوف أهل الناصرة عندذاك ، أما السكان الذين استطاعوا أن ينجوا من الحريق فقد بيعوا عبيدا فى البلدان الأخرى ، وأما « يهوذا » قائد الثورة فقد قطعت رأسه فى مقر قيادته أمام الهاربين من جنوده المختفين خلف المرتفعات وفى الكهوف .

وملأ الذعر قلوب أهل الناصرة وهم يشهدون آيات انتقام الرومان المريعة ، فقد جمعوا بعدئذ ألفى رجل مشتبه فى أنهم اشتركوا فى الإعداد لثورة « يهوذا » الجليلى ، وعلقوهم على ألفى صليب مثنى مثنى من « صفوريا » إلى « الناصرة » وبقيت جثثهم معلقة فى الخلاء حتى أنتنت ، وكان « يسوع » يراهم ويتذكر من بينهم من سبق أن أدى له خدمات!

وانتابت « يوسف » رعدة عندما دخل حانوته غريب طويل اللحية فى لباس سورى ثم همس له بالتحية ، وعرف «يوسف» فيه «صموئيل» الذى عاش بعد الثورة الفاشلة وهرب من الرومان ووقف الآن يلقى بآخر أنبائه عن جهاد جديد يائس . وقال فيما قال إن «أرخلاوس» أسوأ من « هيرودس » ولكنه أقل منه حنكة . ورأى « يوسف » صديقه الذى كان أكثر ما يكون ثورة على الظلم واندفاعاً وبحثاً عن المثل الأعلى ، رآه عند ذاك متعباً محطم النفس وهو يقول : أسمعت آخر الأنباء يا « يوسف » ؟ .

— وهل من جديد يا « صموئيل » ؟ .

— إن قوة الملك الجديد أثارت الناس حتى أرسلوا سراً وفداً إلى روما ليشكوا الحاكم الصغير إلى الحاكم الكبير « قيصر » .

— قيصر . . !

ولصق لسان «يوسف» بحلقه . فهو وإن لم يكن سياسياً إلا أنه يعرف أن « أوغسطس قيصر » على عرشه لا يمكن أن تسره مثل تلك الأنباء بعد إذ تمت له السيطرة على العالم ، فلم يعد يعنى إلا بأن تعيش إمبراطوريته فى هدوء وأن تتقدم نحو الرقى والمعرفة فى حرية فكر وبحث علمى ، وكان معروفاً عنه أنه يأمل أن يجعل روما منارة فى التاريخ مضيئة . وصحيح أن الجمهورية السابقة مزقتها الاضطرابات والمحن ولكن ما أن تولى الأمر « أوكتافيوس » الذى أسمى نفسه «أوغسطس قيصر» حتى داوى الجروح والعداوات ، وقد حكم إلى الآن خمسا وأربعين سنة فى هدوء بينما ترنم « فرجيل » بأشعاره وسطر « ليفى » مجلداته فى التاريخ . وكتب « أوفيد » فى القصور البيولوجى .

ثم قال صموئيل :

— لقد كان جديراً « بقيصر » أن يتساءل لماذا إذن ذلك الاضطراب فى « فلسطين » . لابد أن يضايقه هذا ، أليس كذلك ؟ . . . نعم إن هذا هو ما حصل فعلا ، فقد عاد الوفد . ونحن الآن نعلم ما سيكون من الأمر ، إذ يبدو أن الفريسيين من أعضاء الوفد تفاهموا مع الحاسدين من أقارب « أرخلاوس » ثم ركعوا أمام رجلى الإمبراطور وبالغوا ما شاءوا فى أخبار الثورة الوحيدة التى حدثت فى إمبراطوريته . وتألم الإمبراطور وقال : «إن هذا ما كان يصح أن يحدث . وسأدبر الأمر حيث يستتب السلام فى فلسطين إلى الأبد » .

وقال « يوسف » :

ـــ إن هذه فكرة عظيمة ولكن كيف ستتحقق ؟ .

ـــ بأمر الإمبراطور .. سيخلع الملك وسيعين ملكا جديداً .

ـــ ملك جديد ؟ وهل هذا علاج ؟ ألا يستطيع الإمبراطور أن يفهم أن السلم فى «فلسطين» لن يتحقق إلا عن طريق الله ؟ .

وزمجر « صموئيل » :

ـــ تعنى عن طريق الكتبة ، من أمثال « هليل » ؟ .

وتنهد « يوسف » وهو يقول :

ـــ للأسف أن مثل « هليل » لم يعد موجوداً .

وكان « هليل » هذا من الباحثين المخلصين عن السلام ، ولكن ذلك الرجل كان قد مات قبل بضعة أسابيع ، وكانت مبادؤه وأقواله تروى فى كل مجمع . ومما يحكى عنه قوله يوماً لأجنبي أراد أن يعرف شريعة الله :

ـــ كل ما لا ترتضيه أنت لنفسك لا تفعله لجارك . إن هذا هو كل الشريعة وما عداه مجرد تطبيقات .

وقاطعه « صموئيل » الثائر :

ـــ حياً أو ميتاً ، إنه لم يكن يوماً ذا قيمة . لقد كان يبشر بالسلام، ولكن السلام لن يكون . لقدقلت لك مائة مرة إن بلادنا يجب أن تحارب وتحارب حتى الموت . إن مصيبتنا هى أنه لا زعماء مخلصين فينا . ولكنى أنا سأغدو زعيما . يا « يوسف » أعطنى يدك فإنى ذاهب بعيداً عن الناصرة ولن ترانى بعد ذلك . لقد ماتت حياتى القديمة الليلة وسأغدو من الآن إنساناً جديداً ،سأكون كابوساً فى طريق القوافل وسأسرق وأنهب وأذبح عندما أضطر لذلك ، وسوف لا أقف عند حد حتى أشعل ثورة جديدة عارمة وسينسى الناس اسمى القديم ولن يعرف أحد أنى كنت أدعى « صموئيل » !

ورأى « يوسف » لحية «صموئيل» وهى ترتفع فى تيه وتلمع فى ضوء القمر ، وتخيله لصاً وقاطع طريق ووطنياً ثائراً مندفعاً وعلم أن لا شىء يستطيع أن يقف فى طريقه . وطغى عليه حزنه وهو يقول :

ــ أحقا ياصديقى القديم ! ألا شىء يشفيك من هذا الجنون ؟.

ــ كلا « يايوسف » لاشىء على الإطلاق ، وسيكون على هذا البلد أن يختار يوما بين آرائى وآرائك ، ومبادئى ومبادئك .

ــ واسمك الجديد ... هل اخترته ؟ ما عسى أن يكون ؟.

ــ لقد اخترته فعلا وليس لغيرك أن يعرف هذا لأنى لا أثق إلا بك أنت . إن اسمى الجديد سيكون : « باراباس » !.

ــ فى سبيل الله إذن يا « باراباس » .

ــ فى سبيل الحرية إذا سمحت . ولا تنس يا « يوسف » أن تقبل عنى الصبى الصغير . وقل له إننى اقترضت منه اسمه أيضاً ، فمن الآن سيعرفنى الناس باسم : « يسوع باراباس » !

واندفع « صموئيل » فى طريقه وعينا « يوسف » تتبعانه فى أسى حتى غاب عنهما إلى الأبد ، فلم يكن مقدرا لـ «يوسف» أن يراه بعدذلك. أما «مريم» فقد كان مقدرا لها أن تراه ، فى أحلك ساعة فى حياتها .

وقال « يوسف » لنفسه :

ــ آه لو آمن بمواعيد الله ، وبالمسيح ، ومع ذلك فقد أوصانى أن أقبل عنه الصبي الصغير .... !

الفصل التاسع عشر

أين إبنى ؟

فى ذلك الوقت كان «يسوع» يسمع فى المدرسة وفى أحاديث الناس عن المسيح المنتظر أن يحرر الشعب : « وسيرسل الله لكم نبيا مثلى » وكان الكتاب وعابرو السبيل عندما يتقابلون يؤكدون الناس المثقلين بالضرائب أن «المسيح» آت عن قريب . وكان أكثر الكتب شعبية فى ذلك الوقت هو كتاب مؤلفه مجهول طالما سمع «يسوع» المناقشات تدور بشأنه ، وكان هذا الكتاب يؤكد قرب تحقيق النبوات القديمة عن الخلاص ، وقد عرض «يسوع» لذكره كثيرا فى تجواله فى «فلسطين» ، إذ كان هذا الكتاب وسفر نبوات «دانيال» أروج الكتب فى صباه .

وكان كل الناس ينقلون عبارات من الأنبياء ويتناقشون فى كيف يأتى ابن الله إلى الأرض . وكان بعضهم يقول إنه سيظهر فى السماء نجم عظيم معلنا عن مولده ، بينما يقول آخرون إنه سيولد من نسل داود فى بيت لحم ، ولكنه سيعيش فى الجليل .

وكان من الطبيعى أن يخبر « يوسف » و « مريم » يسوع عن الحكماء الثلاثة الذين أحضروا له هدايا وقالوا إنهم رأوا نجمه فى المشرق وتبعوه حتى مكان مولده ليتعبدوا له ، كما كان يعلم أنه ولد فى بيت لحم وأن «يوسف» و«مريم» كلاهما من بيت «داود» ، كذلك كان يعلم من قبل ماذا يتوقع الناس من المسيح ، ويعلم أنهم فى ذلك على خطأ عظيم ، فإن مخلصا ذا ملكات غير عادية فى الحرب وفى الحكم لن يأتى لهم ، ولن يقودهم «المسيح» فى ثورتهم ولن يطلقهم ثم يجعل منهم سادة العالم كله فإن الله لا يصح أن يرسل ابنه إلى هذه الأرض لمجرد مجد أبناء «داود» و«سليمان» حسب الجسد ؛ لذلك فإنه عبثا ينتظر الناس مسيحا كهذا ، ثائرا من وطنى وقائد وملك !

وكان كثيرون قد ادعى كل منهم أنه «المسيح» المنتظر ، وسمع «يسوع» حديثا طويلا عن رجل من هؤلاء يدعى «ثوادس» طلب منه اليهود علامة فقادهم إلى جبل الزيتون ووقف أمامهم يأمر أسوار « أورشليم » أن تسقط ، ولما رأى الناس أن الأسوار بقيت ثابتة تركوه وانصرفوا .

لكن هذه الأحداث كانت تكشف عن حاجة اسرائيل إلى قائد حقيقى ، فقد كان هناك ثورة وغليان فى كل قلب ، ما كان أسهل أن ينقلبا إلى حركة هيستيرية جماعية سرعان ماتنقلب عليها سيوف الرومان .

وكانت هذه هي حال الإمبراطورية الرومانية بما فيها اليهودية والناصرة عندما عزم « مريم » و « يوسف » على أن يأخذا الصبي ذا الاثنى عشرة سنة إلى « أورشليم » بمناسبة عيد الفصح، إذ كانا يقومان بهذه الرحلة سنوياً، ولكن هذه كانت أول مرة بعد طفولة يسوع يصطحبانه فيها .

وفى «أورشليم» كانت عينا الصبي تجولان بين عظمة القصور وبهائها ووضاعة الأكواخ وقذارتها ، كما استلفتت نظره ضخامة الهيكل وجماله وجدرانه المصنوعة من خشب الأرز والرخام . ولما مر مع «مريم» و «يوسف» من البوابة التى يقال لها «الجميلة» ، كان يحمل بضعة من النقود أعطاه أياها ولى أمره «يوسف» ، ليدفع منها رسم دخوله إلى الهيكل .

وفسر له « يوسف » شأن النقود فى الهيكل ، فإن اليهودية كانت مستعمرة محتلة بجيوش الإمبراطورية ، ولذلك فإنه لايجوز أن تستعمل فيها إلا النقود التى تحمل رسم وعلامة قيصر. ولكن النقود اليهودية كان مسموحا باستعمالها، بل كان واجبا استعمالها فى حدود الهيكل . ولذلك فإن القادمين إلى الهيكل يجب أن يحملوا العملة الرومانية حتى إذا ما أرادوا الدخول وجب عليهم أن يستبدلوا تلك العملة «الفضية» بنقود يهودية . ثم قال «يوسف» وهو يتنهد :

— لكن الإنسان يجب أن يخسر نسبة معينة لأن عليه أن يدفع رسم الاستبدال ، ومن هذا الرسم يغتنى صيارفة الهيكل ومن يخدمونهم مثل «حنانيا» الكاهن الأكبر، وحاشيته وأصدقائه .

ولكن لماذا يحتاج المرء فى داخل هيكل الله إلى نقود ؟ إنه يحتاج إليها لكى يشترى الذبائح من الحمام والخراف التى يقدمها فوق المحرقة وعلى المذبح ، وكان العابد يشترى هذه بخمسة أمثال ثمنها فى الخارج . وهذا الربح أيضاً يذهب إلى جيوب «حنانيا» وأصدقائه .

وشغلت هذه المفارقات ذهن الصبي «يسوع» ، وتذكر عندئذ أن بلد المفارقات هذا هو مكان ميلاد « أرميا » ذلك النبي العظيم الذى كان الصبي يحبه ، ذلك المنشد القديس الذى كان ينظر إلى أخطاء الحكم ويرفع بصره مباشرة إلى السماء ، كما تذكر أن أرميا — الذى ثبت لشعبه أنه كان على حق وأنه إنما أراد أن ينقذهم — نفى إلى مصر ليموت فيها شهيدا .

إن لهذا العالم طريقة خاصة فى معاقبة أصدقائه !

وكان «يسوع» وولى أمره قد تخطيا الردهة الخارجية التى ذكرت «يسوع» بـ «أشعياء» النبي

الذى سبق أن مشى فى سابقتها يقول للناس « كفوا إذن عن صنع الشر وتعلموا أن تفعلوا الخير ، وابحثوا عن العدالة وانصفوا المظلومين ، وارحموا اليتامى واعطفوا على الأرامل » .

وكانت الشرفة كلها تقع فى الناحية الشمالية الغربية من الردهة الكبيرة ، وهى مقسمة إلى ثلاث شرفات مرتفعة بعضها عن بعض ، مخصصة الأولى لوالدته وللسيدات الأخريات ، والثانية للرجال والصبيان ، والثالثة القريبة من الهيكل للكهنة ، حيث أصيب «زكريا» منذ ثلاث عشرة سنة بالبكم لأنه شك فى رسالة الملاك ، وأخذ «يسوع» يعد السلالم الاثنتى عشرة التى نزل منها الكاهن الأبكم ودهش للحبل المذهب الذى يشد ستارة حجاب الهيكل الملونة بألوان كثيرة ومذهبة ، والتى نسجها اليهود فى بابل أثناء أسرهم هناك . وكانت المسامير الذهبية المدلاة من السقف تعكس أشعة الشمس الغاربة . وكان فى أعلا الباب مباشرة عناقيد ذهبية .

وأينما أدار يسوع نظره وجد كهنة ، إذ فى ذلك الوقت كان عشرون ألفا منهم مسجلة أسماؤهم فى الهيكل ، يتعيشون منه ويقبضون مرتباتهم ، وكانت الردهة تزخر بالآلاف منهم فى ملابس الحفلات : «لاويون» بقبعاتهم المدببة وجيوبهم العريضة التى يحملون فيها كتب الشريعة ، و«فريسيون» بملابسهم البنفسجية الفضفاضة ذات الحواشى البيضاء ، وخدم الهيكل الرسميون فى ملابسهم البيضاء ؛ ومعهم من الجليل واليهودية وما وراء الأردن آلاف من المؤمنين المتحمسين الذين أتوا ليشتروا الحمام والخراف وليضعوها فوق المذبح لتحرق ؛ ونساء بعد أن وضعن أطفالهن بسلام ، ومرضى بعد أن شفوا ، وكثيرين ممن يشكرون العناية الربانية لعنايتها بهم ، وآخرين على رجاء أن تتحقق آمالهم ، ويهود من «إسبرطة» و«ميديا» ومن سكان آسيا الصغرى ؛ واسرائيليين من «مصر» و«ليبيا» و«روما» ؛ مئات والاف منهم . وتتم صفقات البيع ويتبادل الناس التحية و«يغنون» ويرتلون المزامير طوال النهار على رائحة الشواء والتوابل الكثيرة . ولفتت نظر يسوع هذه المشاهد الكثيرة الألوان والضوضاء والحركة وإن لطفت من ذلك ، أناشيد فرقة المرتلين ودق الطبول الرتيب وأنغام قيثارات الملك «داود» الرقيقة . ولاحظ «يسوع» الناس وهم يركعون ويتعبدون وسمع عبارات الكهنة وردود المتعبدين وأحس بالتوافق الروحى بينهم وهم يرتلون المزمور السادس والستين .

« أدخل إلى بيتك بمحرقات ، أوفيك نذورى » .

« التى نطقت بها شفتاى ، وتكلم بها فمى فى ضيقى » .

« مبارك الله الذى لم يبعد صلاتى ولا رحمته عنى » .

وفكر «يسوع» : ولكن لماذا يحرقون الحيوانات ؟ ولماذا يظنون أن الله يسر عندما

تتلطخ المذابح بالدماء ويتصاعد الدخان ؟ . ولماذا يجب على الفقراء أن يصرفوا نقودهم فى شراء حيوانات الذبيحة ؟ ولماذا يجب عليهم ألا يشتروها إلا من الكهنة ؟ . وماذا يفعل الكهنة بهذه النقود ؟. ألا تنقص هذه الشكليات من سمو اعتبار الله وطيبته ؟ . لماذا قال إذن الوحى على لسان « عاموس » النبى :

— لقد أبغضت أعيادكم ولم تطب لى احتفالاتكم .
— إنى إذا أصعدتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى .
— ولا ألتفت إلى ذبائح السلامة من مسمناتكم .
— اقص عنى زجل أغانيك فإنى لا أسمع نغم عيدانك .
— بل ليجر القضاء كالمياه والعدل كنهر لا ينقطع .

ولماذا إذن لا يحمل الكهنة ورؤساء الأديان لواء الدفاع عن حقائق الدين هذه التى نودى بها منذ سنوات طويلة سابقة ؟ .

وتملكت هذه الأفكار ذهن الصبى ، ولم يستطع أن يطرد من رأسه تلك الأسئلة الحائرة ، فوقف على عتبة المعبد الداخلى حيث يجلس كبار العلماء ومن حولهم نسخ التوراة ، وهم يتناقشون فيما يتعلق بها ، ويستمع إليهم جمهور من المعجبين المأخوذين بهذه الحكم .

فى هذه الحلقة من أساتذة الدين وقف صبى الجليل يلقى عليهم أسئلته يريد أن يتعلم منهم ، لكن نكصوا هم عن أن يجيبوا عن تلك الأسئلة المخلصة ، كل ذلك بينما كان « يوسف » منصرفاً إلى صلاته مغمض العينين لا يدرى من هذا شيئاً .

هل وجه إليهم أحد مثل هذه الأسئلة من قبل ؟ ولكنها أسئلة عن بديهيات بسيطة ومفهومة ولا داعى لها ، لذلك أصغى إليها العلماء متضايقين متبرمين ثم لم يعودوا يصدقون آذانهم ثم تنبهوا للخطر . فمن هذا الصبى إذن الذى جرؤ على أن يتحداهم ويتحدى كل النظم والشكليات المستقرة منذ ألف سنة ؟ . ولماذا يصر على أن يعود بهم إلى منشأ كل سلوك الإنسان المعقدة ؟ .

وانتهى النهار وأتى الليل ومضى نهار وليل آخر ، وأشرق نهار ثالث ومازال الخمسة عشر عالماً يحاولون أن يجيبوا عن أسئلة هذا الصبى المجهول ، وحل منهم جدد مكان الشيوخ المتعبين وتعبوا جميعاً ولم يتعب الصبى فى غيرته وحكمته ، فلم يكن من الممكن أن يتغلب أحد منهم على بساطة أسئلته وحكمتها وعمقها ، لا بالمنطق السليم ولا باللف والدوران . وظل الصبى يعيد إلى أذهانهم جمال ما تناسوا من تعاليم الدين ، ذاكراً لهم روائع الآيات من هنا ومن هناك

ومستشهداً بـ «عاموس» عندما تساءل : ماذا يطلب الله منكم أكثر من أن تكونوا عادلين وأن تحبوا الشفقة وأن تمشوا خاشعين مع إلهكم ؟ .

ولم يحس «يسوع» ولا أحس متتبعو هذه المناقشة المثيرة بمضى الوقت الطويل حتى رأى يسوع من فوق رؤوس الجالسين من حوله وجه «مريم» المصفر وقد لمع فى عينيها عتاب وانهمرت منهما الدموع ، وكانت هذه هى المرة الأولى بل المرة الوحيدة التى بدا عليها أنها لم تكن تتفاهم معه بروحها إذ قالت :

— ولدى ! لماذا فعلت هذا بنا ؟ لقد كنا — والدك وأنا — نبحث عنك طوال الوقت متوجعين ؟ .

وودع «يسوع» العلماء والأساتذة ورأى أنه — حتى الآتين أخيراً منهم — قد بدا عليهم الإجهاد إذ تفتحت أذهانهم على شىء جديد مخالف لما درجوا عليه .

ولف على كتفى والدته العباءة العميقة الزرقة التى كانت تلبسها ، وأمسك بيدها إلى الخارج ، وروت له ما كان من أمرها و«يوسف» ، بينما كان هو يوقظ ضمير النظام المستتب والعرف والعادة وما درج عليه الناس فى تصرفاتهم ، كانت «مريم» و«يوسف» قد قفلا فى طريق عودتهما إلى «الناصرة» مطمئنين إلى أن «يسوع» عائد هو الآخر فى رهط من رفاقه ، ولكنهما عندما حاولا العثور عليه لم يجداه ؛ لذلك ما إن طلع فجر الغد حتى قفلا راجعين إلى «أورشليم» ، وهناك بعد جهد مضن وجداه يناقش فى الشريعة أساتذتها ، ونظر «يسوع» إلى عينى «مريم» وقال فى ابتسامة رقيقة :

— ولماذا تطلبانى ؟ أما تعلمان أنه يجب أن أهتم بما لأبى ؟ .

ألم تكن تعرف ؟ ثم لماذا يرى هو أنه كان حقيقاً بها أن تعرف ؟ عندئذ تذكرت «مريم» تلك الليلة التى غادرت فيها «الناصرة» ، عندما استيقظت من حياتها الرتيبة على ماوراء الطبيعة ، وعندما لم تستطع أن تتحدث مع أمها أو أبيها عالمة أنهما لن يفهما التجربة الصعبة على الفهم التى مرت بها ، إذ حملت بالطفل بمجرد كلمة ! .

ورن فى صدرها السؤال ثانية : «ألا تعلمين ، يا أمى . . . ؟» .

وشعرت «مريم» و«يوسف» أنهما تلميذان وأن «يسوع» هو معلمهما . . . ولكن هذه اللحظة مرت بما حملت ، ثم عاد «يسوع» إلى بنوته لهما فورا فاندفع يعانق أمه وقبل لحية أبيه الذهبية التى بدت فيها شعيرات أخذت تحيلها رمادية ، وانتهت فترة قلقهما ، وأقبل شباب «يسوع» طيعاً لهما ورأياه يتقدم نحو الرجولة ، وينمو فى الحكمة والنعمة عند الله والناس .

الفصل العشرون

خبر عجيب من الجنوب

عاش «يسوع» و«مريم» الثانى عشرة سنة التالية فى «الناصرة». وعندما بلغ «يسوع» الثلاثين كان قد مات «يوسف» و«يواقيم» و«حنة» والدا «مريم»، وتكفل «يسوع» بأمه وظل يعمل نجاراً مكان «يوسف».

وكان معروفاً كرجل فارع الطول مجيد لصنعته شريف فى معاملته عميق التفكير هادىء الطبع فى مجتمع صاخب. وكان يعرف أن ما يراه فى «الناصرة» مجرد مثل لما يجرى فى كل الأمة: فقر مدقع وحيرة وكبت شديد، رأى الشعب مستعبدا لنفس رؤسائه من اليهود ومخدوعا منهم ومستغلا أسوأ استغلال، مقيدا فى حركاته بقواعد تافهة وشكليات يحرص على تكبيله بها كهنته وكتبته. ثم ينهب اللصوص وقطاع الطرق ما بقى له بعد ذلك، كما رأى أن رجال ونساء الناصرة أقوياء فى معنوياتهم وشجعان، لهم آمال عريضة وأحلام فى مستقبل سعيد وإن لم يبرح تستبد به نزعات رديئة، وكان عطوفا عليهم محبا لهم موقنا أن الإنسانية جديرة بالخلاص.

وكان يعرف من أول الأمر أنه سيأتى يوم يجب عليه فيه أن يلقى بأدوات النجارة وبأن يترك الأم والمنزل جميعاً، وأن يكرس القليل الباقى من حياته لتوصيل النور إلى الضالين والخائفين. فليس غيره بمستطيع أن يقدم إليهم الحياة الجديدة ونور الأمل الباسم فى هذه الدنيا وفى الآخرة.

لذلك وقبل وقت طويل، كان «يسوع» يرى نفسه معارضا لطبقة الكهنة والأغنياء وذوى النفوذ والسلطة الذين يسخرون الدين لمنافعهم الشخصية، وكان قمينا بالتصادم أن يقع. وهكذا فقد تقرر مصيره منذ اللحظة التى بدأ «يسوع» فيها ينظر حوله ويعمل عمل أبيه، الذى كان يتلخص فى أن يحمل نور الحق للناس وأن يسلطه على الشرور وعلى الرذيلة، وأن يعلم الفقراء والمساكين عظم قيمة الحياة وضخامة إمكانياتها. أما ماذا يقول الناس عن معنى الحياة وسببها وحكمتها، بعد إذ سمع حديث السائحين الشرقيين فى «الناصرة» عن «نيرفانا» وإذلال الذات و«الفيدا» كتب «الهند» المقدسة، و«السوترا» وأقاصيصها الطويلة

عن «المهابهاترا» التى تشبه حياة الإنسان بقطرة ماء تسقط فى المحيط، وبعد إذ رأى الناس لا يبرحون يحاولون إقناع الآخرين بهذه الأخطاء، وكثيرين لا يزالون يؤمنون بها فليس الإنسان فى نظرهم شيئا ولن تكون له لديهم قيمة شخصية ؛ فإن على « يسوع » أن يلفت نظر كل هؤلاء إلى قيمة الإنسان الفرد وقدرته الفائقة على أن يعرف معنى الحياة ولذة العمل وسحر الجمال الروحانى . . . !.

هذا الإنسان الفرد ذو الشخصية الخالدة هو المخلوق الذى سيوجه إليه «يسوع» رسالته !.

وهكذا وجد « يسوع » نفسه وقد ناهز الثلاثين وخبر آلام الحياة وقسوة تجاربها ، مستعدا لأن يحمل إليها الفرج ، فلا سخرة بعد فيها ، ولكن بطريقة جديدة للحياة وسعى دائب للوصول إلى ملكوت الله ، ليس ملكوت الثورة وقلب نظم الحكم هذا الذى يطلبه «صموئيل» صديق ولى أمره ، الذى أصبح اسمه : « يسوع برابااس » ، بل ملكوت الله الذى ليس من هذا العالم والذى يجب أن يصل إلى عالمنا بالمحبة الشاملة ، وعندئذ يستطيع أفراد تلك المملكة أن يطلبوا ما يشاءون فيعطى لهم كل ما تمناه الرجال والسيدات ذوو النية الحسنة ، وما حلموا به من خير سيتحقق ، ليس ظله أو خياله ولكن مادته وحقيقته . كل ما عليهم هو أن يبحثوا عن الحق وعندئذ فإن الحق سيحررهم ، حرية يكون كل إنسان فيها عادلا نحو أخيه وشفوقاً ومحباً ، حرية لا ظل فيها لعراك ولا لحرب ، فيغدو العالم كله عائلة واحدة أبوها هو الله . دع الإنسان يحب الله أولا ثم إخوته فى الإنسانية وعندئذ فسيتحقق كل هذا .

وكان بؤس العالم من حوله دليلا على شدة حاجته لهذه الرسالة ، وقد اختل المعيار لدى الناس إذ رأوا حاكمهم « هيرودس أنتيباس » يأخذ من أخيه زوجته ويجعلها زوجة له . فإن هذا لم يكن صدمة للحياء والفضيلة فى أبسط صورها فحسب ، وإنما كان مثبطا للناس بحيث أفقدهم كل أمل فى حياة فيها فضيلة . وكان «يسوع» ينصرف إلى تلال عالية حول «الناصرة» ويفكر فى الرسالة التى ولد ليؤديها . وكانت نار الغيرة المقدسة تشتعل فى صدره بشكل عظيم ، وكانت قد اكتملت رجولته واستطال شعره الكستنائى المذهب الناعم ونزل على كتفيه ، وكانت له عينا أمه الواسعتان المتباعدتان الآخاذتان ، وقد برزت عضلاته من جراء عمله الشاق وصار وجهه أكثر شحوبا من وجوه سائر الناس .

ووصل إلى « الناصرة » عندئذ خبر عجيب عن رجل تقى يعيش فى صحراء اليهودية ،

يتجول مبشرا فى مدن الجنوب داعيا إلى التوبة ومباركا الناس بتعميدهم فى مياه نهر الأردن ، اسمه «يوحنا»، قالت عنه «مريم» لـ «يسوع» : إنه ابن خالتك، ابن «زكريا» و«اليصابات».

وكان « يوحنا » يخبر الجماهير أنه مجرد رسول لآخر وكشاف له ، وأنه يعد الناس لاستقبال مخلص هذا العالم .

وكانت خلاصة رسالته أن موعد ظهور المسيح قد أزف !

الجزء الثالث

الإعداد

الفصل الحادى والعشرون

الصوت الصارخ فى البرية

تأثر « يسوع » كثيراً بالأنباء التى وصلته عن ابن خالته « يوحنا » .

وقد حمل هـذه الأنباء إليه التجار والقادمون من العاصمة ، حيث أثار « يوحنـا » يقظة فى إحساس الناس وأفكارهم ، ليس فقط فى « أورشليم » بل فى كل ما يحيط بها . وقد نما ابن شيخوخة «زكريا» و«اليصابات» إلى رجل فارع الطول ضخم الجسم ، إذ كان قد ولد فعلا كبير الحجم على ما تذكر « مريم » ، وكان فى عنفوان شبابه عندما قضى أبوه وأمه فسرعان ما وجد نفسه مسئولا عن نفسه ، ومضى فى شأنه بعيداً عن كل أقاربه ، وإن كانت الأخبـار تصل عنه أحيـاناً متقطعة بأنه يعيش فى كهف صخرى فى الوادى الشديد الحرارة الواقع أسفل « أورشليم » فى مواجهة البحر الميت ، وأنه لا يأكل غير الجراد وعسل النحل البرى ، ولـكنه الآن انفلت من وحشاته وغدا شخصية شعبية تحار فى شأنها عيون الهيكل وجواسيسه ، ربما لأنه كان يختلف عن العاديين من الناس إذ كان يلبس على حقويه رداء من جلد الحيوانات البرية ويرتدى عباءة من وبر الجمل ، يختلط شعر رأسه بشعر لحيته وكلاهما طويل أشعث وقد اعتاد أن يقف فى مداخل المدن يوماً بعد يوم داعياً الناس أن يتوبوا عن أعمالهم الشريرة ، ومذكراً بنبوآت « أشعيا » ، التى أهملوها ثم تناسوها جملة ، صائحاً فيهم :

ـــ توبوا عن غيكم فقد اقترب ملكوت السماوات ! .

ولم يكن سامعوه يعرفون على وجه اليقين ماذا يعنى بملكوت السموات ، ولـكنهم كانوا يعرفون أنهم مثقلون بما يجب أن يلاموا عليه ، كم أدهشهم أن هذا الرجل الزاهد لا يوجـه اللوم للفقراء فقط ، كما يفعل الـكهنة والـكتاب عادة ، بل ظهر فجأة من الصحراء موجها اللوم لـكل الناس غير تارك أحدا ، ابتداء من القيصر العظيم الساكن فى «روما» إلى «بيلاطس البنطى» الذى كان عامله فى « أورشليم » ، وحتى « هيرودس أنتيباس » ابن « هيرودس » العظيم ، والذى اشتهر بالقسوة كأبيه وكان يحـكم إقليم الجليل حينذاك .

وكان طبيعيا أن تـكون جرأته هذه حديث الناس حتى فى «أورشليم» ؛ لذلك اندفعت

الجماهير منها هابطة فى الطرق الجبلية صوب الصحراء الملتهبة الموحشة ، ليسمعوا الرجل القاطن فى البرية يصرخ فى وجوههم :

— يا أولاد الأفاعى ... من علمكم أن تهربوا من الغضب الآتى ؟ .

وبدل أن يغضبوا للألفاظ القاسية الموجهة إليهم ، كانوا يرفعون ملابسهم وينزلون إلى النهر كما يأمرهم ليغتسلوا من آثامهم ويتوبوا ويتعمدوا العماد الذى يخرجون منه بإحساس من تحرر من آثامه .

وكان كثيرون ممن يتبعونه يتساءلون إذا كان هو «المسيح» المنتظر الذى سينقذ الشعب ويخلصه ، وكانت إجابته التى يتناقلها الناس ويتذاكرونها حول نيران معسكراتهم ، وفى بيوتهم ، وتجرى بها قوافل الركبان من هنا وهناك هى : «إنى فعلا أعمدكم بالماء للتوبة ، ولكن سيأتى بعدى من هو أعظم منى ، هذا الذى لست أنا جديرا بأن أحل رباط حذائه ، وسيعمدكم هو بالروح القدس والنار » .

وعندما وصلت هذه الأحاديث إلى «مريم» فى مطبخها تذكرت قول «أشعياء» النبى الذى يعتز به « يسوع » كثيرا : « صوت صارخ فى البرية ، أعدوا للرب طريقه ، واصنعوا سبله مستقيمة » .

أما عندما وصلت أقوال «يوحنا» هذه إلى سمع «يسوع» فإنه تنهد وألقى بأدوات النجارة جانبا وودع أمه وداعاً جميلا ، ثم انصرف وحده على قدميه مخلفا الجليل وراءه موليا وجهه إلى البرية .

وراح «يسوع» يسير فى الطريق الذى خبره مع أمه و «يوسف» . وبعد أيام من السير وصل إلى طريق موحش بين جبال من الأحجار الجيرية لا زرع فيها ولا ماء ممتلئة بالقبور والأحجار الخشنة يحوطها جو من الفراغ والموت وانتهى منها إلى سهل الأردن لبهيج بأشجاره وزرعه ، وإلى جوار ضفة النهر الطينى الضيق ، رأى جمهورا غفيرا من الناس صامتين يستمعون إلى «يوحنا» الذى كان يقول فى صوت أجش واضح حملته إليه الرياح الجافة اللافحة حرارتها : « أما الآن فقد وضع الفأس على جذع الشجرة » .

وسار « يسوع » يشق طريقه فى يسر إلى الأمام ووقف صامتا أمام «يوحنا» ، ولأول مرة منذ طفولتهما وقف إبنا الخالة وجها لوجه هكذا : « يوحنا » عتلتا ، أشعث ، غارقا فى عرقه وجادا ، و « يسوع » أطول منه قامة ، ظاهرة عليه آثار الرحلة الطويلة ، شاحبا وفى منتهى الهدوء . ومضت برهة طويلة وكلاهما ينظر إلى أخيه فى صمت بينما تعلقت بهما أنظار الجماهير المترقبة .

وفى صوت خفيض لا يستطيع أن يسمعه إلا « يوحنا » قال « يسوع » إنه أتى ليعمده ابن خالته .

وملأت ابن خالته الرهبة وهو يقول :

— أنا المحتاج أن اعتمد منك ! وأنت تأتى لى !

وقال « يسوع » فى ابتسامة طيبة وآمرة :

— أسمح الآن . فهكذا ينبغى لنا أن نتم كل بر . . .

عندئذ أحنى « يوحنا » رأسه الأشعث ، الرأس الذى كان معدا لأن يفصل قريبا .

وسار ابنا الخالة إلى الأردن الهادر ، ورش «يوحنا» جسم «يسوع» ، هذا الجسم الكامل المعد هو الآخر لأن يسمر على صليب . ونظرا إلى السماء فرأيا حمامة بيضاء نازلة حائمة ثم متوقفة قليلا ثم حطت على كتف «يسوع» عرفا فيها الروح القدس . وأكد الكثيرون أنهم سمعوا حينذاك صوتا من السماء يقول :

— هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت ! .

وانتهى الحفل فضغط «يسوع» على يد «يوحنا» مودعا . ومضى ولم يقل لأحد ماذا ينتوى ، وإنما قفل راجعا إلى البرية إلى ذلك المكان الصخرى الموحش الذى تزحم سماءه الصقور الكاسرة ذات الذيول الحمر .

وفى منحدر التل وجد كهفا اتخذه لنفسه مأوى . وكان السبب الوحيد لعزلته هذه رغبته فى أن يختبر آلام الإنسان والتجارب المغرية التى يتعرض لها ، إذ يجب عليه أن يتغلب هو شخصيا كإنسان على التجربة ، قبل أن ينصح الناس بما يجب عليهم أن يفعلوا ليتغلبوا هم أيضاً على التجارب .

ولهذا توجه «يسوع» إلى هذا المكان المرتفع القصى الذى لا زرع ولا ضرع ولا ماء فيه ، والذى أطلق عليه فيما بعد « جبل التجربة » مكان أقل من البدائى كأنما بدىء فى خلقه ثم عدل عن إتمامه ، مهجور أبدا من كل الناس ، كله نتوءات من الصخر الممتد على مدى النظر ، تلسع فيه الحرارة نهارا وتثلج البرودة ليلا ، مكان قفر مخيف لا يجسر أن يحلق فى سمائه غير الطيور المتوحشة منقبة فيه عن فريسة ، حتى لا يكاد يرى فيه غير فهد كاسر أو خنزير برى .

وفى هذا الوسط فرض «يسوع» على نفسه سياسة من الصوم المطلق والعزلة التامة وبقى هناك أربعين يوما لم يأكل فيها ولم يشرب ، وبعد ما بينه وبين «الناصرة» ووجه أمه المباركة الحبيبة .

ثم اكتملت الاربعون يوما وليلة وصار أضعف ما يكون وأقرب إلى الإغماء وأبعد عن كل نجدة ، وبدأ عذاب التجربة .

وقف فى أعلا الجبل مع الشر نفسه وبدا أمامه منظر يتمثل فيه العالم . ووقف بالقرب منه فوق الصخر الأصفر المتصهر فى الحرارة اللاذعة أسد يجرد فريسته من لحمها ، وعلى بعد وإلى الجنوب بدا سهل «سدوم» و«عمورة» كطعم التجربة المرة وإلى الشمال تلال «موآب» خلف سحب الأبخرة السامة المنبعثة من البحر الميت ، حيث تشع الرمال والحصى العاكسة حرارة مخيفة وتثير دوامات هوائية صاعدة بروائحها الكريهة وبقوتها الجبارة التى تشعر الإنسان بضعفه المطلق ، وعندئذ قدم الشيطان إلى «يسوع» كل أنواع المغريات الأرضية والمتع التى سممت حياة الجنس البشرى منذ «آدم» ، مؤيدا الإغراء بآيات من التوراة ، فإن الشيطان أمكر المستشهدين بكلمات الله .

فلماذا لا يترك «يسوع» رسالته المشحونة بالخطر فى مساعدة الضعاف والمحرومين المتألمين ويفكر فى نفسه ؟ ثم لماذا يعذب ابن الله نفسه كل ذلك العذاب الذى لا لزوم له البتة ؟ ولماذا إذن لا يستدعى بكلمة واحدة آمرة مائدة تضع بين يديه أطايب الطعام ؟ . ثم شىء آخر ، لماذا يبقى هكذا وحيداً مغلقا على نفسه أفكاره ، كمجرد نجار يزمع أن ينقلب إلى مبشر ؟ فى حين أنه لو أن آيات ميلاده المعجز حقيقة لكانت له إذن قوة الله ولكان على العالم كله أن يخدمه ولتحققت له أروع أمجاد العالم التى لم يصل إليها أعظم الغزاة والفاتحين ، لا «داريوس» ولا «الإسكندر» ولا «قيصر» وسوف يكون كل البشر عبيده الخاضعين بلا استثناء ؟ .

لم لا ؟ .

واستعار «يسوع» أيضاً إجاباته من التوراة : «للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» — «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ولكن بكل كلمة تخرج من فم الله» — «لا تجرب الرب إلهك» .

ولم يكن هينا على «يسوع» كبشر وصل به الضعف إلى غايته أن يخبر أو جاع الناس إلى هذا الحد ، وأن يجتاز هذه التجارب بكل هذا التوفيق ولكنه فعل ، ثم مشى ببطء إلى نهر الأردن وكان حسنا أن يخرج «يسوع» من الإقليم الذى قضى فيه ابن خالته «يوحنا» معظم حياته

أذ أنعشته الريح الرطبة بينما هو يقترب إلى النهر وجففت عرقه ، وأخذ يأكل بعض البلح منهيا بذلك صيامه الطويل .

وألفى ابن خالته لا يزال يبشر الجماهير الغفيرة وقد صارت أكثر تهافتا عليه . وبينما وقف « يسوع » فى آخر الجماهير اشترك معهم فى الحديث وعلم أن السلطات فى « أورشليم » أخذت تضيق بـ «يوحنا» العمدان ، وأن رؤساء الكهنة يصرحون بأن « يوحنا » رجل شديد المراس وليس أهون عليه من أن يدعو الناس إلى الثورة فيثورون ، فهو يسخر من سلطانهم ويصف الفريسيين والصدوقيين بأنهم مكرة خادعون ! .

لهذا بدا أن رؤساء الكهنة أرسلوا لجنة لتذهب إلى «بيت‌عنيا» فيما وراء الأردن ، حيث يبشر «يوحنا» ، ليوجهوا إليه بضعة أسئلة آملين أن تكون إجاباته أساسا لتوجيه الاتهام إليه فيما بعد ، وهكذا وجد «يسوع» نفسه بجوار رئيس تلك اللجنة ، الذى كان يوجه عندئذ سؤالا إلى « يوحنا » :

— من أنت . . . من تدعى أن تكون ؟ .

وأدرك «يوحنا» مرمى سؤالهم ، وما الذى يخيفهم بالأكثر منه فأجاب بصراحة :

— إنى لست « المسيح » ! .

ولأن هناك نبوءة بأن النبي القديم « إيليا » سيبعث من جديد قبيل مجىء « المسيح » فقد وجهوا له السؤال الآتى :

— إذن فأنت النبى « إيليا » ؟ .

— كلا .

— حسنا فمن تكون إذن ؟

— أنا الصوت الصارخ فى البرية .

وهكذا أعاد «يوحنا» إلى الأذهان النبوءة أو العلامة التى تدل على قرب مجىء «المسيح» !. وسـألوه :

— لكنك تعمد ، وهذا إجراء دينى المفروض أنه يطهر الناس من خطاياهم ، فكيف تجرؤ أنت على غسل خطايا الناس لو لم تك أنت « المسيح » ؟ .

وكان « يوحنا » قد لمح وجه « المسيح » الشاحب فقال :

— أنا أعمد بماء ، ولكن يوجد بينكم الآن . . . . .

وصمت برهة ثم استأنف :

— يوجـد بينكم الآن من لم تعرفوه بعد ، إنه هو الآتي بعدى الذى كان قبلى ، الذى لست أنا جديراً بأن أحل سيور حذائه ! .

ولم يدرك الرسل الآتون من « أورشليم » مؤدى مقالة « يوحنا » هذه ، فهزوا رؤوسهم وانصرفوا محتكا بعضهم بـ «يسوع» دون أن يلقوا إليه نظرة أو يعرفوا من هذا الذى صدموه بأكتافهم ! وتكاثر الناس ثانية على « يوحنا » وانصرف « يسوع » إلى حال سبيله .

الفصل الثاني والعشرون

أصدقاء جـــدد

في « صباح » اليوم التالي ولى « يسوع » وجهه شطر « يوحنا » ووقف أمامه وجها لوجه. وعندما رأى «يوحنا» « يسوع » مقبلا عليه متعباً هزيلا إثر مصاعب الخلوة الطويلة التي كان يعيش فيها رفع « يوحنا » ذراعيه قائلا :

ـــ هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم ! .

وأمضى « يسوع » بضعة أيام متردداً على مكان « يوحنا » مستمعاً إلى عظاته متسايرين معاً ومتجاذبين الحديث ساعات حتى أتى اليوم الذي افترقا فيه فلم ير أحدهما الآخر بعد ذلك مطلقا ! .

حدث ذلك عندما كان «يوحنا» واقفاً مع صديقين، أحدهما شاب يحمل الاسم اليوناني : « أندراوس » والآخر من الشمال حسن المنظر يدعى « يوحنا » ، وهما جليليان كانا يستأجران مراكب للصيد في «كفرناحوم» على ساحل البحيرة ، وكانا صديقين حميمين ولكن لم يكن أحد منهما يشبه الآخر ، إذ كان « أندراوس » قوياً صلب الرأي فخوراً بقدرته على التفكير المنطق وبأحكامه الصائبة في حين كان « يوحنا » مرهف الإحساس ذا خيال واسع وحب استطلاع وشديد الاندفاع ، فكم كان يخطىء من يحسبه في منتهى الرقة ، إذ أتى عليه يوم شعر فيه بأن « يسوع » أهين فألح عليه في الرجاء بأن ينزل من السماء ناراً على من ظنهم أعداءه ! .

وكان « أندراوس » وصديقه « يوحنا » يتحدثان إلى « يوحنا » المعمدان في دهشة بعد أن أمضيا أياماً مستمعين إلى ما يقول ، وكانت هذه أول مرة يتحدثان فيها إليه حديثاً خاصاً.

وسألهما « يوحنا » :

ـــ إنكما صيادا سمك من البحيرة الشمالية ، فلماذا قطعتما هذا الطريق الطويل ؟ ألمجرد أن تستمعا لي ؟ .

وقال « أندراوس » بصراحة :

ـ إننا نربح قليلا جداً ، ومعظم هذا القليل يذهب إلى جباة الضرائب حتى لا نكاد نجسر أن تتذوق السمك الذى نصطاده بشباكنا ، إن حياة الكلب لأفضل ، فماذا نفعل إذن ؟ أليس الأجدى أن نلق بنفسينا فى الماء وننتهى من هذا الشقاء دفعة واحدة ؟ ثم بينما نحن فى خضم هذا اليأس ، سمعنا أن رجلا يبشر فى الجنوب بقرب « أورشليم » وأن لدى هذا الرجل سر الحياة السعيدة . . . إن اليائس يجرب كل شىء .

وابتسم « الجليلى » ابتسامة ذات معنى ، وأتم رفيقه الحديث قائلا :

ـ وهكذا جئنا إليك .

وقال « المعمدان » :

ـ وهل أفدتما منى شيئاً ؟ .

وارتج على الصيادين الرقيقين . وقبل أن يعثر أحدهما على جواب أشار المعمدان من فوق كتفيهما إلى « يسوع » القادم من بعيد وتمتم يقول :

ـ هذا هو حمل الله .

وكان هذا قولا جاداً أدرك الصديقان للتو معناه فلم يكن يمكن أن يوجه إلى إنسان حينذاك مديح أكثر من هذا : حمل الله ! إذن فهو الحقيقة الحية التى ظلت ترمز إليها خراف التضحية فى عقيدة الشعب . هذا إذن تمام نبوات «أشعياء» « وأرميا » ، وتسمر الرجلان فى مكانيهما من روعة « المفاجأة » .

وأضاف « يوحنا » :

ـ وقد رأيت روح الله نازلا عليه بينما أنا أعمده بالماء وسمعت صوتاً سماوياً يعلن أنه هو ابن الله الذى يعمد بالروح القدس .

وكم كان غريبا موقف هذين الصيادين البعيدين عن الماء والشباك والمراكب ، اللذين ما كان يعنيهما من قبل غير لغز الحياة وشقاء حياتهما وهما ليسا بفيلسوفين ولا باحثين فى الغيب ، وما كان يعنيهما البحث عن الحق بمقدار ما تعنيهما مشاكلهما اليومية . لقد كانا عمليين يبحثان عن جواب لمشكلتهما : ما جدوى البقاء فى حياتهما الشاقة تلك ؟ وبدلا من أن يعطيهما « يوحنا » سر الحياة الفضلى أو أن ينصحهما بالعودة إلى عملهما فى الجليل والاستمساك بالفضيلة ، أشار إليهما : على «يسوع» الذى كان يقترب واصفاً إياه بأنه حمل الله ، هذه الصفة التى تكاد تعنى أنه « المسيح » ، وقد وصفه فعلا بأنه ابن الله !

ثم زاد فأخبرهما بأنهما لو أرادا أن يعرفا معنى الحياة الحقيقى ، فإن عليهما أن يتبعا ذلك الغريب ، وكان ذلك الغريب يسير عند ذاك متجها إلى البلد .

ونسى الشابان همهما ونظرا إلى «يوحنا» نظرة شكر ثم أسرعا ليلحقا بالرجل المبتعد وكان قد وصل إذ ذاك إلى الميدان الفسيح المغمور بالشمس الذى يتوسط « بيت عنيا » .

وعندما سمع «يسوع» وقع أقدامهما خلفه توقف واستدار لمقابلتهما ، فوجداه رجلا نظيفا نحيفاً فى الثلاثين من عمره باهت اللون بارز العضلات ذا لحية ذهبية صغيرة وشعر كستنائى ناعم مسترسل، عميق العينين واسعهما، ذا وقار وطيبة ومحبة أخاذة ، ووضع يده على كتف «اندراوس» وابتسم لـ « يوحنا » وسأل :

— ماذا تريدان ؟ .

وأحسا بأنه يعرف مشكلتهما ويعرف أنهما يقصدانه ليسألاه : « أتستحق حياتهما هذه أن تطول ؟ ولماذا يشقى الإنسان حتى الموت دون أن يكون لحياته معنى أو غرض مرموق ؟ ... ثم أليس هناك نوع آخر من الحياة غير تلك الحياة المملوءة إبهاما ومتاعب ؟ » .

ورفع « يسوع » عينيه مخترقا حجب الزمان والمكان ، ورأى مصير هذا الشاب الباحث عن الحقيقة «اندراوس» مربوطاً فى شكل علامة « X » على صليب ملتهب فى بلدة «بتراس» . كما رأى « يوحنا » فى شيخوخته وهو يرى رؤيا الآخرة ويسجلها فى سفر يختتم به الكتاب المقدس !

وأوضح لهما « يسوع » أنه ينوى أن يقوم بجولة فى إقليم « فلسطين » مخاطبا الناس ومحاولا أن يجيب على مثل أسئلتهما ، وأنه فى حاجة إلى رفاق ولكنه لا يريد رفاقا مندفعين اليوم فى خفة ليفارقوه فى الغد بنفس الخفة ، إنما يريد مؤمنين برسالته ثابتين فى الإيمان ، وأنه ليرحب بأن يعطيهما ساعات وأياما وكل الوقت ليسألاه ما شاءا وليدليا إليه بكل ما يجول فى ذهنهما ، فإنه لا يريد قبولا عرضيا لآرائه وإنما يريد اقتناعا عميقا بها ، إنه لا يطلب منهما أن يمنحاه بعض وقتهما بل يطلب حياتهما كلها ونفسيهما ، يجب أن يكونا متأكدين من هذا وعازمين عليه ، فإذا ما شبعا أسئلة وتفكيراً وانتهيا إلى الإيمان برسالته كان لهما عندئذ أن يتبعاه وأن يبحثا معه عن تلاميذ آخرين .

وعند ذلك رد الشابان :

— يا سيدى أرنا أين تسكن ، وسنذهب معك من الآن .

— تعاليا وانظرا ...

وقادهما « يسوع » إلى حيث يقيم فى مبنى خارج البلد ؛ وهناك مكث الثلاثة معا يتناقشون من شروق الشمس إلى غروبها ، ولم يسبق أن سمع « أندراوس » و« يوحنا» حديثا مثل حديث ذلك « السيد » !.

وأصر « يسوع » مراراً على أن يسألاه فقد كانا ضيق الصدر بحياتهما شاعرين بعدم استقرار وبعدم عدل فيها ، وعندما تحدث « يسوع » عن حياة حرة مليئة بالشفقة والتضحية أشرقت حلاوة حديثه على قلبهما إشراقة البرق ، كما أخذتهما طيبته ونبل قصده ولكن «يسوع» أبى أن يقبل إيمانهما برسالته هكذا بسرعة ، وقال لهما إنه يجب عليهما أن يجرباه وأن يصارحاه بكل شك فى قلبهما ، وأن يبحثا عما قد يبدو متعارضا فى أقواله ، فإنه جدير بهما ألا يطاوعا محبتهما له وأن يفكرا فى هدوء حتى يقتنعا ، فإنه فى حاجة إلى عقلهما كما هو فى حاجة إلى إيمانهما ، لأن كليهما لازم لتأدية الرسالة التى يطلبها منهما ، هذه الرسالة التى تتطلب أن يترك الرجل منزله وعائلته وحياته نفسها فى سبيل أن يتتبع خطواته ؛ لذلك فإنه أحرى بمثلهما ألا تكون لهما ملكة الإيمان فقط ولكن أيضاً ملكة التفكير والاقتناع .

وإذ رأى أنه لم يعد لديهما شك فى صدق مبادئه وسلامة آرائه ، عاد يوجه نظرهما إلى ما قد يخالجهما أو يخالج غيرهما من اعتراض وشكوك ، ولذلك فقد أمضيا الأيام والليالى سائلين ومصغيين ثم سائلين ثانية حتى شعرا بأنه لم يعد لديهما ما يستفسران عنه ، وأعلنا أنهما بهذا قد قبلا من كل نفسيهما جميع ما قدم لهما ، شاعرين عند ذاك بأنه ستجابههما منه فى المستقبل حقائق أروع ! .

ولكن ما سمعاه حينذاك كان كافيا لأن يجعلهما يعلنان فى حماس استعدادهما لأن يتبعاه . فقد كانت مبادؤه وأفكاره من البساطة بحيث أخذت بمجامع قلبيهما ، ولم يكن فى طريقته أو فى سلوكه كبر أو إدعاء ، ولا كان فى مصاحبته رسميات ، حتى لقد شعرا أنهما يعرفانه ويحبانه قبل ذلك بوقت طويل .

وألقى « أندراوس » سؤاله أخيراً :

— يا سيد ، إنك تقترح للعالم حياة من التضحية والاتصال الروحى بالآب ويبدو هذا لنا عجبا ، أيكون أنك أتيت لتغير شريعة موسى ؟ .

وهز « يسوع » رأسه فى بطء وهو يقول :

— كلا يا « أندراوس » ، لقد أتيت لا لكى أغير الشريعة ولكن لأكملها ! .

وفجأة تلاقت عينا الصيادين على معنى ما تحمله هذه الإجابة . إنه إذن « المسيح » ولكنهما

لم يقولا هذا ، ولم يسألا ، إذ كان قلباهما قد أفعما حباً عظيما ، ورأيا فى مجرد وجودهما معه ما يكفى لأن يجعلهما يحسان فى نفسيهما طمأنينة لم يعرفاها من قبل .

وقال « يوحنا » :

— أيها السيد ، إننا سنذهب معك حيثما تذهب وقد أنذرتنا بأن هذه الآراء ستلقى بنا فى المخاطر . وليكن ، فإنها تستحق أن يموت الإنسان من أجلها وفى سبيلها .

ثم بعد فترة قال « أندراوس » إن له أخا يحب أن يقابله السيد وجرى ليعثر عليه .

واكتشف « يسوع » و « يوحنا » أنهما إبنا خالة ، فقد كان « يوحنا » ابن «زبدى» و «سالومة» التى هى أخت كبيرة لـ « مريم » ولم يسبق أن تقابل إبنا الخالة هذان من قبل .

كان « سمعان » مشغولا بغسل رجليه الكبيرتين عند بئر القرية وقد بدا على هذا الأخ الأكبر لـ « أندراوس » أنه متعب متضايق ، كان طويلا ضخما قويا ذا كتفين عريضتين وصدر واسع ولحية مربعة تتجسم فيها القوة وعينين لا معتين فيهما جفوة وقوة ، ووجه عبوس . وناداه « أندراوس » :

— يا « سمعان » .

— ماذا ! أأنت هو ؟ أيها الكسول ، ماذا يجعلك تلهث هكذا ؟ .

— إنى متعب من الجرى ، هذا كل ما هنالك . يا «سمعان» ، لقد وجدناه ... وجريت طوال الطريق لأحدثك عنه .

— وجدتماه ؟ . . . أنت ومن ؟

— « يوحنا » وأنا . . .

— ومن وجدتما أنت و « يوحنا » ؟ .

— لست أعرف كيف أبدأ القول ، ولكنى أعتقد أننا وجدنا أعجب معلم فى العالم ، إنه يستطيع أن يجيب عن كل سؤال يمكن أن يخطر ببالك .

— « أندرواس » ! فيم تهذى الآن ؟ .

— لقد وجدنا مبعوثا من الله وأنا واثق من هذا .

ومشط « سمعان » شعر لحيته بيده وهز رأسه . وقطب أنفه المجعد وقال فى استخفاف :

— لست أصدق من هذا كلمة ، فأنا أعرف أنكما تزدادان غباء يوما بعد يوم ، فأنتما تجريان

أولا وراء «يوحنا» المعمدان معتقدين أنه هو الآتى ، فيقول لكما فى صراحة إنه ليس هو . ثم ها أنتما تجريان وراء آخر .

— تعال إذن وانظر بنفسك ! .

وأتم «سمعان» تجفيف أصابع قدميه ، ثم قال موافقا :

— حسنا ! سأذهب معك وأريك خطأك .

وكان الوقت قبل الغروب عندما وصل الشقيقان إلى المسكن الجالس فيه «يوحنا» مصغيا إلى «يسوع» . وملأ ظل «سمعان» الطويل المدخل ، ووقع الظل الذى كان مقدراً له أن يشفى الأمراض على قدمى «يسوع» . ورفع «يسوع» وجهه فى ابتسامة كبيرة مرحبة بالصياد الأصلع الملتحى . ورأى «يسوع» عندئذ مستقبل ضيفه فى حدائق مضاءة فى «روما» فوق «صليب» مقلوب علق عليه هذا الصياد الجرىء المربع اللحية مصلوبا ورأسه إلى أسفل ليحرق هكذا حيا !

ورحب به «يسوع» فى حماس قائلا :

— إنك «سمعان» ابن «يونا» ولكن ستسمى «بطرس» .

وفوجىء الثلاثة بهذا الترحاب الودى الخالص ، وتحدث «السيد» فى بساطة وكان كلامه يحمل أكثر من ظاهره ، وجلس «سمعان» الذى سيلقب «بطرس» وأخوه «اندراوس» و «يوحنا» منتظرين أن يقول «يسوع» أكثر وأكثر . . .

الفصل الثالث والعشرون

الساقى المندهش !

غير «يسوع» الموضوع وقال إنه يحسن بهم أن يعودوا إلى الجليل ماداموا جميعا من الجليل وإنه وسيتحدث إليهم عن رسالته خلال الطريق .

ورحبوا بذلك ، وما أن بدأت الرحلة فى الطريق الشمالى الحجرى حتى ابتدأ عددهم يتزايد . وكان أول المنضمين صديق «أندراوس» الذى يحمل مثله اسماً يونانياً هو « فيلبس » الذى قابلوه فى الطريق .

وكان « فيلبس » شابا خجولا دائب التفكير ، ولد فى « كفر ناحوم » وقضى معظم حياته فى « بيت صيدا » . وكان قد عزم على هجر تلك المدينة إذ كانت ميناء صغيراً هادئاً للصيد فإذا بها تعج بالرومان الكثيرى الجلبة ، حتى أصبح يشق عليه أن يعيش بين هؤلاء السكارى الصاخبين الذين لا يحترمون قانونا ولا قاعدة أخلاقية . ورحب « يسوع » بذلك المهاجر، الذى رحب هو الآخر بأن ينضم إليهم ويسمع التعاليم الجديدة وطريقة نشرها . بل وأضاف بأنه سيحاول أن يضم صديقا له واستسمح بالركوب على جمل لا راكب عليه فى قافلة كانت تزمع أن تتقدمهم ، حتى لمح عن بعد صديقه « نثنائيل » راقدا تحت شجرة تين وناظرا إلى السماء مفكرا فيما عسى يستطيع أن يفعله إنسان بحياته فى بلاد يعمها الظلم كهذه ، ونزل « فيلبس » عن الجمل وهو يقول :

— « نثنائيل » ! لقد وجدنا معلما عجيبا حقا ... إنه لعجيب بحيث قد يكون هو الذى تكلم عنه « موسى » و « الأنبياء » .

فضحك « نثنائيل » ساخرا :

— أصحيح هذا ؟ ومن هو ؟ .

— إنه يدعى « يسوع » .

— حسنا ، ومن أى بلد أتى هذا الـ « يسوع » ؟ .

— من « الناصرة » .

— من « الناصرة » ؟ !

— نعم .

فضحك « نثنائيل » ببطء واستطرد ساخراً مكررا الكلمة المتداولة :

— أمن « الناصرة » يمكن أن يكون شيء صالح ؟ !

وضاق « فيلبس » بسخرية صديقه وقال غاضبا :

— خير لك أن تجيء وترى بنفسك .

وشد « فيلبس » يدصديقه وأوقفه ودفعه فى الطريق وسارا حتىرأيا « السيد » القادم .

وأشار « يسوع » إلى « نثنائيل » من بعد وهو يقول لأتباعه :

— هو ذا اسرائيلى حق لا غش فيه .

— من أين تعرفنى ؟ .

وابتسم الآخرون بينما كان « يسوع » يقول :

— قبل أن دعاك « فيلبس » ، وأنت تحت ، التينة رأيتك .

وكانت شجرة التين لا تزال تبعد أميالا . . . وأطرق « نثنائيل » وابتلع ريقه بصعوبة وتلعثم وهو يقول :

— يا معلم ... أنت ابن الله ! .

ووضع « يسوع » يدا حنونة حول كتفيه وقال بهدوء :

— ألأنى قلت لك إنى رأيتك تحت شجرة التين آمنت ؟ سوف ترى أعظم من هذا .

ومرة أخرى سرح « يسوع » ببصره عبر المستقبل ورأى « نثنائيل » هذا الذى من « قانا الجليل » ، رآه فى بلدة « فيلكس » العربية ، هذا الرجل الطاهر البرىء الساذج الذى يعتبر نفسه دائما غير مؤمن ومتعلقا كثيراً بالأرضيات ، رآه «يسوع» يسلخ جلده حيا ، ثم بعد قرنيين آخرين من الزمن تؤخذ عظامه لتدفن فى كنيسة القديس « برثلوميو » فى جزيرة فى نهر « التيبر » .

ولكن «نثنائيل بارثلماوس» ،وهو فىذلك اليوم فىاليهودية ، لم يكن يستطيع أن يرى بعين الغيب ما سيحدث له . كل ما رآه عند ذاك هو أنه وجد أعظم وأخلص صديق له ، وكان هذا يكفيه! .

وعند ما وصل « يسوع » وأتباعه الخمسة إلى « الناصرة » وجد منزله فى فرح إذ كانت

ابنة أصدقاء «مريم» تتزوج ، وكانت عائلتها تقيم فى «قانا» ، البلد الذى يعيش فيه « نثانئيل » .
وكانت «مريم» تعد نفسها للذهاب إلى هناك لتشاطر أصدقاءها فرحهم ، فلما رأت « يسوع » وأصدقاءه رحبت بهم . وسرهم ذلك الترحيب رغم أن المنزل ضاق بهم ، وهيأت لهم فيه مكانا . ثم اقترحت أن يذهبوا جميعا معها إلى العرس ، ورحبوا أيضا بهذه الفكرة رغم أنهم كانوا متعبين . وساروا خمسة أميال أخرى حتى وصلوا فى غروب الشمس إلى «قانا الجليل» ، وكانت عند ذاك كما هى الآن ، مجرد منازل من الحجر ومنازل من الطين ؛ ولذوى الثراء من أصحابها حدائق تحيط بها أشجار الصفصاف والزيتون . وكانت شوارعها تضيق بالرجال السائقين جمالهم والنساء المقنعات المتطيات الحمير والصبية النحاف من ضعف التغذية الحاملين النعاج والخراف ذات العلامات فى أطراف أرجلها ، سائرين بين الضوضاء والروائح النفاذة .

وكان البيت يموج بآيات الاهتمام بالعرس ، ولم يكن « يسوع » معتادا الحفلات التى من هذا النوع ، فقد كان دائما مفكرا ومهتما ومفضلا العزلة ، ولكنه سعد بتلك الليلة هو وتلاميذه الخمسة ، وتركوا جانبا مناقشاتهم وشاركوا الناس سرورهم . وكان الضحك والسرور قد وصلا إلى القمة عند ما أشارت « مريم » إلى ابنها ، فلما وصل إليها همست فى أذنه قائلة إن مضيفه أحرج فقد زاد الضيوف عما كان يتوقع وأشرف النبيذ على الانتهاء ، فى حين بلغ الحفل أوجه وأخذ كل الناس » يطلبون منه المزيد ، ولا يدرى الساقى كيف يتصرف !

وصاح ضيف مجعد الشعر ، وقد رفع بيده وعاءه وقد قلب رأسه إلى أسفل للدلالة على فراغه . . . صاح بصوت أجش :

— أريد مزيداً من النبيذ .

وأمسك « يسوع » بيد أمه وقادها إلى ركن وقد كسا وجهه معنى الألفة والمحبة الرفيقة وقال لها :

— وماذا يعنينى هذا يا «سيدتى» ؟ ، بل وماذا يعنيك أنت ؟ إن ساعتى لم تأت بعد ! .

وعلا الغناء والضحك من حولها . ومضت برهة صمت سادت فيها الزمالة المخلصة والتفاهم المتبادل بين « الأم » و « الإبن » ، وقد أدركت معنى ما تطلب منه أن يفعله أمام أعين جميع هؤلاء الرجال والسيدات . إنها تطلب منه أن يظهر لهم قوة الله غير المحدودة ،

فلو أنه قبل وأظهر هذه القوة فستطير القصة مع الرياح الأربع ، وسيولى عنه الهدوء . ولن يستطيع بعد ذلك أن يؤجل البدء فى رسالته حتى يتم الاستعداد لها ، فسيبدأ إذن فوراً وسيخطو خطوته الأولى ، وتصاحبه هى نحو « الصليب » ؛ كل هذا لكى يتم فرح ضيوف العرس ! .

وفكرت عند ذاك — هى التى تخفى الكثير من أسرار الكون فى قلبها . . . فكرت فى أنه بسيدة دخلت «الخطيئة» إلى العالم ؛ ثم أعطيت هى فرصة « حواء » الثانية بواسطة ابنها هذا لكى تأتى بالخلاص إلى العالم . وسرحت وسرح ابنها بخاطريهما معا إلى الجلجثة .

وأدركا معنى كل هذا ، وشد كل منهما على يد الآخر ، ثم تركته وذهبت إلى السقاة وقالت لهم :

— كل ما يطلب منكم أن تفعلوه ، إفعلوه ! .

واستدار « يسوع » متجها إلى ما وراء الصالة الكبيرة من أجران حجرية كبيرة ، هى من مستلزمات كل بيت كبير فى ذلك الوقت ، وأشار إلى الخدم أن يملأوها ماء ، وفى دهشة من كلامه فعلوا وملأوا الأجران إلى الحافة . ثم أمرهم أن يملأوا منها « آنيتهم » ويوزعوا على الضيوف ، وفعلوا ، ثم صرخوا وعلا صراخهم ، فقد تغير لون الماء وصار أحمر ، لم يعد هذا ماء على الإطلاق وإنما صار نبيذا . وجرى إليهم رئيس السقاة وتذوق النبيذ ثم نظر حوله فى غضب وذهب إلى والد العروس وطلب إليه أن يفسر له هذا !! فإن أى مضيف عاقل إنما يقدم للناس أولا خير النبيذ ، حتى إذا ما أخذ الناس كفايتهم منه ثم طلبوا مزيدا أعطاهم الأقل جودة ، ولكن هذا النبيذ هو خير ما ذاقه ذلك الساقى خلال أربعين سنة أمضاها فى مهنته .

وأخذ كل الناس يتحدثون عن معجزة النبيذ ، فى حين انصرف « يسوع » وتلاميذه فى صمت وتفكير عائدين إلى « الناصرة » !

الفصل الرابع والعشرون

المملكة الشريرة !

فى الغد توجه « يسوع » و « أمه » و « تلاميذه » لزيارة أقربائهم وأصدقائهم فى « كفرناحوم » . ومرة ثانية قطعوا الأميال الخمسة إلى «قانا» ثم استمروا فى مسيرهم منحدرين حول جبل ذى رأسين حيث سيلقى « يسوع » يوماً ما أعظم عظة له ، وساروا مخترقين كثيرا من مواقع حروب الشعب حيث سالت الدماء أنهارا ، إلى قرب كهف حيث زحف «شاول» إلى ساحرة مستعجلا العلم بمستقبله ، وهناك تحت مستوى البحر بكثير بدا إلى جوار بحر « الجليل » ميناء البحيرة ، « كفر ناحوم » .

وكان منظر « كفر ناحوم » فى ذلك اليوم مثيرا ، فقد كانت تعج بالنشاط وتزدحم بالرجال والنساء من جميع الجنسيات . ووقفت الأم والإبن ينظران حولها بدهشة واهتمام وبشىء من الأسى للقذارة البادية فيها .

كانت المدينة غنية تروج فيها الأعمال ، فهى إحدى المحطات الكبيرة فى الطريق العظيم من « دمشق » إلى موانى البحر الأبيض المصرية . وكانت أكداس السمك الفضية تزحم الشوارع ، وقد صبغت صناعة النبيذ الرائجة أرجل الفلاحات ، وتكاثرت فيها بساتين الزيتون حتى ليستحم الناس فى الزيت . وتقابلت فى شوارعها العاليـــة قوافل الجمال المتجهة شمالا وجنوبا ، وغصت جوانبها بتجار القمح والحرير والعاج وأنواع الأصباغ الزرقاء التى تصنعها قرية « المجدل » الواقعة إلى جوارها .

وكانت « كفر ناحوم » تدعى حين ذاك « ملكة البحيرة » و «عاصمة الجليل » . كانت كالزهرة اليانعة تحت الجبال الجدبة القفراء ، فى حين تموج تلالها بأنواع الفواكه والبندق واللوز والزهور الحمراء اليانعة .

وتقدمهم « سمعان بطرس » الأرمل الضخم السريع الاندفاع إلى مسكنه وهو مبنى كبير مكون من طابق واحد . وقدم لهم حماته التى ظل يرعاها بعد وفاة ابنتها .

وكان « بطرس » هذا الذى مارس الصيد فى هذه المنطقة طوال حياته ، يعرف سلسلة البلاد التى تـكاد تتلاحق ممتدة على ساحل « البحيرة » طوال خمسة عشر ميلا ، وقد قـدم « يسوع » إلى زملائه الصيادين وأراه الأميال الـكثيرة من الأرض التى يستعملها الصيادون لتجفيف شباكهم وإصلاحها ووضع قطع الرصاص الصغيرة فيها ، نفس النوع من الشباك المستعمل إلى الآن فى ذلك البلد . كما أراه كيف يكدس السمك فى براميل ويباع إلى « تجار «قيصرية» ويهود سوريا . وأراه غرائب البلد ومجمعها ذا الأعمدةالرومانية، وكان جو المدينة يموج بأنباء تصرفات الحكومة والحروب وأخبار «روما» وأحداث «أورشليم» الأخيرة ،وكان ما يحدث فى « كفر ناحوم» هذه تنقل القوافل خبره فسرعان ما ينتشر شمالا وجنوباً إلى البلاد النائية. وكانت لذلك أصلح مكان يؤدى فيه «يسوع» عمل أبيه . لذلك جعلها «يسوع» قاعدة له وإن لم تطل زيارته الأولى هـذه لها . فقد كان لا يزال عليه أن يعمل فى « الناصرة » . وكان عليـه أن يـعلم تلاميـذه الخمسة ، إذ لـكل منهم مزاج خاص وطريقة للتفاهم ، فـ « أندراوس » منطق صعب المراس و« نثنائيل » مفـكر وناقد لاذع ، و « فيلبس » طيب القلب متشوق إلى المعرفة ، و « بطرس » مخلص ولـكنه سريع الاندفاع سهـل التحفز . وكان على « يسوع » أن يطيل صبره عليهم وعلى « يوحنا » وأن يعلمهم ببطء ولـكن على أساس ؛ وأن يكيفهم ويوفق بينهم بحيث يستطيعون أن يعاون بعضهم بعضاً فى حمل الرسالة وتأديتها ، وذلك قبل أن يضيف إلى زمرتهم آخرين .

ثم كان عليه أن يعدهم لما سيرونه ويسمعونه منه ، إذ بدأوا يتعرفون عليه ويأنسون إلى سحر حديثه ويرتاحون إلى محبته وعطفه ويعرفونه كصديق وأخ و « سيد » . ولـكنهم فى ذلك الوقت لم يـكونوا يعرفون الفارق العظيم بينه وبينهم . كان بعضهم يأمل أن يكون « يسوع » هو « المسيح » وإن لم يبرح يشك فى هذا . وكان بعضهم يرى أنه معلم عظيم ، وربما يـكون مرسلا من الله فيراه أحياناً أقل قليلا من ملاك . ولم يعلم أحد منهم قط بماهية « يسوع » على حقيقتها ! !

ولقد حفظ « يسوع » عند ذاك هذه الحقيقة عنهم ولم يظهرها لهم إلا على دفعات خلال السنوات الثلاث التالية . وإلا أخذتهم الرهبة وباتوا لا يستطيعون أن يتعلموا منه الرسالة والأعمال التى يجب أن يؤديها كل منهم وحده بعد انتقاله ! !

كانت تلك الأيام القلائل هى أهدأ الأيام التى عرفها « يسوع » وتلاميذه معه . وقد انتهت سراعاً إذ كان عليهم أن يعودوا إلى «أريحا» ، حين وصلتهم الأخبار بأن «يوحنا» المعمدان

أخذت تحف به المخاطر ، فقطعوا الطريق الطويل على حدود الصحراء ، وأقاموا لأنفسهم معسكراً صغيراً وأخذوا يلاحظون الإحساس الشعبي الذى كان يتأجج حول الواعظ الشجاع ، وكانت الكلمات التى يلقيها «يوحنا» على الجماهير تصل تباعا إلى « هيرودس » حاكم الجليل و «هيروديا» الجميلة وخصوصاً ما تناول منها التلميح إلى اختطافه زوجة أخيه تلك ، وزواجه منها ، حتى جاء يوم أعلن فيه « يوحنا » صراحة أنه « لا يحق له أن يأخذ زوجة أخيه » ، وعندئذ استشاطت الملكة «هيروديا» غضباً وطلبت إلى الملك أن يقبض على «يوحنا» ويعذبه حتى الموت .

ولكن « هيرودس » تباطأ ، فقد كان من الحنكة السياسية بحيث أدرك أن من الخطر عليه أن يعدم فوراً رجلا شعبياً مثل « يوحنا » ، ولكن كان عليه أن يفعل شيئاً وإلا ضاعت منه زوجته المسروقة ، ولذلك ما إن مضى على « يسوع » وتلاميذه بضعة أيام فى معسكرهم حتى ألقى جنود الملك القبض على « يوحنا » المعمدان ، ثم ألقوا به فى غيابة جب ، وهناك وللعجب أخذ « هيرودس » المفكك الشخصية المدمن على الخمر الذى لا يعرف الخجل ؛ أخذ يتودد إلى « يوحنا » ويأنس إلى حديثه ، فلأمر ما أخذ الرجل الصريح الشجاع القادم من الصحراء يأسر لب الملك الناعم المتربع على عرشه ، فكم من ليلة انفلت فيها الملك من مخدع زوجته «هيروديا» متوجهاً إلى السجين المثقل بالأغلال فى الجب ، وكان الملك يخشى «يوحنا» ولا يستطيع أن يفهم الوازع الخلقى الذى دعاه لأن ينتقد سلوكه الشخصى مع زوجة أخيه . ولكن شيئاً فى حديث « يوحنا » كان يوقظ جانباً من ضمير الملك ، كأنه نسمة ريح تدفع الباب قليلا حتى ليكاد أن يكون له صرير يشعر به النائم ، وكلما استمع « هيرودس أنتيباس » إلى « يوحنا » بدا أكثر تفكيراً وإحساساً بأن «يوحنا» رجل طيب وعادل ، وخافه أكثر .

لذلك صممت الملكة الماكرة على أن تتخلص بشكل حاسم من « يوحنا » المعمدان .

الفصل الخامس والعشرون

فى السامرة

عندما قبض على « يوحنا » ، قفل « يسوع » وتلاميذه عائدين إلى الجليل ، وقد أدهشهم إذ أخبرهم أنهم عائدون عن طريق « السامرة » .

وكان طبيعيا أن يصدم التلاميذ بهذا القرار ، فقد كان كل يهودى يتجنب ذلك الإقليم كأنه مستعمرة للمجذومين ، ذلك لأن حفيظة الجليليين على السامريين كانت من العمق والتأصل بحيث أن نظرة من أحدهم للآخر كانت تعتبر إهانة وسببا كافياً لمعركة ، وكانت تلك العداوة ترجع إلى مئات من السنين حين كان السامريون قد صاحبوا الغزاة وتصاهروا معهم فخرجوا بذلك على إجماع باقى اليهود وعلى الأخص غلاة المتحمسين منهم . وأخذت العداوة بينهم تتزايد عبر الأجيال بحيث أصبح كل تفاهم بينهم أو تقابل أمرا مستحيلا .

وكانت أرض السامريين جيدة قابلة للاستغلال وتعد الكثيرين بالثروة والفلاح ، فهى شديدة الخصوبة وأوفر ماء وأسهل ريا من الجزء الجنوبى من فلسطين ، ذلك لأن الأحجار الجيرية فيه لم تكن قد امتصت الآبار والينابيع . وكانت المياه كثيرا ما تغمر وديانها وتفيض ، لذلك كان السامريون يزرعون مساحات شاسعة من القمح والخضروات والبساتين النضرة ، لكن لا أحد من سائر اليهود كان يتعامل معهم أو يشترى شيئا من ذلك بل إنهم كانوا فى ترحالهم يختارون الطريق الطويل الشاق مادام يبعد عن السامرة . ولم يكن يتعامل معهم بشكل خاص غير الرومانيين .

ولكن « يسوع » قاد تلاميذه الخمسة إلى ذلك الإقليم المنبوذ الواقع على بعد خمسين ميلا شمالى « أورشليم » ، وما أن اجتاز تخومه حتى قصد مباشرة إلى أهم موضع تاريخى فيه وهو بئر « يعقوب » الواقع فى القاعدة الشرقية لجبل « جرزيم » ، حيث عبد رؤساء الشعب الله ، وكانت الأرض المحيطة به هى الأرض التى أعطاها «يعقوب» لإبنه «يوسف». وكان الكثيرون يعتقدون أن البئر الموجودة هناك هى أقدم الآبار فى العالم ، وأن قبر « يوسف » يقع بجوارها .

وكان التلاميذ قد باتو يعرفون متى يفضل « يسوع » الخلوة بنفسه . لذلك استأذنوا

منه وساروا وحدهم نحو ميل حتى بلدة « سوخار » ليشتروا ما يلزمهم من المؤن ، مدركين شدة العداوة الموروثة بين أهلها وبينهم ، ومتوجسين خيفة من الطريقة التى سيستقبلهم بها السامريون . وكان « يسوع » قد جلس مفكرا على حافة البئر ، ثم جاءت سيدة حاملة إناءا وحبلا طويلا ملفوفا على كتفها صارفة النظر عن « يسوع » . وشغلت نفسها بربط الإناء بالحبل ثم دلت الإناء فى ظلمة البئر العميقة وملأته ورفعته إليها . فقال « يسوع » عندئذ تجاهه :

— اعطينى لأشرب ! .

وفى بطء وضعت السيدة الإناء على الصخر ثم واجهت «يسوع» ورأت أنه ليس بسامرى وإنما هو يهودى وتذكرت ما يقول أهل « أورشليم » للسامرين إذا قابلوا يهوديا هناك فى أحد شوارعها : «نعرف أنك سامرى وأن بك شيطانا» وتذكرت أن أى يهودى يخشى الله —فى اعتقاده— لن يسأل عونا من سامرى، ولن يقبل منه طعاما أوشرابا وأنهم يقولون فى ذلك : « إن من يقبل طعاما من سامرى كمن يأكل لحم الخنزير . . . إنه لأهون لليهودى أن يصاحب أجنبيا من أن يوجه كلمة إلى سامرى » .

لذلك دهشت المرأة من طلب « يسوع » وقالت له :

— كيف ، وأنت يهودى وأنا سامرية ، تطلب منى أن أسقيك ؟ ! .

ونظر إليها « يسوع » مفكراً فى تلك العداوة التليدة ، هذه العداوة المجنونة بين أهله وجيرانهم السامريين ، لقد كانوا يتعاركون كأنهم عصابات متنافسة من اللصوص وقطاع الطرق . وكان الجليليون ينهبون السامريون كما كان السامريون يتربصون للجليليين ويهاجمونهم، وكانت الحكومات تشجع هذا النوع من الاعتداءات .

قال لها « يسوع » .

— لو أنك عرفت عطية الله ومن هو الذى يقول لك : اعطينى لأشرب ، لطلبت أنت منه أن يسقيك ! .

وحيرتها كلماته القائلة بأنه من الخير لها أن تسأله هى أن يعطيها ماء ! .

وأشار « يسوع » برأسه مؤكدا وهو يضيف :

— نعم ... إذن لأعطاك ماء حيا ! .

وأدهشت كلمتاه هاتان السيدة الريفية غاية الدهشة ، وبدت السيدة المملوءة حيوية مأخوذة برهة ثم وضعت ظهر يدها على خدها ونظرت إليه وسألته فى تحد :

— سيدى ليس معك ما تستطيع أن تستقى به والبئر عميقة فكيف إذن يأتيك الماء الحى؟ . ألعلك أعظم من أبينا « يعقوب » الذى أعطانا هذه البئر وشرب منها هو وأولاده وسقى منها ماشيته؟ .

فقال « يسوع » فى ثقة :

— إن كل من يشرب من هذا الماء يعطش ثانيه . أما من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فإنه لا يعطش إلى الأبد، بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية .

وابتسمت السيدة غير مصدقة وقالت :

— سيدى ! اعطنى من هذا الماء حتى لا أعود أعطش ، ولا آتى إلى هنا لأستقى .

— إذهبى إذن وادعى زوجك وهلمى إلى ههنا .

وأربكتها هذه الكلمات وهزت رأسها وقالت :

— ليس لى زوج ! .

وقال « يسوع » ببطء وفى صوت خافت لم تكد تسمعه :

— لقد قلت حسنا ... ليس لك زوج ! لأنه كان لك خمسة أزواج! أما الذى يعيش معك الآن فهو ليس زوجاً لك . لقد نطقت بالصدق .

وانثنت المرأة على طرف البئر وأمسكت الحجارة بيديها حتى لا تسقط وشهقت وهى تقول :

— سيدى ... أرى إنك نبى ! .

ثم ، وكأنما بدا لها أنه سيعاقبها ، أرادت أن تهدىء خاطره فأخذت تذكره بأنه جدير به أن يكون رحيما بها ، لأن شيوخ الشعب السابقين من أجدادها عبدوا الله هنا وعلى نفس الجبل ، وكان وجهها يزداد اصفراراً وجسمها يرتعش فرقاً ، ولكنه قال لها فى طيبة :

— أيتها السيدة ... إن الله روح ! وهؤلاء الذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا .

وطمأن ذلك من خوفها وتمتمت :

— إننى أعرف أن «المسيا» الذى يقال له «المسيح» آت ، وأنه عندما يأتى فسيخبرنا بكل هذه الأشياء .

ووقف « يسوع » ونظر إليها وقال :

— أنا الذى أكلمك هو ! .

ووقفت هى الأخرى ونظرت إليه وكأنها خرست . فقد علمت بالسر العظيم الذى لم يعرفه بعد حتى تلاميذه . وسمعت فجأة ضوضاء من ورائها ، وكان التلاميذ قد عادوا من البلد مثقلين بما اشتروه من مؤن . فلما رأتهم أخفت وجهها ونسيت إناءها وجرت نحو البلد حيث أخبرت كل من لاقته بأن «المسيا» هناك عند بئر « يعقوب » .

ولما رأى « يسوع » ما يحمله أصدقاؤه أدهشهم بمقدار ما أدهش السامرية ، إذ قال لهم فى شبه لوم :

— إن عندى طعاماً لا تعرفونه ! .

وتعجب التلاميذ إذ ظنوا أن أحداً أعطاه ليأكل أثناء غيابهم . ولكن «يسوع» وضع يده على كتف « بطرس » وقال فى بطء كمن يتهجأ كلاماً لصغير :

— إن طعامى هو أن أفعل مشيئة ذاك الذى أرسلنى وأتمم عمله !

ومضى يشرح لهم أن زمان حصاد أعماله لن يتأخر ، حتى سمعوا أصواتاً كثيرة آتية ، ورأوا حشوداً من السامريين يحيطون بهم إذ سمعوا قصة السيدة التى كانت عند البئر وحضروا جميعاً ليروا الرجل الذى قالت أنه قال لها كل ما فعلت ، وكم سروا عند ذلك لحديثه حتى رجوه وألحوا فى الرجاء ألا يتركهم ، واستضافوه وسألوه كثيراً عن الروحانيات وسلوك الإنسان وقدموا له كعكاً بيضاوياً من دقيق القمح الذى هو طعامهم المفضل ، وآنية مملوءة باللحم المطبوخ الفاخر ، ولبناً ونبيذاً ، وغسلوا قدميه ترحاباً به وتكريماً له .

وأخذ « يسوع » يعلمهم ويعلم معهم تلاميذه الخمسة .

وكان السامريون قوماً أذكياء أسئلتهم دقيقة . وقد وجدوا فى إجاباته من الجدة والأصالة ما أخذ بمجامع قلوبهم . ثم سألوه هل هو « المسيا » ؟ ، وماعسى أن يفعل ليصلح من حال العالم الذى أينما نظرت فيه وجدت تعصباً وقسوة وبؤساً ؟ ، ثم هل يقدم «يسوع» نفسه كأمل للبائسين الملهوفين ؟

ومكث « يسوع » عندهم يومين وحدثهم عن ملكوت السموات واعتبروا ما تعلموه

منه انجيلا جديدا مكملا للشريعة الموسوية مبشرا بأخوة الإنسان لأخية الإنسان ، لأن جميع الناس أبناء أب واحد هو « الله » .

وهذه الأخوة ستضع حتما حدا لكل العداوات والثأر المتخلف والحسد والبغضاء ، فليس أجدى فى سبيل الدين الصحيح من أن يغفر الإنسان للآخرين ، وليس أفعل من المحبة فى شفاء جميع الجروح والآلام .

وكان هذا الدرس فى وجوب التحمل هو أول دروسه أو تعاليمه العلنية .

الفصل السادس والعشرون

مالنا ومالك ؟

فى صباح يوم رطيب رائق من شهر مايو قاد « يسوع » تلاميذه الخمسة فى الطريق الكبير من السامرة إلى «الجليل» ، وكأنما امتلأت عروقهم بدفعة الحياة وأسكرهم إحساسهم بالقوة ، فأقبلوا على حياتهم الجديدة فى استعداد واستبشار شأنهم فى هذا شأن كل الخلائق المستبشرة بالربيع من حولهم ، من نبات وزرع وحيوان وطائر .

وإلى قرب « الناصرة » وقفوا برهة يستريحون وسرعان ما تجمع حولهم نفر من عابرى السبيل من كل لون ، ثم فجأة حل على الجميع صمت غريب وسكنت الحركة وتملك القوم خوف ورهبة . ذلك أن حاكما أجنبيا مهيبا ظهر بينهم . وقد تحلى صدره بقلادة من الذهب وأحجار « الأكوامارين » والعقيق والزبرجد ، وفاح منه عطر ارستقراطى ، وأفسحت له الجماهير طريقه إلى « السيد » وانحنت رؤوسهم احتراما للسلطان والثراء البادين عليه .

وتقدم الرجل بينهم ، ولاحظوا عندئذ أن وجهـــه مصفر وعينيه تغصان بالدموع ، وسمعوه يوجه الحديث إلى « السيد » فى خشوع ومسكنة قائلا :

ــ لقد سمعت عنك أيها النجار « الناصرى » حكايات غريبة ، منها حكاية النبع من النبيذ الذى فجرته فى « قانا الجليل » ، وحكاية أخرى عن كيف قرأت أفكار سيدة ذات ماض عند بئر « يعقوب » . وقد أحيت هذه القصص فى نفسى اليائسة موات الأمل ، وأنا محتاج لمساعدتك ، إنى قادم إليك من « كفر ناحوم » حيث يرقد ابنى فى شدة المرض لأرجوك أن تعود وترد لى ابنى الذى يخطفه الموت منى .

وقال « السيد » فى نظرة فاحصة :

ــ ألا تؤمنون ما لم تروا علامات وعجائب ؟ .

ولعل الرجل توقع أن يرفض « المسيح » العودة معه فاندفع مسترحماً .

— يا « سيد » تعال قبل أن يموت ابنى !.

ثم انخرط فى بكاء عنيف.

وكانت دموع الرجل صادقة. فتأثر « يسوع » وأغمض عينيه برهة ثم قال بصوت وئيد:

— امض بسلام فإن إبنك حى !.

ورفع الرجل وجهه المغمور بالدموع، وقد أشرق بالأمل، وإذ أرتج عليه تجسم فى نظرته لـ «السيد» شكر عظيم، ثم استدار منصرفا وقد فتح ذراعيه ليفسح لنفسه بين المتزاحمين طريقا، وسرعان ما جرى فى الطريق الكبير!.

وساد التلاميذ الخمسة صمت وقطب بطرس جبينه فى دهشة، ولم يعرف التلاميذ ما تم حتى ترامت إليهم الأنباء.

ففى اليوم الثانى بينما كان الحاكم يندفع فى طريقه إلى « كفر ناحوم » قابله أتباعه الذين كانوا يتجولون باحثين عنه وألقوا إليه بالتحية وبأخبارهم السارة، فإن ابنه شفى !.

وصاح الرجل:

— حمدا لله، فى أية ساعة زال عنه المرض ؟.

— أمس فى الساعة السابعة زالت عنه الحمى فجأة وقام منتعشا.

— فى الساعة السابعة ؟ إنها الساعة التى قال له فيها النجار « الناصرى » إذهب فإن ابنك حى.

وسرى نبأ هذه «المعجزة» فى ذلك الإقليم، ولفت الأنظار كلها إلى « يسوع »، وعندما عاد « يسوع » بعد ذلك بطريق البحيرة إلى كفر ناحوم كانت الجماهير تتدافع ملتمسة أن تراه وأن تسمعه، وتوجه إلى المجمع المثلث الشكل ذى الأعمدة الكورنثية الغير الشرعية، واستمع الناس لحديثه مأخوذين ولكن كان من بينهم جمهرة من جواسيس مرسلين من رؤساء الهيكل، يفتحون أذانهم لعلهم يمسكون عليه خطأ، إذ كانوا جميعهم يعرفون جيدا ما قال موسى والأنبياء.

وبعد تلاوة التوراة سلمها تلميذ المجمع إلى «يسوع» فقرأ على الجمع النبوءة: « روح الرب على ولأجل ذلك مسحنى ». وشعر كثير من السامعين أن هذه النبوءة قد تمت فيه إذ أحسوا أنهم

أمام المعرفة والسلام والقوة التى لا دفع ضدها ، منذ بدأ يقول توبوا وآمنوا ثم مضى يلقى رسالته على الجمع الصامت المأخوذ ببلاغته وبنغمة الصدق واليقين فى حديثه .

ثم بدأ فى ترحاله حول البحيرة ، من بلد إلى بلد ومن مجمع إلى مجمع ورأى الناس أنه يعلن إليهم حقائق جديدة ومثيرة فى جرأة وشجاعة وجدة لم يكونوا ليتوقعوا شيئا منها . إذ كانت تعاليمه مستقاة من كتبهم التى يعرفونها جيدا ، أو أنهم هكذا كانوا يظنون حتى سمعوه فإذا به يفتح أذهانهم على معان رائعة لها ، ويلقى على تلك الحكم والنبوات أضواء جديدة أخاذة ، وينبئهم بالوعود العظيمة التى تحملها بين طياتها .

وأخيرا ولسعادة السيدة « مريم » عاد إلى « الناصرة » ، ليس إلى دكان النجار ولكن إلى المجمع .

وقد عاد ليذكر الناس الذين عرفهم طوال حياته بالحكم والمعانى التى تنطوى عليها كتبهم ، وخصوصا نبوات « أشعيا » النبى الذى تعب فى خدمة الله وأشاد بالقوة البناءة فى التألم وفى العذاب ، الحقيقة التى لا تزال صعبة على الادراك ، ولكن حوادث الزمن تجرى مصداقا لها ، وفى مجمع « الناصرة » قرأ لقومه من «أشعيا» : «روح الله على لأنه مسحنى لأبشر المساكين بالإنجيل ، وأرسلنى لأشفى منكسرى القلوب وأنادى للمأسورين بالإطلاق ، ولأرد إلى العمى أبصارهم ، ولأطلق المهشمين إلى الخلاص ، وأكرز بنسبة الرب المقبولة ويوم الجزاء » ، ثم طوى السفر ودفعه إلى الخادم وجلس .

وفى ذلك اليوم تأثر الناس جميعا بأقواله وهنأوا « مريم » بابنها الموهوب ، إذ لم يكن بعد قد بلغ من الشهرة ، أو ثار حوله من الخلاف ما يجعلهم يحسدونه ويكرهونه ، هذا الذى حصل فيما بعد كما سيأتى ، أما فى ذلك اليوم فقد سار « يسوع » وتلاميذه الخمسة بين أهل « الناصرة » آمنين ، ثم عادوا يزرعون الطريق الطويل عائدين إلى « كفر ناحوم » ، حيث أجرى « المسيح » هناك معجزتين أضافتا إلى شهرته .

حدثت الأولى فى المجمع حيث كان عدد المستمعين كبيرا ، مأخوذين بروعة إلقائه وقوة إيمانه ونبل معانيه وعظم ما تحمله من سلوى وأمل ، ليس كما يتكلم الكتبة ورؤوساء الدين بأصوات تمثيلية رنانة وعبارات محفوظة معادة ، ولكنه يتكلم بحديث جديد فى نوعه وبراعة تزرى بأبلغ خطيب أو ممثل « رومانى » أو « يونانى » ، وكان يتكلم عن كمال معرفة وعمق معنى وتأكيد حاسم ورغبة أصيلة موفقة فى أن ينقل إلى الناس الشجاعة والآمل .

وكانت هذه المعانى تتجسم فى كل حديث يلقيه حتى أصبحت أقواله محـــور أحاديث الناس فيما بينهم ، السيدات أمام المواقد وحين يعملن فى الحقل وحين يترنمن بذكر شفقته على المتعبين ، والباعة فى السوق والتجار الأجانب الملونون القادمون من الجنوب ومن الشرق ، والعمال الجالسون فى الظل فى انتظار عمل ، كل الرجال والنساء أضحوا معجبين به ، ومطمئنين إليه ، وكل هؤلاء يتساءلون كيف يمكن أن يشكوا فى صدق وعوده . بعد أن رأوه يوم السبت الماضى يشفى ذلك المجنون الذى كان يتمرغ على أرض المجمع .

فقد كان « يسوع » يتكلم عندما أخذ أحد الحاضرين يصرخ ثم يندفع إلى الأمام ويسقط متلويا تحت قدمى « يسوع » بحركات تكاد تنزع معها روحه ، وملك التأثر لحالته الحضور الذين كانوا يعرفون أن فيه شيطانا وأن أرواحا شريرة تسيطر عليه ، ومصداقا لهذا صرخ أولا بصيغة الجمع : « دعنا وحدنا . مالنا ومالك يا « يسوع الناصرى » ؟ هل أتيت إلى هنا لتهلكنا ؟ » .

ثم تحول الكلام مرة واحدة إلى صيغة المفرد كأن المريض يتحدث عن نفسه : « إننى أعرف من أنت قدوس الرب » .

ورد « يسوع » فورا فى أمر حاسم :

— اخرس واخرج منه !

وللتو انتهى المرض وهدأ المريض المتلوى ! وغدا كطفل ينام فى دعة .

من هو إذن هذا « اليسوع » الذى يأمر الأرواح الشريرة فتأتمر بأمره خاضعة ذليلة .
فلا عجب إذن أن تحدث الناس عنه .

ولكن المعجزة الثانية ، التى صنعها فى بيت صديقه « سمعان » الملقب « بطرس » كانت أبلغ أثرا .

الفصل السابع والعشرون

حماة « بطرس »

لم يكن أهل بيت « بطرس » فى ذلك الوقت راضين عنه فقد أمضى وقتا طويلا فى الإقليم الجنوبى مستمعا إلى « يوحنا » المعمدان ، ثم إلى « يسوع » من بعده ، مهملا صيد السمك ، وكان فى الماضى رجلا عمليا نشطا فإذا به ينقلب حالما ومفكرا تتعاه مراكبه المهملة وشباكه الجافة ، وضاق بذلك رزق أهل بيته فلم يكونوا ليرضوا بهذا .

ورقدت عندئذ حماته مريضة ، ولم يكن المرض العادى الذى يصيب بعض السيدات فى سن اليأس ، ولا كان صداعا أو آلاما فى الأطراف ، ولكنه كان مرضا جديا رسم حول عينيها المتعبة هالة زرقاء ، وجف حلقها والتهبت وجنتاها وعادت جبهتها تلسع من يلمسها والألم يهصر مفاصلها كلها ، وكانت تلك الحمى وباء موسميا يكثر فى الإقليم المنخفض عقب أمطار الخريف .

واستعان أهل « بطرس » بأحد الأطباء ، ونظر « الطبيب » إليها نظرة فاحص ولم يقل شيئا ، إنما كتب لها الدواء آملا أن يأتى بنتيجة ، وكان الطب عندئذ يستمد أغلب نظرياته من أبو قراط الاغريقى الذى يرجع تاريخه إلى أربعمائة سنة سابقة . ولكن أدعياء الطب كانوا يتشبثون بالعلاج الدارج فى مواطنهم وقد يتكون من رماد جمجمة ذئب ورءوس الفيران وأعين سرطان البحر ومخ البوم وعرق الحيات وكبد الضفادع ، وقمل الفيلة ، تدق هذه جميعا معا ثم يعطى المريض منها الكمية التى يراها المعالج كافية ، ولكن كل هذه الأدوية لم تفلح فى منع حرارة الحمى من الارتفاع حتى لتكاد السيدة أن تغيب عن وعيها .

وعندما عاد « سمعان » إلى المنزل بعد أن شفى الرجل الذى مسه الشيطان فى المجمع ، وجد حماته فى حالة خطيرة وأيقن أنها لابد وأن تموت ، وأسرع الرجل خارجا باحثا عن « يسوع » وكان « أندراوس » و « يوحنا » و « نثنائيل » واقفين عند باب الغرفة حين دخل « يسوع » وتوجه مباشرة إلى سرير المريضة وأمسك بيدها ، وأدارت وجهها امتعاضا منه فهو سبب هرب « بطرس » من واجباته العائلية ، ولكنها سرعان ماعادت فنظرت إليه نظرة دهشة .

إذ لم تستطع أن تعالل التغير المفاجيء في جسمها ، فقد كانت مريضة منذ مدة ولم تفكر خلال مرضها في «يسوع» ألا حاقدة عليه ولكنه شفاها فجأة واستردت كامل قوتها بحيث قامت من السرير وأخذت تعد المائدة له ولتلاميذه الخمسة .

ولم يكد يأتي المساء حتى كانت كل المدينة قد سمعت بنبأ هذه المعجزة وتزاحمت الجماهير داخل منزل « بطرس» وحوله ، وسدت الشوارع والأزقة كلها وامتد الزحام إلى الشوارع الكبيرة وإلى مداخل البلد ، كلهم مريض أو أهل مريض . وكم كان مثيراً منظر المتكئين على عصي ومساند ، والزاحفين على ركبهم ، والمحمولين على أكتاف أبنائهم وعجائز السيدات المحمولات على أذرع أزواجهن ، والأطفال مع أمهاتهم وآبائهم ، كلهم يتحدث عن يسوع وكلهم ينتظر الشفاء من آلامه ومن الحمى والسل والبرص وأنواع الجنون عدا العرج والشلل والظهور المقوسة ، والعمى والصمم والخرس ، ومضى « يسوع » بينهم لامسا كلامنهم بإحدى يديه الشافيتين ، ناظرا إليهم في عطف وحنان ومحبة ، وأضحى الجميع أصحاء من أمراضهم ومن عاهاتهم وعلت عبارات شكر الذين كانوا خرسا ، وفتح العميان أعينهم على وجه « يسوع » المسرور بمرآهم ، الغارق في العرق ، وأخذ الذين كان بهم شياطين يصيحون : « أنت إبن الله !! » .

وفي المجمع قطب المعلمون جباههم وهم يعاودون قراءة النبوات القديمة المهملة . ولفت أحدهم نظر جاره إلى نبوة «أشعيا» وقرأ : « أرض زبلون وأرض نفتالي . القوم الجالسون في الظلمة أبصروا نوراً عظيماً» . ألا تقع « كفر ناحوم » بين « زبلون » و « نفتالي » .

وأشار آخر إلى نبوة لنفس النبي وقرأ « أخذ أسقامنا وشفى أمراضنا » .

ولا عجب إذن أن أصبح « يسوع » موضوع الحديث في كل « الجليل » . ولا عجب أن أخذت الجماهير تتزاحم من حوله حتى شعر أنه في حاجة إلى الخلوة في الصحراء البعيدة . ولكن أنى له ذلك ؟ ، وكيف يتركه الناس بعد أن شفى شبانهم وشيبهم ؟ ، فإنهم ما أن سمعوا أنه ترك المدينة حتى خافوا ألا يعود إليها فتوجهت الجماهير مسرعة إلى بيت « بطرس » تطلب أن تعرف وتطمئن ، وقد وصلوا إلى بعض المعلومات فتركوا أعمالهم وصناعاتهم وتجارتهم وحتى غسيل بيوتهم وجروا حيث لحقوا به على بعد أميال إلى الشمال في اتجاه «دمشق» ، ووجد نفسه محوطا بقوم غارقين في عرق الملاحقة متربين ومتعبين راجينه أن يعود . وطمأنهم السيد أنه عائد إليهم بعد أن يمر على بعض بلاد البحيرة فعادوا على ذلك الوعد .

وفى البلاد التى مر بها اتبع برنامجه فى « كفر ناحوم » فقد كان يعلم أولا فى المجمع ثم يشفى المرضى ، ووصلت أنباء هـذا الشفاء إلى « السامرة » واليهودية ، ووصلت جنوبا إلى « أورشليم » .

ومع ذلك فإن القصة التى أثارت أكثر العجب عند ذاك لم تكن قصة شفاء وإنما كانت قصة أكوام من السمك .

فقد كان « يسوع » أو السيد كما كان يلقبونه عند ذاك محوطا بجمع مستمع متزاحم دفعوه إلى حافة مياه البحيرة . ووجد هناك مركبين للصيد جاهزتين مشرعتى القلاع ، وقد وقف الصيادون بأقدامهم فى الماء يغسلون الشباك ، ولكن السلال التى يضعون فيها السمك كانت خاوية بينما أخذ البعض يجمع بعض الأصداف التى ألقت بها إليهم عاصفة ليبيعوها إلى تجار الصياغة السوريين . ورأى « يسوع » أن إحدى السفينتين تخص تلميذه الثائر « بطرس » فأشار « يسوع » بيده إلى الجمع المتزاحم أن يتريثوا وصعد إلى مركب « بطرس » ورجا الملاحين أن يبتعدوا بالمركب قليلا إلى داخل الماء حتى يحتفظ بمسافة بينه وبين الجموع وحتى أتم حديثه إليهم ، فأخذ الناس ينصرفون وجلس هو يستريح . ثم أشار إلى صديقه قائلا :

— « سمعان » إذهب بنا إلى المياه العميقة والق شباكك !

وتنهد « بطرس » من كل قلبه ، فقد بدأ يشعر أن الإنسان يجب أن يكون صبورا جدا مع هذا « السيد » الشاحب الوجه الذى لا يهزه شىء ، وبكل أدب حاول أن يعترض فلابد أن « السيد » لا يعرف أنه ظل ورجاله يصطادون طول الليل ولم يمسكوا شيئا ! .

ولكن « السيد » كان يعرف ، ومن أجل أنه يعرف اقترح عليه ما اقترح . ولذلك نادى « بطرس » رفاقه المتعبين من جهد الليل الفاشل وطلب إليهم أن يفعلوا ما قاله « يسوع » ثم يا لدهشتهم ! لقد رأوا فى نور الفجر المشرق أطنانا من السمك الفضى تلعب فى الشباك وتتلوى وتحاول الخلاص حتى لتكاد الشباك أن تتقطع . واضطروا إلى أن يدعو زملاء فى مركب آخر ليعاونوهم فى حمل السمك ، وامتلأت السفينتان وهبطتا بثقل السمك إلى حد الماء وأشرفتا على الخطر ، وهمس أحد الصيادين فى أذن زميله :

— إن لكل هذا معنى ، أن « يسوع » يريد أن يعلمنا ألا نيأس . وأن نثابر ونثابر على أداء الواجب .

وطار هذا النبأ من «نائين» إلى «بيت عنيا» ولكن النبأ وقف عند هذا ولم يذكر أن الخجل ملأ قلب « بطرس » إذ شك فى علم « يسوع » وقدرته فتقدم إليه ضارعا .

— أذهب عنى يا « سيد » فانى رجل خاطىء !.

وصمت الآخرون يرقبون ، « أندراوس » أخو « بطرس » و « يعقوب » و « يوحنا » و « نثنائيل » ، وسمعوا كما سمع « بطرس » وكلهم آذان إجابة «السيد» السريعة لهم جميعا .

— اتبعونى فأجعلكم صيادى الناس ، ولا تخافوا .... !

ووضعت هذه المقالة حدا حاسما فيما يتعلق بهؤلاء الخمسة الذين رأوا وسمعوا كل شىء . كانت نداء ودعوة استجابوا لها من كل قلوبهم رغم أن « يسوع » سبق أن حذرهم أنه طريق الموت .

وتركوا شباكهم لـ«زبدى» والد « يعقوب » ، ولم يتريثوا إلا برهة ريثما شفى «السيد» أبرص قابلهم ؛ ثم تبعوه فى الطريق الطويل مستعدين لأن يذهبوا معه إلى « جثسيمانى » .

الفصل الثامن والعشرون

الصدام الأول

منذ ذلك الوقت أخذ التلاميذ الخمسة يلازمون « يسوع » ويخدمونه ويساعدونه عندما يسمح لهم بذلك ، كانوا يرونه يشفى المرضى ، ويعلم ويناقش باستمرار حتى ليخشون عليه أن يقع مغشيا عليه من التعب ، ولكنه كان عند ذاك يختلى بنفسه فى مكان بعيد ثم يعود بعد ساعة ممتلئا قوة كأنه أمضى عطلة صيفية كاملة . أما التلاميذ فلم تكن لهم « هذه الملكة» ولذلك كانوا جد مرهقين عندما أتم « يسوع » جولته فى مدن البحيرة وعاد إلى كفر ناحوم » فى تمام قوته وصحته .

وكان «يسوع» محتاجا فعلا إلى القوة إذ كانت المعركة قد أوشكت أن تبدأ ثم تستمر إلى النهاية. فقد اصطدم عقب عودته إلى « كفر ناحوم » بذوى علم وسلطان مكلفين من سادة الهيكل بأن يقدموا تقارير رسمية عن صانع المعجزات هذا ، وكانوا لذلك جالسين فى المجمع مع أساطين القانون يتعجبون للجموع الهائلة المأخوذة بسحر ذلك «السيد» ولكنهم نظروا إليه عند ذاك فى نزاهة ، وقرروا أن ما سمعوه من تعاليمه فى ذلك اليوم كان مجرد فلسفة دينية صحيحة مأخوذة من الكتب لا كفر فيها ولا هرطقة . فلو أنهم ما أتوا إلا ليسمعوا هذا فيالضيعة الوقت . ولكن احساسهم هذا لم يدم طويلا فإن ما عقبه من « يسوع » أيقظ فيهم الأمل فى أن يكتبوا تقريراً إذ بال ، أن دخل « يسوع » بعد ذلك منزلا خاصا حيث جلس فى غرفة علوية اجتمع فيها جمهور من طلاب العلم « اندس » بينهم هؤلاء العملاء المكلفون بأن يتبعوه كظله حتى لا يفوتهم منه شيء ، وفجأة أحسوا بضوضاء من عل وتضايق رب المنزل فذهب إلى السطح ليرى تلك الضوضاء ، فوجد عائلة كاملة من زوجة وأربعة أبناء حاملين رب العائلة المشلول ورجت الزوجة صاحب المنزل الغاضب أن يكون رؤوفا بها ، فقد أصيب زوجها العجوز هذا بمرض عجيب فقد معه القدره على الحركة أو الحس إلا بآلام داخلية لا تطاق ، وقالت الزوجة والأبناء أنهم حملوا مريضهم إلى « كفر ناحوم » لأنه لا طبيب فى «الجليل» استطاع أن يشفى ذلك الشلل المطبق ، حين يدنو المريض بسرعة من

الموت . وفى يأسهم هذا حملوا المريض تلك المسافة الطويلة ثم ما أن وصلوا حتى أدركوا أنهم لا يستطيعون أن يصلوا به وسط الزحام الهائل إلى «يسوع» سواء فى الهيكل أم هنا حيث لا سليم ولا مريض يريد أن يفسح لهم الطريق وقد تبعوا « يسوع » إلى هذا البيت وعلموا أنه جالس فى الغرفة العلوية ، ولذلك جروا السرير والمريض من خلف المنزل المجاور حيث لا ازحام وصعدوا به إلى سقف ذلك المنزل ، ثم جرى أحد الأبناء فابتاع حبالا ، وكان الأبناء يربطون الحبال إلى أركان السرير يريدون أن يدلوا بها المريض فى سريره من فتحة السقف إلى حيث يجلس «السيد» يلتمسون رحمته .

وكان ذلك مثيرا حقا ، وكان رب البيت يهم بأن يأمرهم أن يعودوا أدراجهم عندما أوقفه « يسوع » بنظرته الآمرة فلم يسعه إلا أن يقول حسنا دلوه إذن . وأنزلوا السرير والرجل يكاد يموت إلى أرضية الغرفة ، ونظر « يسوع » إلى الجسم الغير متحرك ثم إلى السقف حيث ينظر إليه فى رجاء الأم وأبناؤها ، وابتسم لهم فى محبة ثم انحنى على المريض نصف الميت ووضع يديه على خديه المثلجين ورد مقلتيه المقلوبتين إلى وضعهما ثم قال فى صوت عميق إطمئن أيها الإبن فقد غفرت لك خطاياك » :

وسرت همهمة بين النظارة ، فقد صدم القول الجرىء أدمغتهم فاستقاموا وفتحوا أعينهم وآذانهم وأفواههم على هذا الأمر العجيب ، ثم همس أحد العملاء

— مجرد زندقة ! من يستطيع أن يغفر الخطايا غير الله وحده ، يا للزندقة ! .

ولم يرد أحد على الاتهام الخطير الذى يستحق عقوبة الموت . وبقى الاتهام يرن ويتردد صداه فى الغرفة الكبيرة الصامتة بينما كان « يسوع » لايزال منحنيا على الرجل المريض ثم رفع رأسه وواجه عملاء الهيكل وقال لهم :

— ماهذا الذى تفكرون فيه فى قلوبكم ، ولماذا تتجه أفكاركم إلى الشر ، أيهما أهون أن يقال ، مغفورة لك خطاياك ؛ أم قم احمل سريرك وامش ؟.

وربت بيديه على خدى المريض الذى كان إلى ذلك الوقت لايحس إلا الألم الدفين القاتل ، وتمتم « يسوع » فى بطء ويسر :

— ولكن لكى تعلموا أن لابن الإنسان سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا . هأنذا أقول لك : « قم أحمل سريرك وعد إلى بيتك » .

وبدا كأن القلوب نفسها وقفت عن النبض برهة انتظار رهيبة ، وأمسك الناس بأنفاسهم وسمروا أعينهم على الرجل المشلول ، وأمامهم جميعاً بدأ يتحرك وانتهى خرسه وخرج من فمه أول صوت : تنهدة حمل ثقيل انزاح عن كاهله ، وسرت فى أعطافه هزة فرح حركت كل هيكله المحطم ، وهب الرجل فارتكن على ذراع واحد وصاح :

— شكراً لله !.

وعلت صيحات فرح الخمسة المدلاة وجوههم من فتحة السقف ، ووضع الرجل كفيه على بلاط الأرض وضغط على نفسه ليقف ، ووقف برهة يترنح ثم بكى للإحساس بالقوة الدافقة فيه ، ثم لم شعث نفسه وانحنى ثانية على الأرض تنفيذاً لأمر «السيد» ورفع سريره ومشى به نحو الباب .

وابتسم « يسوع » فى محبة للخمسة الناظرين من فوق وهو يهز إليهم يده مودعاً قبل أن ينطلقوا ليلحقوا بالمريض الذى قام .

وبينما ساد هرج الناس اجتمع الشيوخ والعملاء فى ركن وتقاربت رؤوسهم متسائلين : ابن الإنسان من أين أتى بهذا اللقب ؟ . وتذكر أحدهم أن النبي « دانيال » استعمل هذا اللقب الضخم إذ قال فى نبوته : « رأيت فى ظلام الليل وجوهاً كثيرة ثم رأيت ويا للعجب واحداً كابن الإنسان آتياً مع سحاب السماء » .

إبن الإنسان ! إذن فهو يريد أن يوهم أن نبوة « دانيال » تحققت فيه وأن له قوة أن يغفر الخطايا . أليس هذا كفراً ؟ إذن فليعودوا إلى « أورشليم » وليكتبوا تقريرهم بهذا ! .

وكان هذا أول صدام . لـ « يسوع » مع «الفريسيين» وقد تابع «السيد» بعد ذلك نقده لهم فى عبارات مريرة ، طالما لاحظ مرارتها الكثيرون فى الأجيال التالية ، ولكن جميع ما قيل فى الدفاع عنهم لا ينقض كلمة مما قال « المسيح » فيهم ، لقد كانوا قادة قلوبهم مريضة حتى لتكاد أن تموت ، ومع ذلك فإن لهم على عقول الناس قوة طاغية . وكان عليه أن يوضح للناس زيفهم وإلا عد سكوته عنهم خطيئة فى حق الشعب الخاضع لهم ، كانت الشريعة « الموسوية » لا تعنى بالنسبة إليهم إلا وجوب اتباع الشكليات التى رسموها ، والتى لا يكاد أن يكون لها نهاية . أما التواضع فإنه يكاد أن ينعدم هو الآخر من بينهم . فما كان أحدهم يخشع لله بقلبه أو يحاول أن يكون أكثر قرباً منه ، فإذا ما فعلوا شيئاً حسناً فإنما يفعلونه علانية حتى يراه كل إنسان . وهم يرون أن تفوقهم يأتى من جدارتهم هم أنفسهم ، وكانوا يعتقدون أنهم وكلاء الله على الأرض ، منتفخين غروراً أمام أتباعهم ، أو كما قال عنهم «يسوع» : « عميان يقودون عمياناً »

الفصل التاسع والعشرون

محصل ضرائب يستقيل!

ولم تكد تمضى أسابيع حتى صدم «يسوع» جموع الشعب كما صدم رؤساءهم الدينيين من قبل وكان ذلك عندما أضاف إلى تلاميذه القليلين سادساً، واختار لهذا المركز الرجل الأقل شعبية فى «كفر ناحوم» موظفاً عاماً جابى ضرائب للرومان، محتقراً من كل إنسان، وكان هذا تلميذاً جديداً يسمى «لاوى بن ألفاوس» تعرف إليه «يسوع» بينما كان جالساً فى «بيت المكوس» حيث يؤدى له الضرائب المسافرون ورجال القوافل.

ولم يكن هناك سبب شخصى لدى أهل «كفر ناحوم» ليكرهوا إلى ذلك الحد رجلا طيب القلب مثله، ولكنهم كانوا يرون واجباً عليهم أن يحتقروا ويكرهوا كل من يجبى الضرائب، وكانوا متوافقين على أنه لا يحل لهم أن يؤدوا الضرائب لأجنبى إلا محتجين ومكرهين، ومع أن الضرائب كانت تؤدى لعملاء يهود مثلهم، ولكنهم يعرفون أن النقود التى تقع فى يدى «لاوى» تنتهى أخيراً إلى صندوق «الرومان» إذ كان «حنانيا» وغيرهم من رؤساء الهيكل فى «أورشليم» يستأجرون لجمع تلك الضرائب رجالا أمناء طيبى القلب، ولكنهم فى مسيس الحاجة للعمل مثل «لاوى» هذا، ولكن تلك الحاجة ليست عذراً مقبولا لدى الشعب، ولذلك كان «لاوى بن ألفاوس» رجلا محتقراً فى «كفر ناحوم» يقاطعه الجميع ويتجنبونه كأنه أبرص.

وكان يبدو وهو جالس على باب هذا الجمرك رجلا هادئاً ومتواضعاً وعالماً بأنه محتقر ومنبوذ، وفى عزلته تلك كان يذاكر ويتعلم، حتى اتقن الرومانية واليونانية وغيرهما من لغات السائحين الشرقيين والغربيين معاً، ولكن هـــذا لم يحبب فيه قومه ولا جعلهم يستحرمون أن يصبوا عليه آيات احتقارهم ونقمتهم كلما استطاعوا ذلك. شاعرين بأن هذا هو واجبهم وهو العدل بعينه، أليس هو بعد العميل الظاهر للرومان، القذر الذى لا مبدأ له؟

كان الصبية يجرون وراءه منادين فى الشوارع: يا «لص» وكان آباؤهم فى المنازل يجمعون فى منزلة واحدة بين جابى الضرائب وبين اللصوص والقتلة أعداء المجتمع، كلهم سواء، ومع ذلك ظل «لاوى» يؤدى واجبه متفانياً فيه وبمنتهى الدقة والأمانة فاحصاً كل عمله وحاسباً

كل بارة مضاعفاً ساعات عمله ومتمماً واجبه يوماً بيوم ، منبوذاً حتى لا يجالسه إنسان ولا تقبل شهادته أمام محكمة دينية ، وهكذا فقد كل صلة له بالعالم الخارجى .

ومر « يسوع » أمام المكتب الذى يجلس إليه « لاوى » ورأى الحزن المجسم فى نظرته وقال له :

— اتبعنى !.

ودهش كل الواقفين من الموظفين ومن القادمين من مختلف أنحاء الدنيا إذ رأوا الرجل يقف فى طاعة كاملة وأدب دون أن يتردد ودون أن يوجه سؤالا ، ويترك مكتبه وينادى مساعده أن يحل محله ويحترس ويحاسب ويفتح عينيه جيداً للعمل ، ثم يسير وراء «يسوع» كأنه كان يتبعه من قبل .

ولاحظ الناس أيضاً أن كثيرين شفوا فى ذلك اليوم وتغيرت حالتهم ولكن لا أحد انتقل من حال إلى حال مخالف تماماً ، بمثلما حصل لـ « لاوى » فى تلك اللحظة ، لقد طلب إليه « يسوع » أن يتبعه ، وفوراً وبكل بساطة فعل .

ولاحظ الناس أيضاً كيف رفع كتفيه واستقام قوامه وبان الرضا فى عينيه وربما الكبر ، وهو يسير مع « أندراوس » و « فيلبس » و « يعقوب » و « نثنائيل » فى تلك الأمسية ، فقد صار له أخيراً أصدقاء يعتز بصداقتهم ويفخر ، ثم بالسعادته عندما أخبره « يسوع » أنه من الآن سيكون اسمه « متى » ، ثم ولسعادته الغامرة سيذهب « يسوع » إلى منزله الذى يحتقره الناس ويتجنبونه .

وسارع الرجل وآله إلى السوق يعدون الوليمة الفاخرة وطفق يجمع كل من عرفه وكل من أنس فيه أنه سيقبل الدعوى ليقابل « يسوع » فى بيته وليكسر معه الخبز .

وكانوا كلهم جباة ضرائب وخطاة ومنبوذين . وكانت فى هذا فرصة سانحة لنقد « يسوع » فقد عاد من « أورشليم » العملاء الذين قدموا هناك عنه تقاريرهم ووقفوا فى ضوء القمر خارج المنزل حيث الاحتفال بالضيف على أشده ، وعندما خرج بعض التلاميذ ليقفوا برهة فى الهواء الطلق تأبط أحد العملاء ذراع «أندراوس» . وسحب آخر « بارتلوميو » و « يعقوب» واختار رئيسهم « بطرس» وقال له :

— خبرنى لم يأ كل معلمك ويشرب مع العشارين والخطاة ؟ .

وجاءته الإجابة كأنها من عل ، فقد ظهر فى تلك اللحظة « يسوع » بطوله الفارع أمام الباب وقال لهم :

— لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى ! . إذهبوا إذن واعلموا هذا : إنى أريد رحمة لا ذبيحة ! ، ولم آت لأدعو إلى التوبة صديقين بل خطاة ! .

واختفى العملاء فى الظلمة باحثين عن وجه الخطأ فى كلامه .

وسرعان ما قدم من « أورشليم » وفد من نوع آخر . كانوا بعضاً من أتباع « يوحنا » المعمدان ابن خالة « يسوع » الذى كان لا يزال يرسف فى أغلاله فى حفرة من الأرض كأنه وحش خطر ، بأمر « هيرودس أنتيباس » المشغول الخاطر عند ذاك ، والذى كان ضميره يؤرقه ، وكانوا قوماً صفر الوجوه يضعون عشباً رمزياً فى شعورهم الشعثة حزناً على سجن « يوحنا » ، وقد أتوا ليسألوا «يسوع» أن يضع حداً لشكوكهم ، ولخص « بطرس » شأنهم بقوله إنهم يريدون أن يعرفوا لماذا يقضى أتباع « يوحنا » وقتهم صائمين مصلين بلا انقطاع ، حين لا يصوم تلاميذ « المسيح» بل يأكلون ويشربون ، وبدا أن عملاء الهيكل كانوا قد نقلوا إليهم نبأ وليمة « متى » ! .

ولم تكن الإجابة لتدهشهم لو أنهم تذكروا إعلان « يوحنا» لهم أن « يسوع » هو جماع النبوات ، أو لو أنهم فطنوا إلى أن «يسوع» هو «المسيا» ، وأنه هو الذى اختار تلاميذه الستة ولذلك لم تشف غليلهم إجابته :«هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا مادام العريس معهم ، وإنما ستأتى أيام يرتفع فيها العريس عنهم عندئذ فسيصومون » .

وبينما قفل تلاميذ « يوحنا » عائدين مثقلين بهمومهم حل محلهم جواسيس الهيكل بمجددى الأمل فى أن يمسكوا « بالمسيح » الذى كان إلى ذلك الوقت يختار عباراته بعناية ، حتى لم يستطيعوا أن يمسكوا علية تهمة الكفر . ولكن المحافظين فى « كفر ناحوم » يقولون أن « المسيح » وتلاميذه لا يحفلون بمراعاة قواعد يوم السبت ، ومن هذه الناحية يوجد منفذ للإتهام ، لأن كسر شريعة السبت عمداً يستوجب الحكم بالإعدام .

لذلك تربص عملاء الهيكل له ذات يوم سبت فى أواخر يونية فى السنة الثامنة والعشرين ميلادية ، وكانت سنابل القمح حيث يمر « يسوع » تكاد أن تنضج ، وطال المسير وسط القمح حتى أحس « بطرس » و « يوحنا » بالجوع . وبدون أن ينتبها انتزعا بضع سنابل

وفركاها بين أيديهما وأخذا يمضغان القمح . وفجأة خرج من بين القمح جاسوسان للهيكل برقت أعينهما سروراً وهما يتقدمان إلى «يسوع» نافضين تراب الأرض من ركبهما وملابسهما وقائلين .

ــ ألا رأيت ما يفعله رجالك فى يوم السبت ! .

ــ ماذا ؟ قطعوا بعض سنابل من القمح فى يوم السبت ؟ .

وسرح « السيد » سائلا نفسه :

ــ أهذه هى الجريمة التى يمسك بها الفريسيون تلاميذه . صحيح أنه منصوص فى سفر الخروج ثانى كتب « موسى » أن الحصاد يوم السبت ممنوع . فهل يرى هؤلاء الفريسيون أن مافعله رجلا «يسوع» هو حصاد صريح ، مستوجب للعقوبة الرئيسية ؟ لاغرو فى أن هذا هو منطق الفريسى حيثما وجدته فى أية قارة ، من أى لون كان ، أياكانت لغته أو عقيدته ، إنه فريسى الأمس واليوم والغد ، هو هو على كل الأحوال .

وكيهودى لبق رد « السيد » على السؤال بسؤال آخر :

ــ أما قرأتما قط ما فعل «داود» حين احتاج وجاع هو والذين معه ، كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذى لايحل أكله إلا للكهنة ، كما أعطى منه للذين معه ! .

« أو لم تقرءا فى الشريعة أن الكهنة فى السبت يكسرون السبت فى الهيكل ولا يكون عليهم ذنب . . . . . . ! .

« وأنا أقول لكما إن ههنا أعظم من الهيكل . ولو كنتما تعلمان ما معنى أنى أريد رحمة لا ذبيحة ، لما حكمتما على من لا ذنب له .

« إن السبت جعل لأجل الإنسان . وليس الإنسان لأجل السبت . ولذلك فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً » .

وهكذا قابل « يسوع » اتهامهم التافه بسابقات وطيدة لا سبيل إلى التنكر لها . وأخذ الجاسوسان من جديد لعلمه بكل دقيقة مخفاة فى بطون الكتب . وكيف هو يرد كيدهم دائماً إلى نحورهم ! .

ولكن العناد هو طبيعة الفريسيين . ولذلك لاحظ « يسوع » بعد أسابيع قليلة فى مجمع « كفرناحوم » وفى يوم سبت أيضاً وجوه الثعالب هؤلاء تتطلع إليه من وراء الجماهير بينما أقبل عليه شاب صارخا ضارعا أن يشفى يده اليابسة ، آملين أن يجرؤ « المسيح » على أن يشفيه فى يوم السبت ذاك . وكان السؤال الذى يتردد

فى ذهن كل النظارة هل يفعل ؟ . وقال « يسوع » للشاب :

— قم وقف وسط الناس .

ووقف الرجل وتقدم إلى الأمام حيث أمسك « المسيح » بيده اليابسة وقد بدت ضئيلة ضامرة رمادية اللون ، جزءا ميتا بين يدى « يسوع » القويتين الشاحبتين . وكان « الفريسيون » واثقين أن « يسوع » يعرف القوانين ويعرف أن شفاءه المريض فى ذلك اليوم معاقب عليه بالموت طبقاً لما ورد فى العدد ١٤ من الأصحاح الواحد والثلاثين من سفر الخروج . . . ومرة أخرى تعلقت حياته بخيط بينما رن فى القاعة الصامتة تحديه لخصومه :

— إنى أسألكم : «أخير يحل أن يفعل فى يوم السبت أم شر ؟ . . أن تخلص نفسا أم أن تهلكها ؟ » .

وأدار فى الناس نظرته الفاحصة مستطلعا إجاباتهم ، ولكن أحدا منهم لم ينطق . فعاد يسأل :

— أى إنسان منكم يكون له خروف واحد ، إن وقع ذلك الخروف فى حفرة فى يوم السبت ، ألا يمسك به ويرفعه ؟ الإنسان كم هو أفضل من شاه ؟ .

ومرت عيناه الرحيمتان على الناس مرة أخرى منتظرا ردا ، ولكن الكل صمتوا ، وعندئذ تولى هو الإجابة على سؤاله البديهى قائلا :

— إذن يحل فعل الخير فى يوم السبت ! .

واستدار إلى الشاب الواقف أمامه وأمره أن أمدد يدك ! .

وفى لحظة امتلأت اليد الرمادية اللون النحيفة الهزيلة الضامرة وعادت كاملة الحجم بضة بيضاء كزميلتها ، وعلت ضوضاء الناس فى اندفاعهم فى التعليق على الحدث . بينما مضى علماء الهيكل إلى منتدى « الهيرودسيين » فى البلد ، الذين يعملون على إزاحة «بيلاطس» البنطى عن اليهودية ، لا ليتحرروا من رق الرومان ولكن ليقيموا بدلا منه أحد أبناء « هيرودس » . وهكذا اجتمع الضدان على قاسم مشترك : « كيف يمكن أن نتخلص من « يسوع » ومن آرائه ؟ » .

ومنذ ذلك الوقت إلى الآن وفى كل أرجاء الدنيا الواسعة لا يبرح كثيرون من الأضداد يجتمعون على نفس السؤال ! .

أما « يسوع » فانصرف وحده إلى منعزل فى الصحراء ، ومضى يصلى طوال الليل ! .

الفصـــل الثــلاثون

« يوحنا » يريد أن يعرف

فى غيابة الجب فى حدائق قصر « هيرودس أنتيباس » ، سمع « يوحنا » عن معجزة شفاء اليد الضامرة ، وشفاء المصروع فى مجمع « كفر ناحوم » ، وشفاء تابع القائد الرومانى عن بعد ، وهى معجزة هزت الإحساس الوطنى ، وخصوصا عندما عرض « المسيح » على القائد أن يذهب معه إلى منزله ، وتجرى الرواية على أن القائد رفض فى تواضع قائلا :

ـــ يا «سيد» ! إننى لست جديرا بأن تدخل تحت سقف بيتى ولـكن قل كلمة فيبرأ فتاى ! .

وسر « يسوع » لإجابته وقال للذين معه :

ـــ الحق أقول لـكم إنى لم أجد مثل هذا الإيمان ولا فى « اسرائيل » ! .

ثم التفت إلى القائد وقال له :

ـــ إذهب وليـكن لك كما آمنت !

وقال الناس لـ « يوحنا » أن الفتى الذى كان يموت شفى فى تلك الساعة .

وفـكر « يوحنا » طويلا فى هذه المعجزة ، ولـكن ما جعله يفـكر أ كثر . هو ما ذكره له تلاميذه من أنهم كانوا يسيرون مع جمع كثير خارج بلدة « نائين » فى جنازة ابن وحيد لأرملة أخـذ منها الحزن مأخذه ، وقد قابلهم « يسوع » ومن معه ورأى الأرملة وطلب إليها ألا تبكى ، ودنا ولمس النعش فوقف العاملان وقال « يسوع » :

ـــ أيها الشاب لك أقول قم ! .

فاستوى الميت وبدأ يتكلم . فسلمه إلى أمه .

إن لهذا « السيد » إذن سلطان ليس فقط على الحياة ولـكن على الموت أيضا .

وعرف « يوحنا » أن الشك يدور فى خلد تلاميذه ، وربما فى خلده هو أيضاً . فقد كان هو الآخر فى موقف عصيب ، عليه أن يختار فيه بين الحياة والموت . إذ قال له « هيرودس أنتيبـاس » :

— « افعل ما أقوله لك فأطلق سراحك ، أو أرفض فسأضطر أن أقطع رأسك ، وليس لى بعد هذا من خيار ، فان زوجتى لا تبرح تلاحقنى فى شأنك ! .

وكان الملك الخفيف الوزن « البيضاوى الوجه » يريد حقا أن يغدو صديقا لـ « يوحنا » . ليس فقط لأن « يوحنا » رجل يزداد شعبية ، ولكن لأن هذا الراهب الزاهد الشجاع القوى القلب كان متشبثا بآرائه إلى حد لم يستطع الملك أن يعلله ، ولذلك وقع أو هو كاد يقع تحت تأثيره .

ولكى يبرهن لـ « يوحنا » عن محبته له أخبر حراسه بأن يقدموا له ما يطلبه من طعام ، ولكن « يوحنا » رفض فى أدب هذا الكرم ، وأعاد كل المشروبات والأطايب المهداة من مطبخ القصر ، مكتفيا ببعض جذور النبات الجافة والأوراق الخضراء وعسل النحل البرى ، وأحرج هذا التصرف الملك ، وزاد قلقه ، فقد كان إلى أن تعرف إلى « يوحنا » ، لا يؤمن بالأشخاص ولا بالمبادىء والقيم المعنوية ، وكان يعتقد أن الناس كلهم كاذبون ، لا تحركهم إلا الأثرة والمنفعة الشخصية ، وأن لكل مهما غلا ثمنا ، ولذلك فإنه كلما رفض « يوحنا » أن يستجيب له ، ازداد هو تصميما على أن يكتشف ثمنه ، ولكن شيئا فى داخله كان يزعجه ، هو أن يكتشف أن « يوحنا » لا ثمن له ، وأنه رجل لا يشرى ولا يباع ، فهل يوجد إذن أناس من هذا القبيل ؟ ما معنى هذا إذن ، وأى سر يكمن وراء هؤلاء ؟ .

وكان إذا قض مضجعه وهرب عنه النوم ، انفلت من مخـــدعه إلى الجب وأطل على سجينه وناداه مقدماً له لحم الضأن المشوى المعطر بالتوابل والخضروات ذات الأبخرة التى تتفلت فى أنف الراهب الصائم منادية معدته الخاوية ، فيعتذر عنها هذا فى إصرار ، داعيا الملك إلى التوبة ، ومضطره إلى الاستماع له ، فيضطر الملك بدوره إلى السخرية بآرائه ، إلى أن عزم الملك أخيرا على أن يستمع إلى « يوحنا » جادا ، فإذا بهذا يخبره بأنه أى الملك يلهو مع محبوبته بينما العالم يتغير تغيرا جذريا ، فقد أتى « المسيا » نفسه متجسدا فى شكل رجل ، فليس « يوحنا » إلا البشير به ورسوله .

واهتزت أعطاف « هيرودس » بضحكة كبيرة وهو يقول :

— « يوحنا » ! أمن أجل قصة خرافية كهذه تفقد حياتك ، فكر إذن مليا ولا تكن بعد غبيا ، إن كل ما عليك هو أن تصرح إلى الناس بأن زواجى حسن ، وأننى لا أعيش مع « هيروديا » عيشة محرمة ، وسأعطيك أيضاً زوجة جميلة ! .

وعندما أراد « يوحنا » أن يجادله سد ذاك أذنيه وقال له :

— أيها « المعمدان » لا تتغاب ! أنا لا أريد أن أجادلك . ولكن هـذا الرجل الناصرى ليس إلها . إنك وحدك الذى تقول عنه هذا ، فهل قالها هو عن نفسه ؟ ، بل هل سمعته أنت يقول عن نفسه أنه المسيا ؟ ثم ألا يصح أن تكون أنت على خطأ ؟ .

وكان الملك يتكلم من قلبه وهزت نغمة الإخلاص فى حديثه « يوحنا » ، ففكر مليا فى الأمر ، لماذا لا ينتهز هو هذه الفرصة ، فيوجه تلاميذه أيضا الوجهة الصحيحة ، ويضع الأمور كلها فى نصابها .

وقال « يوحنا » بلهجة رقيقة :

— هلا سمحتم لى جلالتكم أن أتفاهم فى هذا مع بعض أتباعى ! .

— أذكر فقط أسماءهم ، وسأرسل فى طلبهم فى التو واللحظة .

وهكذا ذهب رسولان من قبل « يوحنا » شخصيا إلى « يسوع » ووجها إليه السؤال الذى تتوقف على الإجابة عنه حياة « يوحنا » أو موته .

— « أنت هو الآتى ... أم ننتظر آخر ؟ » .

وشفى « يسوع » أمامهما كثيرين ثم قال لهما :

— « إذهبا واعلما « يوحنا » بما سمعتما ورأيتما ، ها العميان يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون ، والموتى يقومون .

وسكت برهة ثم أضاف فى ابتسامة جادة :

— والمساكين يبشرون بالإنجيل .

وسمع جمهور المرضى والتلاميذ السؤال والجواب . وكانوا كلهم يعرفون « يوحنا » . ولكن « يسوع » أوضح لهم حقيقته فى عبارة صريحة خلدها التاريخ :

— « يوحنا » ... ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا .. أقصبة تحركها الريح ؟ ... أم نبياً ؟ . نعم أقول لكم وأفضل من نبى . . فإنه ليس بين مواليد النساء نبى أعظم من « يوحنا » المعمدان ، ولكن الأصغر فى ملكوت السموات أعظم منه ! .

ثم ذكر سامعيه بأن كهنة « أورشليم » تنكروا لـ « يوحنا » منذ سنة كما يتنكرون الآن له ، وتساءل : « ماذا يريدون إذن ؟ » ، فقد كان «يوحنا» يصوم ويعيش فى الفلاة ، فى حين

يعيش « يسوع » بينهم ويأكل ويشرب معهم ويشاطرهم أفراحهم . فما رضوا بهذا ولا بذاك . . .

وأضاف « يسوع » :

— بماذا أشبه إذن رجال هذا الجيل ومن يشبهون ؟ يشبهون صبية جلوسا فى السوق يصيحون بعضهم لبعض قائلين : « زمرنا لكم فلم ترقصوا ، نحنا لكم فلم تبكوا » . فقد جاء «يوحنا المعمدان » لا يأكل خبزا ولا يشرب خمرا فقالوا : «أن به شيطانا» ، وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فقالوا :«هو ذا إنسان أكول وشريب الخمر وصديق للعشارين والخطاة ! ».

وأشار « يسوع » بيديه مودعا تلميذى « يوحنا » ، وعلى فمه ابتسامة فيها أسى ! .

* * * *

بعد ليلتين ، كان « هيرودس » ينظر من أعلى الجب إلى « يوحنا » . وكان القمر ساطعا يضىء الحدائق الواسعة ويكشف من خلف النخيل عن السهول المترامية والتلال الفضية البعيدة ، وفى ذلك الهدوء الشامل استطاع الملك أن يسمع خرير الماء فى النبع البعيد مغريا بالحياة ، ووقف السجين فى سرعة وأدب ، فعلى طول أسره لم يفقد مرونة جسمه ولا دخل الوهن إلى نفسه .

— حسنا أيها « المعمدان » ! هل عاد إليك رسلك ؟ .

— نعم يا صاحب الجلالة ! .

— ومعهم الرد ؟ .

— نعم يا صاحب الجلالة ! .

— إذن فقد اتخذت لنفسك رأيا ، فهل تسحب كلامك عنى وعن زوجتى ، وتعود إلى الحرية ؟ .

وكم ذهل الملك وهو يسمع إلى إجابة « يوحنا » .

— لا !

وكان « يوحنا » يعلم أنه إذ يقول لا ، ينطق بالحكم على نفسه بالموت .

ولعن « هيرودس » الأرض والسماء ومضى إلى مخدع زوجته . . . ! .

الفصل الحادي والثلاثون

عندما رقصت الإبنة

كان قد مضى على « يوحنا » فى سجنه فى حديقة القصر بضعة أشهر ، حتى خف عن أصدقائه القلق المتجدد مع كل يوم على حياته ، وكان واقع الأمر أنه لم يكن من راغب فى موته إلا شخص واحد هو الملكة ، ولم يفلح كر الأيام ولا الشهور فى أن يقلل من حدة نقمتها عليه ، وإنما على العكس كانت لا تفكر ليلا ولا نهارا إلا فى إهانته لها ، وفى كيف تنتقم منه ، وكلما مر يوم عليه دون أن يموت ازدادت النقمة وسرى سمها فى دمها حتى أظلمت الدنيا فى عينيها وتعطل هضمها والتهبت القوبة القريبة من عينها اليسرى وازدادت جذورها عمقا وفروعها نموا وآلمها أعمالا .

وكانت فى الليلة التى رفض فيها « يوحنا » عرض الملك قد أعدت وليمة فاخرة فى القصر احتفالا بيوم ميلاده ، دعا الملك إليها كل أعيان الجليل وأمرائه وقضاته وكبار الموظفين فيه فأتوا وعلى وجوههم ابتسامة رومانية كبيرة ، لافرحا بالعيد إنما ملقا للملك وإن تبادلوا بين أنفسهم الملاحظات والنكات عليه ، إذ لم يثر إعجابهم فى الحفل إلا النبيذ المعتق والطعام الفاخر .

وتقدم الليل حاراً رطبا ساكنا ، زاد من حرارته الشموع الكثيرة المضاءة ودخان الأطعمة الساخنة ورائحة الكحول المتلاعب بالرءوس ، وعلا ضجيج المحتفلين على أناشيد المغنيين حتى لم يبق من رأس متزن حول المائدة الكبيرة ، وعندئذ انزاحت الستائر الحريرية وظهرت فتاة يانعة تقدم الرقصة الرئيسية فى ذلك المساء .

كانت « سالومى » تلك ابنة « هيروديا » الملكة من « فيليب » أخى الملك « هيرودس » مكتملة القوام ممتلئة الصدر والأرداف قبل الأوان ، فى تناسق بديع وجمال أخاذ ونظرات جريئة لا تكل عن دعوة الناس إلى الإعجاب بها . ووقفت الصبية برهة ممدودة الذراعين فى حركة دلال وقد لمعت أظافرها وشعرها بالزيوت المعطرة وفاض الإغراء من جسمها اللين المتلوى تحت الثوب الشفاف ، فجرت الدماء فى عروق الرجال ساخنة ملتهبة ، وأخذت تتقدم مبتسمة عارية الأقدام نحو كل مدعو ، ثم تنثنى عنه وتذهب يمنة ويسرة وعلت أصوات

الإعجاب بها وتصفيق الأكف وخبطات الأقدام ، ودخل مع التصفيق ودق الطبول الخوف في قلب الطفلة لكل ذلك النجاح ، وهمت بأن تخرج هاربة لولا أن الملك كان في تلك اللحظة قد بلغ به الإعجاب بالفتاة مبلغه ، فنظر إلى مدعويه نظرة آمرة أن يدعوها له . وجذبها إليه وهي تقطر عرقا وأجلسها فوق إحدى ركبتيه ، وخال أنه يهمس لها ، وهو يقول بصوت سمعه الجميع :

— « سالومى » ... « سالومى » . . أطلبي مني ما شئت فسأعطيه لك ! .

وصمت وجوانبه ملتهبة لا يدرى ماذا يفعل أو ماذا يقول .

وقرأت الطفلة في عينيه شهوته . وكانت أمها قد لقنتها الدرس فزادت ناره اشتعالا إذ نظرت إليه صامتة في حب وإغراء . وطال صمت الاثنين وسيطر الشيطان في ذلك الوقت عليهما فعاد الملك في شدة انفعاله يكرر وعده في صوت عال . .

— مهما طلبت « ياسالومى » ياجميلتي فسأعطيه لك حتى ولو كان نصف مملكتي ! .

ووضعت البغية أصبعها في فمها كطفلة مرتبكة ثم تذكرت تعليمات أمها فجرت إليها في غرفة مجاورة وسألت :

— أمي . . أمي . . ماذا أطلب ؟ .

وأدركت الأم أن ساعتها قد أتت ، ساعتها هي لا ساعة الإبنة ، وقد آن لها أن تحصل على ما تريد من كل احساسها الناقم ومن كل نفسها الحاقدة على الراهب القادم من الصحراء ، بوجهه الشاحب وعينيه النافذتين ، المعمدان الذي شهر بها أمام الشعب وشجب زواجها الجديد . المعمدان المخشوشن الجاف الطباع ، الوحيد من بين كل من رأوها من الرجال الذي لم يتأثر بجمالها الطاغي ، ولم يجذبه سحرها . رشاش الماء هذا ، ماضغ الجراد وماص العسل ، المجرد من احساس الرجال .

وقالت الملكة :

— « يوحنا » المعدان . . أطلبي رأسه .

وزادت هذه الفكرة الفتاة اضطرابا ، فترددت برهة ثم جرت نحو الملك ، حيث كان هو على رأس المنتظرين المأخوذين بفتنتها ، ورفعها الملك وأجلسها فوق ركبته وهو يقول :

— هيا يا « سالومى » ما طلبك ؟ .

— إنى أريد أن تعطينى — فى طبق — رأس « يوحنا » المعمدان ! .

وذهبت السكرة وجاءت الفكرة ، وماتت الشهوة فى أعطاف الملك فجأة ، وارتسمت الرهبة ، وانزل الفتاة إلى جواره وصمت برهة وقد أدرك فداحة ما كلفه إعجابه بالفتاة ، بينما أخذ الرومان يحدجونه بنظراتهم الماكرة إذشاقهم المأزق الذى وقع فيه وأخذوا يتراهنون عليه . . هل يبر بالوعد الذى بذله للفتاة علنا وأمام أسماعهم جميعاً ؟ . وهل يجازف بأثارة الآلاف الذين يحبون « يوحنا » ؟ ، أم هل يتراجع عن الوعد الملكى ويغضب الملكة التى يعرفون أنه ما وقف أمام رغباتها من قبل فى أمر غير هذا ؟ فكيف وصبرها عليه قد استطال حتى أتمت إعداد ابنتها وهيأت المأدبة والخمر والمدعوين ليكونوا شهوداً على الوعد الملكى ؟.

ومال قائد رومانى كبير على أذن جاره وهمس :

— يا لها من مصيدة ملكية ، أن الملك واقع فيها على الحالين .

وكان المدعوون يظنون إن الملك لا يعنيه غير العوامل السياسية ، فى حين أن الملك كان يعنيه عند ذاك غير هذا أيضاً ، إذ صحى ضميره على يدى ذلك الراهب العملاق . فقد كان « يوحنا » قويا بينما كان الملك ضعيفاً . وكان مؤمناً بشىء مابينما كان الملك يشك فى كل شىء . وكان إيجابياً فى حين كان الملك سلبيا ، وقد أحبه «هيرودس» من أجل كل هذه الفروق .

ولكن الملك كان يعرف أنه لا مناص من التقيد بوعده . وبسرعة أيضاً . ولذلك نادى كبير الخدم ونظر إليه مليا وفى خوف كأنما هو ملك الجن ، ثم قال فى يأس :

— ابحث عن السياف .

وتلعثم وشد على نفسه ثوبه وتمتم :

— ودعه يحضر لنا إلى هنا رأس « يوحنا » الملقب بالمعمدان ... ضعه فى طبق ! .

وأسرع السياف وطرد بعيداً عن « يوحنا » كل الحراس والبوابين والخدم ، ثم أيقظ « يوحنا » من نوم هادىء وأمره أن يركع ويضع رأسه على منضدة كنضدة الجزار . وبضربة خبيرة واحدة فصل الرأس عن الجسم . ورفعه بشعره ووضعه فى طبق عميق من الذهب وحمله إلى « هيرودس » . وصمت الموسيقيون حتى سلمه الملك إلى الإبنة . ثم ما أن استدارت به « سالومى » نحو الستائر الذهبية حتى استأنف الموسيقيون والطبالون عزفهم ، وبشكل

آلى استأنفت الإبنة أيضاً الرقص داخلة إلى أمها رافعة بيديها الطبق وهى تهز أردافها حتى وضعت الرأس الدامى تحت أقدام أمها . ثم من طول ما أرهق جسمها وعقلها ، سقطت على الأرض وراحت فى سبات عميق .

* * * *

ودفن تلاميذ « يوحنا » جثته بغير رأسها وأسرعوا عائدين ليلا ونهاراً إلى « كفر ناحوم » حاملين النبأ المحزن إلى « يسوع » .

ومرة أخرى انسحب « يسوع » إلى خلوته ليعد نفسه للجهاد الآتى . إذ انتهى هكذا دور الرسول وجاء دور الأصيل .

وقضى الليلة الموحشة فى الجبل المرتفع فوق بحر الجليل ، مشرفا على « كفر ناحوم » ، وحيداً ولكنه غير وحيد ، لأنه كان مع الآب متجها ببصره إلى اللانهاية !

الجزء الرابع

السنة الأولى

الفصل الثانى والثلاثون

تمام الاختيار

وكانت الخطوة الأولى التى اتخذها « يسوع » هى اختيار تلاميذه الرئيسيين الذين سيعدهم ليحملوا رسالته من بعده ، ولذلك عاد إلى « كفر ناحوم » حيث قابل « بطرس » و « يعقوب » وكلفهما بأن يستدعيا له من أسماهم لهما من بين تابعيه ، وبعد قليل كان حوله الإثنا عشر ، فى مكان منعزل من الشاطىء ، وكان على رأسهم الأصلع الملتحى « بطرس » بأنفه الكبير المجعد وأخوه الطويل « أندراوس » و « برثلماوس » الشاحب الملقب أيضاً بـ « نثنائيل » ، وذو النظرة الصافية « يوحنا » وأخوه « يعقوب » ابنا « زبدى » ، و « متى » العشار السابق بلحيته الكثة ، حين وقف « فيلبس » مسندا ذراعيه على كتف العشار ، وكل هؤلاء كانوا معه أثناء تجواله فى المدة السابقة .

ثم يأتى « يعقوب » الصغير الذى سيلقى به من أعلى هيكل « أورشليم » بعد حوالى أربعين سنة من أجل حبه لـ « يسوع » . وحينما يرى جلادوه أنه لا يزال حيا يجهزون عليه رجما بالحجارة .

ثم يأتى أخوه « يهوذا » الملقب « تداوس » و « لباوس » يهوذا هذا الذى سيغيب فى أعماق التاريخ بعد أن يقتل رميا بالسهام فى أرمينية بعد ستين سنة من هذا اليوم من يونية الذى اختير فيه رسولا لـ « المسيح » .

ويأتى أيضاً « سمعان » الأخ الأصغر لـ « يعقوب » و « يهوذا » ، الذى كان مقدرا له أن يسمر إلى صليب على شكل حرف X فى بلاد الفرس فى شيخوخته المتقدمة جدا حتى ليحسب بعضهم أنه كان عند ذلك فى التاسعة والعشرين بعد المائة من عمره ، وكان أحد المختارين عند ذلك أيضا « توما » الملقب « ديديموس » والمعروف أيضا باسم « توما الشاك » والذى كان مقدرا له أيضا أن يمزق جسده فى « الهند » بالرماح حتى يموت .

ويأتى فى آخر القائمة « يهوذا بن سمعان » الاسخريوطى ، كان هؤلاء الاثنا عشر المختارون من كل فج ، جد مختلفين ، ولكن « يسوع » ألف بينهم وأخبرهم أنه انتقاهم من بين الجموع ليبدأ بهم مهمته الآن ، حيث مات « يوحنا » المعمدان .

فى ذلك الوقت كان معنى الرسول ، الرجل المرسل من آخر ، وكان يطلق على من يحملهم القادة أو الحكام رسائلهم إلى الخارج . وعلى هذا الأساس أسماهم « يسوع » رسلا ، وسيرسلهم ليبشروا برسالته كل الأقوام . وقد وعدهم بأنهم هم أيضاً سيشفون المرضى ويخرجون الشياطين ويقيمون الموتى .

وقف الثلاثة عشر مصلين جميعا فى صمت وخشوع ثم قفلوا راجعين إلى البلد فى عزم جديد ، وقد وضح للرسل أن « يسوع » يريد معاونتهم المخلصة فى مستقبل بادى الصعاب ، فقد كان يكفى أن يروا جموع المرضى المنتظرين حتى يخالوا أن جميع مرضى العالم قد اجتمعوا هناك فى « كفر ناحوم » . ولم يكونوا بداهة كل العالم ولكنهم كانوا من « أورشليم » حيث لم يشف « المسيح » إنسانا من قبل ، ومن أقاصى « اليهودية » ، ومن « طورس » و « سدوم » ومن « جبال الكرمل » حيث عاش « أليشع » فى كهفه ، ومن « أدوم » وما وراء « الأردن » ، ومن أنحاء « سوريا » والعشر مدن التى تسمى « ديكابوليس » ، كل هؤلاء كانوا يبحثون عن « المسيح » ليرد لهم صحتهم وأملهم فى الحياة ، وأحس التلاميذ بأن دورهم آت عندما يكونون مسئولين عن أمثال هؤلاء ، وفطنوا بشكل ما إلى أن عددهم إثنا عشر ، وهو نفس عدد أسباط « اسرائيل » ، وأخذت نظرتهم إلى الحياة تتغير .

منذ قليل كان لأى منهم أن يدير ظهره إلى « المسيح » ويعود أدراجه ، أما الآن فقد ولى هذا ، وأصبح كل منهم مشدودا إلى « المسيح » بقلبه وروحه .

وزاد احتشاد الجموع من حولهم حتى اضطر « يسوع » أخيراً لأن يلجأ برسله إلى مركب ابتعدوا به عن الشاطىء ، بعيدا بعيدا ، حتى غابوا عن أبصار مترقبيهم ونزلوا فى بقعة منعزلة فى سفح جبل بركانى الصخور السوداء مشرف على البحيرة ، وقد تبعوا « المسيح » فى الممر الصاعد الضيق حتى وصلوا إلى شرفة يظللها ضباب المساء الذى أخذ يزحف على مياه البحيرة .

وهناك اتخذ « يسوع » الخطوة الثانية الحاسمة فى حياة هؤلاء .

الفصل الثالث والثلاثون

الخطوة التالية

جاء الوقت ليلقى «المسيح» إلى تلاميذه الإثنى عشر حديثاً واحداً يلخص كل تعاليمه ، وتقريراً رسمياً كاملا عن رسالته يحفظه كل رسول عن ظهر قلب .

ولهذا الغرض قادهم بعيداً عن الجموع ، إلى كتف صخرى فى جانب من الجبل ؛ قطعة منعزلة يستطيعون أن يبقوا فيها وحدهم .

وجلس التلاميذ حوله فى شبه حلقة وبدأ يعلمهم .

لم يسمع العالم من قبل ذلك اليوم ولا سمع من بعده حديثاً مختصراً مرتباً لنظام فلسفى جامع ، ولا وضعت قط قائمة مماثلة لقواعد السلوك الإنسانى ، ومع ذلك فقد حوى ذلك الحديث كل ما يحتاج الإنسان إلى معرفته عن الله والخلق والحياة فى هذا العالم وفيما بعد ، كما حوى أروع الوعود التى زفت إلى البشرية عن الأبدية .

ولقد بدأ فأخبرهم كيف يستطيع الإنسان أن يسعد بحياته على هذه الأرض ... إنها ثمانى قواعد يطيعها الإنسان فتكون حياته مباركة ، ولا يعنى هذا أنه أعطاهم الأمان من متاعب هذا العالم . كلا فليس لهم أمان من الألم والخسارة والأسى والمهانة ، إذ خلت من مثل هذا تعاليم « السيد » التى كلف التلاميذ بأن يرددوها فى نواحى الأرض الأربع . كل ما وعد به « يسوع » هو السعادة الروحية ، وهى حالة عقلية يستطيع المرء بها أن يظل هادئاً راغباً فى الحياة مهما ضخمت خسارته وعظم حزنه واشتد ألمه ، إنها ثمانى قواعد تجعل المرء رصيناً وقادراً فى غمار أى ضيق .

ولقد أطلق على هذه القواعد الثمانى فيما بعد اسم «التطويبات» ، وسمى من أجلها ذلك الجبل « جبل التطويبات » ، ثمانى قواعد بسيطة وحكيمة ولكن من أصعب الصعب اتباعها ، ذلك أن الطريق إلى هلاك الروح رحب وسهل وملىء بالإغراء وفيه لذة دانية القطوف . أما الطريق إلى المجد الروحى فإنه مستقيم وضيق جداً وملىء بالصعاب .

أول القواعد أن الإنسان يجب أن يكون فقيراً بالروح . ومعنى هذا أن يكون لين

العريكة متواضعاً لا عنيداً ولا متكبراً ولا مدعياً . فإذا وفق فى عمل عظيم فليس له أن يجلس ويتشدق بما أنجز وإنما عليه أن ينصرف بكليته إلى عمل آخر أصعب منالا وأعظم جدوى للناس .

والقاعدة الثانية أن يكون الإنسان وديعاً . وليس معنى هذا أن يكون جباناً رعديدا ولكن معناه أن يكون مؤمناً بطيبة الله وبصداقته للعالم ، حتى إذا ما نزلت بساحته المصائب ولم يستطع أن يدرك لماذا هى نزلت به ، فعندئذ تعنى القاعدة أن يتقبل إرادة الله بطيب خاطر.

ثم : «طوبى للحزانى لأنهم سيتعزون» . وليس سبيل العزاء أن يحزنوا لحالهم ولكن أن يشعروا بأساء غيرهم ويعطفوا عليهم ويحاولوا خدمتهم والتهوين عليهم ، إنها قاعدة أساسية فى تعاليم « السيد » .

ويجب أن يجوع أتباعه ويعطشوا للعدالة ، وليس هذا بالمعنى القانونى للعدالة ولكنه يعنى الرغبة فى تفهم واتباع القوانين التى تحكم الحياة الفاضلة والتى هى جزء من إرادة الله .
ويجب أن نكون رحماء فإننا عندئذ نستحق أن تشملنا الرحمة . ومن منا لا يحتاج إليها ؟ .

وسيسعد أيضاً كل نقى طاهر القلب ، وسيعاين الله . ولم يعن «يسوع» بالطهر مجرد البعد عن شهوات الجسد ، وإنما عنى أن يتجه الإنسان بكليته إلى غاية فى الحياة شريفة مطهرة .

وطوبى للمضطهدين من أجل تمسكهم بتعاليمه وبالحق وبالعدالة ، فإن لهم ملكوت السموات . ثم طوبى للناس إذا اضطهدوا أو عيروا أو قيل فيهم كلام شرير بغير حق من أجل اسمه ، فليفرحوا إذن ويتهللوا فإن جزاءهم فى السموات سيكون عظيما جداً .

وكما تتحقق السعادة فى هذا العالم لمن يتبعون هذه التعاليم ، كذلك يفقد الناس سعادتهم عندما لا يعملون بها .

ورأى « يسوع » أنه قد ذهبت بأذهان تلاميذه عندئذ الظنون وتساءلوا : هل هو يعلن هكذا إلغاء الشريعة الموسوية ؟ ولكنه قطع عليهم أفكارهم بقوله :

— لا تظنوا أنى أتيت لأنقض الشريعة أو أقوال الأنبياء ، كلا ، إنما جئت لأكمل ! .

ولكن ما قاله « يسوع » عند ذاك كان طفرة للشريعة صدمت الناس فيما درجوا عليه من مفاهيم وما رسموه لأنفسهم ، طبقاً لها ، من مثل عليا خلقية ، فقد أوضح لهم كيف تكون الشريعة كاملة ، فمثلا جاء فى « الوصايا العشر » التى هى الشريعة : لا تقتل ، فإن من قتل يكون مستوجباً الدينونة ، ولكن الشريعة يجب ألا تقف عند هذا الحد ، ولذلك أضاف :

— أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه فإنه يستوجب الدينونة ، ومن قال له : يا أحمق ، فإنه يستوجب نار جهنم .

إذن فإنه سيان تقريبا أمام الله أن تقتل آخر أو أن تتمنى موته ؛ فإن الله العليم بما نبطن يحاسبنا أيضاً على الأفكار الشريرة ، ولهذا يريد أن تكون أفكارنا دائما طاهرة .

ثم ذهب « المسيح » إلى أكثر من هذا فقال :

— إذا تشاجرت مع إنسان فلا محل لك فى الكنيسة ، دع قربانك هناك ، وامض أولا باحثا عن أخيك ، وصالحه ، وعندئذ فقط يكون لك أن تدخل الكنيسة . وكن مراضيا لخصمك سريعا ما دمت معه وإلا فاتك الوقت وضاعت الفرصة .

ثم ماذا عن الأفكار الشهوانية ؟ أليست هى التى تهيء للزنا ؟ لذلك قال «المسيح» :

— سمعتم أنه قيل : لاتزن ، وأما أنا فأقول لكم إن كل من نظر إلى امرأة واشتهاها فقد زنى بها فى قلبه ! .

إن مجرد هذه الفكرة عثار ، فإن جاءك هذا العثار من عينك فاقلعها ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يلقى فى النار جسدك كله .

وكان للرجل أن يتزوج مثنى وثلاثاً أو ما شاء له هواه ، وكان الطلاق يجرى سهلا ، بمجرد ورقة يعطيها الزوج لزوجته بذلك ، ولكن « المسيح » أوضح عند ذاك أن الله خلق الإنسان فى البدء رجلا وامرأة وليس رجلا ونساء كثيرات ، ولذلك فإن المسيحى لا يتزوج غير واحدة ، وإنه ليتزوجها باسم الله وبإذنه . ثم إن ما أزوجه الله لا يصح أن يفرقه إنسان . وإذن فلا طلاق على الإطلاق ! .

ولم يكن هذا طريقا سهلا ممهداً مفروشا بالورود ، إذ كيف يكون كذلك بالنسبة لقوم درجوا على الزواج سهلا والطلاق سهلا قرونا عديدة ، ابنا عن أب عن جد ؟ ومع ذلك فقد مضى «يسوع» يصدمهم ليس فى عقولهم فحسب وإنما مضى يصدم الطبيعة البشرية نفسها ، وفتح الإثنا عشر تلميذاً أفواههم عندئذ دهشة لقوله الخالد : « لا تقاوموا الشر » .

هل يمكن هذا ؟ .

نعم ، أيها التلاميذ الدهشون ، أنتم وكل الأجيال القادمة . ليس لكم أن تقاوموا الشر ، وعندما تعلمون أن القوة ليست هى الجواب عن القوة ، فعندئذ يمكن أن يحل السلام على الأرض . . . عندئذ فقط ، وليس قبل ذلك ، يحدث هذا .

وكلما قابل الهجوم دفاع ، وقابل التعدى أذى من نوعه ، فإن الحروب لن تنتهى !.

وكما أن هذا صحيح فى العلاقات العامة ، كذلك هو صحيح فى الحياة الخاصة ، فإذا ضربك أحد على خدك الأيمن فلا ترد له الضربة ، بل أدر لكفه خدك الأيسر أيضا .

وشهق تلاميذه لهـــذا ، ومع أنهم ظلوا يستمعون لأفكاره الرحيمة شهورا طوالا ، فإنهم لم يسمعوا من قبل قاعدة أساسية ومثيرة كهذه القاعدة التى ألقاها عليهم « يسوع » هكذا بمنتهى الهدوء .

وتذكروا عند ذاك حكم الشريعة الموسوية التليدة : «عين بعين وسن بسن»، وقال لهم « السيد » إن هذا جاء قبل أجيال وقرون عندما كانت شريعة البشر أن الانتقام من شأن المجنى عليه وحده . فإذا كسرت له سنة فقد يقلع لك عينك إذا استطاع فالأمر هكذا أمر قوة واقتدار . وقد جاءت الشريعة لتحد من دفعة غضب الإنسان ولذلك نصت على أن يكون الجزاء من جنس العمل وبنفس المقدار : « عين بعين وسن بسن » ، وليس أكثر .

أما الآن فقد جاء اليوم لتكمل الشريعة ولتصل إلى مداها الجدير بها . ولن تكون لها بعد ذلك رجعة !.

والآن أيها الإثنا عشر خذوا هذا من « المسيح » صريحا لا لف فيه ، واضحا بغير ما لبس :

« إذا أخذ أحد رداءك فاعطه أيضاً قميصك ، وإذا سخرك جندى رومانى أن تسير معه ميلا حاملا له درعه وسيفه تحت لفحة الشمس الحارقة ، فامش معه بحملك ميلا آخر ، تبرعا منك وإحسانا » .

وأشرق على وجوه التلاميذ نور الإدراك ، إذن فإن العبد يستطيع أن يتحرر ، وذلك بأن يعطى أكثر مما يطلب منه ، إنها الفلسفة المسيحية الجديدة المدهشة : قانون الخدمة الزائدة ، قانون الكرم البالغ والإيثار الذى لا أثر فيه للأنانية !.

وبدا لهم « يسوع » مملوء قوة ومجدا وهو يمضى فى قوله إلى القاعدة الذهبية : أن يعامل الإنسان غيره بما يود أن يعامله الغير به ، وهى قاعدة واقعية فعالة فعالية « يسوع » نفسه ، يجب عليهم أن يعطوا عندما يطلب إليهم أن يعطوا ، وأن يقرضوا عندما يطلب إليهم أن

يقرضوا . وفوق ذلك لا يطلبون أن يستردوا مالهم ، إن غير المؤمنين يستردون ؛ فإن فعل المسيحيون نفس الشيء فأى فضل يكون لهم إذن ؟ .

— وقد سمعتم حكم الشريعة أن أحبوا أصدقاءكم واكرهوا أعداءكم ! أما أنا فأقول لكم أيها السامعون : « أحبوا أعداءكم واصنعوا خيرا إلى من يسىء إليكم وباركوا من يلعنكم ، وصلوا من أجل الذين يسيئون إليكم » ! .

هل يستطيع بشر أن يفعل هذا ؟ — هكذا تساءل التلاميذ ومضوا يتساءلون ، ومضى التساؤل يترى آلاف السنين إلى الآن ، كيف يستطيع إنسان أن يحب عدوه ؟ .

ومن الأسف أن الكلمات أخذت تترجم من لغة إلى لغة إلى ثالثة ورابعة ، وفقدت بذلك الدقة التى توخاها « يسوع » بتعاليمه التى ألقاها عند ذاك بلغته الآرامية الكلدية . وكان « يسوع » يستعمل كلمتين لنوعين من المحبة جد مختلفين معنى ومدى ، ولكننا أخذنا نترجمهما إلى كلمة واحدة هى المحبة ولذلك طرأ لبس فى معنى قاعدة محبة العدو . ولكن المسيح قصد بهذه العبارة نوعا من المحبة خالصا لذاته غير متأثر بالدوافع الشخصية ، شبيها بمحبة الله للبشر باعتبارهم كلهم أبناءه .

ومن المؤكد أنه غير مطلوب منا أن نتدله فى حب أعدائنا ونندفع إلى معانقتهم ، ولكننا يجب أن نباركهم وندعو الله لخيرهم ، وأن نغفر لهم خطأهم فى حقنا تاركين البقية لله ، لأنها من شأنه .

— وكونوا أنتم أيضا رحماء كما أن أباكم الذى فى السموات هو رحيم .

وبنفس الوضوح مضى « يسوع » يحذرهم من الغرور والكبر والتظاهر وخصوصا بأعمالهم المجيدة ، فإذا ما انزلق إنسان إلى التحدث عن عمله ليستثير إعجاب الناس به ، فقد أنهى هذا كل شيء بالنسبة إليه ، ما دام هو قد حصل على ما يريد من إعجاب إخوانه به ، فما جاز له الآن أن يتوقع جزاء آخر !.

— أما أنت فلا يجب أن تدرى يمينك بما أجدت شمالك ، وصل فى سريرك أو فى غرفة مغلقة ، ولا تفعل كالفريسيين المحبين للتظاهر الذين يصلون فى نواحى الشوارع ، ملونين وجوههم ليبدوا كأنهم صائمون منذ أمد طويل .

ــ الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم !

كيف تعامل الآخرين ؟ وكيف تسيطر على نزعاتك الشخصيه ؟ هذا هو ما أدرك التلاميذ أن « يسوع » يريد أن يوضحه لهم ، إنها طريقة فى الحياة ونوع من السلوك يجب أن يتبعه جميعنا ، ليس لنا أن نحاكم الآخرين ولا أن ندينهم ، وإلا فقد استحققنا نحن أيضا أن يحاكمنا الآخرون وأن يدينونا . ولكننا إذا غفرنا فإنه يكون لنا عندئذ الحق فى أن يغفر الغير لنا ، والأمر بعد ذلك مفوض إلى كل منا شخصيا ، فلكل منا أن يختار بمحض حرية فكرة وضميره ، كيف يسلك فى هذا ! .

وأوضح « يسوع » لهم عندئذ أنه ليس لمن يتبعه أن ينتقد أخطاء الآخرين وإنما يجب عليه أن يشغل نفسه بالبحث عن عيوبه هو وأخطاء نفسه ، وإلا فكيف يصح لك أن تنظر إلى القشة التى فى عين أخيك على حين أنه توجد فى عينك أنت خشبة ؟

وأدرك التلاميذ عندئذ فى هذه الناحية المنعزلة من الجبل ضآلة مقدار الحقيقة فى تعاليم المجمع فى الناصرة ، ولفت نظرهم لئلا يلقوا بكنوز المعرفة الروحية التى تلقوها عند ذاك إلى غير المستعدين لقبولها ، تماما كما لايصح أن يلقى الإنسان اللآلىء تحت أرجل الخنازير .

وعلى هذا المعيار أيضا يستطيع الناس أن يحكموا لأنفسهم على مدى إخلاص من يتعرض لتعليمهم ، منذرا بأنه سيأتى إلى العالم أنبياء كذبة وذئاب كثيرون فى ثياب حملان . وكما تعرف الشجرة من ثمرها كذلك يعرف الإنسان من أعماله . وستكشف أعمال هؤلاء المعلمين وسلوكهم الشخصى عن حقيقة أمرهم !

وإنما يسأل الناس عن أعمالهم وعن أفكارهم أيضا ، ويجب أن يستيقظ السامعون على هذه المسألة العسيرة . فإن لكل إنسان حسابه المكتوب ؛ وقائمة أعماله وأفكاره محفوظة له ليوم الحساب ، فمن عمل صالحا وتكلم بالحكمة والمحبة ، وسارت أفكاره نقية طاهرة ، فقد بنى منزله على الصخرة ، تأتى الزوابع وتنهمر السيول وتدفعه بقوة ، غيرأن المنزل وطيد ثابت ، أما من لا يتبعون هذه التعاليم فكأنهم يعيشون فى منزل مقام على الرمال ؛ سينهار وشيكا وسيكون سقوطه عظيما ! .

ووضعت هذه الرسالة على أكتاف التلاميذ مهام ثقالا ، ولم يخف عنهم « يسوع »

هذا وإنما صارحهم به وطلب إليهم أن يجاهدوا ليكونوا مستحقين تلك الرسالة وجديرين بها، فقد اختارهم لأنهم ملح الأرض فإذا فقد الملح طعمه فمعنى ذلك أنه فقد أيضاً قيمته وصار جديراً بأن يلقى على الأرض . . . إنهم نور العالم ، ولذلك يجب أن يشرق على العالم نورهم !.

ـــ حتى يرى الناس أعمالكم الطيبة فيمجدوا أباكم الذى فى السموات !.

ونبههم « يسوع » إلى أن ما ألقاه عليهم عند ذاك هو جماع الشريعة وكمالها ، وستزول السماء والأرض ، ولكن كلمة مما قال هو لن تسقط !.

ويجب أن يطهر الإنسان حياته ليجمع كنزه ليس لهذا العالم ، ولكن للأبدية . وفى هذا السبيل يجب أن يحب الله وأن يخدمه هو وليس غيره ، فإن الإنسان لا يستطيع أن يقسم ولاءه ، أو أن يخدم سيدين ، وإنه لمن الخطأ المبين أن يدع الإنسان حوائج الحياة وضروراتها تكيف قراراته فيها وسلوكه، إن الله يطعم الطيور ويكسو الزهور والأعشاب بأفخر مما اكتسى به « سليمان » فى كل ثرائه ومجده .

ويجب أن يثق أبناء الله بأنه يعنى بهم عناية ليست أقل من عنايته بالطيور وبالأزهار .

ـــ فاطلبوا أولا ملكوت الله وبره ، وهذا كله يزاد لكم !.

ولم يقف «يسوع» عند هذا الوعد المطمئن ، وإنما مضى يعد المكرسين حياتهم للبر قائلا :

ـــ اسألوا تعطوا . . . ابحثوا تجدوا . . . اقرعوا يفتح لكم .

وأضاف « يسوع » :

ـــ اى إنسان منكم يسأله ابنه خبزا فيعطيه حجراً ؟ فإذا كنتم أنتم ، على ما فى قلوبكم من شر ، تعرفون أن تعطوا العطايا الصالحة لأبنائكم ، فكم بالحرى أبوكم الذى فى السموات ، يعطى الصالحات لمن يسأله ؟.

ـــ وكل ما تريدون أن يفعله الناس بكم افعلوه أنتم بهم، فإن هذا هو الناموس والأنبياء !.

كل هذه أوضحها « يسوع » لتلاميذه الملتفين من حوله على ذلك الكتف الصخرى المطل من عليائه على البحيرة البعيدة . ونزلت الشمس وراء الأفق وبدأ الظلام ينشر أجنحته على الكون وأخذ هلال فضى صغير يتخذ طريقه إلى كبد السماء ، وما برح « يسوع » يوضح لهم أن الإنسان لن ينال القدرة على اتباع مثل هذه إلا بالصلاة .

ولكن ، كيف يجب على الإنسان أن يصلى ؟ .

ليس بأن يكثر الكلام كما يفعل سائر الناس فى المجامع ، ولكن بأن يتذكر أن الله أباه يعلم كل حاجيات أبنائه : ولذلك فإن صلاته يجب أن تكون هكذا :

« أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا . ولا تدخلنا فى تجربة ، لكن نجنا من الشرير ، لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد ، آمين »

* * *

وهذه هى التى يسميها الناس منذ قيلت : « موعظة الجبل » .

الفصل الرابع والثلاثون

قارورة الطيب الأولى

كانت ملاحظات «يسوع» اللاذعة على سلوك رؤساء اليهود قد بدأت تصل إلى أسماعهم ، لذلك اجتمعوا وتداولوا في الأمر. ولذلك أيضاً دعاه فريسي إلى العشاء ، لا تكريما له ؛ ولكن ليرى من هو ، وما خطره ، فإن كان أمره هينا صرفوا النظر عنه وأهملوا شأنه ؛ وإلا عرفوا كيف يتخلصون منه .

وهكذا ذهب « يسوع » إلى منزل « سمعان » الذي كان تواقا لأن يرى ذلك الداعي الذي يقولون إن له قوى سحرية فائقة ، وكان « سمعان » يخال أن في استطاعته أن يخلب لب ذلك «الإنسان» بكرم ضيافته وطيب مأكولاته ؛ فيكف عن مهاجمة الأغنياء وذوي النفوذ وعن إثارة عامة الشعب عليهم ؛ إذ كان الفريسيون مجمعين على قاعدة : « ادفع الثمن وخذ ما تشاء » .

وكان الفريسي يخال أيضاً أن « يسوع » العامل النجار ما أن يراه حتى يعرف كم هو عظيم ونبيل ومهيب فلا يكون أمامه إلا أن يبدي خضوعه لعظمته الشخصية ، فإنه ولا شك أحد أعيان الفريسيين .

هذا بينما كان « سمعان » يعد نفسه ، دون أن يدري ، لمفاجأة عظيمة . فقد جلس « يسوع » إلى المائدة راضيا برغم أن مضيفه أهمل بعض تقاليد الضيافة الكريمة ، فلم يكن هناك ضيوف آخرون ولا كانت لحومه من الصنف الممتاز ولا كانت خموره معتقة ولا هي حتى من ثمار الكاكاو . أدرك « يسوع » أن « سمعان » يرى أنه لا يليق به أن يعامل نجاراً كما يعامل إنساناً مساويا له في القدر والدرجة الاجتماعية ؛ وأنه يعتقد أن فقيراً مثله لا يدري من كل هذه الأصول شيئاً ؛ ومع ذلك بقي « يسوع » ظاهر الرضى وهو يأكل مع مضيفه أرزاً مسلوقاً وعنباً ولحم ضأن .

وتحدث معه عن طيب المحصول في تلك السنة وفداحة الضرائب الآخذة في الازدياد ؛ ثم تحدثا عن إشاعات الحرب في الغرب .

وبغتة انحنى « سمعان » ناظراً من فوق كتف « يسوع » ، فقد رأى شيئاً غريبا لم يكن

يتصوره - رأى سيدة تتقدم منحنية بشعرها الأحمر فى ثوب من الحرير الفاخر المعطر وبين يديها وعاء من الألبستر الفاخر ، وعرف الفريسى شخصيتها ، فقد سبق أن قابلها حيث لم يكن هناك إلا هو وهى ، بعيدين عن كل عين ! ! !

ولكنها فى تلك الليلة لم ترفع عينيها إلى أبهته ووجاهته وسلطته فى أن يعز ويذل ، بل تناست شأن نفسها أيضاً وأرخت بصرها على ذلك المتكىء أمام المائدة ، ذلك « الفقير » « يسوع » وركعت أمامه ووضعت رأسها على قدميه وبكت وأخذت تغسلهما بدموعها مستعينة بشعرها الأحمر ، وراحت تقبلهما ثم عادت تدلكهما بعطرها ، وقال الفريسى لنفسه : « ها أنذا أرى ، فلو أن ذلك الرجل نبي لعرف من هى تلك التى تغسل قدميه هكذا ، وأى نوع من النساء هى » .

وأدرك « يسوع » فكره

وقال :

— « سمعان » ، لدى شىء أريد أن أسر به إليك ! .

— قل يا « سيد » .

— دائن كان له مدينان أحدهما مدين بخمسمائة دينار والآخر بخمسين . . .

— نعم ياسيد :

— ولما لم يكن مع أى منهما ما يوفى به دينه ، فقد سامح الدائن كلا منهما .

— نعم يا « سيد » :

— أيهما يكون أكثر حبا له ؟ .

— أظن أنه الذى سامحه فى الأكثر .

— بالصواب حكمت ، فهل رأيت معى هذه السيدة ؟ لقد دخلت أنا بيتك فلم تقدم أنت لى ماء لغسل قدمى ولكنها هى بالدموع غسلتهما وبشعر رأسها مسحتهما ، كذلك لم تقبلنى أنت قبلة واحدة فى حين أنها منذ دخلت لم تكف عن تقبيل قدمى . لذلك أقول لك إن خطاياها الكثيرة قد غفرت لها ، لأنها أحبت كثيرا .

ولأول مرة استدار « يسوع » إلى السيدة ذات الشعر الأحمر وقال لها :

ـــ مغفورة لك خطاياك .

ووقف « سمعان » يتساءل نفسه : من هذا الذى يغفر الخطايا أيضا ؟ .

ولكن « يسوع » لم يلق إليه بالا ، وإنما مد يده ليساعد السيدة على الوقوف ، وسد قارورة العطر ملاحظا لنفسه كم هى ثمينة تلك القارورة وكم هو غالى الثمن ذلك العطر ، فلابد أنها دفعت فيهما كل ما تملك .

وقال لها :

ـــ إيمانك قد خلصك . امضى فى سلام ! .

وبعد برهة انصرف « يسوع » هو الآخر .

الفصل الخامس والثلاثون

السيدة التى فهمت

كان من أثر معجزات « يسوع » الكثيرة أن ذاعت سمعته ؛ وأصبح ذكره على كل لسان فى مدينة « الناصرة » ، وأخذ أقاربه ، أولاد أعمامه وأخواله وحتى أقاربه الأبعدون الذين كان يجرى العرف عند ذاك على تلقيبهم كلهم بإخوته ، يترددون على منزله سائلين والدته عن آخر عجائبه وقائلين :

— «مريم» ، هل سمعت عن السيدة الشقراء التى غسلت قدمى ابنك بدموعها ودهنتهما بالطيب ؟. وهل علمت بأنباء إخلاص هؤلاء السيدات لإبنك ؟ ... إخلاص « حنة » زوجة « قوسه » ياور الملك « هيرودس » و « سوسنة » وغيرهما وغيرهما من السيدات ؟ .

ولم تكن تخلو هذه الأسئلة من مكر أو ترديد لأقاويل أعداء « يسوع » حول معجزاته . ولكن « مريم » كان يسرها مع ذلك أن تسمع كل الأخبار عن ابنها . وكانت تعرف أن هاتيك السيدات يعتنين بابنها ويطهين له طعامه ويخطن ثيابه وتصلحن صنادله .

وكانت تبتسم راضية عندما يخبرها الناس أن رجال الحكم لا يرضون عن تشجيع ابنها للسيدات على أن تتعلمن وتفكرن لأنفسهن وتشتغلن وتدلين برأيهن فى الشئون العامة .

وكلما زاد حديث الناس عن « يسوع » وأقواله وأعماله الخارقة للعادة ، أحس هؤلاء الأقارب بتخلفهم عنه وبوجوب مشاركتهم له فى شهرته وأمجاده ، فما دام هو قد أصبح عظيما إلى هذا الحد ، فلماذا إذن لا يعرف العالم أن له أيضا أقارب ممتازين هم الآخرون؟، ولماذا لا يحدث « يسوع » الناس عنهم ؟ ، أم لعله وقد بلغ ما بلغ من علو المقام يخجل من قرابتهم له ويتبرأ منهم ؟

ولكن العالم يجب أن يعرف صلتهم به ، لذلك أخذوا يلحون على « مريم » أن تذهب معهم للقائه ، وتوجهت معهم أخيرا إلى « كفر ناحوم » الصاخبة المزدحمة بالناس لأن « يسوع » جعل منها مقرا للتبشير ، فتزاحم عليها السياح من كل البلدان وعلى الأخص الالاف المرضى منهم ، ولم يصبح فيها مسكن خال ؛ وغدا من المستحيل أن تستوعب الآلاف

المؤلفة من الوافدين عليها كل يوم ، الأمر الذى ذكر « مريم » بما كان من أمرها فى زمان مضى ، عند ولادة « يسوع » .

أما حيث يسكن « يسوع » فقد كان المنزل يعج بالمتزاحمين حتى لتضيق بهم الطرق المؤدية إليه وتكاد تختنق الأنفاس من الضغط الشديد ، ووقفت « مريم » فى آخر المتزاحمين خارج المنزل حين أخذ بعض الأقارب يتدافعون حتى أمكنهم أن يروا « يسوع » .

وقال الناس له :

— انظر ... إن والدتك وإخوتك واقفون فى الخارج ينتظرونك .

وانتظر هؤلاء الأقارب أن يندفع « يسوع » نحوهم وسط الجماهير فيفسح له الناس الطريق ليحيى أهله وعائلته القادمة من « الناصرة » .

ولكن « يسوع » أطل برأسه من فوق الجموع حتى رأى « مريم » والدته ، وتقابلت نظراتهما فى تحية مليئة بالحنان إذ لاحظ هو كيف سارت كل ذلك الطريق الطويل لتراه بعد إذ لم تعد شابة ، بل سيدة متقدمة فى العمر كثيرة العمل والمتاعب . ولاحظت هى أنه مشغول الآن بأعمال « أبيه » كما سبق أن قال يوم افتقدته فى الهيكل ، ورأيا على بعد أنهما متفاهمان تماما ، وعلى هذا الأساس وبهذه النظرة سأل «يسوع» الناس :

— ومن هى أمى ومن هم إخوتى ؟ .

ومد يده فى حركة دائرية على المساكين والمرضى من حوله وقال :

— ها كم أمى وإخوتى ، لأن من يصنع مشيئة أبى هو أخى وأمى ! .

وكانت بسمة « مريم » لهؤلاء الأقارب المتضايقين من جراء هذا الاستقبال الفاتر تكاد تقول : « أليس هذا هو منتهى المجد وإن ضايقكم ؟ ! » .

لقد كانت « مريم » تدرك الكثير ! .

الفصل السادس والثلاثون

الراوى المحبوب

كلما تكررت أحاديث « يسوع » للجموع ، ظهر لهم أنه خير راوية رأوه ، وكثيراً ما كان يقف فى مقدمة سفينة راسية على البر مخاطبا الجماهير الغفيرة ، ملقيا عليهم أعمق أفكاره فى شكل قصة مثيرة مشتقة من واقع حياتهم اليومية ، وكان يندس بين الجموع علماء الهيكل يتابعونه كظله متلمسين له خطأ يأخذونه عليه ، فيفتحون عيونهم ويرهفون آذانهم فإذا بهم ينقلبون معجبين بقصصه وبراعته فى الإلقاء ، وإن عادوا فرأوا سلوكه هذا جديدا مختلفا عما عهدوه من سائر الوعاظ ، فبضاعته هذه ، شعبية عادية ، وهو نفسه لا يرقى إلى علم ومرتبة من يعظون فى الهيكل وفى المجامع .

ومع ذلك فأى جديد جدى فى القصص ؟ إن أطفال المدارس أيضاً يعرفون أن سفر « بلعام » روى قصصاً ، وكذلك سفر « أيوب » ثم طالما روى الأنبياء القصص ليسترعوا انتباه الناس وليبسطوا لهم الشئون الدينيه .

وكان لـ « يسوع » من قصصه غرضان أولهما طبعا هو توضيح الحقائق الدينية الإنسانية العميقة .

فقد كان من العسير حقا أن يتفهم العمال والصيادون تلك الحقائق إذا ما ألقيت عليهم فى شكل علمى جاف . ولكن ذلك ممكن إذا ما أحسن إلقاؤها فى شكل قصة مع إشارات ذات معنى ، وفى عبارات تجرى سهلة بليغة ومشحونة بالأحاسيس ، تقع حوادثها فى أماكن مألوفة ويصطبغ كل من أبطالها بصبغة خاصة يتميز بها ، حتى ليرسم الراوى أمام السامعين شخصيات تكاد أن ترى وتلمس ، وحتى ليعيش السامعون فى جو القصة ويشتركون فى وقائعها ويتشاطرون خاتمتها وعواقبها .

وكانت كل قصة ترمز إلى شىء وتهدف إلى معنى .

ولئن كان غرض « يسوع » الأول أن يوضح ، فإن غرضه الثانى كان — العجب — هو ألا يفهم جميع السامعين ماذا ترمز إليه القصة وماذا تعنى ، وكثيراً ماسأله تلاميذه أن يوضح

لهم مغزى هذه القصة أو تلك ، فيفعل ، وكثيرا ما سألوه : لماذا هذا المغزى عميق يصعب كشفه ؟ فيقول :

ــ أما أنتم فقد أعطى لكم أن تفهموا أسرار الملكوت ، وأما هؤلاء فلم يعطوا ..... فلهذا أكلمهم بأمثال ... لأن فيهم تتم نبوة «أشعيا» : « لأنه قد غلظ قلب هذا الشعب وثقلت آذانهم عن السماع وأغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ولا يسمعوا بآذانهم ولا يفهموا بقلوبهم ويرجعوا لى فأشفيهم » .

وكانت هذه كلمات عجيبة لم يدركها تلاميذه عند ذاك ، حتى صلبه غلاظ القلوب هؤلاء ، وتمت عملية الفداء كما هى مرسومة منذ الأزل ، هذا وإن كنا لانزال نلمس تباين طبائع الناس وتناقض استنتاجاتهم واختلاف عقائدهم ، ونؤمن بأن وراء سياسة «المسيح» فى ترك تلك الحال قائمة إلى أجل ، مع بذل النفس فى محاولة تهذيبها وإصلاحها ، حكمة إلهية فوق متناول عقولنا .

* * *

ومن قصص « يسوع » التى يذكرها الناس كثيراً قصة الإبن الضال ، قصة من واقع الحياة اليومية ، ناهية عن اليأس باعثة على الأمل ، أحلى الأمل ؛ قصة الشاب الذى أخذ نصيبه فى مال والده ومضى إلى المدينة الكبيرة متوقعاً أن يضاعف سريعاً ذلك المال ويغدو به رجلا عظيما يشار إليه بالبنان .

ولكن سرعان ماسقطت عليه غانية لعوب ، أوقعته فى حبائلها ومثلت له دور الحب والإخلاص فصدقها وأمن لها ، وعاونها عليه أصدقاؤها من المقامرين واللصوص فلم يبرحوا به حتى خلا وفاضه من كل درهم وطرد من مسكنه وألقى به فى الطريق هائما على وجهه ليس له من مأوى ، وجاع واشتد جوعه حتى ارتضى لنفسه أن يعمل راعيا للخنازير بأقل أجر ، فكان يشتهى أن يأكل من قشور الخضروات التى تلقى إليها ، ومضى التعس يفكر ماذا يفعل ؟ .

وتذكر أن أدنى خدم أبيه يعيش ويأكل أفضل منه ، وهنا وصل إلى قرار حكيم هو أن يعود إلى أبيه معترفا له بخطئه مقرا بأنه غير مستحق أن يدعى ابنه ، وملتمسا أن يلحقه بخدمته فى إحدى ضياعه ، فقد يقبل ! .

وحزم أمره ومضى يطوى القفار نحو بيت أبيه ، ثم ما أن اقترب منه حتى رأى رجلا

مهرولا نحوه تثير خطاه من حوله الأتربة ، واكتشف أنه أبوه الذى كان قد رآه عن بعد وعرفه بقلبه وهرع إليه فرحا بعودته فاتحا له ذراعيه وقلبه ومعانقاً إياه فى محبة خالصة ، ثم صاح فى خدمه قائلا: « هاتوا الحلة الأولى وألبسوه ، واجعلوا فى يده خاتما وفى رجليه حذاء ، وأتوا بالعجل المسمن واذبحوه . . . فنأكل ونفرح . . . لأن ابنى هذا كان ميتاً فعاش ، وكان ضالا فوجد » . وطفقوا يقيمون الأفراح ! .

وأكد « يسوع » للسامعين أن الله والد محب كهذا ، ولكنه والد كل البشر ، ولذلك فإنه ينتظر كلا من أبنائه حتى يعود إلى بيته .

— لأنه يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب !

وكانت هذه فكرة جديدة عن الله فى عظم أبوته المحبة ، وصل فيها « يسوع » إلى قمة تعاليمه .

* * *

وهناك قصة أخرى ألقاها « يسوع » فى ظروف غاية فى الحرج ، إذ انتدب أعداؤه محاميا شابا ذرب اللسان ليتحداه ويوقع به فى مجمع «بيت عنيا» ، وكان « يسوع » قد وصل لساعته إلى اليهودية ، ونزل فى بيت أصدقائه الإخوة الثلاثة «لعازر» و «مريم» و «مرتا» .

كانت المؤامرة فى خضمها ، إذ ازدحم الناس فى الكنيس الصغير المواجه للطريق النازل من « أورشليم » إلى «أريحا» ، الطريق الموحش الذى يعيث فيه قطاع الطريق ، المليء بالمخاوف إلى الآن ، الذى يبدأ من أعالى الجبل حيث العاصمة الذهبية وينتهى إلى منخفض البحر الميت ماراً بالقفار التى اعتزل فيها « يسوع » وصام أربعين يوما ، والتى عاش فيها « يوحنا » ووقف على حافتها يؤدى رسالته ويعمد ، وحيث تقاطر الناس من كل فج بعد أن أثارتهم أنباء تحدى « يسوع » لرؤسائهم ولمعلميهم وتغلبه عليهم فى يسر ، معللين النفس بأن يسمعوا منه عظة شيقة وقصة طريفة ، حتى ضاق بهم الكنيس وملأوا الفضاء من حوله .

وإذا كان « يسوع » قد التزم جانب الحرص فيما مضى من أحاديثه العلنية ، فقد خلع عنه عند ذاك هذا الرداء ، وبدا صريحا فى مهاجمة ما استقر عليه الناس من مفاهيم وما كبلوا به أنفسهم من شكليات . وفتح بذلك للمحافظين ميدانا واسعا للتحديه وللعراك معه ، وخصوصا عندما قال لسامعيه إنهم مباركون منعم عليهم لأنهم يرونه ويسمعون أقواله ويشاهدون فعاله ؛ هذا الذى طالما تمناه من قبل ملوك وأنبياء كثيرون ولم يصلوا إليه ، ثم واصل التحدى

إلى غايته ، إذ وعد الأخيار منهم بالحياة الأبدية .

وصمت بعد هذا الوعد العظيم ، وساد الصمت الجمع كله برهة طويلة قطعها وقوف المحامى الشاب فى أدب مصطنع ، وفى عينيه مكر وسأل :

— أيها السيد ماذا يجب أن أفعل لأنال الحياة الأبدية ؟ .

وكعادة اليهود المثقفين رد « يسوع » بسؤال آخر :

— ما هو المكتوب فى الشريعة ؟ هل تذكر نصه ؟ .

وأجاب المحامى الماكر بسؤال آخر :

— نعم أيها « السيد » . . . ولكن ما هى أهم وصية ؟ .

وقال له « المسيح » :

— ماذا كتب فى « الناموس » ؟ كيف تقرأ ؟ .

فأجاب :

— أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك وكل ذهنك .

وقال « المسيح » :

— هذه هى الوصية الأولى والثانية مثلها : أن تحب قريبك كنفسك . وليس هناك أعظم من هاتين لوصيتين .

وكان يبدو أن هذا التبادل فى الأسئلة والأجوبة عادى برىء ، ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة لذلك المحامى الداهية وغيره من شيوخ القانون المتربصين ، ذلك لأنه إنما وجه سؤالا قانونيا يفتح به بابا لجدل فى منتهى الخطورة ، وذلك أنه إنما كان يلف ويدور حول ممنوعات ومحرمات دينية عددها ثلثمائة وخمسة وستون ، عدا لزوميات دينية لا مناص من اتباعها وأدائها عددها مائتان وثمانية وأربعون أمراً صريحا تتساوى لدى هؤلاء الشيوخ فى الأهمية مع أية وصية إلهية أخرى، لذلك فما كان أحب إلى ذلك المحامى من أن يجعل «يسوع» يقع فى الفخ فيعلن رأيا مخالفا لذلك .

ولكن « يسوع » لم يعبأ بهذا فقد قصر الوصايا كلها على الاثنتين المذكورتين ، أو على الأقل ، فضلهما على كل الباقى الذى اعتبره ضمنا ضعيف الأهمية أو فاقدها .

ومع ذلك فقد كان لـ «يسوع» فى إجابته هذه سندمن الكتب نفسها ولذلك تابع قوله :

— وعلى هاتين الوصيتين ترتكز كل الشريعة والأنبياء !

ولكن المحامى لم يجلس وإنما ظل واقفا ملحفا ، قال :

— حسنا قلت يا سيد إن هناك إلها واحدا وليس غيره وإنه يجب أن نحبه بكل قلوبنا وكل أذهاننا وكل نفوسنا وكل قدرتنا ، وإن حب القريب كالنفس أعظم من كل تكفير وتضحية .

وهز « يسوع » رأسه موافقا بينما كانت عيناه تفحصان الرجل وقال له :

— لست بعيداً عن ملكوت الله ، وقدأجبت بالصواب . إفعل هذا فتخلص .

وابتسم المحامى فى سذاجة ماكرة ، فقد ساق الحديث إلى حيث يبتغى ، فسأل فجأة :

— ولكن ، من هو قريبى ؟ .

كان « اليهود » شيعاً كثيرة ولكنهم مجمعون على كراهية الأجانب فليس هناك مجال لأن يكون الأجنبى قريباً . أما أبناء عمومتهم ، السامريون ، فإنهم — فى نظرهم — صنف لئيم حقير مرذول لا تصح معاملته ولا مجالسته ولا مجرد أن تقرئه السلام أو أن تتمناه له ، والمسألة بالنسبة لليهودى مسألة اعتبار وكرامة لم يفرط فيها أب ولا جد، فهل يجسر «يسوع» أن يتحدى قومه فى إحساسهم الموروث هذا ؟ .

وفى السكون الثقيل ، سكون التوقع والتحفز ، أعاد المحامى المتنمر السؤال :

— سيدى : من هو قريبى ؟ .

ومد « يسوع » بصره إلى الطريق الموحش الممتد إلى أقصى الأفق أمام المعبد ، الطريق المنحدر من « أورشليم » الذى يعيث فيه قطاع الطرق ، واستدارت إلى نفس الطريق عيون القوم كلهم ومضى « يسوع » يحكى فى هدوء :

« كان رجل منحدراً من « أورشليم » إلى « أريحا » ...

« فوقع بين اللصوص فعروه وجرحوه ثم مضوا وتركوه بين حى وميت ...

« واتفق أن كاهناً كان منحدراً فى هذا الطريق فأبصره . . . وجاز .

«وكذلك « لاوى » وافى المكان فأبصره . . وجاز .

« ثم إن سامرياً مسافراً مر به ، فلما رآه تحنن فدنا منه ، وضمد جراحاته ، وصب عليها زيتاً وخمراً وحمله على دابته وأتى به إلى فندق واعتنى بأمره . . .

« وفى الغد أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال : اعتن بأمره ، ومهما تنفق فوق هذا ، فسأدفعه لك عند عودتى . . . » .

وسكت « يسوع » برهة حتى يقارن المحامى والجمهور بين سلوك الكاهن — الرئيس الدينى «اليهودى» الصميم — و «اللاوى» — الممتاز المقدس المختار وحده للخدمة الدينية — ، هذان من جهة ، والسامرى الحقير المرذول من جهة أخرى . ثم سأل « يسوع » المحامى :

— من فى رأيك هو قريب هذا الذى وقع بين اللصوص ؟ .

ولم يستطع المحامى إلا أن يجيب :

— هو الذى صنع معه الرحمة .

وحتى عند ذاك أنف المحامى أن يقول الكلمة الممنوعة : «السامرى» ولكن كان المفهوم أنه يعنيه .

وقال « يسوع » :

— إذهب أنت أيضاً واصنع هكذا .

كان حكماء اليهود ينتظرون أن يوقعوا بـ « المسيح » فإذا به يهدم صروح النواهى والشكليات التى يكبلون بها الأفراد فى شئونهم الخاصة والعامة ، ويحرر الناس فلا يفرض عليهم من أوامر ونواه وممنوعات غير حكم العقل والضمير ، فى حدود وصيتين رئيسيتين لا أكثر .

ثم إذا به يكشف زيفهم وزيف كل عقيدة أخرى تفرق بين البشر فى الاعتبار ، أو تقيم بينهم فوارق وفواصل ، ويؤكد أن البشر كلهم أبناء الله الواحد ، فكلهم إخوة على اختلاف طوائفهم وعقائدهم ولغاتهم وأجناسهم وألوانهم ، إخوة متساوون معدناً وحقوقاً واعتباراً ، وكلهم مكلف بأن يحب الله أكثر من نفسه ، وأن يحب أخاه فى البشرية كنفسه .

وما كان أعذب هذه الأنشودة السماوية فى عالم مزقته ولم تبرح تمزقه نار التعصب والخلافات . ولقد وضع « يسوع » هكذا الأساس للمعاهدات الدولية وللدساتير

والقوانين الإنسانية ، ولميثاق حقوق الإنسان ، ثم لوحدة القوانين أخيراً ولقيام الحكومة العالمية الواحدة ، التى ستذوب معها كل الحدود والفوارق ولا يبقى بعد ذلك إلا المحبة والتعاطف والإيثـــار !.

ولقد مضت على قصة « المسيح » هذه حوالى ألفى سنة وما زالت البشرية تحبو نحو مغزى هذه القصة وغايتها . نعم تحبو .. وفى هذا يتجسم الأمل !.

الفصل السابع والثلاثون

زمن العجائب

عندما همت الشمس بالمغيب غادر « يسوع » وأتباعه الشاطىء الغربى لبحيرة الجليل وأقلعوا نحو الشاطىء الصحراوى الشرقى حيث لا جموع وحيث يستطيعون أن ينالوا قسطا من الراحة ، وكان « يسوع » فى طبيعته هذه يحتاج إلى فترات خاطفة للراحة ، وكان عند ذاك متعبا فما كادوا يبتعدون قليلا عن الشاطىء حتى تراجع إلى مؤخرة السفينة وأسند رأسه إلى وسادة صلبة ثم سرعان ما ذهب فى نوم هادىء عميق ، كأن لاشىء يمكن أن يهدد السفينة ومن فيها .

ولكن مياه بحيرة الجليل كانت عند ذاك ، كما هى الآن ، من أكثر مياه العالم غدرا ، فبينما هى هادئة ساكنة سكون الزوجة الطيبة إذا بها هادرة تقذف الزبد فى غضب بالغ .

فجأة إذن تلبدت السماء بالغيوم القاتمة ، وانطلق من بينها وميض البرق ، ودوى قصف الرعد ، وهبت ريح عاتية كادت أن تمزق شراع السفينة الصغيرة ، وهاجت الأمواج العالية السفينة وصدمتها بقوة ألقت ماءها فى داخلها .

وصاح التلاميذ :

— ياسيد إننا نهلك !

ولم يستيقظ « يسوع » ، فأخذوا يهزون كتفيه بعنف ؛ ففتح عينين ناعستين ثم فعل ما لا يفعله بحار فى مثل هذه الظروف قط ، فقد وقف بقوامه الفارع وسط السفينة المتأرجحة ورفع يده منتهرا الريح آمراً البحر بلهجة الواثق أنه لن يستطيع غير أن يطيع !

ولقد أطاعت الريح والبحر للتو ، فعلى الفور صفت السماء ، وسارت السفينة تتهادى فوق مياه ساكنة .

ونظر « يسوع » إليهم عند ذاك فى حزن وهز رأسه وقال :

— ما بالكم خائفين هكذا ؟ كيف لا إيمان لكم ؟ .

ولم يستطيعوا أن يجيبوا ، فقد سبق أن رأوه يبعث الحياة فى الأعضاء الضامرة فتأخذ

قوامها العادى وقوتها الكاملة فى غمضة عين ، ورأوه يشفى الأرجل القعيدة فيمضى صاحبها ماشيا عليها ، ويعيد البصر إلى الأعين الضريرة ويشفى خادم قائد المائة وغيره عن بعد ، ويبعث ابن الأرملة الميت من نعشه حياً ، ومع ذلك لم تقو كل هذه المعجزات على انتزاع الخوف الكامن فى نفوسهم كبشر ، ولعل « توما » فكر عند ذاك : ألا يمكن أن يكون هدوء العاصفة مجرد مصادفة ؟ .

فقد كان « توما » كما ذكر التاريخ ، كثير الشك .

فلا غرو أن يبتسم الناس اليوم ، بعد حوالى ألفى سنة ، وهم يتساءلون : كيف يمكن لإنسان مولود من امرأة أن يأمر الريح فتطيعه ؟ .

ومع ذلك فقد رأوا بعد ذلك « يسوع » يقابل إنسانا مجنونا سا كنا فى كهف فيطرد منه فريقا من الشياطين فتنصرف عنه إلى قطيع من الخنازير البرية فتصرخ فجأة وتندفع ملقية بنفسها إلى الموت فى البحيرة ، وهكذا يشفى الرجل ويرى معهم أهل المنطقة الخائفين على قطعانهم يرجون « يسوع » أن ينصرف عن تخومهم فينصرف وينصرفون معه .

ولكن الشكوك لم تبرح تخامرهم . فلا أقل من رؤيه « المسيح » قائما من الموت مستأنفا حياته معهم حتى تذهب الشكوك ويحل الإيمان الوطيد ! .

ولكن غيرهم آمن . ولم يكن قد رأى من « يسوع » شيئاً ! .

فقد رجا رئيس المجمع يايرس « يسوع » أن يذهب معه ليرى ابنته المريضة إلى حد الخطر ، وقفل «يسوع» عائدا معه إلى كفرناحوم وتكاثر الناس حولها وتدافعوا . وكانت هناك إمرأة تزحم القوم جاهدة آملة أن تصل إلى « يسوع » وكانت تنزف منذ اثنتى عشرة سنة ولم تترك طبيباً إلا استشارته ولا دواء إلا استعملته . ولم تستطع أن تقترب من«يسوع» لترجوه أن يشفيها فكانت تقول فى نفسها «إن مسست ثوبه فقط برئت» وقد استطاعت ،فإذا بها تحس بأن النزف توقف وأنها استعادت صحتها كاملة ! .

وروى القديس « مرقص » فى إنجيله أن «يسوع» توقف وسأل :

— من لمسنى ؟ .

ووقف الناس ينظرون إلى بعضهم البعض ويتساءلون دهشين :

— كل هؤلاء الناس يتدافعون حوله ويحتكون به فى عنف ومع ذلك يسأل من الذى لمسه ، بمجرد لمسة ؟

ولكن « يسوع » أسكت تساؤلهم إذ قال بأن قوة خرجت منه ، فقد استعان به من بين كل هؤلاء إنسان ، فأعين . وازدادت الدهشة إذ تقدمت إليه سيدة ، وألقت نفسها على الأرض راكعة أمامه معترفة بأنها هي التى لمست طرف ردائه ! .

أما هو ، الذى سأل تلاميذه منذ برهة أين ذهب إيمانهم ، فقد قال للسيدة :

ــ ابنتى : إن إيمانك ، أبرأك ، اذهبى بسلام !.

وتابع المسير فإذا برجل آت من بعيد يصرخ متحدثا إلى يايرس : « ابنتك قد ماتت » وتهاوت ساقا الوالد وأوشك أن يسقط لولا أن أحاطه « المسيح » بذراعه وهمس له :

ــ لا تخف ، آمن فقط فتحيا ابنتك ! .

وسار إلى منزل الموت حيث كانت النذابات المحترفات قد قدمن وباشرن مهنتهن وكن يضربن على آلاتهن التقليدية ويرددن عباراتهن صارخات مولولات .

وأشار «يسوع» إلى الجموع أن تقف ، وتقدم هو و «بطرس» و «يعقوب» و«يوحنا» . وعند الباب أشار إلى النذابات أن تهدأن وتفسحن له الطريق، فإن الإبنة لم تكن ميته بل كانت نائمة ، وزمجرت النذابات غاضبات محتجات ولكنهن أفسحن الطريق . واصطحب « يسوع» والدى الفتاة وتلاميذه الثلاثة إلى الغرفة المظلمة حيث أرقدوا الميتة التى بدت صفراء خامدة .

ورفع « يسوع » يدها الباردة وهمس :

ــ أيتها الإبنة الصغيرة قومى! .

وقامت الميتة فوراً وابتسم لها «يسوع» فى حنان ، قائلا لوالديها أن يعطوها شيئاً لتأكل فإن ميتة تعود إلى الحياة لابد أن تكون جائعة ، وأوصى الوالدين ألا يرووا ما حدث .

ولكن القصة انتشرت انتشار أشعة الشمس المشرقة ! .

الفصل الثامن والثلاثون

لا كرامة لنبي في وطنه

كان طبيعياً أن يختلف الناس في الناصرة في شأن « يسوع ».

أتراه وقد بلغ هذه الشهرة ، عاد يأنف أن يتحدث إلى أمه وأقاربه ؟ .

ولقد وجد الناقدون أذناً صاغية ، حتى بين طيبي النية الذين كانوا يشعرون بأن لهم حقاً على « يسوع » ، حقاً منكورا .

ثم لماذا هو يدور حول « كفر ناحوم » ويجعل منها مركزاً لمعجزاته ؟ أتراه نسى أنه من الناصرة ، وأن الناصرة أحق به ؟ . أليس فيها عمى وعرج ومصروعون وكثيرون يموتون ؟

ففي مفارق الطرق وفي الميادين وحيثما اجتمع الناس كان يدور حول «يسوع» جدل حامي الوطيس .

وفي خضم هذا الاضطراب وصل «يسوع» ، وفجأة غدا الجو ثقيلا ينذر بعاصفة هوجاء . وتزاحم الناس حول بيت « مريم » بين ساخر ناقم وصائح بالتحية ، ووجد « بطرس» ومن معه مشقة في أن يفسحوا « ليسوع » الطريق إلى المجمع ، وهناك أمام نفس المقاعد التي طالما جلس « يسوع » إليها في صباه مستمعاً إلى دروس الشريعة والأنبياء والأوامر والنواهي التي لا آخر لها ، وقف هو يتحدث إلى الناس في كيف يجب أن يعامل بعضهم بعضاً .

وصدم حديثه الناس ، إنه يتحدث أيضاً عن الشريعة والأنبياء ولكن بروح جديدة خالية من الإحساس بالأنانية والعزة الشخصية ، إذ هو يأمرهم أن ينسوا دفعة واحدة نقائص أعدائهم الأجانب والسامريين ، وكل من هب ودب ، وإنه ليجسر أن يقول إن الله يحب السوريين والسدوميين أيضاً ، وإنه رب الأجانب كما هو رب اليهود ! !

إن هذا لكثير ! .

وبدأوا يتأففون وزمجروا ، ثم أخذ كل يصيح من ناحية : من هو ليلقي اليهم دروساً ، وهل حضروا هم ليسمعوا منه دروساً في الأدب والسلوك ؟ .

ولكن أليس هو صانع العجائب ؟ .

إذن فليفعل شيئاً !

إن أياً من أقرانه الصبيان والبنات الذين كان يلعب معهم هنا ، لم يشف أعمى أو أعرج ولا ادعى أنه يستطيع شيئاً من ذلك . ولكنه يدعى ويدع الشائعات تترى عن ادعاءاته : ها هم العمى والعرج ملء المجمع ، فليرهم إذن قوته . . . يا « يسوع » افتح عيناً مغمضة أيها النجار ، أقم ميتاً يا ابن «مريم» !!

وعلت الصيحات ، وخرج الشرر من الأعين الغاضبة ومدت إليه الأيدى مهددة : « أيها الطبيب داو أهلك ، إنك تدعى أنك تصنع عجائب فى « كفر ناحوم » ... اصنعها هنا فى بلدك » .

وجاءت إجابة « يسوع » مع آهة حزينة مسامحة :

— لا يكون نبى بلا كرامة ، إلا فى وطنه وبين عشيرته !

— نبى ! أسمعتم ما يقول؟ هو يعتبر نفسه نبياً إذن !

ثم بينما هم ينتظرون أن يريهم بعض الألعاب ، مثل أى ساحر يحمل حقيبته وعصاه ، راح يتفلسف لهم هو فى الشريعة والأنبياء ، ولا عيناً مغمضة فتح ولا يداً يابسة شفى ولا ميتاً أقام ! .

ومع ذلك يدعى علناً أنه نبى ! .

وانطلقت صيحات الغاضبين بينما هم يتدافعون نحوه وقد اتفقوا ضمناً على شىء ، ثم ساقوه أمامهم فى الشارع الضيق إلى قمة التل المقامة عليه مدينتهم ، حيث طالما وقف « يسوع » صبياً وحيداً أو مع «يوسف » يرقب العالم من حوله ، وقد استقر عزمهم على أن يلقوا به من عل ، إلى الصخور الناتئة فى أسفل .

ثم لم يستطع أحد أن يرى ما حدث .

ففى لحظة كان هناك على حافة الهاوية ، وفى لحظة اختفى . . . ، كل ما استطاعوا أن يقولوه « لمريم » المرتاعة هو :

— لا بد أنه جاز فى وسطهم . . ومضى ! .

الجزء السابع

السنة الثانية

الفصل التاسع والثلاثون

خمسة أرغفة وسمكتان

كانت الملكة قد وعدت « هيرودس انتيباس » أنه ما أن يقطع رأس « يوحنا » المعمدان حتى يستريح باله ويجد أخيراً السلام ، فيتخلص عندئذ دفعة واحدة وإلى الأبد من تلك الشكوك الفظيعة التى أثقل بها « يوحنا » المعمدان ضميره . كما تنبأت الملكة بأن الشعب سيعود إليه الهدوء .

ولكن الملكة «هيروديا» لم تكن عرافة ولا نبية ، فسرعان ماظهر خطؤها فى الناحيتين . فقد مات « يوحنا » المعمدان فعلا ولكن الملك لم يعد يستطيع أن ينسى ذكراه . ثم جاء أخيراً هذا لـ « يسوع » الذى كان « يوحنا » يبشر بمقدمه ، وأخذ ينشر إنجيله على نحو أوسع نطاقا وأقوى أثرا بكثير مما كان « يوحنا » يفعل .

ولم يكن يمضى يوم حتى يحمل إلى الملك جواسيسه أخبارا عن ازدياد قوة « يسوع » ونفوذه ، وذكر تقرير أن نفوذه تضاعف خمسين مرة ، وجاء هذا التقرير نتيجة لما فعله «يسوع» إذ أرسل اثنين وسبعين من تلاميذه اثنين اثنين فى رحلة تجريبية ، وأخبرهم أنه من الآن ستكون لهم القدرة على شفاء الأمراض وطرد الشياطين وإقامة الموتى ، آمرا إياهم : « اشفوا مرضى . . . طهروا برصا وأطردوا الشياطين وأقيموا الموتى ، مجانا أخذتم مجانا أعطوا » .

وانطلق علماء بلاط « هيرودس » فى ضحكة سخرية عالية وأخذوا يتصايحون : « كيف يستطيع مثل هذا الرجل أن يعطى تلاميذه قوة على الشياطين فى حين أنه ليس هناك شىء اسمه الشياطين ؟ » .

ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة ، فقد علم « هيرودس » بعد ذلك أن التلاميذ عادوا مغتبطين ومعهم أقاصيص كثيرة عن آيات توفيقهم الباهر ، إذ صح فعلا ماوعدهم به « يسوع » . فقالوا له « حتى الشياطين نفسها ما أن استعنا عليها باسمك حتى خضعت لأوامرنا وفرت هاربة » .

وقالت التقارير إن « يسوع » نفسه سر لهذا وصلى قائلا :

— «إنى أشكرك يا أبى ، سيد السموات والأرض إذ أخفيت هذه الأمور عن الحكماء والعلماء وأظهرتها للبسطاء — نعم يا أبى فقد بدأ هذا حسنا فى عينيك » .

ثم تحدث « يسوع » عن نفسه بصراحة أكثر إذ قال « ليس من يعرف الإبن إلا الآب ولا من يعرف الآب إلا الإبن ومن أراد الابن أن يعلن له » .

ثم وجد فلاسفة القصر أن من العسير أن يسخر المرء من تقارير فى مثل هذه الجدة ، وإلا فكيف يستطيع حاكم أن يسخر وهو يسمع كل يوم عن رجل محوط بالأسرار يجوب طرقات مملكته ذهابا وجيئه يشفى المرض ، الشيطانى منه العادى والخطر ؟ . وقد ظل «هيرودس» زمنا طويلا يرفض أن يصدق أن هناك شخصا اسمه « يسوع » ، إذ كان يعتقد أن صانع المعجزات هذا ليس إلا « يوحنا » المعمدان بعث ثانية بعد أن قتله . وزاد من قلق « هيرودس » أن أبلغ أن ذلك الناصرى يلقن الناس فلسفة جديدة ، مشفوعة بشفاء الأمراض حتى المستعصية منها ، وعرف أن « يسوع » مر بمائتين وأربعين بلدا لا يقل عدد سكان أصغرها عن خمسة عشر ألفا وأنه ذهب حتى إلى بلاد يونانية فى شرق الأردن سائرا على قدميه يتبعه تلاميذه ، فقراء فى ملبسهم وفى مأكلهم وفى مأواهم ومع ذلك مكتسبين إعزاز الناس وتوقيرهم لكثرة ما يشفى السيد من أمراض ، ولبساطة فلسفته .

لا ريب أن كل هذا يحمل تهديدا خطيراً لأية سلطة حاكمة .

ثم سمع « هيرودس » عن شىء آخر غير مفهوم ويستحيل تعليله ، ومع ذلك فقد أجمعت التقارير على أنه حدث فى البقعة الشمالية الشرقية من بحيرة الجليل فى أوائل ابريل سنة ٢٩ ميلادية ، قبيل عيد الفصح ... كان هناك جمهرة كبيرة من الناس ، على الأقل خمسة آلاف رجل يتبعون السيد ، وقد أزف المساء وجاع الناس وتدارس تلاميذه الموقف وانتهوا إلى أن أحدا من كل هؤلاء لم يحمل غذاء يعتد به .

وقال «اندراوس» شقيق «بطرس» إن هناك صبيا يحمل خمسة أرغفة من الشعير وسمكتين ، ولكن ماذا تجدى هذه إزاء الآلاف الكثيرة الجائعة ؟ .

وقالت التقارير فى هذا الصدد إن « يسوع » دعا الشعب فى هدوء أن يجلس صفوفا على الحشائش فى جانبى التل ثم أمسك بالأرغفة وهو يواجه الشمس الغاربة وصلى شاكراً ثم أخذ يقطع الأرغفة والسمكات ويعطى تلاميذه ليوزعوا بدورهم على الشعب حتى أعطوا الخمسة الآلاف ما يأكلونه جميعاً .

والآن كيف يمكن أن يصدق « هيرودس » بعقله أو أن يصدق أى إنسان آخر أن هذا حدث ؟ .

ومع ذلك فقد قالت التقارير إن هناك أكثر من خمسة آلاف شاهد على ما تقول من أن السيد أطعم هكذا شعب « هيرودس » الجائع . إن هذا وحده يكفى لإزعاج أى ملك فكيف ولم يقنع « يسوع » بتلقين الناس هذا الدرس فى الإيمان به ، بل ألقى عليهم درسا ثانيا أكثر روعة ، إذ أمر بجمع الفضلات التى فاضت من الآكلين كلها دون أن يترك منها شيء ، وكانت المعجزة الثانية أن ملأت فضلات الأرغفه الخمسة والسمكتين اثنتى عشرة سلة ! وأدرك « هيرودس » أن المرء يجب أن يقف جاداً أمام هذا الأمر .

وسمع « هيرودس » أيضاً أن هناك عصابة من الشبان الثوار يقودهم مواطن ضليل يسمى نفسه « يسوع باراباس » ، يعملون على قلب الحكومة الرومانية بالقوة ، وأنهم قد دبروا مؤامرة للقبض على « يسوع » لجعله زعيما لهم ولتنصيبه ملكا على كل البلاد .

صحيح أن «هيرودس» سمع فى نفس الوقت أن « يسوع » يتهرب منهم متجولا فى الجبال ولكن «هيرودس» لم يستطع إلا أن يسائل نفسه : «إلى متى يفر صانع الأعاجيب من عرض مغر كهذا ؟ » .

لقد كان «المعمدان» إزعاجا كافيا . أما «يسوع» فإنه يمكن أن يصير تهديداً خطيراً لكل نظام قائم . وزاد خوف « هيرودس » فضاعف عدد جواسيسه مصدراً إليهم الأوامر بأن يرسلوا إليه تقارير أكثر دقة وتفصيلا .

وأخذ بعض مستشاريه يوعزون إليه بأن من الأفضل إعدام «يسوع» فوراً وقبل أن تضيع الفرصة .

وملأ الحديث بهذا الاقتراح أبهاء القصر وسرعان ما وصل خبره إلى « يسوع » فضحك وقال لرسول :

— اذهب وقل لهذا الثعلب إنه ينبغى أن أسير فى طريق اليوم وغداً وبعد غد ، لأنه لا يمكن أن يهلك نبى خارج « أورشليم » ! .

وطأطأ « هيرودس » عندئذ رأسه وهو يقول :

— لابد أن « يسوع » يعنى أنه يتوقع أن يقتل فى « أورشليم » .

وبقى يفكر فى هذا طيلة حياته ، ولم ينس أن ينقله مع رسول خاص إلى الحاكم الرومانى على « أورشليم » — بيلاطس البنطى .

ثم جاءت « هيرودس » قصـــة أخرى عن كيف كان تلاميذ « يسوع » يعبرون البحيرة فى سفينة ، من « كفر ناحوم » ، وكان الليل مظلما وفجأة غطت السحب السماء وزأرت العاصفة ولعبت الرياح والأمواج بالسفينة ولفحت وجوه التلاميذ وبللت ملابسهم وأيقنوا أنهم هالكون ، وكان الربع الأخير من الليل عندما رأوا « المسيح » آتيا إليهم ماشيا على سطح الماء ، ومرة أخرى أمر العاصفة فغيرت اتجاهها فجأة وتركتهم فى هدوء .

ولم تنته الحادثة عند هذا الحد وإنما كانت لها حواش لا تخلو من دعابة ، إذ يبدو أن « بطرس » ما أن رأى نزهة « المسيح » على سطح الماء حتى ذهب عنه خوفه من الموت فى العاصفة وسأل « يسوع » عما إذا كان يستطيع هو الآخر أن يمشى على الماء ، وجاء الرد أن نعم ، ففعل « بطرس » ، وقطع بضعة من المسافة سائراً على سطح الماء ولكن الخوف أدرك قلبه إذ رأى شدة الريح وبدأ يغوص فى الماء لولا أن أدركه « يسوع » ! .

وأدرك « هيرودس » من هذه التقارير ومن تقارير أخرى أن قتله « يوحنا » المعمدان لم يسفر عن شىء سوى أنه وضع « يسوع » فى المقدمة كزعيم أوحد للثورة الروحية العارمة التى تعتلج فى قلوب الناس .

وكان هذا طبيعيا فإن تلامذة « يوحنا » ما أن أخذوا جسده ودفنوه حتى أخبروا الناس أنه أمرهم بأن يتبعوا « يسوع » . وكان الآلاف من الناس حتى قطع « هيردوس » رأس « يوحنا » يتوقعون أنه سيطلقه من سجنه بعد أن طال ، ثم بدلا من أن يتملكهم الذعر لهذا القتل ، وبدلا من أن يهربوا من مثل هذا المصير ، هرعوا إلى الناصرى ، وزاد بذلك عدد أتباعه وزاد أيضاً هلع « هيرودس » الذى مضى يكرر لنفسه :

— أما « يوحنا » فقد قطعت رأسه ، فمن يكون هذا الكابوس المزعج إذن ؟ .

وصمم على أن يتحدث إلى « يسوع » يوما ما .

ولما لم يكن « هيرودس » أقدر على التنبؤ من ملكته لذلك فإنه لم يتصور قط الظروف الغريبة التى سوف تتم فيها هذه المقابلة مع « يسوع » ! .

الفصـــل الأربعون

عودة المتآمرين

وشمل الذعر من إشاعات تدخل البوليس تلاميذ « المسيح » الاثنى عشر ولكنهم ظلوا ملازمين له فى حين أن كثيرين من أتباعه الآخرين وخصوصا الأكثر منهم فى غيرتهم صياحا وضوضاء بدءوا يتخلفون عنه مجررين أذيالهم ، محتجا بعضهم بأن السلوك الذى ينادى به « يسوع » ونظام المجتمع الذى يريده قاس جدا ، ومحتجا بعضهم الآخر بأنه يخشى أن يغضب البلاط .

وبدت إعلانات «السيد» المتزايدة — بالرغم من انصراف الكثيرين عنه — غريبة غير متوقعة ، فقد بدأ يضع النقط فوق الحروف فيما يتعلق بشخصيته ، وكان من قبل عندما يلقى الكلام مبهما يترك للناس أن يفسروه كيفما شاءوا ويتبعوه فى نفس الوقت ، أما الآن وقد غدا أكثر دقة وصراحة فى عباراته ، فى عظته المشهورة عن خبز الحياة ، وفى عظاته الأخرى التالية ، فقد ظهر عندئذ جليا للناس أنه يقدم لهم نفسه كابن الله ، وأخذ الناس يتنبهون لغرابة هذه الدعوى ، وعندما قال إنه سيكون ضحية عن خطاياهم أدركوا أن ذلك يعنى أنه لن تكون بعد حاجة لتقديم المحرقات من الخراف والحمام ، وخافوا من غضب زعماء «أورشليم» لهذا الكلام ، فإن الخراف والحمام كانت تجارتهم الرابحة ، ولذلك فضل الكثيرون أن يقفوا إلى جانب السلطة الزمنية ، وتركوا ذلك المعلم الناصرى الجرىء داعية الآخرة والملكوت ، ولكن هـذا لم يكن ليؤثر فى « المسيح » فقد مضى هو فى طريقه غير عابىء ، عالماً أن المأساة التى تنتظره لا تزال بعيدة ، ثم أخذ يخبر تلاميذه عن فلسفة الذبيحة الإلهية ، فصدم هذا ما درج عليه الكثيرون ، فانصرفوا هم عنه أيضا ذاكرين أنهم لم يعودوا يستطيعون أن يعاشروه على كل هذا .

ورأى هو أن هؤلاء ينصرفون عنه الواحد تلو الآخر ومثنى وثلاث وبالعشرات وبالمئات ، فنادى تلاميذه وسألهم :

— وهل تنصرفون عنى أنتم الآخرون ؟ .

وجاءت إجابة « بطرس » طبقا للعادة التى تواجه سؤالا بسؤال :

— يا سيد فلمن نذهب إذن ؟ .

وصمت قليلا وأردف فى صوت مرتعش :

— وعندك أنت كلام الحياة الأبدية ! .

وكانت هـذه مناسبة حرجة فى حياة هؤلاء التلاميذ ، زادت حرجا إذ نظر إليهم « السيد » وأجاب:

— أليس إنى اخترتكم أنتم الاثنى عشر من بين كل الناس ، وأحدكم شيطان ؟ .

وكانت هذه إجابة أخرى فى شكل سؤال ، لم يستطع أحد منهم عليه رداً .

وكان ترحالهم عند ذاك مستمرا وبغير انقطاع وكان السيد يلقى عظاته فى الجامع فى طول البلاد وعرضها قارنا عظاته بالمعجزات ، وتصادف أن كان فى « أورشليم » فى عيد الخمسين عند بركة « بيت حسدا » قرب باب الماشية ، حيث اعتاد المرضى أن يلقوا بأنفسهم فى الماء عندما يحركه الملاك حسبما يعتقدون ، ووجد هناك مشلولا يائسا إذ مضت عليه ثمان وثلاثون سنة وهو يحضر تباعا إلى هـذه البركة ولا يجد من يلقيه فيهـا عندما يتحرك الماء .

وفى معقل أعدائه هذا وبالرغم من أن اليوم كان يوم السبت ، شفى « المسيح » بكلمة منه المشلول المؤمن وحمل سريره ومضى متعافيا .

وأقبل الفريسيون ولغوا فيما بينهم ذلك النجار الناصرى ذا اللكنة الجليلية الذى يقول عنه أعداؤه أنه ابن غير شرعى ، ومع ذلك يسمح للناس أن يقولوا عنه أنه يصنع المعجزات ، وفى يوم السبت أيضا .

ثم عندما أتى ذلك الدعى إلى الهيكل ورأى الذى شفاه قال له علنا :

— لا تخطىء ثانية وإلا أصابك شر أعظم !

وسأل الفريسيون فى استنكار ومكر :

— وماذا تعنى بكلمة الخطية ؟ .

ورد عليهم كابن لله ذى سلطان ونفوذ أصليين :

— أبى حتى الآن يعمل ، وأنا أيضاً أعمل .. إن الابن لا يقدر أن يعمل من نفسه شيئاً

إلا ما يرى الآب يعمله ، لأنه كما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم كذلك الابن يحيي من يشاء .. لأن الآب لايدين أحدا ، بل أعطى الحكم كله للابن ، كما أسمع أحكم ، وحكمي عادل لأني لست أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني .

وأخذ «الفريسيون» يلوم بعضهم بعضاً لأنهم سمحوا له أن يصل إلى هذا الحد، وكان أجدى لهم لو أنهم تخلصوا منه قبل سنتين .. ها هو ذا الآن يحضر إليهم في نهاية العام الثاني وفي كل هذه الجرأة ، منادياً بفلسفته هنا في « أورشليم » نفسها حتى داخل الهيكل نفسه .

وكان هذا حديث الأقل سلطة ، أما حاكما الهيكل الحقيقيان فقد كانا « حنانيا» الكاهن الأكبر السابق وزوج ابنته « قيافا » الكاهن الأكبر الحالي ، وقد سخر عندئذ « حنانيا » من الفريسيين قائلا لهم :

— «مسيا» ! إن طرقنا ملأى بمن يدعون أنهم أنبياء ، دعوهم إذن يهرجون ، فإن التهريج طريقة أمينة للتفريج عن النفس ، ثم إن القبض عليهم بسبب هذا الهراء يعني أننا نخافهم .

— أعطوهم إذن حبالا وسيشنقون أنفسهم بها بعد قليل .

وكان هؤلاء الرؤساء الأصاغر يدركون سلطة « حنانيا » المطلقة ، فلم يجسروا أن يعارضوه علانية ، ولكنهم وضعوا رءوسهم معاً وعادوا يتفقون على أن الأمة ستكون بخير لو أنها تخلصت من هذا الخطر ، أما « يسوع » ، فإنه لم يكسر قدسية السبت فقط ولكنه أخذ يدعي بأن الله أبوه ، وليس بعد هذا تجديف .

إن من واجبهم أن يواجهوا ذلك الدعي ويضعوا حداً لتجديفه بطريقة أو بأخرى قبل أن يتبعوه هم أيضاً ، وبرغم « حنانيا » .

ولكنهم رأوا أن « يسوع » قد غدا شعبياً جداً وأنه يجب عليهم لذلك أن يتريثوا ويحرصوا حتى يمسكوه متلبساً بجريمة كاملة .

ولذلك فإنه عندما عاد « يسوع » إلى الجليل في يوليو سنة ٢٩ ميلادية مع عملاء الهيكل الذين كانوا يتبعونه كظله ويحيطون به في كل مناسبة ، وقفوا محتجين عليه ، كيف أن تلاميذه يأكلون الخبز قبل أن يغسلوا أيديهم ويتحدون هكذا القوانين الدينية غير عابئين بها ، ومتعمدين معه تحقيرها ، وابتسم « يسوع » جاداً وقال :

— أيها المراءون ! حسناً تنبأ عليكم أشعياء بقوله: (هذا الشعب يكرمني بشفتيه أما قلوبهم فبعيدة مني ، فهم باطلا يعبدونني ، إذ يعلمون تعاليم الناس ووصاياهم) ، لأنكم تتركون وصايا

الله وتتمسكون بتقاليد الناس مثل غسل الآنية والأكواب وأشياء أخرى كثيرة تعملونها .

وكانت هذه إجابة مفحمة ، شفعها « يسوع » باتهام صريح لهم بأنهم يستعبدون الشعب ويكبلونه بتلك الشكليات التافهة ، ليستولوا بها على ماله وعقله ، وليسلبوه كل شيء حتى الأمل الذى يبنيه ويبعثه بالإيمان الصحيح السليم ، لأن الحرف يقتل ، أما الروح فإنه يحيى ! .

ثم ما خطب غسل الأيدى : هل هو يغسل القلب أيضاً ؟ ، ليس ما يدخل الفم ينجس ، ولكن مايخرج منه فضل ما فى القلب من الأفكار الشريرة والقتل والزنا والفجور والسرقة وشهادة الزور والتجديف ، هذه هى التى تنجس .

وهكذا أعلنها « يسوع » حرباً على السلطات الدينية فى «أورشليم» . حرباً أصبحت شغل الناس الشاغل وحديثهم فى كل مجلس .

وكانوا قد ألفوا الخلافات السطحية واستناموا لها ، أما هذه الخلافات الرئيسية حول الجوهر نفسه ، فقد بعثت الحياة فى عقولهم وفى مجالسهم ولكن بشكل نسبي طبعاً .

فقد ظل الجدل فى الريف محدود النطاق إذ هم لايجسرون أن يتحدوا علنا تقاليد العادات وشكلياتها التى تكاد تشمل كل نواحى حياتهم اليومية ، وتشل فيهم الإرادة وملكة التفكير ، ولذلك فقد ذهب كثيرون من طيبي القلب منهم إلى أن « يسوع » حقاً يبالغ .

الفصل الحادى والأربعون

جبل التجلى

اتجه «يسوع» شمالا إلى مدينة «سدوم» الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، وهى من أقدم بلاد العالم وأشهرها، ليستريح فيها برهة بعيدا عمن يعرفونه، وكان يأمل أن يستأجر منزلا فى هذا الميناء الساحر، ويروح ويغدو طليقا بين شوارعه الزاهية الألوان الدائبة الحركة، ويمضى ساعات ناظرا إلى السفن الضخمة ذات الأشرعة العالية والمقدمات الهائلة المسورة تتحدى بها البحار العالية والزوابع العاتية، ثم يقف ماشيا أمام المصانع وأفران الزجاج والمصابغ وحيدا لا يهتم به أحد.

ولكن هذه الوحدة لم تدم، فقد كان يسير والمطر يسقط رذاذا باردا منعشا جبهته وظاهر يديه، عندما رآه مغن جائل وعرفه وصاح باسمه، فسرعان ما ملأ الخبر البلد: إن «يسوع» الجليلى موجود فيها، وسرعان ما تكاثر القوم على بابه، وانتهت بذلك أجازته القصيرة إلى غير رجعة.

وكانت أولى العميلات سيدة سورية فينيقية أجنبية فى اعتبار اليهود، جاءت ترجوه أن يشفى ابنتها، وأراد «يسوع» أن يختبر تواضعها وإيمانها، فحدثها فى صلف سائر اليهود ذاكرا المثل اليهودى القائل: «ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب».

وجازت الأم الأجنبية التجربة إذ قالت فى تواضع وإيمان:

— صحيح هذا يا «سيد»، ولكن الكلاب أيضا تأكل الفتات الساقط من موائد أصحابها!.

وابتسم «يسوع» راضيا لتواضع هذه السيدة وإيمانها به، فتشجعت وأضافت أن ابنتها يستولى عليها شيطان أو هى قد جنت، ثم لم تلته ابتسامة «يسوع» الطيبة الوقورة حتى كان الشيطان قد خرج منها وشفيت الفتاة تماما، وتوالت المعجزات حتى قفل راجعا إلى «الجليل»، وشفى بين من شفى فى الطريق الطويل أخرس؛ ورجلا أعمى يتحسس سبيله.

وبعد أيام وكأنه كان يتحدى سخرية غير المؤمنين الذين لم يصدقوا أنه أطعم خمسة

آلاف بخمسة أرغفة وسمكتين، أعاد المعجزة وكانوا فى هذه المرة أربعة آلاف رجل وامرأة كادوا أن يموتوا جوعاً . ومرة أخرى جمعوا له كل ما وجدوه فكان سبعة أرغفة وبضع سمكات صغيرة باركها وأخذ يكسر ويعطى التلاميذ ليوزعوا بدورهم على الجالسين حتى أكلوا جميعاً وشبعوا وفاض منهم الكثير ، وكان طبيعياً أن يتوب عندئذ جواسيس الهيكل الذين كانوا يتبعون المسيح ليمسكوه متلبساً بإثم ما ، ثم أكلوا من فضله حتى شبعوا ، فيندموا على سوء نيتهم فى حقه ويعتذروا له ، ولكن الذى حصل هو أن بعضهم تقدم له يطلب منه فى تحد أن يعطيه علامة ، وكانت أصابعه لا تزال ملوثة ببقايا السمك .

وببساطة قال « يسوع » له ولشركائه : إنه لا توجد لديه لهم علامة !

إذن فقد أبى أن يعطيهم علامة على أنه هو « المسيا » .

حسناً ! إذن فلابد أن به شيطاناً ، وانصرفوا وهم يتمتمون : « وداعاً الآن إذن أيها الناصرى . ولكنك ستسمع عنا قريباً » .

وساروا يذيعون أن « يسوع » ليس نبياً ولا هو يدعى العلم بالطب ، كل ما فيه أن به شيطاناً ، فمعجزاته سحر أسود مستمد مباشرة من قوات الجحيم .

ودار ما أذاعوه دورته حتى وصل إلى التلاميذ ، وسألهم عندئذ « يسوع » :

— من يقول الناس إنى أنا ؟ .

وكانوا جالسين عند منابع نهر «الأردن» حيث يشبه صوت المياه المتساقطة من فوق الجبل نشيداً جميلا ، وصمتوا برهة ، ثم أخذ « يوحنا » و « يعقوب » و « أندراوس » و «فيلبس» كل منهم يردد ما سمع .

وقالوا : إن بعض الناس يظنون أنه « يوحنا » المعمدان استعاد رأسه وبعث من القبر ، وإن آخرين يعتقدون أنه « إيليا » أو أحد الأنبياء الأولين قام ليرد شعب « إسرائيل » إلى مبادئه الأولى .

ولكن « يسوع » سأل ثانية :

— وأنتم من تقولون إنى أنا ؟ .

وكانوا قد فكروا طويلا فى هذا الشأن من قبل ، فلم تكد تمضى برهة حتى وقف « بطرس » الضخم فى اندفاعه العادى وتنحنح ليخرج صوته واضحاً ، ورفع رأسه ودفع كتفيه إلى الوراء وقال فى قوة :

— أنت ... « المسيح » ... ابن الله الحى ! .

وقال « المسيح » :

— طوبى لك يا «سمعان» بن «يونا» ، لأن لحماً ودماً لم يعلن لك هذه الحقيقة ، لكن أبى الذى هو فى السموات ! .

— وأنا أقول لك أيضاً أنت « بطرس » أى الصخرة ، وعلى هذه الصخرة سأبنى كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها !

وأضاف « يسوع » :

— وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً فى السموات وكل ما حللته على الأرض يكون محلولا فى السماء ! .

وأخذ التأثر لهذا الإعلان الخطير مأخذه لا من التلاميذ فحسب ولكن من «السيد» أيضاً ، فأوصاهم أن يحتفظوا بهذا السر الآن لأنفسهم ، لأن الوقت ليس مناسباً لإعلانه للجماهير ، إذ لو أن هذا ذاع لثارت عليهم « أورشليم » بكلكلها وبكل وحشية ، ولما تركت له الوقت اللازم ليتم تعاليمه ، ثم فى هدوء أخذ يخبرهم بما سيحصل له ولهم ، بحيث لا يعود أحد منهم يرى أن ماسيحصل فى جسثيمانى أو الجلجثة سيكون مفاجأة ، وقد أخبرهم « يسوع » مقدماً كيف أنه سيذهب إلى « أورشليم » ويقبض عليه ويهان ويتألم كثيراً قبل أن يقتل .

واحتج « بطرس » ، أو لعله ظن أن السلطة التى منحها له « يسوع » عند ذاك تعطيه الحق فى أن يعترض ، ولذلك قال :

— حاشا لك يا رب ! لا يكون لك هذا ! .

ولم يغضب « المسيح » ، ولكنه استشعر خطر اندفاع « بطرس » ، «بطرس» الطيب القلب ، ولكن غير الملهم عند ذاك ، فحدجه « يسوع » بنظرة وكأنه يطرد شيطاناً وقال :

— اذهب عنى يا شيطان ! فإنك معصية لى ؛ لأنك لا تهتم بما لله ، ولكن بما للناس !

وأحنى «بطرس» رأسه الأشعث خجلا ، «بطرس» الذى لقبه ابن الله منذ خمس دقائق فقط بأنه «بطرس» الذى على إيمانه — فإن المسيح هو الذى ابن الله — تبنى كنيسته ، ثم عاد يسمع ابن الله نفسه يناديه : يا « شيطان » .

وسراعاً طلب إلى « المسيح » أن يكون رءوفاً به !

واستدار تلميذ آخر هو « يهوذا اسخريوط » إلى ناحية كأنه غير مهتم بتلك النبوة

الخطيرة ، وكان « يهوذا » هذا رجلا قصير القامة له طريقة شاذة فى التصرف ، يبدو أقل ثقافة من غيره ، وقد استلفت نظره عند ذاك منظر مهرج رومانى يسير على حبل فى الطريق السفلى . وفى نفس الوقت صرح « يسوع » مفاجأة بأنه قد اقترب ملكوت السموات ، ثم أعلن أن بعضا من الواقفين معه سوف لايعرفون الموت قبل أن يروا الملكوت .

يعرفون الموت !

ومع ذلك فقد مات « بطرس » ومات « يوحنا » و « يعقوب » وباقى الاثنى عشر ، ومضت عشرون قرنا ، ولم يبرح الناس يتناقشون حول ذلك الإعلان ويذهبون فى تفسيره مذاهب .

هذا مع أن الكتاب يروى أن تلك النبوة تحققت بعد أيام قلائل ، إذ رأى « بطرس » و « يعقوب » و « يوحنا » عظمة ومجد الملكوت ، وأخذوا به ، وكان ذلك فوق قمة جبل «طابور» ، التى ترتفع عند الزاوية الشمالية الشرقية لوادى «أسد رالون» . الجبل الذى أصبح منذ ذلك الوقت مقدسا ، ويطلق عليه اسم جبل «التجلى» ؛ لأن فوق قمته المستديرة ، وعلى مرمى النظر من « الناصرة » ، حصلت معجزة التجلى التى رأوها عيانا وعاشوها ولكنهم لم يستطيعوا لها تفسيرا ، كما أن « يسوع » نفسه لم يفسرها لهم .

كان « يسوع » قد أخذ هؤلاء الثلاثة إلى تلك القمة بعد ستة أيام من إخباره التلاميذ ، من أن بعضهم سيرى الملكوت حيا ، وانفرد « يسوع » بنفسه وسجد فوق الحشائش مصليا وسجدوا وراءه ثم ما لبثوا أن شعروا بأن شيئا غريبا يحصل ، فقد أخذ يتحول منظر « المسيح » أمامهم إلى شكل هيولى لم يخبره من قبل بشر ، ورأوا ملابسه وقد صارت بيضاء كالثلج يشع من رأسه ومنها ومنه كله ضياء أخاذ يجل عن كل وصف .

وكانوا يعرفون الرداء الذى يلبسه «يسوع» ، كان رداء معلم من «فلسطين» طويلا واسعا بدأ يتسخ من تراب الطريق بشكل ملحوظ ، ولكنه ظل يتحول رويدا رويدا إلى أبيض نقيا ناصعا ولامعا كأنه ليس من قطن وصوف وإنما من مادة أكثر نعومة ولمعانا من الحرير ومن القطيفة بما لا يقاس لا ببياض الثلج ولا بلمعان الماس ، بحيث لا يمكن أن يصنع مثل ذلك بيد إنسان .

وتمتم « بطرس » بصوته الأجش :

— إنه يتحول أمامنا إلى كائن نورانى !

ثم فجأة ظهر بالقرب منه غريبان يتحدثان معه ، وعرف التلاميـــذ الثلاثة ، وإن لم يعرفوا كيف عرفوا ، بأنهم أمام حدث قطع مجرى الحياة العادية ، تقابل فيه العالم الأرضي والعالم السماوي ، وامتزج فيه الأموات بالأحياء في هناء الملكوت ومجده وروعته ، كما عرفوا « موسى » الزعيم الذي قضى منذ قرون طويلة سابقة ، و« إيليا » النبي القديم جدا ، وسمعاهما يحادثان « يسوع » ، وإن لم يستطيعوا إدراك ماسمعوا ، فلا ريب أن ما يجرى في الملكوت عسير جدا على الأعين والأسماع والأذهان البشرية أن تدركه ، وازدحم عليهم الفكر وتثاقلت جفونهم وغلبهم النوم ، فناموا .

وعندما استيقظوا لحقوا المنظر الأخير من تلك الرؤية المدهشة ، وبينما كانوا يفركون أعينهم كان الضوء الهائل لا يزال ينبعث من سيدهم المحبوب . وكان الزائران السماويان الآخران ينسحبان من حضرته كأنهما ماشيان في الفضـــاء غائبان عن نظر التلاميذ في بطء .

وقال « بطرس » في صوت أجش خفيض :

— يا « سيد » :

— أليس الأفضل أن نصنع ثلاث مظال ، واحدة لك وواحدة لـ « موسى » وواحـدة لـ « إيليـا » ؟ .

وبدا كما قال الرسول « لوقا » فيما بعد ، أن « بطرس » كان مأخوذا عند ذاك وما كان يدرى ماذا يقول ، وقبل أن يتابع حديثه الغريب رأوا سحابة تدهمهم وتغطى أبصارهم وسمعوا صوتا عظيما يقول : « هذا هو ابني الحبيب ، له اسمعوا ! » .

وسقط الرسل الثلاثة على أوجههم وخافوا جـدا وظلوا كذلك حتى لمسهم « يسوع » وطلب إليهم أن يقوموا .

ولم يروا عند ذاك أجساداً نورانية ولا أصواتاً سماوية وإنما وجدوا « يسوع » وحده كما عرفوه من قبل مبتسما لهم ، مطمئنا في طيبة ، وطالبا إليهم أن يحتفظوا بما رأوه لأنفسهم ولا يقولوه لأحد ، وكان ذلك الطلب في عبارة أكثر إخافة إذ قال :

— لا تتحدثوا عما رأيتموه لأحد حتى يقوم ابن الإنسان من بين الأموات .

وتكاثرت علامات الاستفهام فى أذهان التلاميذ الثلاثة فأخذوا يلاحقونه بالأسئلة كلما اختلوا به ، فماذا يعنى قوله : « عندما يقوم من بين الأموات » ؟ .

ثم إذا كان كل ما رأوه يؤكد أنه هو «المسيح» ، فماذا يكون من شأن النبوات القديمة القائلة بأن « إيليا » سيأتى ثانية قبيل قدوم « المسيح » ليعد الطريق له ! .

وكانت الإجابة على هذا السؤال الأخير مفاجأة هى الأخرى مذهلة ، فإن الذين يدرسون النبوات القديمة أخذوا النصوص بحرفيتها ، ولم يفطنوا إلى أن روح « إيليا » بعثت فعلا فى شخص « يوحنا » المعمدان وأدت رسالتها كاملة !

وأعاد إليهم « يسوع » ذكر نبوته أنه سيموت ميتة قاسية ، وأن تعذيبه سيأتى من جانب القوم الذين يجب عليهم أن يساندوا الحق ، ولكنهم لن يفعلوا .

وأثقل الهم قلوبهم ، وتذكروا كيف كان شاب مصابا بنوبات من الجنون تأتيه فيخرج الزبد من فمه ويعض نفسه ويمزق اللحم ويكسر الأضلع ، وأعلن والده أنه ذاهب به إلى « يسوع » .

وذهب رؤساء الهيكل إلى والد الشاب محاولين إقناعه بأنه خير له أن يبقى ابنه مريضا ، من أن يشفى بواسطة رجل خاطىء مثل « يسوع » ، وتردد الأب بين واجبه نحو رؤساء دينه وحبه لابنه وثقته بقدرة « يسوع » ، وأخيرا تغلب حبه لابنه فذهب لـ « يسوع » مصارحا :

— إننى أومن بك يا « سيد » ، فأعنى على عدم إيمانى ! .

وشفى « المسيح » الشاب وقال عندئذ قولته المشهورة : « إن من كان عنده إيمان ولو بمقدار حبة خردل فإنه يستطيع أن يقول لشجرة التوت انتقلى من هنا واثبتى فى أعماق البحر فتطيعه وتفعل » .

وظل يعيد على تلاميذه أنه سيدفن ويقوم ثانية .

وأخذ التلاميذ يتساءلون فيما بين أنفسهم : «إنه سيسترد مملكته عندما يقوم ثانية وسيعترف العالم عندئذ بقوته ومجده ، وتكون لهم بصفتهم تلاميذه مراكز خطيرة جدا ، ولكن من يكون الأعظم فيهم ؟ .

وهكذا أخذوا يتنازعون الميراث قبل أن يرثوا .

ثم إنهم سيكونون قريبين جداً من عرش الله ، ولكن من منهم سيكون هو الأقرب مجلساً وكيف يكون ترتيبهم ؟ .

وعرضوا للأمر مرة أثناء ذهابهم إلى « كفر ناحوم » واحتدوا في ذلك ، ولما وصلوا إلى البيت وجدوا « يسوع » هناك ، وسألهم في هدوء : « فيم كنتم تتناقشون وأنتم قادمون ؟ » .

ولم يجسروا على أن يصارحوه ، ولكنه دعاهم إلى الفناء الخلفي ، وقال لهم : « إن من يريد منكم أن يكون الأول يجب عليه أن يكون آخر الجميع ، وخادمهم » .

وتفادوا نظرته إليهم خجلين ، وسرحوا بأبصارهم بعيداً خارج الباب حيث كان طفل يلعب ، واستدعاه « يسوع » وقبله وقدمه إليهم قائلاً بصراحة :

— إن لم تتحولوا وتعودوا مثل الأطفال في براءتهم فلن تدخلوا ملكوت السموات ! أما من تواضع بنفسه وصار كهذا الطفل فذاك هو العظيم في ملكوت السموات . ومن قبل صبياً مثل هذا باسمي فإياي يقبل . ومن يقبلني فإنه لا يقبلني ولكنه يقبل من أرسلني ! .

الفصل الثامن والأربعون

الجزية لقيصر

وكانت الطمأنينة قد ولت عن التلاميذ ، فما أن اتجهوا وجهة حتى أحسوا بجواسيس الهيكل فى أعقابهم ، وكان الجواسيس قد ضايقهم الفشل فى أن يجروا «السيد» إلى الهرطقة الصريحة. ولكنهم لم يفقدوا الأمل من إيقاعه ، حتى بعد أن مضت سنتان استمر خلالهما يتحدث إلى الناس شمالا وجنوبا دون أن يأخذوا عليه هنة .

وكانوا جالسين يوما فى منزل « بطرس » فى « كفر ناحوم » عندما دخل الجواسيس فى أعقاب اثنين من محصلى الضرائب ومعهم ضابط رومانى تدلى سيفه من حزامه وقد اكتسوا بابتسامات ماكرة وأخذوا يدعكون أيديهم فى مرح وهم يقولون :

— يا « سمعان » ، ألا يدفع معلمك الضريبة ؟ .

وأجاب « بطرس » فى تجهم :

— سترون حالا !

ودخل إلى «السيد» . وكان دفع الضريبة للمستعمر مثيراً للإحساس ، فكيف والضرائب متعددة لا آخر لها ؟ كأن بؤس المواطن لا يجب أن يقف عند حد ، كان الناس يدفعون ضريبتين مباشرتين صريحتين وكانت الأولى تتلخص فى عشر القمح الذى ينتجه المرء والثانية فى خمس النبيذ والفاكهة ، ثم يضاف إليهما كل ضريبة تجول فى خاطر حاكم أو ذى سلطة ، مثل ضريبة المرور فى الطرق العامة والضريبة على المنازل وضرائب التاج وضرائب السلع والاستهلاك وضرائب أخرى لم يبرح الجباة يتقاضونها كأن ضرائب الهيكل وحدها لا تكفى .

وكثيرا ما فكر « بطرس » أن دفع الضرائب لممثلى «روما» يعتبر مخالفة للدين ، والدين هو الوحيد الذى يحكم ضمائر الناس والواجب على المؤمنين اتباعه ، وكان كل الناس يعرف أن الجباة يتظاهرون أحيانا بالعطف على دافع الضرائب فيقرضونه من جيوبهم الضريبة ثم يتقاضونها بعد قليل مضافا إليها الأرباح التى تثقل كاهل دافع الضريبة أكثر فأكثر حتى ليبيع مزرعته الكبيرة ليسدد الضرائب ويقتصر على مزرعة صغيرة ، ثم يقوم

ببيعها . ثم ينقلب واحدا من آلاف الشحاذين الذين لا يبرحون يمدون أيديهم للسياح فى «الناصرة» وفى «قانا» و«طبرية» وكل بوابات «أورشليم» . وقد يهرب بعضهم إلى الجبال فينقلبون قطاع طرق أو ثوارا أو الأمرين معا مهاجمين القوافل والقرى أو داعين الناس إلى الثورة باعثين الشكوك فى أذهان الناس وضمائرهم وذممهم .

فهل هو مباح إذن أن تؤدى الضريبة لقيصر ؟ .

سيوجه الجواسيس هذا السؤال يوما إلى « يسوع » فى الهيكل ، أما الآن فيكفى أن يطالبوه بالدفع ويروا ماذا يكون من أمره ، وتعمد « يسوع » أن يؤجل التصادم معهم ، ولذلك ابتسم بينما كان « بطرس » يتجه إلى صندوق نقود المنزل ليرى مافيه من نقد ضئيل عالما مقدما أنه لن يجد فيه ما يكفى .

وسأل « يسوع » :

— ماذا تظن يا « بطرس » . ممن يتقاضى ملوك الأرض الضريبة ، أمن الأبناء أم من الأغراب ؟ .

وقال « بطرس » فى مرارة :

— من الأغراب طبعا .

وهز « يسوع » رأسه موافقا وقائلا :

— إذن فالبنون أحرار ، ولكن لئلا نصدم هؤلاء ، اذهب إلى البحر وألق السنارة ثم خذ السمكة الأولى وافتح فمها فستجد فيه دينارا .

فقال « بطرس » متعجباً :

— دينارا ؟ . . قطعة من النقود فى فم سمكة !

فأجاب « يسوع » :

— نعم ، وأعطها لهم عنى وعنك .

وكان لسان حاله يقول : « إنك لست صياد سمك ولا أنا ولكن علينا ضرائب فكيف نفعل للحصول عليها حتى نسددها؟ إنه يجب علينا أن نكف عن القلق وتقطيب الجباه وأن نمضى فى عملنا متكلين على محبة أبينا المحب لنا الذى وعد بأن يقوم بكل حاجات من يقومون بخدمته » .

واصطاد « بطرس » السمكة ، وأخذ من فمها الدينار ، وسلمه ليد الجابى ، وهكذا سدد الدين ومضى الجواسيس الخائبون إلى حانة يتناسون فيها خيبتهم .

سنتان طويلتان ولم يمسكوه بعد .

وأخذوا يمنون النفس بأنهم سيكونون فى السنة الثالثة أسعد حظا ، وكانوا يعلمون أن حدثا جديدا لا بد أن يحصل ، فإنه حتى الأعضاء ذوى الثراء والنفوذ فى السنهدرين « المجلس الأعلى لليهود » بدأوا يشكون فى نزاهة رؤسائهم ويفكرون مليا فى تعاليم الزعيم « الناصرى » .

ولهذا اتفق على تحديد موعد يقابل فيه أحد هؤلاء الزعماء « المسيح » ، وكان الرجل قصير القامة فاخر الملبس مشذب الذقن قدم نفسه « للمسيح » باسم « نيقوديموس » عضو « السنهدرين » .

وكان الوقت ليلا ، وعلل الرجل ذلك بأنه لا يريد أن يعرف بأنه حليف « ليسوع » ؛ لأن ذلك قد يقلب «السنهدرين» رأسا على عقب ، وكان « نيقوديموس » قد درس شيئا من تاريخ « المسيح» ولذلك قال له مباشرة : يا «سيد» إن بعضا منا يعرف أنك معلم مبعوث من الله ، لأن إنسانا لا يستطيع أن يقول ما تقول أو أن يأتى أعمالك مالم يكن الله إلى جانبه » .
وصمت «يسوع» مفكراً ، فإن هذا الرجل الثرى الطيب القلب يريد أن يعرف زبدة تعاليم «يسوع» ، وذكرها له «يسوع» ملخصة فى قوله : « مالم يولد الإنسان ثانية ، فإنه لا يستطيع أن يرى ملكوت الله » .

وبدت الدهشة على « نيقوديموس» إذ وجد هذه الكلمات غريبة وعصية على الفهم ، ذلك أن « إسرائيل » كلها تنتظر ملكوت الله كما تفهمه ، وتتوقع لذلك قدوم « المسيح » الذى سيطرد « الرومان» ويؤكد استقلال « بنى إسرائيل » وسيادتهم، ولكن كيف يمكن أن يولد الإنسان ثانية حتى يرى هذا الملكوت ؛ ولذلك سأل :

— كيف يمكن أن يولد الإنسان ثانية وقد وصل إلى المشيب ؟ وهل يمكن أن يدخل إلى بطن أمه ثانية ليولد من جديد ؟

وابتسم « يسوع » وقال :

— إن الإنسان يمكن أن يولد ثانية بالماء والروح القدس، وما لم يحصل ذلك فلا يستطيع أن يدخل الملكوت ، إن من يولد من اللحم هو لحم وإن ما يولد من الروح هو روح . فلا تعجب من قولى لك إنه ينبغى لكم أن تولدوا ثانية ، فإن الريح تهب حيث يشاء وتسمع صوته إلا أنك لست تعلم من أين يأتى ولا إلى أين يذهب ، هكذا كل مولود من الروح .

وتنهد « نيقوديموس » وهز رأسه قائلا :

— وكيف يمكن أن تحدث هذه الأشياء ؟ .

ومضى « المسيح » يشرح للرجل الطيب فكرة الخلاص ، وأخذ الرجل يعظم رسالة « المسيح » وضخامتها وأهميتها للبشر ، وأخذ يرى أن هذا « الناصرى » هو « المسيح » الذى يزف الروح « القدس » إلى كل الجنس البشرى ، الروح التى ظل ينتظرها طوال الأيام .

— لأنه هكذا أحب الله الناس حتى أعطاهم ابنه الوحيد ، حتى أن كل من يؤمن به لايهلك ولكن تكون له حياة أبدية ، لأن الله لم يرسل ابنه إلى هذا العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم . من آمن به فلا يدان ، ومن لا يؤمن فقد أدين ، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد .... !

ومضى « نيقوديموس » غارقا فى بحار الفكر .

الجزء السادس

السنة الثالثة

الفصل الثالث والأربعون

بك شيطان

كان المثل يقول : « من لم ير بهجة عيد المظال فإنه لم ير أمجاد « إسرائيل » .

كان الثلاثة عشر قد بدأوا رحلة خطيرة إلى « أورشليم » ، ونقول خطيرة ؛ لأن الجواسيس انتشروا من حولهم وأقاموا العملاء هنا وهناك يبثون الدعايات الكاذبة ضدهم ويتربصون بهم .

وكان بعض التلاميذ يسبقون «السيد» والآخرين ، ويرسلون من آن لآخر مخبرين «السيد» عن العداوة التى تملأ قلوب القوم .

وفى «السامرة» ، حيث استقبلوا يوما ما استقبالا حبيا رائعا ، قوبلوا هذه المرة ببرود ظاهر. وكانوا فى المرة الأولى قادمين من « أورشليم » ، أما الآن فإنهم متوجهون إليها ، وكان السامريون يكرهون اسمها ويكرهون كل من يولى وجهه جهتها ، وقد رفض كل أصحاب الفنادق فيها أن يقبلوا « يسوع » وصحبه .

وانقبض وجها « يعقوب » و «يوحنا » وتمنيا لو أنزل الله فوق «السامرة» ناراً وحجارة ملتهبة ومحاها عن وجه الأرض ، وهز «يسوع» رأسه حزينا متعجباً إلى متى لايفهم هؤلاء التلاميذ أنه جاء لا ليهلك الناس ولكن ليخلصهم .

وقبيل منتصف الطريق إلى « أورشليم » استوقفهم جمع من الجواسيس ليوجهوا إليهم بضعة أسئلة .

وكانت الأسئلة حرجة ومثيرة ، ولكن « يسوع » أجاب عليها كلها بسرعة ومن بطون الكتب حتى أدركهم اليأس ، وعادوا يتساءلون : كيف يعلم هو كل هذا وهو لم يتلق عشر ما تلقاه رؤساؤهم من تعليم . ولكن «يسوع» أجاب فى صراحة : إنه لم يسق لهم من نفسه شيئاً وإنما ساق لهم شريعة الواحد الذى أرسله .

وأثارت ثائرتهم كلمة الواحد فى معرض الحديث عن رسالته السماوية ، وعندئذ واجههم

« يسوع » بسؤال صريح مفاجىء :

— لماذا تريدون أن تقتلونى ؟ .

أسقط فى يدهم فلم يستطيعوا إلا أن يتراجعوا سريعاً .

— إن بك شيطانا ! من ذا الذى يريد أن يقتلك ؟ .

ولكنهم يريدون فعلا أن يقتلوه ، وإلا لما لاحقوه بمؤامراتهم من بلد إلى بلد ، وهم يعرفون هذا « ويسوع » يعرفه ، ويعرف أيضاً أن التصادم آت لا بد منه ولذلك عرض « يسوع » صراحة لوجوه نقدهم له ، مثل :

— ولماذا هو يشفى المرضى فى يوم السبت ؟ فلماذا هم أنفسهم يختنون فى يوم السبت ؟

أليس لأن الختان يحسن الصحة ؟ . أفليس شفاء العاهة أو المرض هو الآخر تحسينا للصحة ، وأحيانا خلقا كليا لها بعد يأس قاتل ؟ .

وألجمت ردود « يسوع » العملاء ولم يبق أمامهم إلا أن يلفوا حول ادعائه بأنه من أصل إلهى ، ولكنه لم يقل لهم هذا فى عبارة صريحة يستطيعون أن يأخذوها عليه ، كما أن الناس سينكرون أنهم سمعوا منه هذا فكلهم يعرفون أنه فقير ومتواضع ، وكلهم لا يتوقع أن يكون « المسيح » على هذا الفقر والتواضع ، وعلى هذا الرأى أرسلوا تقاريرهم إلى « أورشليم » ، وازرق وجه رئيس الكهنة نقمة ويأسا .

وكان رئيس الكهنة هذا ، واسمه «قيافا» ، هو زوج ابنة «حنانيا» رئيس الكهنة السابق والسياسى الداهية القوى النفوذ من كل وجه ، وبدهى أن إسناد منصب رئيس الكهنة إليه ، لم يأته إلا بسبب هذا النسب ، وكان هو رجلا كبير الحجم ممتلئا جميل الخلقة ، وذكيا إلى حد.

ولم يكن « قيافا » يستشعر فى أول الأمر خوفاً من «يسوع» ولا كان « حنانيا » يولى موضوعه اهتماما ، ولكن فى أكتوبر سنة ٢٩ ميلادية كان كل أهل « أورشليم » يتحدثون عن نجار « الناصرة » باعتباره أهم شخصية فى العالم ، بل وأهم أيضاً من زعماء الثورة الدفينة التى تلم شعثها لتنفجر فى وجه الرومان . بل إن بعض المتحمسين للثورة أعلنوا صراحة أنهم يعتقدون أن « يسوع » « الناصرى » هو « المسيا » و « المسيح » ، ثم أخذوا يتساءلون :

— أتظنون أن « المسيح » عندما يأتى يصنع عجائب أكثر مما يصنع هذا الرجل ؟ .

وكان طبيعياً أن يقلق هذا النوع من الجدل « قيافا » ، وأزعجه أكثر أنه لم يأخذ على «يسوع» بعد حجة بالرغم من أنه اقترب منها كثيرا ، وكم أزعج «يسوع» أساطين الهيكل عندما علموا أنه ذكر لتلاميذه أنه ماكث معهم زمنا قليلا ، ثم ينصرف إلى الواحد الذى أرسله ، وسيبحثون عنه عندئذ ويحاولون أن يعثروا عليه ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يصلوا إلى حيث يكون .

وظلت الجموع تتساءل : « ما معنى هذا وإلى أين سيذهب حتى لانستطيع نحن أن نلقاه ؟ » .

وقال « يسوع » لهم :

— إذا عطش منكم أحد فليأت إلى لأسقيه ، فإن من يؤمن بى تجرى من بطنه أنهار ماء حى !

وفتح جواسيس المعبد آذانهم لهذا القول الكبير وسمعوا الصائحين من هنا يقولون : إنه موسى النبى ، وسمعوا من ناحية أخرى من يقول : إنه « المسيح » ، وسأل بعضهم بعضاً : « لكن هل يأت « المسيح » من « الجليل » ؟ » وأجابهم الآخرون :

— كلا ! إن « المسيح » يجب أن يولد فى بيت لحم .

وعقب غيرهم :

— إن « يسوع » ولد فعلا فى بيت لحم .

واضطرب الجواسيس ، وبدا الاضطراب فى نبرات صوتهم وهم يقولون « لقيافا » :

— لم يتحدث أحد قط من قبل بمثل ما تحدث به هذا الرجل !

وصاح فيهم « قيافا » غاضبا :

— ألعلكم آمنتم به أنتم الآخرون ، فهل رأيتم أحدا من رؤسائكم آمن ؟ أو حتى من الفريسيين ؟ .

— كلا أقول لكم ! أما عن الشعب فإنهم لايعرفون شيئاً من الشريعة ، وإنهم لملعونون .

ومع ذلك فإنه فى ذلك الوقت نفسه كان واحد من الرؤساء بل ومن الحكام كما كانوا يلقبون عند ذاك ، يشهد لصالح «يسوع» ، وكان هو « نيقوديموس » الأرستقراطى الذى التف فى عباءة سوداء وذهب ليقابل « يسوع » فى غسق الليل ، وليستمع إلى آرائه ويتفهم فلسفته ، إنه الآن يتهم زملاءه فى مجمع السنهدرين بالخبث ويقول لهم : هل حاكم السنهدرين أحداً من رجالنا السابقين قبل أن يسمعه ويعرف حقيقة ما يفعل ؟ .

وصاح فيه عندئذ زملاؤه :

— ألعلك أنت الآخر « جليلى » ؟ .

ثم انصرفوا عنه غاضبين ، وتركوه واقفاً وحده على سلم الهيكل .

وكان مثل هذه المناقشات تزداد احتداما فى « أورشليم » بينما كان « يسوع » وأتباعه يتقدمون فى الطريق إليها ، والجموع من حولهم تتزاحم ، حتى غدوا كجيش زاحف . وأرسل « يسوع » تلاميذه ليسبقوه إليها قائلا : « إن الوقت لم يحن بعد ليدخلها معهم : وإلا انطلقت لقدومهم المظاهرات وسدت عليه السبيل حين لا يزال أمامه أن يصنع الكثير ، ومع ذلك فقد دخل المدينة ليلا وحده ومشى بين الجماهير دون أن يلحظه أحد .

وكان التلاميذ لا يسمعون عند ذاك من الجماهير إلا الحديث عن « يسوع » فقد كان هو بطل الساعة ، ومع أن الكهنة هم الذين يحكمون فى هذا البلد وسلطتهم مطلقة ، إلا أن الكثيرين كانت لديهم الشجاعة لأن يمتدحوا «يسوع» ويتساءلون جادين :

— أهو زعيم ثورة ؟ أهو مبعوث من الله ؟ أهو نبى مقام من الموت ؟ .

وتساءل الحجاج الآتون من الشرق : أين هو ؟ . إننا نريد أن نراه ، ولكن أحدا لم يستطع أن يجيب لأنه لم يكن يعرف ، وصاح واحد : إنه رجل طيب جداً ، وصاح آخر : إنه يسحر الشعب ، وصاح طرف ثالث : كلا إنه لا يسحر الشعب إنه هو « المسيح » نفسه .

وكان القادمون يستأجرون أجزاء فى خيام ، لأن العيد يحي ذكرى السنين التى قضاها جدودهم فى التجوال نازلين فى أكواخ من شعر الماعز ، وكان العيد يقع فى اليوم الخامس عشر من الشهر السابع فى الوقت الذى ينقل فيه الناس الحصاد إلى مساكنهم، ولذلك كان يسمى فى أيام « المسيح » أيضاً عيد الحصاد ، وكان الفرح به يبلغ مداه.

وقف التلاميذ ذلك الليل إلى جوار الهيكل المزدان بالأنوار والمشاعل التى يرقص بها الراقصون فى فناء الهيكل الرحيب ، وكان الجو معطرا بأريج أزهار الربيع . ترتفع فيه أنغام اللاويين البهيجة ، وكانت التقاليد تقضى بأنه عندما يبزغ الفجر تتبع الجماهير الكهنة إلى بركة « سلوام » حيث يأخذون الماء منها فى إناء ليس من رصاص ولا من فضة ، وإنما من ذهب خالص مجلو ، ثم يصبون هذا الماء على المذبح الأعلى فى الهيكل .

وكان « يسوع » نائما فوق جبل الزيتون الواقع شرقى المدينة بينما أمضى أعداؤه الليل يتبادلون الرأى فى الطريقة التى يتخلصون بها منه ، وأخيراً قال مقامر وفى عينيه بريق : « لو أنكم استمعتم إلى عجوز إذن لأخبرتكم كيف تقتنصون هذا المتعصب وتضعونه فى القبر عن طريق القانون » .

واستمعوا له وطربوا لعصاميته ، فهذه طريقة أكيدة وسهلة جدا ، وهكذا ، فإنه عندما مشى « المسيح » فى شوارع « أورشليم » الضيقة فى صباح اليوم التالى ، ثم ظهر فى الهيكل ليلقى حديثه كان عدد ضخم من حراس الهيكل بعيدين عنه ومجتمعين ليتلقوا أوامر الرؤساء ، ثم عادوا يدفعون أمامهم سيدة قبضوا عليهـــا متلبسة فى بيت ذى سمعة ، ليجعلوها طعما يقتنصون به « المسيح » !

كان « يسوع » يعلم فى الهيكل عندما قدم إليه وفد يسوق المقبوض عليها إلى المكان الخالى بينه وبين سامعيه ، حيث وقف أحدهم يوجه السؤال إلى «المسيح» فى أدب واحترام وإخلاص مصطنع .

ـــ أيها « السيد » . هذه سيدة قبض عليها متلبسة بذات الفعل ، وقد أمرنا «موسى» فى شريعته أن يقتل مثلها رجما بالحجارة ، فماذا تقول أنت ؟ .

وكانوا يعرفون أن « يسوع » الشفوق الشافى أسقام الناس وأوجاعهم لا يسهل عليه

أن يدعو الناس إلى رجمها ، ولكنه إذا قال للناس أن يتركوها وشأنها فقدخالف إذنالقانون واستحق هو نفسه عقوبة الموت لهذا السبب .

أليست هذه إذن فكرة عظيمة ؟ .

وجالت عينا «يسوع» من وجه إلى وجه فى نظرة مباشرة مستفهمة تنطق بالسؤال الذى لم ينطقه بفمه . لم ينظر إلىالمقبوض عليها قط كأنه لم يفطن لوجودها ، وأدرك أن شريكها فى الجريمة ترك وشأنه ، وفحص «المسيح» بعينيه حارسا تلو حارس وسيداً من المتآمرين تلو سيد ، ثم انحنى على الأرض راكعا على ركبتيه ، ومضى يكتب بأصبعه كلمات على تراب أشياء ، وأخذ هؤلاء يتقدمون إليه الواحد تلو الآخر ليروا ماذا يكتب .

وقال الناس فيما بعد : إنه كان يكتب أسماء النساء اللاتى يتردد عليهن كل من أعضاء ذلك الوفد المتظاهر بالغيرة على الدين والفضيلة ، وعندما رفع « يسوع » رأسه واجه الوفد وهو يقول :

— من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها أولا بحجر ! .

وانحنى « يسوع » ثانية مستأنفا الكتابة على الأرض وأخذ الرجال بعضهم ينظر إلى مايكتب ، ثمينصرف وبعضهم ينصرف دون أن ينظر فكل منهم يعرف خبايا الآخر ويعرف أن الآخر يعرف خباياه ، وقد رأوا الفضيحة مكتوبة وانصرفوا جميعا يجررون أذيال الخيبة بدءا بالعجوز الماكر صاحب الفكرة .

وبقيتالسيدة واقفة على بلاط الأرض خجلى ترتعش منالخوف بينما استقام«يسوع» فى جلسته وبدا عليه أنه استراح من هم ، وابتسم لها فى عطف ابتسامة لم تتوقع يوما أن يقابلها بها رجل ، وسأل :

— أيتها السيدة . أين هؤلاء الذين يشكونك؟ . ألم يدنك أحد ؟ .

وقالت :

— لا أحد «ياسيد» : .

— ولا أنا أيضاً أدينك . اذهبى بسلام ! .

وقبل أن تبتعد عن مدى الصوت أتم « يسوع » قوله :

— ولا تعودى تخطئى ! .

الفصل الرابع والأربعون

تحقيق جاد

أثارت قصة هذه السيدة ومتهميها إعجاب الناس وتقديرهم ، وغدا ذكر « يسوع » على كل لسان ليس فقط فى النوادى والمجتمعات والمنازل ، ولكن أيضاً فى أعلى مجامع الهيكل ، فقد صمم حكام المعبد على أن يقتنصوا معجزته التالية ويفسروها كأنها جريمة ضد الشريعة .

ولم ينتظروا طويلا . . .

ففى مساء السبت التالى خرج « يسوع » وتلاميذه من الهيكل بعد الدرس وساروا فى شوارع « أورشليم » الملتوية ورأوا فى الطريق شابا ولد أعمى . وتلكأ التلاميذ برهة يتساءلون لابد أن هذا الشحاذ الذى لم ير النور فى حياته إذ كان أعمى ، حتى قبل أن يطلق صرخته الأولى ، كان ضحية لمرض فى والده ، ولذلك سأل أحدهم : يا « سيد » . من الذى أخطأ ؟ هذا الرجل أم والداه حتى ولد هكذا أعمى ؟ .

وجاء رد « يسوع » أكثر مدعاة للتساؤل :

ـــ لاهذا الرجل أخطأ ولا أبواه أخطآ . وإنما لتظهر فيه أعمال الله ! .

ولم ينصت ليسوع أسئلة أخرى وإنما تفل على تراب الشارع وصنع من التراب طينة ووضعها على عينى الأعمى وهمس له : أن اذهب واغتسل فى بركة « سلوان» .

ومضى الأعمى يتوكأ على عصاه إلى البركة ، بينما استأنف « يسوع » مسيره ولم تكد تمضى برهة حتى أحس بجمع هاتف يريد اللحاق به ، فتوقف ورأى الشاب الذى كان أعمى يعود إليه مفتحا عينين واسعتين غير مستطيع أن يمسك قلبه من أن يطير فرحا ، إذ رأى السماء الزرقاء والسحب البيضاء والشمس والشوارع والمنازل والابتسامات البريئة على وجوه الأطفال والناس من حوله يتصايحون : أليس هذا هو الشحاذ الذى كان يجلس سائلا الناس؟ ويتصايح آخرون : إنه يشبهه ولكن .... » وتوجه إليهم الشحاذ غاضبا :

ـــ إنى أنا هو .

وتصايحوا :

— فكيف فتحت عيناك إذن ؟ .

وقال الشاب :

— إنه ذلك الرجل الذى يسمونه « يسوع » .

ولكن الفريسيين يقولون للناس : « إنهم لا يؤمنون « بيسوع » هذا ولا يصدقونه ، فلابد أن يأخذا الشاب إلى مجمع الفريسيين ويواجهوهم به حتى يروا ماذا سيقولون بعد هذا» .

وكانت إجابة الفرنسيين خليقة بهم وبأمثالهم عند ذاك وعلى مر الزمن ، فقد سمعوا القصة فى تأن ثم هزوا رءوسهم وقالوا :

— إن هذا اعتداء خطير على الأصول الدينية فلو أن « يسوع » كان من الله لما شفى هذا الرجل فى يوم سبت .

ولكن هذه الحجة لم تقنع كل زملاء مكتشفها ، ولذلك سأل أحدهم فى تواضع :

— كيف يمكن أن يأتى خاطىء بكل هذه المعجزات ؟ .

واحتدمت المناقشة بينهم حول هذا السؤال حتى استداروا أخيراً نحو الشاب الذى كان أعمى وسألوه :

— وماذا تقول أنت عن الرجل الذى فتح عينيك ؟

وقال الشاب متلعثما :

— إنه نبى !

وتردد «الفريسيون» أيضاً وأخذوا يقولون لأنفسهم : « لابد أن فى الأمر غشا أو خطأ جسيما ، وأنه لاشفاء ولامعجزة ، إذ لم يكن الرجل قط أعمى وإنما مغلقا عينيه يتصنع العمى ويكذب ليشحذ ، وبينما هم فى حديثهم هذا إذ رأوا رجلا مسناً وامرأة عجوزاً يدفعهما الناس نحوهم قائلين : إنهما والدا الشحاذ ، وسألوهما فأجابا أن هذا الشاب ابنهما وأنه ولد أعمى .

— فكيف يرى الآن ؟ .

وقال الوالدان : إنهما يعرفان على وجه اليقين أن هذا الشاب هو ابنهما ، وإنه ولد أعمى ولكنهما لايعرفان كيف هو يرى الآن ومن الذى فتح له عينيه ؟

— اسألوه فهو مكتمل العمر ودعوه يتحدث عن نفسه !

ووضعت هذه الإجابة الفريسيين موضع الحرج وأرادوا أن يتخلصوا من الموقف بسرعة . ولذلك استدعوا الشاب وعادوا يتحدثون إليه فى عطف ، لعله كان ضعيف البصر فقط ، فإذا كان قد زال عنه هذا الضعف فليشكر الله إذن ثم سألوه :

— ألا تعرف أن « يسوع » هذا رجل خاطىء ؟ .

ولكن الشاب أجابه :

— أما إنه خاطىء فهذ مالا أعرفه . وإنما أعرف شيئاً واحداً أنى كنت أعمى ثم ها أنذا الآن أبصر . !

وانصرف الجمع والفريسيون حزانى خائبين ، ولكنهم لم ييأسوا من الإيقاع « بيسوع » ، ولذلك عادوا فى ثانى يوم يسألونه من كلفه أن يعلم الناس ومن عينه لذلك ؟ .

ولكن « يسوع » أجاب : « إنه هنا فى « فلسطين » ليفعل مشيئة الآب السماوى » . ثم أضاف فى صراحة : « إنه هو والآب واحد » .

وكانت إجابته الصريحة ملجمة خصوصاً وقد تابع حديثه : « إنه لا أحد يعرف الآب إلا الابن ولا أحد يعرف الابن إلا الآب » ، ثم صعقهم قوله :

— وقبل أن يكون « إبراهيم » أنا كائن !

ودعاهم إليه بقوله :

— تعالوا إلى يا جميع المتعبين ثقيلى الأحمال وأنا أريحكم !

— احملوا نيرى وتعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم !

ولم يستطيعوا أن يمسكوه إذ رأوا الناس يعجبون به ويحبونه .

الفصل الخامس والأربعون

الجانب الأفضل

فى ذلك الوقت رأى «يسوع» السيدة «مارتا» الصديقة العزيزة عليه توجه إليه اللوم ..!

كانت «مارتا» شقيقة «لعاذر» و«مريم» من «بيت عنيا»، وكانت تجمع الأربعة منذ زمن طويل صداقة وطيدة، بدأت منذ دعا «لعاذر» الرجل المهذب الخجول «يسوع» إلى العشاء فى بيته، وقدمه إلى شقيقتيه، فمنذ تلك الليلة اعتبروا «يسوع» عضواً فى تلك العائلة وأصبح لزاماً عليه كلما اقترب من بلدة «بيت عنيا» أن يدلف إلى بيتهم ذاك. وقد اشتهر ذلك البيت لهذا السبب، ولأنه فى المجمع القريب منه ألجم «يسوع» المحامى النسابه الذى كان يتحداه، وروى تلك القصة الإنسانية الرائعة عن السامرى الطيب.

وكان هناك فارق فى علاقة «يسوع» بكل من أعضاء هذه العائلة المثلثة الأركان، فقد كان «لعاذر» رجلا خجولا ينأى بنفسه عن العلانية، ولم يكن يحلم بأنه سيكون يوماً ما محلا للمحبة الإلهية ومظهراً لقوتها الفائقة، حتى لتبعثه بعد موت كامل وتحلل متقدم، مثلا حياً لقالة «يسوع»: «كل من آمن بى ولو مات فسيحيا».

أما «مريم» فكانت ثاقبة الفكر صافية النظرة عريضة الآمال تميل إلى البحث والاستقصاء والاستزادة من العلم والمعرفة، بينما كانت «مارتا» نشيطة الحركة شديدة الإخلاص لواجباتها المنزلية، لا تكل عن العمل ولا تكاد تسمح لنفسها براحة بين الكنس والمسح والخبز وطهو الطعام والغسيل والكى وكل ما يتوقع من سيدة بيت من الدرجة الأولى.

وفى ذات أمسية راق فيها الجو فى فناء المنزل وملأ الدنيا هدوء الشمس الغاربة جلست «مريم» توجه لـ«يسوع» السؤال تلو السؤال، وتستمع لإجاباته مفكرة، بينما كان ضجيج وتحريك الأوانى والأوعية ينبعث من المطبخ فى زحمة الإعداد لوليمة عظيمة تكريماً لـ«يسوع».

وفجأة خرجت «مارتا» من حرارة المطبخ، يقطر وجهها عرقاً وتقطر يداها ماء. وفى نظرتها لأختها لوم وعتاب كيف تسمح لنفسها بالجلوس هكذا مطمئنة فى الهواء الطلق فى حين أن من واجبها أن تعاون أختها فى إعداد العشاء للضيف الكبير.

وفى حديث «مارتا» لأختها، وإن حرصت فى صياغته، نال «يسوع» من اللوم جانب،

فقد كانت هى الأخرى تتمنى أن تستمع لـ «يسوع» ، ولكن العشاء يجب أن يعد فى ميعاده ! .

وقال « يسوع » :

ــ «مارتا» «مارتا». إنك مهتمة ومضطربة فى أمور كثيرة ، ولكن شيئاً واحداً يحتاج الناس إليه أكثر ، وقد اختارت «مريم» هذا الشيء الأفضل ، الذى لن ينزع منها بعد !

وعادت «مارتا» إلى المطبخ مجهدة الجسم والفكر معاً ، محتارة فى مؤدى كلام « يسوع » ، أيكون العمل اليدوى والاهتمام بالواجبات المنزلية وبإعداد الطعام الضرورى لكل الناس ، أقل شأناً بالنسبة للمرأة من المحاجة فى أمور العلم .

إن المرأة لم تدخل قط من قبل فى جدل مع الرجال حول الحقائق العلمية والنظريات الفلسفية ، فكيف تدخل «مريم» فى جدل مع « يسوع » الذى أعجز كل مناقشيه من أساطين العلم وحتى المتربصين به .

كانت « مارتا » إلى ذلك اليوم مثلا أعلى لسيدات « إسرائيل » اللاتى تهتممن بكل شيء على ولكن ليس بالآراء ، فإن النساء خلقن فى رأيها ورأى أترابهـا ورأى كل رجال «إسرائيل» عاملات فى المنزل لا متفلسفات . واقعيات لا تائهات فى بيداء الخيال والنظريات المعقدة . ومكلفات بخدمة الرجال وإرضائهم وليس بالمحاجة معهم ، وكانت « مارتا » تعرف واجبها هـذا وتؤديه على أتم وجه ولا تقبل أن تضيع سيدة وقتها فى الجدل حول شئون الرجال تلك .

وصحيح أن أية سيدة فى «إسرائيل» لم تفعل ذلك من قبل ، ولكن «يسوع» وهو جالس قرب عتبة باب «لعاذر» فى « بيت عنيا» فى تلك الليلة ، فتح بقولته هذه أمام السيدة العصرية أبواب العلم والمعرفة وشجعها على الولوج منها ، فلم تعد البحوث العلمية مقصورة بعد على الرجال. وإنما صارت هى الجانب الأفضل حتى من الطعام ، للرجال وللسيدات جميعاً ، وقد اختارت السيدات منذ « مريم » تلك ، هذا الجانب الأفضل ، ، الذى نما معهن ، وازدهر .

الفصل السادس والأربعون

موائد للكبار

كانت هذه أياما مزدحمة ملأى بمعجزات الشفاء تضمنت اثنين من العميان في «بيت عنيا» كانا يتقدمان في الشارع صائحين : «ارحمنا يا يسوع» ، وعشرة برص شفوا دفعة واحدة وانصرفوا مبتهجين لم يتوقف منهم لإسداء واجب الشكر للشفاء من المرض المهين القاتل غير واحد ! وكان سامريا !

وفي يوم السبت أيضا وعلى عتبة المجمع ، وأمام أعين الفريسيين كانت تقف سيدة في في شدة المرض وفي منتهى الضعف انحنت سلسلتها الفقرية إلى الأمام حتى لتكاد رأسها أن تلمس قدميها ، لم تستطع أن ترفع بصرها إلى أعلى منذ ثمانية عشر عاما ، مد « يسوع » إليها يده فاستقام عودها توا ، ونضح وجهها بآيات الصحة ، ومع ذلك قال الكتبة والفريسيون :

— يا سيد وددنا لو أعطيتنا علامة !

وكان يسوع يعلم كيف عميت بصائرهم ، وكيف غلظت قلوبهم ، وبدا في عينيه حزن عليهم وهو يخاطبهم .

— جيل شرير فاسق يطلب آية ، فلا يعطى آية غير آية يونان النبي ، لأنه مثلما مكث يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام ، هكذا سيمكث ابن الإنسان في بطن الأرض ثلاثة أيام . . . . وانظروا . . . . إن أعظم من يونان هو هنا .

وقد حدثهم هكذا عن المستقبل القريب ، ولكن أنى لهم أن يفهموا المستقبل ، هؤلاء الذين لم يفهموا قط لا الماضي ولا الحاضر ، فقد أغلقت الأطماع على أذهانهم ، فلم يدركوا أنه يحدثهم عما سيكون من شأنهم معه ، ومن شأنه هو ، وكيف سيمضون به إلى القبر فيقوم كما قام يونان بعد ثلاثة أيام ، وأخذوا يفكرون في أن علماءهم لم يكونوا على درجة كافية من الذكاء للإيقاع به فليجربوا إذن واحدا منهم ، جديرا بتلك المهمة .

ولذلك استوقف فريسى غنى طاعن فى السن « يسوع » إذ كان خارجا فى المساء من مجمع « بيت عنيا » ودعاه للعشاء ، وكان هذا خبرا جديدا .

ذلك أن كثيرين من الفريسيين سبق أن دعوا « يسوع » للعشاء وأن كثيرين زاروه وتحدثوا إليه تحت ستر الظلام ، ولكن هذه أول مرة يدعى فيها « يسوع » علنا بصفته وقرب العاصمة نفسها .

وكان الفريسى طويل القامة باهت الوجه يبدو عليه أنه مقاول ، وقد بقى يندم على تلك الدعوة بقية حياته .

بدأ النكد منذ أول لحظة ، إذ لاحظ الفريسى أن « يسوع » لم يغسل يديه قبل أن يجلس إلى المائدة ، والفريسيون ، كما نعلم ، قوم درجوا منذ وقت موسى على غسل أيديهم ووجوههم قبل أن يلمسوا الأكل ، وكان طبيعيا أن يوجه الفريسى إلى « يسوع » السؤال : لماذا هو لم يغسل يديه ؟ هو الذى جعل النظافة المطلقة جوهر تعاليمه ، والذى علم أتباعه وجوب البدء بالعهاد ، وبدأ هو نفسه به ، وكان « يسوع » يعلم منذ قليل فى مجمع « أريحا » . بكل صعوبة استطاع أن يشق طريقه وسط جمهور من الفقراء الذين تنضح منهم القذارة ، ثم سار فوق التراب والتلال الصخرية ليحافظ على ميعاد العشاء ، ثم هاهو ذا يجلس إلى المائدة دون أن يطلب وعاء من الماء ومنشفة .

ولم يلق الفريسى السؤال ولكنه فكر فيه ، ولم يفطن إلى أن من أمامه يعرف مايدور فى خفايا الأفئدة ، ولم يكن « يسوع » يعرف ما يتعلق بهذا السؤال فقط ولكنه عرف كل تاريخ ذلك الفريسى من الناحية النفسية ، ولماذا هو دعاه إلى العشاء .

وكان ذلك الفريسى — شأنه فى هذا شأن غنى الجليل — يظن أن من طبيعة أى فقير « كيسوع » أن يتأثر بهذه الدعوة للعشاء تأتيه من غنى مثله ، وجال فى خاطره أن رجلا لا منزلة له ولا محل فى الهيئة الاجتماعية . « كيسوع » سيشعر حتما بأن هذه الدعوة تكريم كبير له ، وسيجعله هذا التكريم لين العريكة سهل التأثير عليه .

وكانت المائدة عامرة بأطايب الطعام التى لم يسبق لرجل فقير أن ذاق مثلها ، لحم ماعز مطبوخ بأطايب نبيذ « ساموس » و « نابلى » و « روما » مما سيسيل له لعاب ذلك الشريد ويدور عقله ويغدو ثرثارا يقول كل ما عنده ، وقد يطويه المضيف ويضعه فى جيبه قبل أن يقدم له الحلوى .

وكان « يسوع » يعرف كل هذا ، وقد تعمد ألا يغسل يديه لأنه لم يكن لينتظر حتى يكسر الخبز مع ذلك المتآمر ، ولذلك ما أن جلس حتى شرع يلقن مضيفه وسائر الضيوف درسا لن ينسوه ، ولذلك أيضا أجاب على السؤال الذى لم ينطق به فى صوت هادىء وبمنتهى البساطة :

— أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خارج الكأس والصحفة وداخلها مملوء خبثا ودعارة ، الويل لكم إنكم تشبهون القبور المجصصة ، تبدو للناس خارجها حسنة وهى مملوءة من عظام الأموات ومن كل نجاسة .

وكان هذا بدءا متعبا لمأدبة عشاء ، ألجم السامعين حتى قام من بينهم أحد الكتاب الذين يعرفون كل خافية من الشريعة وقال :

— يا « سيد » ، إنك بقولك هذا للفريسيين تشتمنا نحن أيضا !

أفتراه قصد إلى ذلك ؟ ، نعم وبكل تأكيد لأنه تابع كلامه قائلا :

— وأنتم أيضا يا علماء الناموس . الويل لكم ؛ لأنكم تحملون الناس أحمالا شاقة الحمل ، وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدى أصابعكم ، لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ، فلا أنتم تدخلون ولا الداخلون تتركونهم يدخلون .

وعند هذا قام « يسوع » وخرج من المنزل واجتمع الجالسون يتآمرون من جديد وقد تملكهم حقد شديد فإنه لا يجب أن يدعوا رجلا يقول مثل هذا الكلام يعيش بينهم ، بل يجب أن يجدوا طريقة يأخذون بها شيئا يحاكمونه من أجله .

وكنتيجة لهذا التآمر دبروا محاولة جديدة ، فلو أنه جدف أمام بعض الشهود الخبراء فسيكون سهلا الحكم عليه .

ولذلك دعى « يسوع » إلى مائدة غنى آخر .

وفى تلك الليلة اتبع « يسوع » كل الشكليات ، وغسل وجهه ويديه واتكأ على أريكة المضيف ، وفجأة ظهر عند الباب رجل مريض بالاستسقاء يتوكأ ، وقد انتفخ جسمه بالماء المتراكم فى أجزاء كثيرة منه ، وانقطع العشاء بسبب دخول المريض المتألم واتجهت الأبصار إلى السيد :

— أتراه ينسى أن هذه هى ليلة السبت ؟ إذ بدأ السبت فى اعتبارهم بمجرد غروب شمس الجمعة .

وعلم « يسوع » باللعبة القديمة ، وأجال بصره فى الشيوخ والكتبة والفريسيين الذين يعتبرون كسر السبت جريمة تستحق الموت ، ووجه إليهم سؤالا :

ـــ أيحل شفاء المريض فى يوم السبت ؟ .

ولم يجب أحد منهم ، ولكن «يسوع» لم يكن ينتظر جوابا ، وإنما نظر إلى المريض وشفاه وصرفه . ثم عاد إلى الجمع سائلا :

ـــ من منكم يكون له حمار أو ثور يقع فى حفرة ولايخرجه هو منها فى يوم السبت ؟ .

وما برح السكون مستتبا ، ولكن خبر الشفاء سرعان ما انتشر ، وازدحم بيت الفريسى وخارجه بالجموع ، وأدار «يسوع» وجهه عن المائدة ووقف فى الباب مخاطبا الجماهير ، وذاكرا لهم فى بلاغة أخاذة أعظم قصصه وهى قصة الابن الضال .

وقد تأثر الجمهور لهذه القصة تأثر التلاميذ لموعظة الجبل ، وسمع الناس لأول مرة عن فضيلة التواضع ، عكس ما يذهب إليه الفريسيون ، وعن محبة الله للبشر جميعا حتى الخطأة منهم ، وعن عظم مغفرته حتى لتجب كل خطيئة مهما عظمت ، متى توفر شرط الغفران .

ودرج منها إلى المفاضلة بين الله والمال وكيف أن من يتبع « يسوع » يحبه ويؤثره على كل شىء . ثم قال :

ـــ إن كان أحد يأتى إلى وهو يحب أباه وأمه وامرأته أو بنيه أو إخوته وأخواته ، بل نفسه أيضا أكثر منى فلا يستطيع أن يكون تلميذا لى ، ومن لا يحمل صليبه ويتبعنى فإنه لا يستحقنى !

وكانت هذه ثالثة دعوة له من الفريسيين لتناول العشاء ، وقد باءت جميعها بالفشل . فلن يدعوه منهم أحد للعشاء بعد .

الفصل السابع والأربعون

دروس سريعة

وانفرد « يسوع » بتلاميذه فيما وراء الأردن فى الأرض الموحشة التى كان قد قدم منها ليتعمد ، ليتحدث مع تلاميذه فيها عن المستقبل ، وهناك أخبرهم أنه سينهى رسالته على الأرض سريعاً ويحمل الغفران إلى كل البشر .

ولكن شرط غفران الله للإنسان يقوم أيضاً على غفران هذا الإنسان لإخوته ولكل من أساء إليه ، وبلغ إفصاحه عن هذا غايته فى هذا المكان ، حيث أعلن « يوحنا» المعمدان منذ ثلاث سنوات حقيقة شخصية «المسيح» .

وكان لا يزال لديه لتلاميذه الكثير ، ولاحظ بأسف أن قدرتهم كبشر على إدراك الإلهيات محدودة ، ومع ذلك فقد كانوا هم الذين اختارهم من دون العالم ليحملوا إلى العالم بعد انتقاله رسالته . وأكد لهم نظرياته حول مسائل مهمة . . مسألة الحياة الجنسية والزواج والطلاق والعزوبة والبكورية . وذكرهم بما قال من أن من جمعهما الله لا يصح أن يفرقهما إنسان .

ولكن هل تفضل العزوبة دائماً الزواج ؟ كلا ! إنه لا ينصح بالعزوبة إلا لمن أرادوا أن يتحرروا من روابط العائلة والتزاماتها ومن العبودية للشهوات لكى ينصرفوا كلية لأداء عمل « السيد » .

ـــ لأن هناك خصيانا ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم وخصياناً بفعل الغير وخصيانا خصوا هم أنفسهم من أجل ملكوت السموات .

ـــ فمن استطاع أن يحتمل هذا فليفعل !

ورحب « يسوع » بالأمهات وبأطفالهن وأظهر منتهى العطف عليهن ، وكان الأطفال يتعلقون بأكتافه ، والتلاميذ حائرون يفكرون فى أن يطردوهم وعندما نظر « يسوع » إليهم راضياً باسماً وقال :

ـــ دعوا الأطفال يأتون إلى ولا تمنعوهم ؛ لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات ، الحق

أقول لكم : إن من لا يقبل ملكوت السموات مثل طفل ، فلن يدخله .

ومضى يطمئنهم ويخبرهم : كيف أن الله يعنى بكل نفس حية خلقها .

— أليس أن خمسة عصافير تباع بفلسين ، ومع ذلك فواحد منها لا ينسى أمام الله ، بل إن شعر رءوسكم جميعه محصى . فلا تخافوا فإنكم أفضل من عصافير كثيرة .

وهكذا قرر « يسوع » كل الأهمية وكل القيمة لكل إنسان فرد ، وقد أحبه المنسيون والمغمورون والمضطهدون من أجل هذا التقدير ، وإن لم يدركوا عندئذ دقائقه ومداه ومضت ألفا سنة ، ثم إذا بالآلات الحديثة فى المعامل تثبت أن شعر كل إنسان يختلف عن شعر الآخر ، بل إن كل شعرة واحدة فى رأس إنسان فرد مميزة بذاتها ، فلا يوجد مثيل لها فى نفس الرأس ، بل إن كل نقطة من دم الفرد أو من عرقه لها خصائص ، وكما أنه لا يوجد لبصمة أية أصبع من أية يد بشرية مثيل آخر فى كل ملايين ملايين البشر ، كذلك فإنه لا يوجد مثيل لبصمة ظلف أية بقرة أو ثور أو كلب أو قط ، الأمر الذى يدل على أن الخالق خلق كل كائن حى لذاته وميزه بخصائص كثيرة ينفرد بها ، تؤهله الوظيفة المعينة له ، وسواه بغيره فى الإعزاز لديه والعناية به ، فكيف بالإنسان الفرد المميز عن غيره من الكائنات فى الكثير جداً ؟ .

وفى تلك الأيام بشرهم « المسيح » بأن الروح القدس سيحل عليهم ، وأنه الروح المحيى المعزى الملهم المرشد كل مسيحى بعد ذهابه هو ، وأعلمهم بأنهم سيضطهدون من أجل شهادتهم له ، وقال لهم :

— إذا وقفتم أمام الحكام فى المحاكم فلا تهتموا كيف أو بماذا تتكلمون ، فإنكم ستعلمون فى تلك الساعة ما تتكلمون به ، لأنكم لستم أنتم المتكلمين ، لكن روح أبيكم هو المتكلم فيكم ! .

ثم أوصاهم بألا يهتموا بما يأكلون ويلبسون ؛ لأن هذه كلها سيدبرها الله لهم .

واهتم «يسوع» عند ذاك اهتماماً خاصا بالعلاقة بين الأغنياء والفقراء وبين رأس المال والعمل ، ومسئولية كل منهما تلقاء المجتمع الإنسانى .

وحدث أن كان «يسوع» يسير فى الطريق العام ومعه جمع كبير ، عندما جرى إليه شاب ظاهر الغنى ، وجثا أمامه وهو يلهث وسأل :

— أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ .

وانتظر «يسوع» برهة حتى يستريح الشاب اللاهث ، وقد رأى أنه غير جاد ، وأنه لا يريد إلا أن يشبع فضوله وقال له :

— إنما الصالح واحد هو الله ، فلماذا تلقبنى بالصالح ؟ إن كنت تريد أن تدخل الحياة الأبدية ، فاحفظ الوصايا .

— وما هى ؟ .

— لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، أكرم أباك وأمك ، أحبب قريبك كنفسك ! .

— كل هذا قد حفظته منذ صباى ، فماذا ينقصنى بعد ؟ .

— ينقصك شىء واحد . إذا كنت تريد أن تكون كاملا ، فاذهب وبع كل ما تملك ، وأعطه للمساكين ، فسيكون لك عندئذ كنز فى السماء . . وتعال اتبعنى !

ووقف الشاب وقد ظهر على وجهه الذعر والأسى العميق ، ومضى حزيناً مثقل القلب ، فقد كان كثير الأملاك فاحش الثراء !

وتبعه «يسوع» بنظره ، ثم استدار إلى تلاميذه وأخبرهم كيف أنه يعسر جداً على الأغنياء دخول الملكوت .

— وإنه لأسهل أن يدخل الجمل من ثقب الإبرة ، من أن يدخل غنى ملكوت السموات ؟.

وكان هذا تقريراً يقتل الأمل فى نفوس كثيرين ، ولكن «يسوع» أضاف مطمئنا :

— إنه مع ذلك ، فإن كل شىء عند الله مستطاع .

وتلقف التلاميذ حديث «المسيح» عن الكنوز فى السماء ، وبلع « بطرس » ريقه وسأل متردداً :

— يا « سيد » . لقد تركنا كل شىء وتبعناك ، فماذا سيكون لنا ؟ ! .

وبدا «بطرس» صالحا ومقبولا يقرر حقيقة معروفة ، هى أنه هو وإخوانه تركوا بيوتهم وشباكهم ومراكبهم وإخوتهم وأخواتهم وآباءهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم ، وتبعوه إلى آخر حياتهم ، وأن من حقهم لذلك أن يتوقعوا أن يرثوا الحياة الأبدية ، ولكن ماشأن كل هؤلاء الآخرين الذين وعدهم «يسوع» أيضا بالحياة الأبدية ، هؤلاء الذين شبعوا من مباهج الدنيا ولم يتوبوا ولم يؤمنوا « بيسوع » أو لم يخدموه إلاقبيل الساعة الثانية عشرة.

هل ستكون لهم نفس المكافأة التى سينالها من كرس « للمسيح » حياته وأرهق جسمه ونفسه فى خدمته ؟ .

ألا يبدو هذا مخالفاً للعدل المطلق ؟.

وكان «يسوع» يبشر بغفران الخطايا ، ليس مرة واحدة ، ولا سبع مرات ، ولا سبعين مرة سبع مرات ، ولكن إلى مالا نهاية .

فإذا استغفر إنسان وتاب فى الساعة الحادية عشرة ، أفيكون شأنه شأن من استغفر وتاب فى الساعة الأولى ؟

ورد عليهم « يسوع » بأمثال ، مثل عمال الكروم ، وبرموز كثيرة عن الملكوت ، مؤجلا الجواب الصريح حتى يعدهم له .

وبينما كان السؤال يروح ويجىء فى أذهانهم ، جاءتهم دعوة إلى « بيت عنيا » ، إلى بيت « مارتا » و « مريم » و « لعاذر » فيها !

الجزء السابع

السنة الثالثة

الفصل الثامن والأربعون

يا « لعاذر » . . . هلم خارجا !

اليوم يعرف كل العالم ، ولكن كثيرين حين ذاك كانوا لا يهتمون بأن يعرفوا أن « لعاذر » هو شقيق « مريم » و « مارتا » ، وقد أرسلت الأختان رسولا خاصا يحمل إلى « يسوع » رسالة ذات لهفة نصها : « لعاذر — الذى أنت تحبه — مريض » .

ودهش التلاميذ الاثنا عشر ، إذ جاء تعليق «يسوع» على الرسالة عارضا كأنها لا أهمية لها ، فقد قال :

— إن هذا المرض ليس للموت ، ولكنه لمجد الله ، وحتى يتمجد به ابن الإنسان ! .

ولم تكن الأختان قد بالغتا فى شىء فإن «يسوع» يحب « لعاذر » فعلا ، بل إنه كان يحب عائلة «لعاذر» كأعظم ما يكون بينه وبين إنسان من حب ، فيما عدا أمه ، والأغرب من ذلك أنه صرف الرسول البائس ومضى يتلكأ هنا وهناك ، وبدا منه أنه لا يريد أن يغادر البلد الذى قابله فيه الرسول ، فقد مكث هناك بعد ذلك يومين كاملين .

وبدا أن الاثنى عشر تلميذا هم الآخرون لم يضايقهم تلكؤه هذا ، ولعلهم فى شدة تعلقهم بالدنيويات رحبوا به ، إذ لم يكونوا يستطيعون عند ذاك أن يدركوا ما وراءه وما مغزاه :

وكانوا يقولون فيما بين أنفسهم : « حسن جدا منه أن يمكث هنا ، ومعقول ، فلأن يعود اليوم إلى «بيت عنيا» القريب جدا من «أورشليم» أشبه بمن يدخل برجليه إلى جب الدب ، فإن زعماء الهيكل ثائرون عليه وناقمون ، وليس غريبا أن يكونوا قد استأجروا عليه قاتلا ليخلصهم منه ، أو ليهلكنا جميعا ونحن نيام ، فحسنا يفعل «السيد» ببقائه هنا ، وكم نأسف لحالة « لعاذر » ، إن كلا منا بالطبع يحبه ، ولكن الأكثر حكمة هو أن نمكث هنا فى أمان نسبى ! » .

وما أن وصلوا فى منطقهم إلى هذا ، حتى فاجأهم «يسوع» بقوله: إنه ذاهب إلى «بيت عنيا» ، فاحتجوا عليه بمرارة وحاولوا أن يثنوه عن عزمه وأن يفهموا ما يدور بخلده ، لقد كان هناك منذ

قليل حـــين حاول عملاء الكهنة أن يرجموه بالحجارة ، فلماذا يعود إليهم إذن ؟ . وكانت إجابته بسيطة :

— إن حبيبنا « لعاذر » نائم ، وأنا ذاهب لأوقظه ! .

وأجاب التلاميذ :

— يا «سيد» . مادام «لعاذر» نائما فإنه بخير ؛ لأن النوم يفيده !

وغابت عندئذ الابتسامة الهادئة من شفتى «يسوع» وقال لهم جادا :

— « لعاذر » ميت !

وابتأسوا لهذا ، فقد كانوا يحبون «لعاذر» فعلا ، ولذلك راع النبأ قلوبهم ولكن الذى راعهم أكثر ، هو مفاجأة « السيد » التالية :

— إن «لعاذر» ميت ، ولكنى سعيد من أجلكم لأنى لم أكن هناك، وذلك لتؤمنوا . أما الآن فهيا بنا !

وعندئذ جاء دور «توما» الذى كان اسمه باليونانية « ديديموس » أو التوأم ، فقد كان من طليعة ذوى الروح العلمية المحضة عنيدا لا يسلم إلا بالواقع الملموس . ولذلك كان رفاقه ينادونه : « توما الذى يشك » وكان هو فعلا كثير الشك ولا يعدل عن فكرة إلا بعد جهد عظيم ، كأى رجل يعشق الحقيقة ، ولكن بعد أن يصل إليها من الطريق الذى يرضيه ؛ ولذلك فإنه ما كانت شكوكه تزول حتى يؤمن ، ويؤمن فى بساطة وإخلاص وإلى الأبد ، ولذلك ومع أنه كان يعتقد أن عودتهم إلى « بيت عنيا » تكاد أن تكون انتحاراً نظر إلى رفاقه فى جد وقال :

— لنذهب كلنا إذن مع «السيد» لأن واجبنا هو أن نموت معه .

وكانت قلوبهم ثقيلة ، ولكنهم وافقوا «توما» جميعا ، من «يوحنا» إلى « يهوذا » ، ومشوا كمن يمشى فى جنازة نفسه . وكان منزل «مارتا» و«مريم» مليئا بالحزانى والمعزين ؛ بالأصدقاء وبالأقارب ، وبالندابين المحترفين ذوى الدموع السخينة الذين استؤجروا لهذه المناسبة طبقا للعادة هناك ، وكان فيهم صارخون وآخرون يضربون بأيديهم صدورهم وفوضى وضوضاء شيطانية تستمر ليل نهار ، ثم ما أن سمعت «مارتا» أن السيد أت حتى هرولت إلى الخارج لتقابله ، بينما بقيت «مريم» فى المنزل ، فقد كانت لوعتهما لموت شقيقهما ومضايقتهما لعدم

عودة «السيد» عظيمة، وأغلقت «مريم» نفسها على حزنها ومضايقتها بينما أفرجت «مارتا» عنها في قولها « ليسوع » عندما لحقته في أول البلد :

— لو أنك كنت هنا لما مات أخي ! .

وكان الحزن يلهب وجهها الكبير والدماء تحتقن في وجنتيها ، إذ خجلت من اندفاعها في لوم «المسيح» وقالت مستكينة وفي صوت خفيض :

— ولكنني أعلم أن جميع ما تطلبه من الله يعطيه لك !

ووضع «يسوع» يده على كتفيها وتمتم :

— إن أخاك سيقوم ثانية !

وقالت «مارتا» في عتاب حزين :

— إني أعلم أنه سيقوم ثانية في يوم القيامة !

ورفع «يسوع» نظره إليها فتقابلت النظرات وقال «يسوع» جادا :

— أنا هو القيامة ، وأنا الحياة !

وشملت الرهبة التلاميذ و«مارتا» . وأخذتهم قشعريرة لهذا الإعلان الرهيب، واستأنف « يسوع » :

— كل من يؤمن بي ولو مات فسيحيا ، وكل من يعيش ويؤمن بي لن يموت إلى الأبد. أتؤمنون بهذا ؟ .

وقالت «مارتا» :

— نعم يا « سيد » أنا أومن بأنك المسيح ابن الله الحي الذي نزل إلى هذا العالم !

ونظرت إلى عينيه فأحست بأنه غفر لها واطمأنت ولمت شعثها وأسرعت عائدة إلى البيت لتقول « لمريم » : إن «السيد» أتى وهو يدعوك ! ولم تنتظر «مريم» وهرولت بدورها إلى الخارج نازلة من فوق التل الحجري وتبعها جميع من في المنزل وعـــلا صخبهم وهم يتساءلون : ماذا حدث ؟ أيكون ... إن «مريم» تجري إلى القبر لتبكي هناك أو لتصلي ، إنه لا يجب أن يتركوها وحدها ، وكانوا يتبعونها مسرعين ولكنها لم تحس بهم ، فقد رفعت روحها وكأنما تفتحت لها أبواب السموات ، إذ سمعت أن « يسوع » يبحث في طلبها ، ولكنها بينما

كانت تهرول ذكرت أنه غاب ، إذ هم فى أشد الحاجة إليـه ، ولعله تعمد الغياب بعد أن أبلغوه حاجتهم إليه ، وسرى الأسى إلى قلبها ثانية عندما وصلت إليـــه وسقطت على قدميه عاتبة .

— يا «سيد» . لو أنك كنت هنا لما مات أخى ! .

وعلا نحيبها وعلا نحيب الناس من حولها ، وسأل «يسوع» فى بساطة :

— أين وضعتموه ؟

وأجاب الحزانى :

— تعال وانظر ! .

وبكى «يسوع» وقال الباقون :

— انظروا كم كان يحبه !

وقال بعضهم :

— نعم . ولكن ! .

— ولكن ماذا ؟ .

— ألم يكن يستطيع ذلك «السيد» الذى صنع أعينا للمولود الأعمى أن يمنع من يحب من أن يموت ؟ .

وكانوا قد وصلوا إلى قبر « لعاذر » ، وكان القبر فى شبه كهف محفور فى جانب التل الصخرى ينزلون إليه بثلاث درجات وفوق غطائه حجر عظيم ، وقال « يسوع » :

— ارفعوا الحجر !

* * * *

افتحوا عيونكم إذاً أيها المبصرون ، وافتحوا آذانكم أيها السامعون ، وعلى الأخص أنتم أيها الرسل ، عندما تداهم بكم الأمور فى زمن قريب ، ثلاثة أيام عصيبة ؛ من يوم الجمعة إلى الأحد .. !

وأعاد « يسوع » قوله :

— ارفعوا الحجر !

وبالرغم من إيمان «مارتا» ، تلك السيدة الواقعية ، فقد احتجت :

— يا « سيد » . إنه مدفون منذ أربعة أيام ولابد أنه أنتن !

— ألم أقل لك إنك لو آمنت فسترين مجد الله .

وتزاحم الناس على الحجر يرفعونه وهم يلهثون والعرق يتصبب من جباههم إذ يشعرون أنهم إنما يبذلون مجهودا طائشا وميئوسا منه ، وتقدم « يسوع » إلى مدخل القبر ونظر إلى السماء وقال :

— أبتى . إنى أشكرك لأنك سمعت لى . وأنا أعرف أنك تسمع لى دائما ، ولكن ليؤمن الواقفون من حولى أنك أرسلتنى !

ومضت برهة انتظار ثقيل ، وهبت رياح الربيع رطبة عاطرة بأريج أزهاره على وجوههم ، ثم تغلب على عطرها الرائحة النتنة المنبعثة من القبر ، وصاح « يسوع » بصوت عظيم :

— يا « لعاذر » . هلم خارجا !

ورأى الناس الميت المدفون المربوط اليدين والرجلين يقف وكأن هناك قوة توقفه وتدفعه ، قوة آتية من نفسها ، ولايدرى أحد كيف قام مع رباطه ووثاقه ولثامه وأكفانه اللاصقة .

وقال « يسوع » :

— فكوا وثاقه ، ودعوه يمشى !

وعانق « لعاذر » أختيه !

الفصل التاسع والأربعون

عوده إلى السياسة

كانت إعادة «لعاذر» إلى الحياة من الناحية السياسية خطوة خاطئة ، فلأن تعيد ميتا إلى الحياة فى ظلال حائط « أورشليم » لا يعنى أقل من أن تملأ شعب « أورشليم » رهبة، ولأن تملأ قلوب كهنتها حقدا ؟

وصحيح أن هذه ليست هى أول مرة يعيد فيها « يسوع » إنسانا إلى الحياة ، ولكن معجزة «أريحا» تمت فى إقليم شمالى بعيد ، وعندما ترامى نبؤها إلى العاصمة لم يؤخذ فيها مأخذ الجد ، أما فى حالة « لعاذر » الجار الملاصق « لأورشليم » فالأمر مختلف ، ذلك لأن كثيرين من أهل «أورشليم» نفسها يستطيعون أن يقسموا أن «لعاذر» مات فعلا ودفن فى قبره ومضت عليه أربعة أيام . ثم هاهو ذا يمشى أمام ناظريهم ويتحدث إليهم كأن لم يكن بالأمس ميتا سار جسده فى التحلل مرحلة طويلة .

ولذلك فلم يكن عجيبا أن يصاب «قيافا» الكاهن الأكبر بالمغص الشديد ، كان « قيافا » يرأس الهيكل منذ السنة الثامنة عشرة الميلادية ، وكان دائما نشطا حريصا ينام ملء جفنيه مطمئنا وراضيا عن نفسه ، أما الآن فقد هرب منه النوم وأمضه الأرق، إذ أخذ الناس حوله يتحدثون بأن « الجليلى » صانع المعجزات هو حقا «المسيح» .

وكان هذا بالنسبة للكاهن الأكبر الذى يريد كل شىء هادئا منتظما ومريحا وعلى وتيرة واحدة ، أكثر من مجرد مضايقة ، بل إنه لا يعنى فى نظره أقل من خراب مطبق ، إن هذا الناصرى يجب أن يقف عند حد ! .

وها هم جواسيس الهيكل يتابعون الرجل منذ ثلاث سنوات ويحاورونه ويحاولون الإيقاع به بغير ما جدوى . فإلى أى مدى يسمح لهذا الرجل أن يصل ؟ ، وكان الأمر هينا حتى قام «لعاذر» من الموت فتفتحت أعين «قيافا» ودق ناقوس الخطر فى ذهنه عاليا، فلو أن أغلبية من الناس آمنوا « بيسوع » ، وهذا شىء أصبح اليوم محتملا جداً ، فسينقلبون حتما على سلطة الكنيسة والشيوخ والصدوقيين والفريسيين وكل تجار الهيكل والأتباع والحاشية ، وستخبو عندئذ نيران الأضحيات وتقفر المذابح ويبطل بيع الخراف والحمام وتفلس الصيارفة وتبور

سوق السيمونية ، ووداعا إذن أيها الربح الضخم من الاتجار بالمقدسات ، فلن تفوت الخسارة ثريا ، ولن تترك تاجراً ناعم البال ، إن الناس إذا آمنوا «بيسوع» فسيكفرون بكل الكهنة الذين يتكسبون ويتاجرون بآمال الشعب ومخاوفه وعندئذ سيقول كل الضباط الرومانيين حتى « بيلاطس البنطى» نفسه لرؤساء الكهنة وعمد الهيكل : «إن كنتم أنتم لا تحكمون شعبكم ولا نفوذ لكم عليه ، ففيم إذن اتفاقنا معكم ، إننا سندير وجهنا لهذا القادم الجديد الذى يسنده الشعب ويسمع كلامه ، وسنعقد محالفاتنا مع « المسيح » ! .

وعندما وصل بمجلس «قيافا» الحديث إلى هذه النتيجة ، لعبت أصابع «قيافا» بذقنه الطويلة المعطرة وقال للأعضاء :

— أليس الأفضل أن يموت واحد من الشعب من أن يموت الشعب كله ؟ .

وما درى هو عند ذاك ولا كان واحد من أتباعه يستطيع أن يدرك عمق هذه الحكمة إلى مدى الأجيال !

وكان «قيافا» على عجل لكى يتخلص من «يسوع» ولكن « يسوع » مازال فى حاجة إلى وقت يتم فيه إعداد رسله وتعليمهم !

ولذلك فقد انتحى بهم ناحية يجهلها أعداؤه ، قرب قرية صغيرة بعيدة ذات بيوت من الطين فى قلب الصحراء على بعد خمسة عشر ميلا إلى الشمال الشرقى من « أورشليم » ، تدعى « أفرايم » ، وهناك أخذ يعلم الاثنى عشر فى صبر وطول أناة متنبئا لهم مرة ثالثة عن موته وقيامته وعدد لهم فيها خطواتها الست :

الخيانة ، وحكم المحكمة ، الإحالة إلى الحاكم الرومانى والسخرية به وتحقيره ، ثم الصلب ، ثم الانتصار إلى الأبد ، وفى هذا كان مفصحا دقيقا ، وذلك حتى يعد أصدقاءه لما سيحصل .

إن ابن الإنسان سيكون موضع خيانة ، وسيسلم إلى رئيس الكهنة ، والكتبة ، والشيوخ ، وسيسخرون منه ويبصقون عليه ويجلدونه ، ثم يقتلونه ، وفى اليوم الثالث يقوم !

الفصل الخمسون

العيد الكبير

أزف ميعاد العيد الكبير ، أكبر أعياد « إسرائيل . ومن طريق البحر ومن طريق القوافل التى تخترق الجبال والصحارى ، وبالمراكب وبالجمال وبدواب الحمل ، ومشاة وحفاة متعبون ملتهبو الأقدام غارقة وجوههم فى عرق جباههم ، كان الآلاف يولون وجوههم صوب « أورشليم » غير عابئين بالمتاعب ولا بالمخاطر ؛ لأن « الفصح » كان على الأبواب ، العيد الذى يخلد ذكرى الليلة التى ضرب الله فيها كل بكر مصرى ، ماراً بأمان على بيوت الإسرائيليين ، كل النفوس المؤمنة التى كانت تستطيع ذلك الحج ولو بشق الأنفس كانت تولى وجهها نحو هيكل « أورشليم » حيث تشترك فى الصلاة طيلة الأيام السابقة على العيد مقدمة ذبائحها التقليدية وطاعمة من الفطير الخالى من الخمير .

وكان الربيع الناعم يلقى ظلاله على هذه المدينة الجاهدة فوق الجبل وطائر الخضير يغنى والأزهار تتفتح ، وينبعث إكسير الحياة المتجددة فى أجساد الناس وفى أفكارهم ، وتجدد الحياة نفسها .

كان « يسوع » والاثنا عشر ذاهبين أيضا إلى « الفصح » فى « أورشليم » ، وكان الرسل فرحين كأطفال سذج بالزحام وبألوان الحياة النشطة فيه ، وقد نسوا تنبؤات « المسيح » الصريحة عن الموت الآتى سريعاً ، كانت تتملكهم عند ذاك دفعة الحياة فى خضم الحوادث الضخمة ، وبدا أنه عندما كان «المسيح» يحدثهم عن موته لم يأخذوا الأمر مأخذ الجد ولم يعتقدوا بوقوعه ، إذ اعتادوا أن يروه يقهر الموت ويقهر الطبيعة ، وبعد ، أليس هو « المسيح » ؟ كيف يمكن إذن أن يناله ضر ؟ بكل بساطة لم يكونوا مستعدين ليتقبلوا هذا ! .

وفى هذه الحالة النفسية كانوا يسيرون منحدرين إلى أسفل فى دروب الجبل الطويلة التى تدور إلى الطريق الجنوبى الكبير .

وسرعان ما عرف « المسيح » بعض الجليليين فتزاحموا حوله ملتمسين معجزة ، وعندما شفى « برتماوس » وأبصر تكاثرت الجموع حتى سدت الطريق .

وفى معترك هــذا الزحام الصاخب وبقرب دار « جباية الضرائب » فى « أريحا » رأى « المسيح » رجلا قصير القامة يتعلق فوق شجرة جميز بشكل خطير ، وكان القزم ينظر نحو « المسيح » آنا ونحو مدخل دار الجباية آنا آخر ، قلقا على صناديق ماجمع . إذ كان الرومان يجمعون الضرائب من أصحاب أشجار العطر ، المزروع حول المدينة ، والذى كان يعمل فى زراعته الكثيرون من العمال وترويج تجارته ، فقد كانوا يضربون جذع الشجرة بحجارة مدببة ويضعون تحت القطع بعض الصوف يتلقون به السائل الأبيض اللزج الذى يتساقط منه ، ثم يعصرون الصوف فى وعاء من الصدف حتى يمتلىء ، ثم يتجمد السائل فيصدرون الأصداف المملوءة لتباع فى الخارج بثمن غال ، حيث يعتقدون أن تلك الرائحة تشفى من الصداع ومن أمراض أخرى ، وهذا هو السبب فى أن الرومان أقاموا دار المكوس فى هذا المكان على حدود اليهودية .

وهذا هو السبب أيضا فى أنه كان لهم هناك موظف قصير أحدب يتولى تحصيل تلك الضرائب يدعى « زكا » .

وكان أهل البلد يصفون «زكا» بأنه وغد، وكان هو فى اعتبار جيرته — كما كان القديس « متى » من قبل — أحقر من الحقارة ؛ ليس فقط لأنه كان قزما وأحدب ومشوها ؛ ولكن أيضا لأنه كان يجمع الضرائب التى كانت مفروضة عليهم من الغزاة ؛ ثم كان هو يحصل أكثر من اللازم أجرا له ، وكان غنيا جدا .

ومع ذلك كان « زكا » يريد أن يرى « يسوع » ، فقد رأى الجموع متزاحمة أمامه وحوله صائحين ومرتلين من كل قلوبهم . وأيقن الأحدب أنه لن يستطيع فى موقفه أن يلقى نظرة على « يسوع » ، تلك النظرة التى طالما تمناها . ولذلك ذعر ولم يعد يعرف كيف يتصرف ليرى هذا المعلم الذى سمع عن مبادئه وعن فلسفته الكثير ؛ وعرف أنه جعل جابى ضرائب آخر اسمه « متى » من أقرب المقربين إليــــه . فكم يتمنى « زكا » أن يلاحظ « يسوع » وجوده .

وكان « زكا » يعرف نفسه . يعرف أنه قصير القامة وأحدب ومشوه الجسم ، يتجنبه الناس ولايعامله أحد ، فكان كل أمله منصبا على أن يمنحه « يسوع » التفاتة وتفهما وبعض العطف الذى هو أحوج ما يكون إليه ، وها هو ذا قد اقترب وقت مرور « يسوع » من أمامه والفرصـــــة ضيقة والزحام شديد جدا ، ولا يكاد هو يبلغ نصف قامة أى رجل من هؤلاء المتدافعين من حول « يسوع » ؛ ولذا جرى « زكا » إلى شجرة الجميز القريبة المتوسطة

الارتفاع واعتلاها بحركات سريعة غير متزنة ، وكانت الغصون تميل وتهتز من تحته حتى يكاد يسقط ، ونام على الغصن غير عابىء بالخطر ورجلاه ويداه مدلاة ، مقحما وجهه الملتحى بين الفروع والأوراق ليرى الرجل الذى قالوا عنه إنه محب لكل الناس .

ورفع «يسوع» بصره ورآه فى لباسه الحريرى المزركش ، واصفر وجه « زكا » من طول الترقب وفرط التوقع ، ولكن « السيد » أشار إليه بيده وقال :

— « زكا » أسرع وانزل ؛ لأنى سأستريح فى بيتك .

« السيد » فى بيتى ! يا للسعادة الطاغية ! .

لم يستطع الرجل أن يدارى فرحه ، وقفز إلى الأرض من فوق الفرع الأخير ، وجرى بشكل غريب فى الطريق الذى أفسحه له المتزاحمون صائحاً وضاحكا فى عصبية بادية ووضع « يسوع » يده الرحيمة على كتفه وسارا معاً والجمهور يتمتم ويتهامس .

فقد صدم الناس لهذا فيما درجوا عليه كما صدموا بتصرفات «يسوع» من قبل مع الفريسيين والصدوقيين ، كيف يكون «السيد» إذن ضيف شقى « كزكا » ؟ هذا الذى لا يخجل أن يزين أصبعه بالخاتم اللامع الكبير الذى أهداه إليه الملك « هيرودس » نفسه ، وأمام باب بيت الجابى الغنى وقف « السيد » وأخبر الجمع المفتوحة أفواههم من الدهشة مثل الأمناء العشرة وأفهمهم أن أداء الإنسان واجبه ليكسب خبز حياته عمل غير مرذول .

وفى تلك الليلة التى أتى فيها الخلاص إلى بيت «زكا» كان هناك احتفال وغناء وفرح ، وبات « يسوع » فى الليلة الثانية فى « بيت عنيا » ، ولكنه لم ينزل فى بيت أصدقائه : « مريم » و « مارتا » و « لعاذر » ، إذ اختار أن ينزل فى بيت « سمعان الأبرص » ، وهو أحد من شفاهم ، وبينما كان جالساً هناك فى اليوم الأول من أبريل فى السنة الثلاثين كانت « مارتا » تخدم فى العشاء ، و « لعاذر » جالساً إلى المائدة يأكل بنفس الشهية التى يتناول بها عادة ما تطهوه أخته من اللحم الضأن وخضراوات الحديقة ، كأنه لم يرقد قط فى مقبرة أربعة أيام .

وافتقد الحاضرون « مريم » وكانت عند ذلك غائبة لسبب غير مفهوم ، ولكنها ظهرت لجأة قادمة ، ثم ركعت عند قدمى «يسوع » ، ومرة ثانية وكما فعلت سيدة من قبل فى الجليل ، كانت « مريم » تحمل بين يديها قارورة طيب فاخر من «سنبل الناردين» غالى الثمن ، كانت الأختان قد أعدتاه لشقيقهما « لعاذر » ووضعتا فيه كل ما تملكان ، وتركزت أعين الحضور

نحو « مريم » ، ترقبها وهى تدلك قدم « يسوع » بالعطر الفاخر ، ثم ما أن انتهت من تدليك القدمين حتى أخذت تجففهما بشعرها الطويل الفاحم ، ثم قامت وصبت مزيداً من العطر على رأس « يسوع » ودلكته بأصابعها الطويلة القوية ، وملأ العطر جو الغرفة .

وكان « يهوذا » عند ذاك يهمس فى أذن « مارتا » :

— أية خسارة هذا العطر ، أما كان الأصلح أن يباع بثلثمائة درهم توزع على الفقراء . فقد اشتريتموه أنتم « العاذر » بأكثر من ذلك ، ثم حدث ما حدث «للعاذر» ، فلم تعد لكم إليه حاجة ، وعاد الفقراء أحوج إليه من « السيد » ! .

وشاطر بعض الحاضرين « يهوذا » فى وجهة نظره ونظروا فى غضب إلى « مريم » ، وكان « يهوذا » هو حامل الصندوق بين تلاميذ « يسوع » وهو المكلف بسد حاجة الفقراء منه ، وقد قال عنه « يوحنا » فيما بعد : إنه لم يكن أميناً فى أداء مهمته ، وكان «يهوذا» يهم باختطاف قارورة الطيب من يد « مريم » ، لولا أن تدخل « يسوع » آمراً :

— دعها وشأنها فإنها ليوم دفنى قد أعدته .

وصمت الهمس فجأة ، وتابع « يسوع » :

— لماذا تزعجون السيدة ؟ . إنها قد صنعت بى صنيعاً حسناً . إن المساكين عندكم فى كل حين ، أما أنا فلست عندكم فى كل حين !

— فإن هذه إذ أفاضت هذا الطيب على جسدى إنما صنعت ذلك لتكفينى ، الحق أقول لكم ، إنه حيثما يكرز بهذا الإنجيل فى العالم كله ، يخبر بما صنعت هذه السيدة ، تذكاراً لها ! .

وها نحن وقد مضت ألفا سنة ، لا يكاد يمضى يوم دون أن يذكر فيه ما فعلته هذه السيدة .

وكان «يسوع» فى الغد يسير من «بيت عنيا» فى الطريق الصخرى الكبير إلى «أورشليم» ، وكان اليوم هو يوم الأحد السابق لعيد الفصح ، وكان الحجاج يزحمون كل الطرق المؤدية إلى « أورشليم » مرتلين أناشيدهم الدينية .

وهكذا كان مسير «يسوع» وأصدقاؤه ليشتركوا فى الاحتفال بالعيد الكبير، هذا المسير الذى بدأ كرحلة حج عادية ، وانتهى بما يمكن أن يوصف بأنه أعظم مسير ممجد فى التاريخ ! .

الفصل الحادى والخمسون

أحد السعف

كان دخول « يسوع » فى ذلك اليوم إلى « أورشليم » يزرى بأعظم دخول منتصر ، ففى لحظة كان « يسوع » حاجا عاديا من بين مائة ألف حاج . وفى اللحظة التالية كان « يسوع » قد أفرز من بين الجماهير وأصبح محلا لتمجيدهم بل ولتقديسهم كما لم يقدس قائد ولا حاكم ولا ملك ولا نبى فى التاريخ !

ومع ذلك فقد جرى كل شىء سهلا وبغير تعقيد وبغير ما توقع من أحد ، كأن قوة إلهية هى التى أعدته .

بدأت الرحلة مع فجر ذلك الأحد. ثم توقف «يسوع» يستريح فى «بيت فاجى» فى سفح جبل الزيتون الأخضر . حيث يقوم البستان الذى كان يصلى فيه من كل قلبه عندما قبض عليه ، وحيث تقع القمة التى ودع منها العالم ، ثم ارتفع وعيون نيف وخمسمائة شخص تتحلق به حتى اختفى فوق السحاب .

واستدعى « يسوع » اثنين من تلاميذه وعهد إليهما بأمر غريب ، أن يذهبا إلى القرية التالية فى الطريق إلى « أورشليم » ، حيث يجدان جحشا مربوطا إلى شجرة لم يركبه أحد من قبل ، فيفكان وثاقه ويعودان به إلى « يسوع » ، فإذا ما حاول منعهما أحد أخبراه بأن « السيد » محتاج إليه .

ولم يخف التلميذان دهشتهما لهذا الطلب الغريب ، ولكنهما سارا ينفذانه ، غير متذكرين نبوة النبى « زكريا » منذ مئات من السنين خلت: « قولوا لابنة صهيون هو ذا ملكك يأتيك وديعا راكبا على أتان وجحش ولد أتان » .

ووجدا الأتان وإلى جوارها جحشها وعلى قرب منهما أصحابهما ، وحلا الحيوان الصغير ، ثم ردا على سؤال أصحابه بما أخبرهما « يسوع » فصمتوا ولم يعترضوا .

وكان « يسوع » جالسا محاطا بتلاميذه وبجموع من الشعب كالعادة ، ثم ما أن رأت الجموع التلميذين قادمين ومعهما الأتان حتى صاحت وهللت . ثم فجأة كما

صاحت الجموع صمتت ، ثم تدافعت مفسحة لـ « يسوع » ولتلاميذه الطريق صانعة من بينها حرس شرف له .

* * *

حييت الجموع إذن التلميذين القادمين بالهتافات المدوية ، إذ لم تدرك الجموع فقط أن الجحش غير المسرج مخصص لـ « يسوع » ، وإنما أدركت أيضا أنه مخصص للملك «إسرائيل» الموعود ، تماما كما أدرك « الفريسيون » دلالة كل هذا وتذكروا النبوات التى تحدثت عن دخول الملك الموعود إلى « أورشليم » راكبا جحشا لم يركبه أحد من قبل ، وضاقت عيونهم وهم يتتبعون ما فعلته الجماهير من آيات الإخلاص والتمجيد التى لم يسبق لها فى تاريخ « أسرائيل » مثيل ، كل الجماهير التى تملك قلوبها عندئذ رجل واحد .

أما التلاميذ فقد خلعوا ما استطاعوا من ملابسهم ووضعوها فوق الدابة ، وأما أفراد الشعب فقد خلعوا ما استطاعوا من ملابسهم وتعاونوا على فرش الطريق بها أمام الدابة ، بينما سارع الآخرون إلى أشجار البلسم ، والأقاشيا والزيتون ، وسعف النخيل ، والورود والزهور وفرشوا الأرض هم الآخرون وأخذوا يلوحون بما فى أيديهم منها تحية لـ « يسوع » وتكريما له .

ولم ير « الفريسيون » بأعينهم الضيقة كل هذا التكريم البالغ فحسب ، وإنما سمعوا صياح جماهير الحجاج والأجانب مهللين مكبرين إله « إسرائيل » الذى يشفى العلل المستعصية ويقيم الأموات ويزف إلى المحرومين بشرى السعادة الخالدة ، وسمع « الفريسيون » أيضاً آيات التقديس التلقائية ، أقوى وأعمق تقديس شهدته البشرية إلى ذلك الوقت .

وعلت الأناشيد من أفواه عشرات الآلاف مجتمعين :

« أوصنا ... مبارك الآتى باسم الرب ... أوصنا لابن « داود » . أوصنا مملكة أبينا «داود» الآتية ... أوصنا الملك القادم باسم الرب ... السلام على الأرض والمجد فى الأعالى . أوصنا فى الأعالى » . وعرف « الفريسيون » أن الشعب كله يحيى « يسوع » ويصلون له مرتلين ويعتبرونه ملكا ، ليس ملكا عاديا وإنما ملكا من نوع ليس له بين البشر مثيل ، ملكا آتيا من السماء ، ملا كا هو أو إلها ، الكل متعلق به من كل قلبه ، فلو أن « يسوع » طلب إلى الشعب شيئا عند ذاك لاندفع الشعب مستجيبا له ، مطيعا طاعة عمياء ، وكم خافوا عندئذ أن يوجه « يسوع » الشعب ضدهم وضد رؤساء الهيكل ، وضد الرومانيين أيضا ، ويقيم نفسه ملكا حقيقيا محبوبا ممجدا .

وسرى الخبر مسرى الكهرباء فى قلوب الكهنة والفريسيين والصدوقيين واجتمعوا معا

مذعورين ، إذ لم يبق معهم أحد من الشعب ، وإنما انصرف الشعب كله إلى موكب « يسوع » مرحبين مهللين مكبرين .

وتقدم الموكب منحدرا إلى قلب الوادى ثم صاعدا بجوار أسوار « أورشليم » وقلاعها، نحو بواباتها المسلحة ، واستدعى مرآها ذكريات « يسوع » فى صباه عنها ، وأثاره إحساسه بما ينتظرها فبكى عليها وقال :

ــ لو علمت أنت أيضا فى يومك هذا ما هو لسلامك ! لكنه الآن خفى عن عينيك .

ــ ستأتى عليك أيام يحيط بك فيها أعداؤك بمترسة ويحاصرونك ويضيقون عليك من كل جهة ! .

ــ ويهدمونك وبنوك فيك . ولا يتركون فيك حجرا على حجر . لأنك لم تعرفى زمان افتقادك ! .

وكان يخترق عندئذ بناظريه حجب المستقبل إلى أربعين سنة قادمة ، ويرى جيوش « تيطس » معسكرة فوق « جبل الزيتون » ويراها تعمل السيف والنار فى « أورشليم » ، وتفعل بها وبأهليها كل ما قاله « يسوع » عند ذاك .

إنها النبوة التى تحققت هكذا سريعاً ، وما زال العالم بأسره يعيش فى آثارها إلى الآن ! .

* * *

دخل « يسوع » إلى « أورشليم » فى مظاهرة الحب البالغ هذا ، وكان سكان «أورشليم» يهرعون من بيوتهم فى الشوارع الضيقة إلى الطريق الرئيسى مختلطين بجموع الحجاج ، والأهالى والأجانب السائرين فى ركابه ، مهللين معهم هاتفين لـ « يسوع » النبى ، « يسوع » الجليلى ، ملك السلام ، الآتى باسم الرب ، وتزاحم أيضا حوله العمى والعرج والمشوهون والمرضى آملين أن يراهم فيشفيهم ، أو أن يلمسوا أطراف ثيابه فيشفون . حتى إلى أفنية الهيكل . وهناك قرب قدس الأقداس وقف « يسوع » عاطفا عليهم وشفاهم جميعا ! .

وتلق الأطفال النشيد من أفواه الكبار ورتلوا بدورهم :

ــ أوصنا لابن « داود » .

ولفت الشيوخ والكتاب نظر «يسوع» إلى هذا مستنكرين :

ــ ألا تسمع ما يقوله هؤلاء الصبية ؟ .

ـــ نعم ... وأنتم أما قرأتم قط « من فم الأطفال والرضع هيأت تسبيحاً » .

ووجموا ، فإن هذه العبارة هي إحدى نبوات «داود» عن «المسيح» .

ثم فكروا ... ألا يعد هذا تجديفا تمكن محا كمته عليه ؟ .

ولكن لا ، فإن مجرد ذكر آية من التوراة لا يسهل اعتباره تجديفا .

فلا بد من انتظار مناسبة أخرى للإيقاع به !

الفصل الثانى والخمسون

الصدام الكبير

كان الهيكل بكل قاعاته وأبهائه يعج بعشرات آلاف الحجاج والمصلين المتحدثين عن «يسوع» وعجائبه وأمجاده .

حتى الأغراب والأجانب الذين لم يكونوا حاضرين الاحتفال بالعيد الكبير ، كانوا متزاحمين على الأبواب ليروا النبى العجيب ، وليعرفوا عنه المزيد .

وكم أزعجوا بفضولهم وأسئلتهم التى لا تنتهى .. « فيلبس » و « أندراوس » .

— أترى ملكوت الله محجوزا لبنى إسرائيل وحدهم ؟ .

— أليس للأجانب من أمل فى الخلاص ؟

وتدخل عندئذ أيضاً « بطرس » وأخبر هؤلاء المتسائلين أن رسالة « المسيح » موجهة إلى العالم أجمع وأنه أتى ليخلص البشر كلهم ، ولذلك فإنه سيموت عن الجنس البشرى كله وسأل بعضهم :

— إذا كان هو للموت ، فلماذا لا يحاول النجاة منه ؟ .

وترامى السؤال إلى « يسوع » ، فى آخر الهيكل فقال بصوت رفعه عالياً إلى الله :

— وماذا أنا قائل .. أبتى . . نجنى من هذه الساعة ، ولكنى من أجل كل هؤلاء أتيت لهذه الساعة ، يا أبتاه مجد اسمك ! .

سمع كل من فى الهيكل صوت « يسوع » هذا وسمعوا فى نفس الوقت صوتاً كأنه صوت رعد ، ولكن كثيرين قالوا إنه ليس رعداً وإنما هو كلام مفهوم ، كلام سبق أن سمع مثله عندما كان « يوحنا » المعمدان يعمد المسيح فى شرقى نهر الأردن ، حين حل هناك روح الله فى شكل حمامة بيضاء على رأس «المسيح» ، أما فى يوم أحد السعف هذا فلم تكن هناك حمامة ، وإنما سمع نفس الصوت ، صوت عظيم آت من السماء ومن كل مكان مرتفع كأنه صوت رعد أو كأنه صوت الطبيعة كلها أو صوت الله نفسه ، مجيباً على رجاء « يسوع » أن يمجد اسمه .

— مجدت وسأمجد أيضاً !

وأخذت الرهبة الناس ، وأوضح « يسوع » لهم فوراً :

— إن هـذا الصوت لم يأت من أجلى وإنما أتى من أجلكم أنتم . الآن قد حضرت دينونة هذا العالم ، الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً .

ثم أضاف ملخصاً الأهمية التاريخية القصوى لرسالته والميتة الشنيعة التى تنتظره :

— وأنا إذا ارتفعت عن الأرض جذبت الجميع إلى !.

ولـكن شيوخ الهيكل لم يتعظوا بشىء من كل هـذا ، وإنما أخذوا يلاحقونه بالأسئلة الملتوية ، متواطئين فى ذلك مع جمع من الهيرودين أنصار « هيرودس » ، وأخيراً سألوه :

— قل لنا .. بأى سلطان تفعل كل هذا ؟ ومن أعطاك هذه السلطة ؟.

وكانت هذه طريقة جديدة فى المحاولة المستمرة لإسناد تهمة التجديف إليه ، ولعلهم ظنوا عندئذ أنه منتفخ الأوداج بسبب روعة استقبـال الجمـاهير له ، ولذلك فقد ينسى واجب الحرص ويندفع فى ادعاءاته فيقع فى صميم الاتهام . وكم كانوا ينتظرون أن يقول إنه هو « المسيح » ابن الله فيقع فى الفخ .

ولـكن « المسيح » ، وهو أمهر من ناقش ، لم يعطهم تلك الفرصة عند ذاك وإنما أجاب بسؤال آخر :

— معمودية « يوحنا » هل هى من السماء أم لا ؟ .

وأسقط فى أيديهم ، فهم يعرفون روح الشعب عند ذاك كما يعرفها « يسوع » ، وكان الشعب كله يؤمن بأن « يوحنا » كان نبيـاً ، فلو أن الشيوخ أجابوا : إنها من السماء لـكان السؤال التالى : ولماذا إذن لم تؤمنوا به ؟ ، ومن المؤكد أنهم سيقعون هم فى الفخ ، أما إذا قالوا : إنها ليست من السماء فسيغضب الشعب كله عليهم ، والويل لهم منه عند ذاك .

ولذلك أرتج عليهم حتى نطقوا أخيراً :

— لا ندرى ! .

وعندئذ أجاب « يسوع » :

— ولا أنا أيضاً أقول لـكم بأى سلطان أفعل هذا ! .

وظهر عياناً أن كل الشعب كان فى جانب « يسوع » ضد الشيوخ والـكتبة والفريسيين والصدوقيين وأنصار «هيرودس» معاً . وأحرج هؤلاء جداً فلم يبق بدمن أن يعاودوا الهجوم.

وعندئذ واجهوه بسؤال غاية فى الإحراج :

— هل يجب على اليهودى الصالح أن يدفع الجزية لقيصر ؟ أم لا ؟ .

وأدرك « يسوع » أنهم ينتظرون منه أن يقول إنه لا يجب دفع الجزية لقيصر فيقع فوراً فى قبضة « بيلاطس » وينتهى إذن أمره ، أما إذا قال إن أداء الجزية واجب ، فقد أثار غضب الشعب عليه . ولكنه لم يقل هذا ولا ذاك وإنما طلب ديناراً منقوشاً عليه رسم بارز وسأل :

— لمن هذه الصورة والكتابة ؟ .

— إنها لـ « أغسطس قيصر » ! .

— إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! .

وهكذا انتصر على الكائدين له ، وأعطى الناس منذ قرابة ألفى سنة درساً فى وجوب الولاء للدولة والفصل بينها وبين الدين ، درسا انتهى إلى معاهدات دولية ومواثيق ودساتير وإلى ميثاق حقوق الإنسان ، ومع ذلك لم يستطع كل العالم أن يعيه إلى الآن .

* * *

وفى ذلك اليوم دنا إليه الصدوقيون الذين يقولون بأنه لا روح ولا قيامة آملين أن يظهروا خطأ نظريته فسألوه :

— يا معلم . . قال « موسى » إن مات أحد وليس له ولد فليتزوج أخوه امرأته ويقيم نسلا لأخيه ، وكان عندنا سبعة أخوة تزوج أولهم امرأة ومات ولم يكن له نسل فترك امرأته لأخيه ، وكذلك الثانى والثالث إلى السابع . وفى آخر الكل ماتت المرأة ففى القيامة لمن من السبعة تكون المرأة ؛ لأن الجميع اتخذوها .

وأعطاهم « يسوع » فكرة عن الآخرة على حقيقتها ، وعن القيامة كيف تكون وبأى شكل . ووضع بذلك حداً لكل الأفكار الخاطئة عن الجنة وكيف يكون الحال فيها ، الأفكار الناجمة عن الأثرة وعن معتقدات مادية لا تتناسب قط مع التوقير الواجب لله ولملكوته .

— أما علمتم أنهم فى القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون ، ولكن يكونون كالملائكة فى السموات ! .

هذه هى جنة «المسيح» وملكوته ، لاشهوة جسدية فيها ، وإنما طهر وصلاح وشبع روحى

وأمجاد سماوية لا يمكن أن يتصورها عقل بشرى أو تصل إلى وصف جلالها لغة دنيوية !

— « مالم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر ما أعده الله لمختاريه » .

وانتهز « يسوع » هذه الفرصة فوجه التوبيخ إلى من يتحدونه وفضح رياءهم هم وجميع أمثالهم وأتباعهم إلى آخر الدهر وحدد مصيرهم التعس فى الآخرة .

* * *

وسرى حديثه عن هذا الرياء كالكهرباء فى البلد ، ووصل فى الحال إلى « قيافا » الذى كان يتناول الغذاء فى منزله مع جمع من زملائه ، وسمع هؤلاء بآذانهم كيف وصفهم « يسوع » بأنهم آكلو بيوت الأرامل وسارقو خبز الأيتام ، وكيف سخر من كل وجاهتهم وأبهتهم وجلوسهم فى المقاعد الأولى وطلبهم انحناء الشعب وتكريمه كلما مروا به فى الأسواق العامة ، وكثرة ما يتزينون به من ألوان براقة ، وكيف يستنزفون بكل الطرق أموال الفقراء وينسون الشريعة والعدالة والرحمة والإيمان الصحيح :

— أيها الثعابين ، أولاد الأفاعى . كيف تستطيعون أن تفلتوا من دينونة جهنم ؟ !.

وأحسوا بألم وقع تلك السياط على ظهورهم كما لم يضربوا من قبل ، وأحسوا بأنهم جلدوا هكذا فى وسط هيكلهم العظيم وأمام كل من يجب أن يعيش هؤلاء الرؤساء على أكتافهم ومن مالهم . يا للمصيبة الدهماء إذن ، فقد قطع كلام «يسوع» هذا رزقهم وهدد مستقبلهم بالبوار إذا هم لم يتخلصوا منه .

وسرعان ماسمعوا وصف « يسوع » لفعل فقيرة وضعت فى الصندوق فلسين حقيرين إذ قال إنها من لحمها اقتطعتهما ، وإنهما لأثمن فى تقدير الله من مئات من الدراهم لو أن المتخمين دفعوها فى سبيل البر .

وأدرك «قيافا» ورهطه أنه إنما يندد بأخذهم أموال تلك الصناديق، وصرفها على شهواتهم وبعدهم عن البر بها للفقراء .

ونظر « يسوع » حينئذ إلى الهيكل الفخم وجميع مافيه من أبهة وزينة ونبه القوم إلى أن هذا الهيكل الجارى رؤساؤه على الضلال ، لن يبقى فيه حجر على حجر لا ينقض .

ثم عاد يحذر تابعيه من هؤلاء الذين سيدعون أنهم آتون باسمه ومن أنبياء كذبة يعطون علامات وعجائب، محاولين أن يضلوا كل العالم داعين فى حقيقتهم للشر وإن ألبسوه شكل

الخير ، وأنه بسبب هذا التضليل ستقوم حروب ، أمة على أمة ومملكة على مملكة وستكون مجاعات وأوبئة وزلازل ومخاوف ، ومع ذلك فسيكون كل هذا مبتدأ الآلام !.

ولم يحاول أن يخفف من شأن الأخطار التي ستحيق بتابعيه ، فقد نبههم إلى أنهم سيسلمون إلى المحافل ويضربون ويدفعون أمام ولاة من أجل اسمه ؛ وأن عليهم ألا يهتموا من قبل بما يقولون ، فإن الروح القدس الذى سيرسله فيهم هو يتولى الكلام عنهم !.

— وعلى أثر ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطى ضوءه ، والكواكب تتساقط من السماء ، ولكن من يصبر إلى المنتهى يخلص ، فسيكرز بإنجيل الملكوت هذا فى جميع المسكونة ثم تظهر علامة «المسيح» ابن البشر فى السماء ، ويرونه آتيا على سحاب السماء بقوة وجلال عظيمين ، ويرسل ملائكته ببوق وصوت عظيم فيجمعون مختاريه من الرياح الاربع ، من أقاصى السموات إلى أقاصيها .

— ويقول حينئذ للذين عن يمينه: « تعالوا يامباركى أبى . رثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم . لأنى جعت فأطعمتمونى ، وعطشت فسقيتمونى ، وكنت غريبا فآويتمونى ، وعريانا فكسوتمونى ومريضاً فعدتمونى ومحبوسا فأتيتم إلى» ، حينئذ يجيبه الصديقون قائلين : يارب متى رأيناك جائعا فأطعمناك أو عطشانا فسقيناك ومتى رأيناك غريباً فآويناك أو عريانا فكسوناك ، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوسا فأتينا إليك ؟ فيجيب الملك ويقول لهم : الحق أقول لكم إنكم كلما فعلتم ذلك بأحد أخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتموه ! حينئذ يقول أيضا للذين عن يساره اذهبوا عنى ياملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته ، لأنى جعت فلم تطعمونى وعطشت فلم تسقونى وكنت غريبا فلم تؤوونى وعريانا فلم تكسونى ومريضا ومحبوسا فلم تزورونى ، حينئذ يجيبونه هم أيضا ويقولون : يارب متى رأيناك جائعا أو عطشانا أو غريبا أو عريانا أو محبوساً ولم نخدمك، حينئذ يجيب ويقول لهم : الحق أقول لكم إنكم كلما لم تفعلوا ذلك بأحد هؤلاء الأصاغر فبى لم تفعلوه . فيذهب هؤلاء إلى العذاب الأبدى .

— والصديقون إلى الحياة الأبدية !.

وأجاب عند ذلك على سؤال التلاميذ : إنه فى ذلك اليوم ، يوم مجيء « المسيح » ثانية سيقع المراءون فى ارتباك عظيم وسيفتضح بالرغم من مهارتهم العظيمة زيفهم !

— أما ذلك اليوم فلا أحد يعرفه ، حتى ملائكة السماء !

— فاسهروا إذن وكونوا مستعدين دائما لهذا اللقاء العظيم ! .

وروى لهم عندئذ قصة العذارى العشر المدعوات لفرح سيد هن ، فقد أخذن مصابيحهن . ولكن خمسا منهن فقط قد احتطن لاحتمال تأخر العريس فأخذن رصيداً من الزيت ، وعندما حضر العريس كانت مصابيح الأخريات قد فرغت تماما من الزيت فتأخرن عن استقباله ، وفاتتهن الفرصة إلى الأبد !

الفصل الثالث والخمسون

الزعيم السياسى

يبدأ الاحتفال بالعيد فى الخامس من أبريل وطبقا للشريعة الموسوية كما هى مذكورة فى سفر الخروج يجب أن يذبح خروف التضحية فى مساء اليوم الرابع عشر من الشهر الأول من السنة العبرية ، وكان اليوم فى اعتبار اليهود يبدأ من الساعة السادسة مساء حتى السادسة من مساء الغد ، وكان العيد يقع فى تلك السنة الثلاثين الميلادية يوم السبت ، ولكى يتفادى اليهود قاعدة السبت فضلوا ذبح خرافهم فى مساء الخميس .

ومن الغريب أنه عندما كان يلقى « المسيح » فى الهيكل الكبير عظاته فى صباح ذلك الخميس كان الهيكل خاليا من جواسيس الكهنة وعملائهم الذين درجوا على الكيد لـ « يسوع » وملاحقته بالأسئلة ومحاولة الإيقاع به .

أما لماذا لم يكن الجواسيس موجودين ؟ فلأن « قيافا » ورهطه كانوا قد وجهوا اهتمامهم سراً إلى تلاميذ « المسيح » ، وأخيرا تحدث أحد هؤلاء الجواسيس إلى « قيافا » وصاح هذا فرحا :

— إذن فقد انتهينا من كل شىء ، ولم يبق إلا موافقة حمى « حنانيا » ! .

وفكر لنفسه ... إن « حنانيا » عقبة كبيرة ، فإنه يحتقر دائما آرائى ويسفهها ، ولكنى ما أراه يفعل ذلك فى هذه المرة فإن الأمر جد خطير . وكان « قيافا » راضيا عن نفسه فقد أفلح فى اصطياد واحد من الاثنى عشر تلميذا ، وصحت بذلك فكرته فى أنه لا يمكن أن يضمن زعيم ولاء كل أصدقائه .

وكان « حنانيا » قد تقدم فى العمر كثيرا ولكنه لم يبرح زعيم « أورشليم » السياسى ، فهو رئيس أكبر العائلات الستين التى تتحكم فى الهيكل ، وأكثرها ثراء ونفوذا ، ولم يبرح هو السيد المرموق ، منذ أشار « يواقيم » إلى « يوسف » عليه قائلا : « إنه أكبر رجل فى « إسرائيل » » .

وعندما رأى أن عهده بمنصب رئيس الكهنة طال كثيرا ، أحل محله فيه ابنه الأكبر ،

وخلع عليه ملابسه التقليدية ، ثم لم يبرح ينقلها من واحد إلى آخر حتى كان قد تولى المنصب الكبير أبناؤه السبعة على التوالى ، ثم لما انتهى أمرهم جميعا أصاب الدور زوج ابنته « قيافا » ، فشغل هذا أكبر منصب فى « إسرائيل » ، بعد إله « إبراهيم » و « إسحق » و « يعقوب » مباشرة .

ولكن « قيافا » كان يعرف أنه ليس شيئا فى عين «حنانيا» ، وأنه هو والأبناء السبعة مجتمعين لم يكونوا شيئا يذكر أمام دهاء « حنانيا » وسعة حيلته ونفوذه المستتب ، وكان « قيافا » شأنه فى هذا شأن سائر أفراد الأسرة ، يحسبون لـ « حنانيا » ألف حساب ، بل إنهم ليتهيبون خصلة شعره البيضاء المنسدلة فوق عينه اليسرى الخضراء الباهتة ، فهو أحدهم ذهنا وأوسعهم حيلة وأقلهم شراهة . وصاحب الفضل عليهم جميعا . ليس فيما لديهم من مال فحسب ولكن أيضا فيما لديهم من علم وفكر .

ولم يكن « حنانيا » يؤمن بغير شخصه هو نفسه ، حتى إله الهيكل لم يكن فى نظره إلا شيئا تقليديا يستعمل لإبقاء طبقات الشعب الدنيا قابعة فى قبضته ، وفى رأيه أن هذه الطبقات يجب أن تحكمها طبقة واحدة سيدة حبتها الطبيعة القدرة على السيادة وعلى الحكم وخصصتها لذلك .

وكان « حنانيا » خير ممثل لهذه الطبقة الحاكمة ، غير منازع .

كان موظفوه يبيعون لتلك الطبقات الحمام والخراف التى يجب تقديمها على المذبح حتى يبقى الله راضيا عن هذا النظام ، وكان غيرهم من أتباعه يتولون أعمال الصرافة ويستبدلون العملة الرومانية بعملة الهيكل التى يجب شراء الأضحيات بها ، كل هذا بالفئات وبالأسعار التى يحددها «حنانيا» ، ثم يوزع هو الأرباح بالنسب التى يراها ، ولم يكن يرى فى هذا عيبا قط ، لأنه يعتقد أن خير سياسات الحكم هى إبقاء الفقراء فقراء ، مملوئين خوفا من شىء ما . وعندئذ فسيظلون مؤمنين بما تشاء خاضعين لمن تشاء ، وإلا أفلت زمامهم وأصبحوا مصدر شغب وفوضى ومطالب جامحة ليس وراءها بعد خير !

وكان « حنانيا » يعلم أيضا أن تلك الطبقات ولو أنها محكومة جيدا إلا أنها لا تبرح تشكو همومها وتطمع فى التحرر منها وتحسين حالها ، فى « اليهودية » وفى « السامرة » وفى « الجليل » . وقد ظهر منها كثيرون يدعون للثورة على النظام القائم ، وحتى بالأمس فقط أمر هو بالقبض على زعيم يدعى « يسوع باراباس » كان يسرق النقود ليدبر بها ثورة لتحرير الشعب ، بمجرد فوضى وسخف وهراء .

ولكن «حنانيا» لم يكن لينزعج لهذا القليل التافه ، فقد كان رجلا يقدر حال الشعب ونزعاته قدرها، فى فكر هادىء وثقة بنفسه لاحد لها، ولم يكن يحب ولم يكن يكره ، ولم يكن يعرف الخوف ولا تأنيب الضمير . لقد ولد ليجمع المال وتزوج زواجا ماليا وزرع النقود وجنى المحصول نقودا ونقودا تضاعف بمضاعفتها دهاؤه ونفوذه ، ولم يكن له أصدقاء إلا من بين أغنى الأغنياء .

وكان زملاؤه الصديقيون مثله راضين عن طريقتهم فى العيش مطمئنين إليها محافظين عليها لا يجرءون على التفكير فى تغييرها ، مخلدين إلى التفاخر بمركزهم وبسلفهم العتيد المؤثل .

وكذلك كان « الفريسيون » حريصين على امتيازاتهم هم الآخرون ، ليس منهم من ناقد لـ « حنانيا » إلا أقربهم إلى الفقر وأكثرهم غيرة وحسدا ، وكانوا يلقبون « حنانيا » بأنه أسعد الناس حظا ، وكان هو يبتسم لذلك محتقرا فقرهم عالما أن حسدهم لا يمكن أن يقلل من شأنه ومن نفوذه .

هذا رغم أن ثائراً مجنونا وقف فى السوق يوما يصرخ :

— الويل لى من فصيلة « حنانيا » ، الويل لى من سمهم الزعاف !

وكان « حنانيا » فى أمنه وعدم خوفه يلقن أولاده أن كل إنسان فى العالم منافق وكذوب ، يمكنك شراؤه فى أى وقت دفعت فيه الثمن ! .

وكان ذلك المساء مظلما ، وكان « بيلاطس البنطى » يحسب أنه فى ربيع السنة السبعمائة والثالثة والثمانين «لروما» . السادسة والعشرين لحكم «طيباريوس قيصر» ، وكان فى اعتبار اليهود هو الرابع عشر من «نيسان» . أما نحن فإننا ندعوه الخميس السابع من أبريل فى السنة الثلاثين الميلادية .

وكان « حنانيا » جالسا إلى نافذته يسمع ضوضاء آتية من بعيد ، وكان يعرف أن المدينة مزدحمة بمئات الألوف من الحجاج القادمين من البلاد الرومانية ومن جميع أنحاء العالم .

ثم أمر فأقفلت النوافذ حتى لا تصل إليه الضوضاء المزعجة ، وجلس إلى جانب مدفأة من الفحم ووقف إلى جواره رجل فاخر الزى منسق اللحية السوداء ؛ هو « قيافا » زوج ابنته ، وقد جاء يريد الحديث إليه فى شأن ما ، وقال :

ـــ سيد « حنانيا » أعرف أنك تريد الآن النوم ، ولكن الشأن الذى أنا فيه قادم لا يمكن أن ينتظر ! .

ومضى « حنانيا » سنته الباقية ونظر « قيافا » إلى خصلة الشعر البيضاء النازلة على عينه اليسرى وبدا له أن « حنانيا » لا يسمع له ، وكان « حنانيا » فعلا يستمع إلى صوت طائر الكوكو الذى يمكث فى « فلسطين » من أبريل إلى يونيه ، فى زمن الحصاد ، ويغنى ماشاء ، كان يستمع إليه ويسرح بفكره فى العيد القادم الذى يلى اكتمال البدر مباشرة ، متذكرا الأعياد السابقة عندما كان هو شابا وكل شىء حوله شاب ، غير متعب كما هو الآن ، ومع أن يد « حنانيا » كانت ترتعش قليلا إلا أنه أحس بأن قلبه لايزال شابا ، وقال أخيرا :

ـــ أى نوع من الشئون هو حتى لا يمكن أن ينتظر ؟

وقال الرجل المسن لنفسه عن « قيافا » :

« قيافا. أيها التافه ، إن اسمك نفسه يعنى انقباض الصدر ، وكم ينقبض صدرى لمرآك برغم لحيتك الممشطة والعطر الذى يفوح منها ، وصوتك المزعج الصدى ، وعينيك اللتين تشبهان عيون البقر ، ولهجتك التى تشبه لهجة طالب وظيفة ! .

وقال « قيافا » :

ـــ أعتقد أن مصير أمتنا على ما سنفعل هذه الليلة .

ـــ ولكن أمتنا عاشت ليالى لا عد لها ، فهل ترانا فى مفترق الطرق ؟ ثم لماذا هــذه الليلة بالذات ؟ .

ـــ لأننا ما لم نضع حدا لـ « يسوع » هذا فسينتهى أمرنا نحن جميعا .

وعطس « حنانيا » وحك أنفه بأصابعه وقال :

ـــ وكيف يمكن أن يخرب بيتى ؟ .

ورفع « قيافا » يديه منبها :

ـــ سيد « حنانيا » .. فكر فيما استطاع هذا الجليلى عمله فى ثلاث سنوات قصار ، مجرد عامل جليلى ، إذ صدقت الأقاويل عنه فإنه ابن غير شرعى ، بدأ منذ ثلاث سنوات يتجول فى البلاد متحدثا إلى من يريد أن يستمع إليه ، وبعد ثلاث سنوات فقط صار كل العالم يجرى وراءه ، مستمعا إليه .

— يا لهم من مستمعين كثيرين إذن ؟ .

— ألا فاعلم أن كل دنيانا هنا مملوءة بالأكاذيب عنه ـ فكم من قائل أنه نبي ذو رسالة جديدة عظيمة تعلن كرامة وأهمية كل إنسان فرد مهما تضاءل مركزه فى الهيئة الاجتماعية ، بل إن الأمر ليتعدى هذا إلى الأسوأ ، فالناس الآن يعتقدون أنه يستطيع أن يفعل معجزات .

وعطس « حنانيا » من جديد :

— ألا يعرفون أن زمان المعجزات ولى ، إلى غير رجعة ؟ .

— إنهم يقولون أن « يسوع » يطرد الشياطين ، ويقوم الأرجل والأيدى الملتوية ويرد البصر للعميان ، بل إنه ليرد الحياة للأموات .

— ولكنى يا « يوسف قيافا » ما زلت أريد أن أعرف لماذا تزعجنى بمثل هذا الهراء ؟ .

— فى يوم الأحد الماضى . العاشر من نيسان بينما كنت أنت مسافراً دخل هو إلى « أورشليم » يحيط به تلاميذه الاثنا عشر ، جالساً على جحش بابلى ، كأنه يريد بذلك أن يلفت أنظارنا إلى أنه ملك وقاض ونبى ، أو أنه هو « المسيا » . فهل يعجبك هذا ؟ .

وشد « حنانيا » على ذقنه وبدا أنه يبلع شيئا بصعوبة .

— ولماذا لم تأمر بالقبض عليه عند ذاك فوراً ؟ .

— لأن ذلك اليوم كان يوم عيد ، و« أورشليم » مليئة بالحجاج ، مائتا ألف ويزيدون .

— بجرد غوغاء وسوقة ؟ .

— نعم . وفى هذا يكمن الخطر ، الغوغاء يحبونه والسوقة يحبونه ، وما أسهل أن تثور الغوغاء والسوقة ، كل الفقراء معه ، وكل البائسين معه ، بل وكل العالم معه .

وهز « حنانيا » يديه مستجيراً من سخف « قيافا » وسأل :

— « يوسف قيافا » .. ماذا تريد أن تفعل بهذا « اليسوع » ؟ .

وقام الكاهن الأكبر ومضى إلى العجوز ووضع يديه على كتفيه وقال :

— أريد أن أقبض عليه ثم أدعو المجلس كله .

— فى ليلة العيد ؟ .

— إنى أريد أن أقبض عليه هـذه الليلة ، فقد وصل نفوذه إلى درجة يجب ألا نتردد ملقاءها أو نتأخر عنها لحظة !.

— تقبض عليه وتدعو المجلس كله . مجرد سخف . ولماذا إذن كل هـذا ؟ ألمجرد أن الرجل يظن أنه « المسيا » . حسناً . فأى جليلى لا يفعل ، إن هذه الكلمة تسبب لى المرض ، إن « أرميا » و « أشعيا » سببا لنا إذ وعدانا « بالمسيا » صداعاً مستديماً ، فكم من دعى ادعى أنه « المسيا » .

ألا تذكر ذلك المجنون « يهوذا » الذى كان من الجالية . ثم بعد أن ذهب مجنون صاحب كذلك « اليهوذا » .

هل يصح أن يزعجك رجل رقيق الحاشية « كيسوع » . . . « قيافا » يا ولدى . . إنك لا تأخذ مسئوليتك جدياً !.

ولكن « قيافا » لم يخنع لهذا ، وقد أخذ نفساً عميقاً ثم عاد يهاجم :

— إنى لن أنصرف من هنا حتى أقنعك بأن « يسوع » « مسيا » من نوع آخر ، وهو ذو آراء فى الأغنياء والفقراء لا تعجبنى ولا تعجبك ! إنه يعد الفقراء بالجنة ويتوعد الأغنياء بالجحيم ، ويدعى أن الأجانب لا يقلون أصالة وطيب معدن عنا .

وأضاءت نيران المدفأة وجه العجوز وبدا فيه شر .

— لا شك أن هذا مجرد جنون .

— نعم يا سيدى العزيز « حنانيا » ولكنه يبالغ فى هذا الجنون ! .

— إنى أكره تعبيراتك المختصرة ، أوضح وحدد وقل ماعندك .

— إنه يقول إن الوشائج العائلية مجرد سخف .

— العلاقة العائلية سخف ؟ حسنا ... فقد يكون فى قوله هذا مقدار من الحقيقة ! .

— إنه يقول إن كل من يؤمن به هو أمه وأبوه .

وضحك « حنانيا » وقال فى صوت خافت :

— ألم أقل لك إن الرجل مجنون ؟ .

— ولكنه جنون خطر ، إن « يسوع » يعلن الحرب على نظامنا الاقتصادى كله وينوى

القضاء عليه ، إنه يشهر بالأغنياء ويشعل حربا طبقية ، وقد أثرت تعاليمه على شبابنا أنفسهم ، حتى إن بعض الصدوقيين صاروا من أتباعه . وإنهم ليسخرون من آبائهم عندما يقولون لهم إنهم خونة لطبقتهم كلها ! .

وتجهم وجه « حنانيا » المتجهم من قبل كأنه تفاحة جافة .

واستأنف « قيافا » :

— إنه يتحدث إلى الناس، ثم بعد أن يتركهم يأخذ الناس فى استذكار ما قال فيتساءلون: لماذا إذن لاتكون للفقراء نفس الحقوق المدنية والسياسية التى للأغنياء ، ولماذا يتخم الصدوقيون بالثراء والمأكل والملبس فى مقابل أن نحرم نحن منه ، ثم إنه يقول إن كل الناس سواء فى نظر الله وفى اعتباره ، وهو يخير شبابنا بين الله والمال ، ويطلب إليهم أن يبيعوا كل ماورثوه ويوزعوا الثمن على الفقراء ثم يسيرون وراءه هو .

— حسنا ... هذه أنباء جديدة إذن .

— نعم ... وإنه ليعلم الناس بأن سوء استعمال الثروة ، من أخطر الآثام وأشدها استحقاقا للعقاب؛ لأن المال يمكن صاحبه من ظلم واستعباد إخوته فى البشرية . وإنه ليطلب من كل إنسان أن يحب أى إنسان غريب آخر ، تماما كما يحب أخاه ، ومنذ أيام قليلة هز أصبعه مهددا الكتاب والفريسيين وقائلا لهم : أنتم مراءون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل،

أليس واضحا إذن أنه يثير البغضاء بين الطبقات ؟ .

— إنه ليعلن أن رجلا فى «أورشليم» يمتلك صندلين يجب أن يخجل من نفسه ويعطى صندله الثانى لمتسول حافى القدمين ! .

وأظلمت عينا «حنانيا» وسأل :

— ولماذا إذن لم تخبرنى عن هذا من قبل ؟ .

— لأنك كنت غائبا حوالى شهرين ، ولأننا كنا نجمع المعلومات لنعرضها عليك مفصلة، ولم يكن «السنهدرين» غافلا ، فإننا نراقب « يسوع » منذ أكثر من سنتين ، وقد عقدنا اجتماعات كثيرة فى الأشهر الستة الماضية لنجد الوسيلة الفضلى للتخلص منه ، فهل تستطيع أن تصدق أنه فى الاجتماع الذى عقدناه فى عيد المظال وقف واحد منا يدافع عنه .

وسأل «حنانيا» فى لهفة :

— ألم يكن هو « يوسف » الرامى :

— كلا ياسيدى .

— فلابد إذن أنه « نيقوديموس » . إنى أعرف رجالى ، فلا تهتم لهذا وقل لى متى اجتمعتم ثانية ؟ .

— منذ ستة أسابيع عندما انتشرت إشاعة بأن « يسوع » أقام رجلا اسمه « لعازر » من «بيت عنيا» ، أقامه بعد موت ثلاثة أيام كاملة ونيف .

— وقد أبقيت هذا سراً عنى ؟ .

— لقد فضلنا أن نظل نعمل فى سرية تامة ، وحرصنا على ألا نظهر . وتركنا الكتبة و « الفريسيين» يتناقشون معه ويحاولون الإيقاع به ، ورآهم الجمهور يلاحقونه حتى عادوا يقولون إن فريق « قيافا » يراقبون « يسوع » ويلاحقونه ليقبضوا عليه .

— بأية جريمة ؟ .

— التجديف . وإذا أمكن فالخيانة أيضا .

وفى بطء ضحك « حنانيا » فقد أدرك أنها مؤامرة قتل ، ولم يكن المسن الداهية متعطشا للدماء ، ولكنه بدأ يشك فى أن صهره قد يكون فى خوفه على حق .

ولعب « قيافا » ورقته الأخيرة .

— ألم تسمع بما حدث فى الهيكل ، ألا تعرف أن هذا « الجليلى» الذى تقول إنه لا ضرر منه دخل الهيكل وقلب كل موائد الصيارفة وطرد تجار الحمام والخراف بالكرباج ؟ .

وقال « حنانيا » وقد تملكه ذعر :

— هل هاجم رجالنا ؟ .

— نعم . وقال لهم لا تجعلوا بيت أبى مكان تجارة ! .

— بيت أبيه ؟ وطرد الصيارفة ! .

— ألم أقل ذلك ؟ .

— وهل قلت أيضا إن الناس يسمعون له ؟ .

— إنهم ليسمعون له بكل قلوبهم ، بل لقد حيوه فى يوم الأحد الماضى بأغصان الزيتون

وسعف النخيل ورتلوا له «الاوصنا» ، باعتباره الملك الآتى من قبل الله ، فليس الآن فندق فى « أورشليم » لايتردد فيه اسم « يسوع » ، مقترنا بأنه « المسيا » و « المسيح » الموعود !.

— خبرنى بالتفصيل عما حدث فى « الهيكل » .

— لقد كان يعلم كعادته ولكن كان يبدو فى طرف عينيه بريق إذ كان يرقب الناس الذاهبين ليستبدلوا نقودهم على موائد الصيارفة . وكان فى يده حزمة من الحبال جمعها من هنا وهناك بينما كان يسير ، وببطء سار بين جموع المشترين والبائعين ورأى الأرباح التى يحققها تجار الماشية والحمام ، وبسرعة تحركت يداه وجدل لنفسه من تلك الحبال سوطا لوح به يمينا وشمالا وضرب به ظهور الصيارفة وقلب موائدهم ، فتبعثرت النقود وجرت هنا وهناك ، وقد ملأت هذه الحركة الفجائية الصيارفة والتجار ذعرا فولوا هاربين أمامه وسرعان ما رأى الميدان خاليا له ، فقال فى صوت مملوء بالاستنكار والغضب :

— مكتوب بيتى بيت صلاة يدعى لجميع الأمم . ولكنكم جعلتموه مغارة لصوص ، خذوا بضائعكم هذه من هنا ولاتجعلوا بيت أبى بيت تجارة !.

ولم يقاومه أحد ولا فكر فى أن يمسه بيد ، وخرج من الهيكل محوطا بتلاميذه الذين كانوا خائفين متوقعين من سلوكه المتاعب ، فسنريهم نحن المتاعب كيف تكون !.

— وقد نسيت شيئا . فقد أخبر جموع الشعب أنه ليست لهم بعد حاجة بالحمام والخراف فإن الله لا يريد بعد ذبائح . إذ سيكون هو الذبيحة الواحدة عنهم جميعا ... ورياه .

وأعاد « حنانيا » المرتاع التعجب .

— ورياه ... عندما ينتهى العيد يا « قيافا » فسنقبض عليه !.

— سيد « حنانيا » .. إننا لا نستطيع أن ننتظر عليه أكثر . ولا يوما واحدا فحسب ، فإن الشعب حقيق بأن يثور ضدنا وينقذه من أيدينا .

— إذن يجب أن نصطنع ضده شهودا وغوغاء !

— لكى نقيم الاتهام ضده !.

— طبعا بالتجديف وبالخيانة ، الاتهام الأول نثير به ضده « الفريسيين » الأغبياء ، والاتهام الثانى نثير به « بيلاطس » !.

وصاح « قيافا » مأخوذا بانتصاره :

— سيد « حنانيا » .. لقد وافقتنى أخيرا .

وللمرة الأولى منذ تحدث إليه صهره وقف « حنانيا » وسكن وجهه الذى كان قد اضطرب وتلون كثيرا أثناء الحديث ولبس قناع هدوئه العادى يخفى به الخوف العظيم الذى تملكه .

وكان يعرف أن صهره أفاق أثيم ، ويعرف أنه أعلن حكمه ضد « يسوع » لذلك الصهر ومع ذلك فقد كان فى روايات صهره شىء مخيف فعلا . ولذلك سأل « حنانيا » صهره فى صوت هادىء خفيض :

— طبعا أنت لا تعتقد أن « ليسوع » أية قوة خفية معجزة ولا هو موهوب بشكل لم يكتشفه بعد أصدقاؤنا ؟ .

— لم هذا المزاح معى ياسيد « حنانيا » ؟ .

— شىء ما يجعلنى أتردد فى أن أقحم نفسى فى هذا الإجراء ، إن مثل هـذا القبض السريع وهذه المحاكمة العاجلة لا سابقة لها فى كل تاريخنا .

— ولكن يا سيد ! .

— اهدأ ولا تخف . إن عقلى يحدثنى بأن من الصواب أن أوافق على خطتك . ولكن شيئا ما فى أعماق نفسى ...

وسخر « قيافا » وظهرت أسنانه البيضاء تلمع بين شاربه ولحيته الأسودين .

— نفسك أنت ؟ .

— نعم . إذا كنت أعتقد بأن هناك نفسا . فإن الشىء الذى يزعجنى موجود فيها حقا ! « قيافا » ... انظر إلى الأمر من هذه الوجهة . . . إنى أعتقد مخلصا أنه ليس أسهل على «يسوع» من إثارة الدهماء . وأن هذا الشىء يمكن أن يحصل فى الأيام القليلة الآتية . وعندئذ فسيدفع «بيلاطس» الجنود الرومانيين إلى العمل . ثم ستحصل مقاومة واضطرابات وحرائق وسفك دماء وقتل . وقد يشدد هذا قبضة الرومانيين على البلد وتسوء حالنا عندئذ ، إن المنطق السليم يا « قيافا » يدعونا إلى أن نعمل فورا لتفادى هذا المصير هذا إلى أننى أريد أن أظهر للسلطات الرومانية مدى إخلاصى لها ورغبتى فى التعاون معها .

واندفع « قيافا » يقول :

— ولهذا ياسيد يمكننا أن نقنع المجلس كله أنه خير أن يموت واحد عن الشعب ولا يهلك الشعب كله ! .

— أرى أنك حددت خطتك .

— طبعاً .. وأظن أننى لست فى حاجة إلى أن ألاحظ إليك أنه كانت هناك صعوبات عملية وقانونية كادت أن تعجزنى أنا نفسى . فلم يكن من السهل إقناع أعضاء «السنهدرين» بأن يجتمعوا سريعا فى غسق الليل . وأن يبقوا ألسنتهم داخل أفواههم ، ولكنهم أخيرا اقتنعوا بأن الأمر خطير مستعجل .

— ثم لم يكن من السهل إعداد الشهود ،فإنه لا أحد يريد أن يشهد ضد « يسوع » ولذلك بذلت كثيراً فى هذا السبيل .

— ألم تفكر فى وجوب التصديق على الحكم ، فلو فرضنا أن « السنهدرين » وافق على الحكم بالموت ، فهل تضمن أن يوافق « بيلاطس» عليه فى الميعاد المناسب . فإن هذا الحكم يجب تنفيذه ضد هذا الرجل قبل أن تفيق الجماهير لما نفعل وإلا . . . .

— أعرف ذلك ، وأعرف أننا نعمل ضد إرادة الشعب وأنه قد تقوم علينا بسببه ثورة ولكنى درست كل هذا ، ومهدت فعلا كل الصعاب حتى بوابة «بيلاطس البنطى» .

— ثم .

— ثم ننسحب نحن . وندع أمر «بيلاطس» لك ، فإنك الوحيد فى اليهودية الذى يعرف كيف يعامله ! .

وقد أتى هذا المدح ثمرته فى الحال ، فانتفخت أوداج السياسى الكبير السن ولعبت أصابعه فى لحيته وقال فى خبث :

— وهكذا أنت تنقذ الأمة ثم تحتال على لكى أحمل عنك المسئولية وأحميك من غضب الأمة ! .

— حسنا سأفعل هذا طالما هو ضرورى. أرسل إذن من يلزم ، واقبض على «يسوع» .

ورفع « قيافا » يديه وقال :

— إنى آسف يا سيد «حنانيا » . فإننا لا نعرف أين نجد الرجل هذه الليلة . وإنه ليهرب دائماً من عيوننا كأنه ساحر يملك أن يغير شكله ، ولكن إذا سمحت فإن فى الخارج رجلا...

— يدلنا على مكانه ؟ .

— إنه أحد رجاله وهو يأبى أن يتكلم إلا إليك أنت .

— وهل نحن فى حاجة حقيقية إليه ؟ .

— إن كل من يعرف أين يختبىء أصدقاؤه الليلة ، ولم نستطع أن نتحدث إلا إلى واحد منهم .

وتنهد « حنانيا » وقال :

— حسنا . فإنه يبدو أن من الضرورى أحياناً أن نتعامل مع الخونة ولو أن هذا شىء تمجه النفس . . أدخل رجلك ! .

وذهب « قيافا » إلى القاعة الخارجية وقال بصوت خفيض :

— تستطيع أن تدخل الآن ، يا « يهوذا إسخريوط » ! .

الفصل الرابع والخمسون

المائدة الربانية

فى ذلك اليوم كان التلاميذ لايعرفون أين يجتمعون ليعدوا الفصح ، ونادى «السيد» إليه « بطرس » و « يوحنا » وكلفهما أن يعدا الفصح .

وسأل « بطرس » مندفعا كعادته :

— ولكن أين ؟ .

وقال « المسيح » :

— انظرا ، عندما تدخلان المدينة تجدان رجلا يحمل جرة ماء فاتبعاه إلى حيث يدخل وعندئذ قولا لرب البيت «إن المعلم يقول لك أين غرفة الضيوف التى أستطيع أن آكل فيها الفصح مع تلاميذى» فسيريكما عندئذ غرفة مائدة كبيرة مفروشة ، وهناك أعدا لنا الفصح.

وتم كل هذا سهلا ، وقد ذبح خروف الضحية طبقا للتقاليد فى ردهة الهيكل الخارجية ، وشوى فوق النار ، وعندما بدأ يوم الفصح ، عند غروب شمس يوم الخميس ، كان الرجال الثلاثة عشر مجتمعين فى الغرفة العلوية الرمادية الكبيرة فى منزل ذلك السيد فوق جبل صهيون فى الركن الشمالى الشرقى فى « أورشليم » .

وكانت الغرفة مرتفعة السقف المحمول على أعمدة ، ومفروشة بأرائك وفى وسطها مائدة مستطيلة تضىء عليها الشموع ، وقد اجتمع حولها الرسل تلقى الشموع بظلالهم الطويلة على الحائط ، فى انتظار قدوم «السيد» .

وبرغم ما سبق أن نبه السيد إليه تلاميذه ، لم يفهموا ، أو أنهم لم يكونوا راغبين فى أن يفهموا أن هذه هى آخر أكلة له معهم قبل أن يموت ، ومن أسف أنهم كانوا لا يزالون متعلقين بالأرضيات غير مدركين المأساة الحقيقية التى كانوا فيها ممثلين يؤدون دوراً عظيما !

وكان الوقت عصيبا . بعدوا فيه عن أن يكونوا قديسين ، ولذلك بدأوا يتناقشون فى نظام الأولوية بينهم ، وترتيب الجلوس إلى جوار المسيح الآن وفيما بعد ، ومن منهم الأعظم والأقرب إلى المسيح فى مجده .

وقد يكون أنهم فى هذا الشجار طامعون فى عطف المسيح عليهم وغفرانه لهم ، واثقون بأنه يحبهم جميعا . ليس لأنهم خلو من الضعف والنقائص وإنما لأنه يرى فيهم ما يكتفى به الآن من ميزات ، وقد وصف «يوحنا» يوما هذا بقوله : « يسوع » إذ أحب خاصته فى هذا العالم أحبهم إلى الغاية .

ولكن « يسوع » لم يشأ أن يترك خلافهم ذاك دون أن يلقنهم فيه درساً قاسيا ! .

ولذلك فإن الدرس لم يكن بالكلام وإنما كان درساً عمليا لمسوه جميعا !

كان وطيس الجدال قد حمى بينهم عندما ظهر المسيح على الباب ملفوفا فى عباءة طويلة زرقاء . وسادهم صمت وخوف هو خوف الأطفال عندما يضبطون فى الفناء الداخلى يلعبون لعبة ممنوعة عليهم . ووضع « يسوع » ملابسه ناحية واحتزم منشفة كبيرة وقد حمل حوضاً وإبريقاً واتجه بهما ناحية تلميذه الأقوى والأغرب . ثم انحنى على قدميه وشهق « بطرس » :

— يارب .. أتريد أن تغسل قدمى ؟ لا .. لا .. لا يصح هذا ! .

كان «يسوع» راكعاً أمامه على ركبتيه ، فرفع إلى «بطرس» عينيه وقال فى هدوء :

إن ما أصنعه الآن لا تعرفه أنت ، ولكنك ستعرفه فيما بعد ! .

واحمر وجه « بطرس » وصرخ :

— إنك لن .. لن تغسل رجلى أبداً .

وصمت التلاميذ خشية أثر اندفاع « بطرس » هذا ، ولكن صوت « المسيح » جاء هادئاً هدوءه عندما أمر الريح بأن تصمت ، هناك فى المركب المتأرجح المشرف على الغرق .

— إن لم أغسل رجليك فسوف لا يكون لك معى نصيب ! .

— ربى ! .. ليس رجلى فقط ولكن يدى ورأسى أيضاً ! .

وغسل « المسيح » رجلى « بطرس » ثم انتقل منها إلى أرجل الباقين حتى أتم غسل اثنتين وعشرين رجلا . ووصل أخيرا إلى « يهوذا » .

وكان قد لاحظ بعض الحاضرين أن « يهوذا » ، وهو حامل الصندوق وأمينه ، كان عند ذاك صامتاً حزيناً ، ليس فيه شىء من الفرح بالعيد ، مصفر الوجه متصلب الجسم ثابتة عيناه على شىء بعيد ، حتى شعر رأسه الأحمر المجعد وشعر لحيته ، لم يتحرك قط وقد فقدت عيناه السوداوان بريقهما العادى والسلطة التى كانت تتمثل فيهما ، وبدا منصرفاً إلى شىء

خارج القاعة لا يراه سواه ، وقام « يسوع » بحوضه وإبريقه ثم ركع أمام « يهوذا » ، وبينما كان يغسل رجليه الطويلتين قال :

— إن الذى اغتسل لا يحتاج إلا إلى غسل الأرجل ، لأنه كله نقى ، وأنتم أنقياء !.

ثم صمت برهة وتنهد وقال :

— ولكن لستم جميعكم أنقياء !.

وأنهى الغسيل وألقى بالماء وارتدى ملابسه .

وجلس على المائدة محوطا بالاثنى عشر وجها وقال :

— أنتم تدعوننى معلماً وربا ، وحسناً تقولون لأنى أنا كذلك . فإذا كنت أنا الرب والمعلم قد غسلت أرجلكم . فإنه يجب عليكم أنتم أن يغسل بعضكم أرجل بعض . ليس عبد أعظم من سيده . ولا رسول أعظم من مرسله !.

وهكذا علمهم أن أعظم الناس خادمهم ، خادمهم فعلا ، وكانت ذراعاه مفتوحتين ، وكفا يديه مرتكنتين إلى مفرش المائدة الأبيض النظيف وعيناه إلى أسفل ، جالساً إلى يمينه «يوحنا» تكاد وجنته أن تلمس كتف السيد ، وإلى جوار « يوحنا » « بطرس » الأصلع منصرفاً إلى سن السكين الكبير الذى كان يسمى عند ذاك سيفاً على ظفر إبهامه الكبير ، ومن بعده «أندراوس» ثم «سمعان» ، بينما جلس إلى اليسار « متى » بلحيته الكبيرة ، «ويهوذا تاديوس» أكبر الموجودين سناً فى ذلك العشاء الأخير ، ثم « توما » بشعره الجعد ولحيته السوداء ، «توما» الكثير الشك المخلص الأمين ، ثم يعقوب الأكبر كبير الحجم ثم « فيلبس » الرقيق الحاشية و «نثنائيل بارتلماوس» ، و «يعقوب» الأصغر وأخيراً فى الناحية المقابلة ، «يهوذا» الأسخريوطى .

وقال « يسوع » :

— شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم .

ثم قال :

— فإنى أقول لكم من الآن ، إنى لن آكله بعد حتى يتم كل شىء فى ملكوت الله .

ومضى يرتل أحد مزامير « داود » ورتلوا معه .

ثم شربوا الشراب التقليدى وأكلوا المأكل الذى يذكرهم بكل ما مر « بإسرائيل » فى تاريخها ، ثم أكلوا من خروف العيد وشربوا الكأس الثالثة ، كأس البركة .

ثم قال « يسوع » :

ـــ أما إنى اخترتكم أنتم الاثنى عشر ولكن لكى يتم المكتوب ـــ الذى أكل الخبز، معى هو رفع على عقبه ـــ أقول هذا لكم الآن قبل أن يكون. حتى إذا كان تؤمنون إنى أنا هو .. الحق أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمنى .

ورنت هـذه الكلمة فى القاعة رنيناً وشرد فكر كل التلاميذ لهذا الاتهام الخطير ثم تذكروا ما كتب من أن أحـد أصدقاء « المسيا » سيبيعه ، وهم يؤمنون بأن « يسوع » هو «المسيا»، ولكن لم يدر بخلدهم أن النبوات تتحدث عنهم وتعنيهم ، وإن الخائن واحد منهم ! .

ولذلك ران على نفوسهم حزن عظيم وأشار كل إلى نفسه بأصبعه ناظراً إلى « يسوع » بعينين دامعتين مستفسرتين مسترحمتين .

ـــ أأكون أنا ؟ .

ـــ أأنا هو يا رب ؟ .

ونظر «بطرس» إلى تلاميذه غاضباً وصاح :

ـــ من هو ؟ .

و «يوحنا» الذى يحب «المسيح» من كل قلبه والذى كان عند ذاك مسنداً رأسه إلى صدر « المسيح » نظر إليه وقال :

ـــ ربى. من يكون هذا ؟ .

ـــ الذى يأكل خبزى .

وتسمروا بينما غمس « المسيح » قطعة من الخبز فى مرق الخروف وناولها فى هـدوء « ليهوذا » . وارتعش صوت « يهوذا » وهو يسأل :

ـــ أهو أنا يارب ؟ .

ـــ أنت قلت .. !

وكان فى عينى « يسوع » عطف عليه وهو يعبر عن استسلامه لما يراد له بقوله :

ـــ ما أنت فاعله فافعله بأكثر سرعة ! .

ووضع «يهوذا» قطعة الخبز فى فمه وجرى إلى الخارج .

وصفق الباب خلفه بقوة ! .

وهنا يقول «يوحنا» :

ـ وكان الوقت ليلا .

وحتى ذلك الوقت لم يستطع التلاميذ الباقون أن يدركوا مدى ما سمعوه وما رأوه. وفي حسن نيتهم كانوا يميلون إلى الظن بأن « يسوع » أرسل « يهوذا » أمين الصندوق لشراء شيء من الخارج :

وبينما وقف «يهوذا» على أول الدرج خلف الباب مترددا، لم يعد المسيح إلى ذكره . وإنما أخذ خبزا وكسر وأعطى كلا من الأحد عشر قطعة وهو يقول :

ـ خذوا وكلوا من هذا كلكم ، هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم. هذا اصنعوه لذكري.

وأكلـــوا .

ثم أخذ كأسا كبيرة وضع فيه نبيذا لكرمة . إشارة إلى ماسبق أن قدمه «ملكي صادق» ذبيحة لله على المذبح خبزا ونبيذا . وشكر « يسوع » الله وأدار الكأس على الأحد عشر قائلا :

ـ اشربوا من هذه جميعكم . هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم وعن كثيرين لمغفرة الخطايا . هذا اصنعوه لذكري ! .

وشربوا منه جميعا كلهم عدا يهوذا الذي كان يستمع لهذا الطقس الجديد من وراء الباب ! الطقس الذي يحمل السرين الإلهيين . سر الغفران وسر الوحدة مع الله . وعلم أن هذا قد فاته ! .

ومضى حزيناً كاسف البال ؟ .

الفصل الخامس والخمسون

الحقيقة الكبيرة

كان هذا هو وقت الفراق المادى بين « يسوع » ومن أحبوه فى هذا العالم !.

وكان ما قاله المسيح عند هذه المناولة الأولى فى تاريخ العالم ، هو حديث الوداع ليس فقط لتلاميذه ، ولكن «لمريم» ولأصدقائه فى «بيت عنيا» ولجميع هؤلاء الذين كانوا قد ولدوا والذين لم يولدوا بعد ممن يحبونه ويحفظون طرقه إلى أبد الآبدين ! .

وقال « يسوع » فى رقة :

— يا أولادى الصغار . . . أنا معكم زمانا قليلا بعد ! .

— وستطلبوننى وكما قلت لليهود حيث أمضى أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا ، كذلك أقول لكم الآن :

— وصية جديدة أعطيكم . . . أن يحب بعضكم بعضا ، كما أحببتكم أحبوا بعضكم بعضا .

وقال لهم ثانية : إنه سيسلم فى هذه الليلة وأنهم سيهربون ويتنكرون له ، مصداقا للنبوة القديمة « اضرب الراعى فتتبدد الرعية » .

ولكن بعد أن يموت ويدفن سيجدونه فى انتظارهم ، وحدد لهم موعدا للقاء بعد الموت هناك فى « الجليل » .

ووجه نظر « بطرس » عندئذ إلى حقيقة بالغة الغرابة ، هناك فى تلك الغرفة العلوية ، « بطرس » الأصلع كثيف اللحية المتجعد الأنف ، « بطرس » الصخرة التى سيبنى عليها «المسيح» كنيسته ثابتة ، حتى لا تقوى عليها كل الشياطين مجتمعة ، « بطرس » الذى قال له المسيح عندئذ :

— « سمعان » . . . « سمعان » هو ذا الشيطان سأل أن يغربلكم مثل الحنطة ، ولكنى صليت من أجلك لئلا ينقص إيمانك ، وأنت متى رجعت فثبت إخوتك .

واستشعر «بطرس» الإهانة ، إنه يعرف أن الشيطان أراد أن يتملكه ، ويعرف أن «المسيح» أنعم عليه بالصلاة من أجله ، مع أنه يعرف نفسه قويا يستطيع أن يهزم الشيطان عند الحاجة ، أما أن يقال له : عندما تثبت فى الإيمان فإن ذلك شك من « السيد » فى إيمانه يجب عليه أن ينفيه ، ولذلك قال :

— يارب . . . أنا مستعد أن أمضى معك إلى السجن وإلى الموت ؟ .

ونظر إليه « يسوع » فى عطف وفكر فى السجن ، سجن « المامارتين » فى روما . الذى سيكون آخر السجون التى سيزج فيها «بطرس» ، ويعقبه الموت على الصليب والرأس إلى أسفل استجابة لرغبته إذ أبت عليه محبته «للسيح» أن يصلب كما صلب المسيح ، رأسه إلى أعلى ، « بطرس » . . . نعم « بطرس » الذى قال له المسيح عند ذاك :

— إنى أقول لك يا « بطرس » أنه لا يصيح الديك اليوم حتى تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى ؟ .

وهمهم التلاميذ محتجين ، ولكن « يسوع » فتح ذراعيه لهم بينما كان « بطرس » لا يزال يصيح :

— حتى ولو كنت سأموت معك فإنى لن أنكرك .

وقال « يسوع » فى شبه همس :

— لا تدعوا قلوبكم تضطرب ، أنتم تؤمنون بالله ، فآمنوا بى أيضا .

وجلسوا وكلهم آذان صاغية ، ومع ذلك لم يدركوا أن الله نفسه كان معهم عند ذاك ، فلابد بعد من حدوث الكثير . ومن حلول الروح القدس بنوره الإلهى فيهم ، حتى تظهر لهم الحقيقة كاملة ، وسر الله الواحد ذى الأقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس . فسجلون هذا عند ذاك فى خطبهم ورسائلهم الآتية ، ولكن « يسوع » قرر لهم عند ذاك حقائق كثيرة بالغة الهيولة .

— فى بيت أبى منازل كثيرة . ولو لم يكن الأمر كذلك لما قلت لكم أنا هذا ، أنا ذاهب لأعد لكم مكانا . وحيث أذهب ستعرفون الطريق .

وسكت لأنه قرأ قلوبهم وسأل التلميذ الشاك الشجاع «توما» وقد انحنى نحو « يسوع » :

— يارب نحن لا نعرف أين تذهب . فكيف نستطيع أن نعرف الطريق ؟ .

وجاءت الإجابة فورية صريحة حاسمة لم يبرح التلاميذ وملايين ملايين الناس من بعدهم يتمعنون معانيها .

« أنا هو الطريق . . .

« والحق . . .

« والحيـاة . . .

« لا أحد يستطيع أن يصل إلى الآب إلا بى .

« وإذا كنتم عرفتمونى فإنكم بغير شك تكونون قد عرفتم الآب أيضا .

« ومن الآن تعرفونه ، وقد رأيتموه . . . »

إن هذا كلام ضخم ذو معان أضخم بكثير . ومع أن التلاميذ لم يدركوا من تلك المعانى عند ذاك إلا أقل القليل فإن «فيلبس» أراد أن يتأكد من هذا القليل فسأل :

— يا «سيد» . . أرنا الآب وحسبنا هذا .

وصمت «يسوع » برهة ، كأنه ينظر إلى ثلاث سنوات خلت عند ما أحضر «أندراوس» لهم شابا خجولا يحمل الاسم اليونانى «فيلبس» . الشاب المفكر الذى كان هاربا من « بيت صيدا» لكثرة الشرفيها ، ثم كيف أحضر «فيلبس» «نثنائيل» ، «فيلبس»هذا الذى يقول الآن :

— يا « سيد » . . أرنا الآب وحسبنا هذا .

وتنهد « يسوع » وقال :

« أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفونى ؟ .

« « فيلبس » .. إن من يرانى فإنه يرى الآب .

« فكيف تقول أنت : أرنا الآب ؟ .

« أما تؤمن أننى أنا فى الآب وأن الآب فى ؟ .

« إن الكلام الذى أقوله لك الآن لا أقوله من نفسى ولكن الآب الذى هو مقيم فى ، هو يعمل جميع الأعمال . . . »

لقد تلقوا هكذا هذه الحقيقة كاملة وفى الصميم ، إنه لم يكن نبيا قديما مبعوثا من جديد ،

ولا هو مجرد رسول من قبل الرب ، ولاهو مجرد « مسيا » ليقود الناس فى حلم جميل من السلام الحقيقى ، وإنما هو نفسه الله ، الابن متحدا بالروح القدس والآب القدير ، سيد السموات والأرض .

ولم يقل لهم هذه الحقيقة إلا الآن قبل ساعة واحدة من جسثيمانى واثنتى عشرة ساعة من الجلجثة ، إذ كانت الرهبة تمحقهم ، ولكنهم أخبروا الآن فقط بالحقيقة العظيمة ومع ذلك فإنهم بعقلهم البشرى وحده لم يستطيعوا أن يمسكوا بها عند ذاك ، وصمتوا حول المائدة فى تلك الغرفة العليا ، واستمر الله يقول لهم :

« وإن سألتم شيئاً باسمى فإنى أفعله ...

« إذا كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ..

« وأنا أسأل الآب فيعطيكم «معزيا» آخر ليقيم معكم إلى الأبد ..

« وسوف لا أدعكم يتامى ، وإنما آتى إليكم .

« إن كان أحد يحبنى يحفظ وصاياى ويحبه أبى وإليه نأتى وعنده نجعل مقامنا .

« وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم كل ماقلته لكم ... »

وتنفس « بطرس » الصعداء فقد كان عقله مشحونا بالأسئلة الكثيرة ، وكان يخشى ألا يتذكر هذا الفيض من أقوال « المسيح » ومعجزاته التى لم تكتب منها كلمة ، أما الآن فقد عرف أن الروح القدس يأتى ويعلمه ويكشف له الحقائق الإلهية ، ويذكره بكل ما رأى وما سمع فاطمأن لهذا ؛ كما اطمأن إلى أن ذلك الروح سيحرس الكنيسة التى سيؤسسها ، وشعر كأن ثقلا انزاح عن صدره ، ثم عاد يسمع وداع « المسيح » .

— سلامى أترك لكم ، سلامى أعطيكم ؛ ليس كما يعطى العالم أعطيكم أنا . لاتحزن قلوبكم ولا تضطرب ، أنا الكرمة وأنتم الأغصان ، كل من يثبت فى وأنا فيه يأتى بثمار كثيرة وهذه هى وصيتى :

« أن يحب بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم ...

« ليس لأحد حب أعظم من هذا ؛ أن يبذل نفسه عن أحبائه ...

« قوموا ننطلق من هنا ..

ومشوا وراءه تباعا ... عبر وادى «قدرون» إلى «جسثيمانى» .

الفصل السادس والخمسون

ثمن الدم

ولج « يهوذا » الشاحب الوجه من الباب متقدما نحو السيدين فى خطأ كريهة الشكل ، فقد ظل حياته غير متزن الفكر أو السلوك أو الخطا ، كان أحمر اللحية مجعد الشعر أشعثه ، ذا عينين منتفختين ، وحركات جسمه مرتعشة كأن قوته لاتتركز فى موضع واحد بل تندفع بسرعة نحو العضو المقصود فيهتز فى دفعة عصبية غير متزن ، وصر صندله فى الأرض عندما وقف لينحنى أمام « حنانيا » .

وأجاب « حنانيا » انحناءته :

— وسلام لك !.

بينما تراجع « قيافا » فى الظل .

— ما اسمك يا ابنى ؟.

— « يهوذا » بن « سمعان » .

— ومن أى بلد ؟.

— « إسخريوط » .

وكان « حنانيا » يكتب على صحيفة بينما هو يتابع اختباره ، وجاء سؤاله الثانى عرضيا محضا :

— وكم من الزمن ظللت صديقا لهذا الـ « يسوع » الـكفر ناحومى ؟ .

— « يسوع » الناصرى ياسيدى ، وأنا صديقه منذ ثلاث سنوات .

— وكيف وأنت رجل طيب من «إسخريوط» تصاحب واحداً من الجليليين المتوحشين؟.

— لقد آمنت بـ « يسوع » ! .

— آمنت بأى شىء به ؟

— بكل شىء ! .

ولمعت عينا « حنانيا » بالغضب وتبادل مع صهره نظرة ذات معنى .

ـــ لماذا إذن تعرض علينا أن تخونه وتكشف لنا عن مخبئه هذه الليلة ؟ .

وأجاب « يهوذا » وكأنه أهين :

ـــ افهمنى جيدا . إنى لست مخبرا عاديا .. وأن ما أفعله أفعله ، أما لماذا فهذا شأنى ! ولست أريد أن يصيبه أى أذى ! .

وبقى الكاهن المسن والكاهن الشاب صامتين ، ثم قال « قيافا » :

ـــ هل تشك فى رحمة وعدل وحكمة قضاة « اسرائيل » ؟ .

ـــ كلا ، إنى أعتقد بأن أعضاء «السنهدرين» هم قضاة الرب الحقيقيون .

ولمعت عينا « يهوذا » وهو يقول هذه الكلمات ، وقال « حنانيا » فى برود :

ـــ أرى أنك ثورى ، ألا تعرف أننى أستطيع أن أرسلك إلى السجن ؟ .

ـــ كلا .. أيها السيد « حنانيا » ليس لديك شاهد على !

ـــ لقد وجدت شهودا بالأمس فقط على متآمر يدعى « باراباس » ، وهو رجل آخر يحاول أن يهيج الشعب ويجر علينا كلنا الخراب ، وأنت مجنون لو أنك احتضنت أفكارا ثورية . ماذا كنت تفعل طوال هذه السنين الثلاث مع « يسوع » ؟.

ـــ كنت أحمل الصندوق ، فأنا أمين صندوقه ، فهو يثق بى إلى أكبر الحدود .

ـــ وهل كنت تدير مالية كبيرة ؟ .

ـــ فلسات قليلة فى أروج أوقاتنا ، فقد كنا نترك إلى الله تدبير ما كلنا وأين ننام ! .

ـــ وهل أنت واثق بأن « يسوع » لم يكن يخفى شيئا لنفسه ؟ .

وصاح « يهوذا » منفعلا :

ـــ قطعا أنا واثق من ذلك . كيف تسمح لنفسك .. !

وتدخل « قيافا » صائحا :

ـــ « يهوذا » : أنت تنسى نفسك ! .

ووضع « يهوذا » يده على فمه ليسكته ثم انحنى وتمتم :

ـــ أنا آسف حقا وأرجو منك المغفرة . يجب على أن أحاول أن أنساه وأنسى كل أعماله لقد كنت تحت تأثير سحره ، حتى سقط السحر عن عينى الآن وعدت أراه على حقيقته . إنه

بسحرك أنت ويصوغ أفكاره فى كلمات تبدو مدهشة ، ولكن هذه أوقات عصيبة ومع ذلك فإن حديثه ناعم ، إذا ضربك أحد على خدك فأدر له وجهك حتى يستطيع أن يضربك على الخد الآخر ، اخضع لكل إنسان . لا تقاوم أحداً ! ، وقاطعه «حنانيا» :

— أظن أننى بدأت أرى أنك تعتقد أن مايصبو إليه هو أن يحبب الشعب إليه ، حسنا فقد نال غرضه يوم الأحد الماضى عندما دخل هذه المدينة وسجد له كل الناس وحيوه بالأوصنا وبالهتافات ، وكان يستطيع أن يفعل بالشعب عند ذاك ماشاء ، فما هذا الذى شاءه فعلا ؟ .

— لاشىء على الإطلاق ! كان يحدث الشعب عن سلام مجنون فى ملكوت الله ، ويجب لهذا أن يعتقل !

— اعتقالا وقائيا ، يقيه من نفسه ؟ .

— نعم ياسيدى ! .

وقال « حنانيا » فى نغمة فضول :

— سؤال آخر .. هل سمعت « يسوع » يهاجم الكهنة ؟ .

— نعم ياسيدى .

— اذكر تفصيل ماسمعت من فضلك ! .

— عدنى أنك لن تعاقبه ولن يصيبه منك ضرر . إنه رجل طيب القلب .

— لقد تحدثنا عن هذا من قبل . كيف كان يهاجمنا ؟ .

— سيدى لقد قال أكثر من اثنتى عشرة قصة حقيقة بأن تطردكم كلكم خارج الهيكل .

ومص « حنانيا » سنته فى صوت مسموع .

— إذن « فيسوع » رجل خطر ، وقد أحسنت صنعا إذ أتيت إلى .

وأمسك « حنانيا » قلبه وقال :

— ومن هم مساندو هذا الرجل الرئيسيون ؟ .

وطفق «يهوذا» يعدد الأسماء و«حنانيا» يسجل ، حتى سجل ستة عشر اسما .. أحد عشر تلميذا غير « يهوذا » و « مريم » أم «يسوع » و « مريم » زوجة «كلوفاس » و « سالومى »

زوجة « زبدى » و « مريم » المجدلية و « حنة » زوجة « كوزى » قهرمان « هيرودس » ، وقال « يهوذا » إن هؤلاء بإضافة « مريم » و « مارتا » وشقيقهما « لعاذر » هم أصدقاء « يسوع » الرئيسيون وموضع ثقته .

ـــ ولكن ألا يتحدث « يسوع » مع رجال من طبقة أعلى ؟ .

ـــ ولم لا ؟ إن هذين لا يعلنان عضويتهما فى فريق « يسوع » ولكنهما يحبانه جدا ، إنهما « يوسف » الرامى والمستشار « نيقوديموس » .

وصاح « قيافا » فى غضب :

ـــ سيد « حنانيا » لقد أحسنت بتوجيه هذا السؤال ، ومع ذلك فإنى لم أشك فيهما قط من قبل ! .

ـــ إن من حقهما أن يمارسا حرية الرأى ياصهرى العزيز !

ـــ والآن يا « يهوذا » ، شيئا واحدا آخر أريد أن أسالك : أظن أنك قلت للكاهن الأكبر أن الليلة هى خير فرصة للقبض على « يسوع » . لماذا هذا ؟ .

ـــ لأنه الوقت الوحيد الذى يسمح لك فيه « يسوع » بأن يقبض عليه .

ـــ ألغاز ثانية ؟ .

ـــ لا ألغاز وإنما حقيقة بسيطة ياسيد « حنانيا » . إن « يسوع » يستطيع أن يختفى من كل جندى وأمام عينيك أنت إذا شاء ، لقد رأيته يفعل هذا عندما كانت الجموع تحاول أن تقتله فى بلدة الناصرة ، إنه محصن ولا يمكن جرحه أو القبض عليه إلا إذا أراد هو ذلك ، وهو يتوقع أن يقبض عليه الليلة .

وسأل « حنانيا » فى شماتة :

ـــ ولماذا لا يختفى بمعجزة أيضا الليلة !

ـــ لأنه يؤمن بأن موته واجب ، وهو يعلن منذ زمن بعيد أنه يجب أن يموت لكى يخلص العالم . خذه الآن إذن وهو فى هذه الحالة وعندئذ فسوف لا يقاومك . وهكذا تتمكن من أن تنفذ غرضك .

قال « يهوذا » هذا فى سخرية لاذعة ، لم يأبه لها « حنانيا » ولا « قيافا » ، إذ كانا يتحدثان معا فى صوت خفيض ، ثم وقف « حنانيا » فجأة وقال :

— اصغ إلى هذه التعليمات : ابحث لنا عن المكان الذى يقضون ليلتهم هذه فيه . هذا مهم يا ابنى ، فإننا يجب أن نقبض على هذا الرجل بينما «أورشليم» نائمة ويجب أن ننهى أمره قبل أن تصحو المدينة .

— ولكن سوف لايصيبه ضرر ؟ .

— أترك لنا كل شىء وأسرع ! .

— ما أفعل، يجب أن أفعله بأكثر سرعة!.

* * *

ولما رفع « يهوذا » رأسه سمع رنين فضة ورأى « حنانيا » منحنيا قرب الشموع يعد بيديه المرتعشتين نقودا . وقال « يهوذا » :

— إنى لا أؤدى هذه الخدمة مأجورا .

ونظر إليه المسن فى خبث :

— مأجورا ! من يستطيع أن يستأجر مواطنا ؟ لاتكن غبيا يا « يهوذا » ، ولكنى تعلمت من تجاربى ألا آخذ شيئاً بلامقابل، ولكى لا تأتى إلى غدا تطلب منى خدمة . سأدفع لك الثمن وينتهى الأمر بيننا . ثلاثون فضة !

ورنت الفضة فى كف « يهوذا » ووضعها التلميذ الخائن فى صدره وجال بعينيه حول جدران الغرفة الحمراء كأنه يتوقع أن يرى يد الرب تسجل عليها هذه الخيانة .

وصاح فيه « حنانيا » :

— اسرع .... وإلا فات الوقت !

الفصل السابع والخمسون

زيارة « لبيلاطس »

كان المتآمران « حنانيا » و « قيافا » يعرفان بأنه يجب عليهما أن يسرعا ، وما كانت الصعاب التي يريانها أمامهما إلا لتزيدهما إصراراً على استخلاص الحكم بالموت على «يسوع» وتنفيذه فوراً ، ولا أقل من ذلك .

والآن وقد رأى السياسي العجوز الخطر ماثلا أمام عينيه فقد أصبح أكثر قلقا من «قيافا» ، وإن بدا عليه في مظهره الهدوء والترفع،فلم يكن يدرك خيرا منه النتائج التي ستنصب عليه شخصياً وعلى عائلته وعلى طبقته كلها إذا ما عاش « يسوع » ، فإن حياته لا تعني غير اختفاء أرستقراطية الهيكل نهائيا ، ولأن مجرد فكرة قدوم عامل نجار من «أورشليم» وبمثل تلك السيطرة على قلوب الناس وشعورهم وأفكارهم هو في طبيعته أكثر إزعاجا من أي «مسيا» آخر يتوقع التاقون مقدمه ، فلو أنه كان «مسيا» محاربا لعرفت «روما» كيف تجيب عليه وقد يؤرقها برهة ولكنها سرعان ماتمحقه ! .

ولكن « يسوع » يدعو لشيء آخر ، ثورة في القلوب من النوع الذي لا يمكن إذا ما ثبت فيها انتزاعه منها ، ولذلك فإنهم كلما أسرعوا في قتله كان ذلك أجدى عليهم !

وكان « حنانيا » مصمما أيضاً على إلباس إجراءاته غير الشرعية مظهر الشرعية التامة ! .

وقال « قيافا » :

— شكراً لله . فإن «بيلاطس البنطي» مقيم في قصره .

— ياه ! .

وبصق « حنانيا » كلمة «بيلاطس» من فمه مع بصقته وقال :

— إني أستطيع أن أوكد أن « بيلاطس » سيسايرني ، وإنما عليك أنت يا « قيافا » أن تتأكد من شهودك ، يجب أن يشهدوا على أن « يسوع » جدف .

وكان في سلوك « حنانيا » عند ذاك اندفاع ، فتى وهو في الثمانين من عمره لم تبرح الصعاب تزيد تصميمه قوة وتنسيه ضعفه وتعيده شابا ، وإنه ليتذوق النصر مقدما !

وكان الوقت ليلا عندما حمل الخدم محفته فى الشوارع الضيقة المزدحمة متوجهين به إلى مقابلة «بيلاطس» تتقدمهم وتتبعهم المشاعل. وكان العجوز يكره ضوضاء واضطراب الشوارع فى أيام العطلات وإنما كان يهون الأمر على نفسه بأن قلعة « أنطونيا » حيث يقيم « بيلاطس » قريبة .

وكانت الجماهير تفسح الطريق للموكب فوق القنطرة التى تؤدى إلى وادى تجار الجبن ثم إلى التل حيث يقع الهيكل ، وحيث مارس « حنانيا » نشاطه طيلة حياته ، وكان يرى فى الظلمة الزاحفة قباب الهيكل الشامخة واحدة تلو الأخرى ، تلوح كأنها شرفات عريضة ومن ورائها فى الركن الشمالى الغربى بدت أحجار قلعة «بيلاطس» الخضراء الداكنة ، وأنها لتشير إلى قوة الامبراطورية ، إذ تقوم على صخرة فارعة ارتفاعها خمسون ذراعا ، وكان يدور حولها عند ذاك وبمناسبة الأعياد عدد مضاعف من الحراس الرومانيين يحرسون بواباتها وحوائطها وثكناتها ، بعد إذ أقسم « بيلاطس » أنه لن يثور الشعب ثانية طالما هو يحكم «أورشليم » .

ووصل « حنانيا » إلى القصر وفى قلبه انقباض ، فقد كان كصدوقى أرستقراطى يلعب لعبته مع «بيلاطس» وفى يده قفاز ، وكان فى داخله يكره الإمبراطورية أكثر من أى فريسى أو ثورى آخر ، ولعل من أخص الأسباب التى ملأت قلب « حنانيا » كراهية للرومان إصرارهم على إذلاله ، إذ يحتفظون بملابس رئيس الكهنة الرسمية فى رأى الحاكم ، فلا يستطيع الكاهن الأكبر أن يلبسها إلا إذا استعارها من الحاكم لمدة محدودة وفى المناسبات الرسمية فقط ، ولذلك فلم يكن « قيافا » يستطيع أن يلبسها عند ذاك إلا فى الغد ، بمناسبة عيد الفصح ، ثم عليه أن يردها ثانية عقب العيد مباشرة للحاكم الأجنبى علامة على عبوديته له !

وكذلك كان « حنانيا » يشعر بمدى كراهية «بيلاطس» لكل اليهود ، وكيف إنه يتجنب أية علاقة مباشرة بهم ، حتى بينما هو يعيش بينهم ويحكمهم ، ومن المؤكد إذن أنه غير مرحب بهذه الزيارة المتأخرة . ولكن « حنانيا » يعرف أنه آت فى مهمة ذات اعتبار سياسى خطير ، يمكن أن يبرر بها مضايقته تلك « لبيلاطس » .

ووقف الحراس حملة المحفة قرب بوابات «البريتوريوم» وقذف «حنانيا» باسمه وبالغرض من زيارته فى وجه جندى رآه غير مهذب ونظر إليه الجندى فى تحد ، ولكنه شد سلسلة

دقت جرسا بعيداً ، وعندما حضر من الداخل جندى آخر سمع الاسم ، سمح « لحنانيا » بالدخول .

واستطالت الزيارة نصف ساعة وعندما خرج « حنانيا » كان يبدو فى عينيه بريق الانتصار !.

وكان يقول لنفسه: «عند ماتصل قضية «يسوع» إلى «بيلاطس»، فسيموت الناصرى وستضع حدا لمشكلته فلن يسمع أحد اسمه بعد !

الفصل الثامن والخمسون

نحن على استعداد

عندما عاد « حنانيا » إلى منزله وجد جمهوراً من خشنى المظهر أمامه يتحدثون معاً كأنهم عمال ينتظرون رئيسهم ليخبرهم ماذا يعملون . وسر «حنانيا» لأن هؤلاء هم من يلزمه بالضبط. غوغاء ونشالون ومتشردون ومقامرون وسكيرون كثيرو الصياح والجلبة ، مستعدون دائماً لارتكاب أية جريمة مقابل مبلغ من المال !

وسيكون رئيسهم الليلة هو « قيافا » ! .

وكان «قيافا» قد عمل بسرعة ولم يقتصر على أن يجمع هؤلاء المأجورين ليصيحوا حسب إشارته فى الوقت الذى يختاره ، حتى يبدو أن صوتهم هو صوت اليهود جميعاً ، وإنما استدعى أيضاً طابوراً من حراس الهيكل الخطرين الذين وإن لم يكن معهم سلاح فإن ضخامة أجسامهم وقوة نظراتهم تشعرك حتماً أن من الأسلم ألا تقاومهم أو تحتك بهم ، وكانوا ناقمين على « يسوع » لأنهم وبخوا على عدم منعهم له من قلب موائد الصيارفة وتهديدهم بالكرباج وطردهم من فناء الهيكل ، وقال لهم الكهنة إنهم لو كانوا متنبهين لواجبهم لما حصل شىء من ذلك ، ولكن هؤلاء الحراس أجابوا إنهم كانوا مشغولين فى أداء واجباتهم الأخرى ، إذ هم مسئولون عن حراسة وصلاحية الآلات الموسيقية والدفوف ، وعن نظافة الهيكل وعن إصلاحات المبنى والموائد وأدوات العبادة ، وعن تفصيل وخياطة وحفظ ملابس الكهنة وخدم الهيكل ، وعن إعداد الأوانى والسكاكين والأدوات التى تستعمل فى طقوس تقديم الذبائح ، وفى أعمال الغسل والتجفيف التى لا تنتهى . وشكليات أخرى كثيرة يجب مراعاتها بدقة وتلقينها للطلبة الموجودين تحت التمرين .

ووعد «قيافا» كل هؤلاء الغوغاء وحراس الهيكل بأنه سيلحق بهم فوراً جنود رومانيون مسلحون ، ينفذون إجراءات القبض وحراسة السجين من البداية إلى النهاية .

وقال « حنانيا » :

— « قيافا » . . لقد تصرفت سريعاً ! .

وقال « قيافا » :

— وخيراً مما تظن ، فقد أرسلت دعوة شخصية لكل عضو فى المجلس ليحضر جلسة «السنهدرين» الليلة ، ويبقى فيها حتى حين إتمام الغرض من عقدها، وقد أدركوا جميعاًخطورة الأمر واستعجاله ، ثم ها هو ذا « يهوذا » قد عاد .

— « يهوذا »؟ .

— نعم « يهوذا » الإسخريوطى، الرجل الذى سيدلنا على مكان « يسوع » ، فقد عرف أين هو بالضبط .

— فهل أنت إذن مستعد ؟.

— فوراً .

الفصل التاسع والخمسون

البستان المظلم

كانت الساعة قد تخطت التاسعة وكانت الدنيا مظلمة تماما عندما ولج « يهوذا » الباب الخلفى لبيت « حنانيا » واتجه إلى الردهة حيث حراس الهيكل ، الذين وإن كانوا ممنوعين من حمل الأسلحة ، إلا أنهم كانوا قد استحضروا عصيا ومجالد ، وكان واقفا على بعد منهم ضابط رومانى وستة جنود معهم فوانيس ومشاعل ومقابض وسيوف ودروع ، وسار « يهوذا » أمامهم فى شارع ملتو كريه الرائحة لم يكن ليسمع فيه غير صوت وقع أقدامهم ونباح كلب من بعيد ثم فى طرق ضيقة ملتوية غير ممهدة حتى انتهوا إلى منعطف قرب الزاوية الجنوبية الشرقية لجدار الهيكل ، ثم صعدوا درجا صخريا حتى قرب بركة « سلوام » حيث كانت البوابة مغلقة ، فتحدث الضابط الرومانى مع حارس البوابة ثم اتفقا على أن تبقى البوابة مفتوحة حتى يعودوا بأسيرهم ، وأمر الضابط الحراس بألا يخبروا أحدا بذلك ، وبينما كان الجنود الرومانيون واقفين فى انتظار عودة الضابط كانوا يتساءلون : لماذا اجتمع كل هذا الجمهور وحراس الهيكل ؟ ألمجرد القبض على رجل واحد ؟ وكانوا قد سمعوا أقاصيص عن « يسوع » وعن القوة الخفية فيه ، وسمعوا أنه يستطيع أن يمشى فوق الماء وأن الرياح تخضع لأمره وأنه سبق أن أشبع أربعين ألفاً من الجياع من ملء سلة من الخبز والسمك ، شبعوا جميعا ثم فاض منهم ملء سلات كثيرة ، وكانوا قد سمعوا أيضا أن هذا الرجل يختفى هو وبعض أتباعه فى بستان يقع خلف حائط المدينة . فماذا تراه يفعل الآن فى ذلك البستان ؟ هل هو يمارس السحر ؟ هل يستحضر الشياطين ؟ ثم لماذا يجب أن يحضروا كلهم لمجرد القبض على ساحر فى الظلام ؟ ألم يكن نور النهار أفضل ؟ .

وسمعهم « يهوذا » يتحدثون ولامهم على ما يقولون ، فإن « يسوع » لم يؤذ أحدا قط ، وهو ليس بساحر ، ثم دعاهم لأن يتبعوه خارج البوابة ثم عادوا فهبطوا قليلا حتى شاطىء نهر «قدرون» الذى ينحدر بين «أورشليم» والجبل ، ثم إلى وادى «قدرون» حيث كانت فى قديم الزمن تقدم الضحايا البشرية إلى الإله «ملوخ» ، ثم ابتعدوا عن خرير مياه النهر ودرجوا إلى «جبل الزيتون» ، وقد تملك الجنود الرومانيون شىء من الخوف . فمن ذا الذى لا يخاف هاربا له قوى سحرية خارقة للعادة ؟ .

وحاول « يهوذا » تهدئة هلعهم مؤكدا لهم أن « يسوع » ينتظرهم فعلا إلى جوار معصرة زيتون فى بستان « جسثيمانى » المكون من جملة حدائق متجاورة تكون مثلثا يقع بين ثلاثة دروب جبلية ضيقة تؤدى إلى الطريق الكبير إلى « بيت عنيا » ، وقد سبق أن مر بها « يهوذا » من قبل ولكن ليس فى وقت متأخر كهذا ، فإن « يسوع » اعتاد أن يذهب فى أية ليلة أخرى هو وتلاميذه إلى بيت أصدقاء مثل بيت « لعاذر » أو جيرانه .

أما تلك الليلة فقد كان هو وتلاميذه فى ذلك البستان ، ولم يكن « يهوذا » يعلم لماذا هم هناك أو ماذا يفعلون وإن كان هذا لا يهم ، وكان للنقود الفضية صوت خفيض حلو يتردد فى أذنيه كلما سار خطوة ، ولكنه انقلب يتنهد فى أسى بينما كان يقود الطابور الطويل فوق الصخور .

وقال «يهوذا» شيئا بصوت خفيض ثم رفع يده ووقف الطابور الطويل عند سور يلف حول المكان الذى يقصده . وكان كثير من القادمين يعرف هذا المكان ويتذكر القصص عن القصور الفخمة التى سبق أن بناها الملك « سليمان » لزوجاته الوثنيات .

وكان السور قد قطع فى مكان ما ليسمح بالمرور إلى الداخل . وأجال « يهوذا » نظره من هناك باحثا وفجأة بدا أن الظلام قد خف أو أن النجوم ضاعفت ضوءها ، فأجال «يهوذا» بصره بين الأشجار الضخمة الموغلة فى القدم ، وأرهف أذنيه وشم عبير الفاكهة التى توشك أن تنضج حتى اعتادت عيناه المنظر ورأى رجلا ضخماً نائما على الحشيش وقد وضع تحت رأسه عباءة ملفوفة ، إنه « بطرس » ، وعلى بعد منه ينام رجل نحيف يرجح أنه « يوحنا » ، وأخذ « يهوذا » يعد النائمين حتى أتم أحد عشر ، ثم لم ير « السيد » .

وأجال نظره ثانية وأصاخ السمع وفطن إلى صوت يصلى ، آت من مكان أبيض اللون منبسط . وهناك رأى « يسوع » الناصرى يصلى فى صوت متألم ! .

— أبت ! .. إذا أمكن .. فلتعبر عنى هذه الكأس ! .

وتقلص أنف « يهوذا » احتقارا وهو يتمتم :

— إنه خائف .. وإنه ليصلى لكى يسمح له بالهرب من هذه الساعة ! .

ولكن «يسوع» لم يكن قد أتم صلاته بعد ، إذ قال ثانية :

— ومع ذلك فلتكن لا مشيئتى ، بل مشيئتك ! .

ودهش « يهوذا » لهذه الصلاة التى اعتبرها ذات وجهين . فإن « السيد » يريد الحياة ولكن إذا أصر الآب ، فلتكن مشيئته فهو أدرى بما فيه الصالح ، وسيطيعه « يسوع » حتى الموت ! . وبدا هذا الاستسلام لمشيئة الآب غريبا على ذهن « يهوذا » ، فقد درج كما درج غيره على أن يطلب إلى الله فى صلاته شيئا مقابل شىء آخر يقوم هو به لله فيقول مثلا :

ـــ اقض لى هذه المصلحة وسأذبح لك خروفاً مسمنا ! .

أما « يسوع » فإنه لا يطلب شيئا مقابل آخر . وإنما يطلب أن يعرف مشيئة الله حتى يستطيع أن ينفذها ! .

وانتهت الصلاة وساد صمت قطعه حفيف ثوب سائر على الحشائش ، وكان « يسوع » متجها إلى « بطرس » الذى كان شخيره مسموعا وقال له :

ـــ «بطرس» .. ماذا ؟ ألا تستطيع أن تسهر معى ساعة واحدة تصلى فيها لئلا تدخلوا فى تجربة ! . أما الروح فمستعد وأما الجسد فضعيف . ناموا إذن واستريحوا ، ولكن الساعة أتت . انظروا ... هوذا ابن الإنسان يسلم إلى أيدى الخطأة ، قوموا فقد قرب الذى يسلمنى ! .

وتقدم «يسوع» خطوة ومس بأصابع رجليه كتف «بطرس» فى رفق ، وتململ «بطرس» واستدار وجلس فى قوة ورفع عينيه إلى «يسوع» .

ثم هب واقفاً على قدميه ولمع فى يده سيفه .

ولم ينتظر « يهوذا » أكثر من ذلك ، وإنما وضع يدا ثقيلة رطبة على معصم زعيم العصابة وهمس :

ـــ لقد أتت الساعة . . . دعنا ندخل ونقبض عليه وستعرفه حتما ، فإنه الرجل الذى سأقبله .

وسمعت أصوات خشنة ورنين المعدن وأضيئت المشاعل واستيقظ التلاميذ النائمون وفتحوا عيونهم على لمعان الدروع والسيوف فى ضوء المشاعل .

وتقدم « يهوذا » حتى قبالة «يسوع» وقال :

ـــ السلام يا معلم ! .

وقبله ! .

وأعطى « يهوذا » الجنود الرومانيين هكذا العلامة فتقدموا مشرعين أسلحتهم فى حين

تراجع هو خطوتين إلى الخلف ، وضم «يسوع» يديه وقدمهما للقائد الرومانى القادم نحوه .

وكان هذا أكثر مما يستطيع « بطرس » المذعور عند ذاك أن يتحمل ، ورفع يديه بسيفه وضرب ماكلس عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه .

وحدث تماسك وجلبة أنهاها أمر قاس من « يسوع » :

— بطرس .. بطرس .. اغمد سيفك فإن كل من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ ! .

« أتظن إنى لا أستطيع أن أسأل أبى فيقيم لى فى الحال جوقات من الملائكة ، ولكن كيف تتم الكتب ، فإن هذا هو ما ينبغى أن يكون ! .

ولمس الأذن فأبرأه .

وتقدم أحد حراس الهيكل ومعه حزمة من الحبال وأخذ يربط معصمى « يسوع » ، ووقف تلاميذ « يسوع » برهة يشاهدون المنظر ، وقد امتلئوا رعباً وبدت لهم المشاعل كأنها تضىء دنياوات صغيرة فى عالم كبير مظلم مخيف ، فر فيه كل منهم إلى ناحية ناجيا بنفسه ، فيما عدا واحداً استطاع حارس أن يمسك بردائه ولكنه استدار على نفسه فأفلت منه عارياً تاركا رداءه فى يد الحارس ، ثم سرعان ما اختفى الهارب بين الأشجار فى الظلام .

وهكذا فر التلاميذ تاركين معلمهم يلاقى مصيره المرسوم :

ولكن «بطرس» و «يوحنا» عادا فتبعاه من بعيد .

الفصل الستون

السجين

كان « حنانيا » — أقوى رجل فى « إسرائيل » — منقبض الصدر فى انتظار القبض على « المسيح » وإحضاره أمامه ، وكان يتوقع بعض المتاعب ، فإنه بصرف النظر عن إعدامه عدداً كبيراً ممن يدعون أنهم « المسيا » لا يزال الشعب مثقلا متعباً ، ومحتاجاً إلى الخلاص .

وكان الشيخ يدير بصره فى يأس فى أرجاء القاعة الكبيرة ، وسمع أصواتاً ، فقام من مجلسه واتجه ببطء نحو الدرجات المؤدية إلى عرشه ، وصعد الدرجات فى تراخ حتى جلس على الكرسى الفخم ، ثم فتح الباب ووقف قائد الحرس أمامه وقفة انتباه وقال :

— سيدى . . لقد نفذنا الأوامر حرفيا وقبضنا على الرجل ، وها هو ذا واقف ببابك . . . « يسوع » الناصرى .

ودفع السجين إلى الأمام حيث وقع عليه نور الشمعدان الكبير المعلق وملأ منظره عينى « حنانيا » وقلبه ، وارتجف زعيم « أورشليم » السياسى وأغمض عينيه ثم فتحهما ثانية ليرى «يسوع» جيداً ، ولم يجد فى منظره شيئاً خارجاً عن العادة ، كان رجلا طويلا مقيد اليدين فى رداء أبيض وصنادل ، وسأل نفسه : « أى شىء فيه يرجف ويصدم القلب ؟ » ، لا يمكن أن يكون شعره البنى الفاخر ولا ذقنه غير المشذبة ، فإن كثيرين من الفلاحين والعمال لهم مثل هذا الشعر ، ولا هو الشريط الأبيض الكبير الملفوف حول رأسه ؛ لأن هذا هو لباس الرأس الوطنى ، كما أن هذا الشريط ينزل إلى كتف « يسوع » ثم إلى جانبه ، شأنه شأن أشرطة الآخرين ، ولكن « يسوع » ربط شريطه تحت لحيته بحبل . ولم يلاحظ بصر السياسى المسن النفاذ أن رداء السجين الداخلى القرمزى منسوج كله قطعة واحدة وغير مخيط ، ولا علم أن هذا رداء أعطته إياه فى طريقه إلى « أورشليم » إحدى السيدات المؤمنات به الشاكرات لنبل رسالته .

وكان « يسوع » يلبس أيضاً ذلك المساء عباءة زرقاء مسندة إلى كتفيه زينت زواياها الأربع بشرائط من نفس اللون .

وكان فى منظره ، بصندله المترب من طول السير فى الطريق العام ، منظر رجل عادى تماماً ،

ولكن « حنانيا » شعر بالرغم من ذلك بأن فيه شيئاً يميزه عن كل الناس ، فما هذا الشيء ؟ .

أيكون الشخصية التي تشعرك أنها منفصلة وحدها عن العالم ، أم هي القوة التي استشعرها « حنانيا » تشع من كل «يسوع» ؟ ، ولكن أين مقر هذه القوة ؟ وكيف استشعرها «حنانيا» هكذا ؟ .. بأى شكل إذن تعبر هذه القوة عن وجودها ؟ .

أتكون هي في بريق عينيه الواسعتين المفترقتين عن بعضهما مثل عيني أمه مريم ؟ . إن حيوية روحية دافقة تطل من هاتين العينين الكبيرتين المتطلعتين في اهتمام ، إنهما عينا رجل وثيق الصلة بالله ، مدركتان قربه وطيبته ، إنهما لتعبران عن طمـأنينة طويلة الأمد والمستقر ، وإنهما لتنطقان بأنهما تعرفان أين توجدان ، وتعرفان تماماً هذه الغرفة ذات الجدران الحمراء من بيت « حنانيا » ، غير مهيلتين برغم أن رسغى صاحبهما مقيدان بحبال من الجلد تمرق في اللحم .

وحزم «حنانيا» أمره ليتخلص من قوة اللغز الماثل أمامه ، ولذلك ركز نظره على وثاق يدى « يسوع » ، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من إدراكه أن من العبث أن تقيد القوة بمثل هذا الوثاق .

كانت نظرة السجين هادئة ، نظرته إلى كل الرجال المحيطين به المؤجرين والمستأجرين والقضاة الذين يعتقدون أن الله العظيم إله «إسرائيل» ، إله «إبراهيم» و «إسحق» و «يعقوب» إله خاص بهم ، أو أنه عضو في جماعتهم بكل ماتملكه من أراض وعقارات وعبيد ورهونات.

وكأن « يسوع » إذ نقل بصره عند ذاك من « حنانيا » إلى « قيافا » يقول :

— «يوسف قيافا» إنك كاهن الهيكل العظيم ، وإنك وحماك تباركان فقر الفقراء ، وتعملان على أن ينسى الناس أنبياء القرن الثامن ، ولكني سأدعو الناس لأن يستمعوا مرة ثانية إلى رعد صوت هؤلاء الأنبياء .

وكأنما كان في نظرته الطويلة المتنقلة من وجه « يوسف قيافا » ثانية إلى وجه « حنانيا » شيء من العطف عليهما في المشكلات الكثيرة السياسية والقضائية التي يواجهانها في مؤامراتهما ضده .

وترك « حنانيا » السكون السائد يستطيل دهراً ، ثم اعتدل في جلسته في أبهة حازمة ، ليستمع إلى التقارير ، وشعر بالراحة عند ما سمع أن أتباع السجين تخلوا عنه وفروا هاربين ، فإن هذا قال حسن يشير إلى أن الشعب نفسه سوف لا يعترض على قتله بالشكل الذى كان يخشاه ، فأين مساندوه إذن ؟ ، ومص « حنانيا » سنته الواحدة راضياً ، ولم يشك في أن بين

المتزاحمين على الباب اثنين من هؤلاء الجليليين أنفسهم ، أحدهما رجل ضخم قوى فى رداء من الصوف محزوم بحبل قديم ابتدأ الشيب يخط ذقنه ، والصلع يزحف فى رأسه ، صياد سمك خشن فى أنفه ثنيات ، لا يعنى بتقاليد المدينة ، كان هذا «سمعان» المدعو «بطرس» ولكن «حنانيا» لم يعرفه ، وكان واقفاً قريباً منه ، كأنه لا يعرف عنه شيئاً ، وصياد آخر هو «يوحنا» أحد أبناء «زبدى» ، شاب ذو وجه يموج فيه القلق .

وأشار «حنانيا» فى صبر نافذ إلى «يهوذا» الواقف إلى الخلف قائلا :

— لقد وعدت بألا تكون هناك أية مقاومة ، فماذا حدث إذن بأذن الجندى يا «يهوذا» ؟ .

ورفع «يهوذا» كتفين مثقلتين وقال بصوت متحشرج :

— إنه «بطرس» . . . «بطرس» المجنون الذى يحب الاندفاع والتظاهر متحدياً كل النتائج ، إنه «بطرس» وحده هو الذى قاوم الاعتقال ويجب أن تعاقبه أيضاً أيها السيد ، وأن تعاقبه بأقصى ما تعاقب سجينك هذا ؛ لأن «بطرس» رجل قوى يعشق استعمال القوة .

— وهل قطعت أذناً ؟ .

— أذن ! .

— لقد سألتك عن هذا . هل قطعت أذن أم لم تقطع ؟ فقد سمعت خرافة أطفال عن رد أذن إلى مكانها من رأس جندى . أفلا أجبت إذن ؟ .

وبدا أن «حنانيا» تحمل «يهوذا» كثيراً ، وأن صبره قد نفد وبدا الغضب واضحاً .

— لا أعرف شيئاً عن الأذن يا سيدى فقد كانت العواطف ثائرة عند ذاك ، وعلا الصياح ، وربما حصل حادث الأذن هذا ، إن «يسوع» يمكنه أن يعمل أعجب من مجرد رد الآذان عند ما يريد .

واتجهت نظرة الأعين العجوزة النفاذة تلقائياً إلى السجين ، ولكن «حنانيا» رد بصره سريعاً ، إن شيئاً يزعجه كلما ألقى نظرة على السجين ، قد يكون هذا المزعج هو هدوء «يسوع» أو أنه استقراره وإحساسه بالأمن ، أو الإصرار البادى فى شكل فمه الرقيق العطوف ، ولكن ليس فى منظره عموماً أية وقاحة ، أو صلف ، أو غرور ، وليس فيه روح غير صديقة أو شاكة ، وإنما يعكس منظره هدوءاً داخلياً عظيماً ووقاراً وقوة لا يتصور المرء كيف تتوفر فى مثل هذا الموقف وهذه الظروف .

وغص بريقه وتنحنح وفرك يديه كأنما استطال جسمه ، إذ صمم على أن يقاوم سحر سجينه وأن يفهمه أنه أحضر أولا « لحنانيا » ؛ لأن « حنانيا » هو أعظم رجل فى « أورشليم » وأقوى شخصية ، بل إنه ملك «إسرائيل» غير المتوج ، وليفهم هذا أيضاً الغوغاء الذين بدأوا يهمسون بأن هذا الناصرى هو ملك اليهود ، فإن هذه المناسبة هى مناسبة تحديد الموقف ورسمه بوضوح ، وانتفخت شرايين الشيخ وأوردته بدفعة الدم والإحساس بالقوة وهو يقول مثنيا ذراعا إلى جنبه ومشيراً بأصبعه :

— « يسوع » . . إنك متهم بالتجديف . فهل أنت مجدف ؟ .

وأشرقت ابتسامة « يسوع » طيبة وقورة ، ونظر حوله نظرة تفهم وعطف ، وجاء صوته هادئا مستقراً رصينا وفى لغة تشوبها لهجة الجليليين :

— أنا كلمت العالم علانية ، وعلمت فى كل حين فى المجمع وفى الهيكل حيث تسمع كل اليهود ولم أتكلم بشىء خفية ، فلم تسألنى أنا ، سل الذين سمعونى ! .

ولمعت فى عين « حنانيا » القاسية نظرة إعجاب ، فإن هذا السجين الواثق بنفسه حريص ولا يسهل الإيقاع به ولا أخذه بالمفاجأة . وها هو يعنى أنه رجل برىء ويتمسك بحقوقه كمواطن فى ظل شريعة «موسى»وبأنه يجب على «حنانيا» وأنصاره أن يثبتوا دعواهم عليه أمام المحكمة بشهادة الشهود ، إن « يسوع » يعرف ويعنى ما يقول .

ولعبت أصابع « حنانيا » فى لحيته وتمتم :

— فهمت أنك تطلب الدليل . . حسنا إذن يا « يسوع » الناصرى . إنى أحجزك رهن المحاكمة الفورية بتهمة التجديف .

وسرت بين الجمهور همهمة أخذت تشق طريقها من باب القاعة إلى السلالم وإلى الفناء حتى الشارع إذ أمسك «يهوذا» بعباءة « حنانيا » وقال فى صرخة متحشرجة :

— تجديف . . وزندقة .. أتحاكمه على هذه التهمة ؟ .. لقد وعدت ...

ولم يستطيع أن يتم جملته إذ هجم عليه أحد الجنود وسد فمه بيده واستدارت عيناه المعذبتان تبحثان عن وجه « يسوع » ، ولكن الجنود كانوا قد أداروا وجهته وأخذوا يمشون به إلى المرحلة الثانية من رحلته الحزينة .

الفصل الحادى والستون

الإنكار

اقتيد « يسوع » من بيت « حنانيا » مباشرة إلى بيت كبير الكهنة الملاصق للهيكل ، وقد مضت الرحلة التى تستغرق عادة أقل من عشرين دقيقة ، فى سكون مطبق ، وكان الليل فى أشد ساعاته ظلمة والشوارع الضيقة الملتوية مهجورة تماما إلا من المأجورين و « يهوذا » والعساكر الرومانيين ، فلم يشاهد أحد من الأهالى هذه الرحلة الصامتة إلى دار المحاكمة .

وعند باب بيت « قيافا » الخارجى وقف الطابور فى انتظار الأوامر والتف بعضهم حول « يسوع » وقد وقف مرتفع القامة مكتوف اليدين بين جنديين . ولم يدر عينيه الساكنتين ألبتة ، ولو فعل لرأى إلى الشمال رجلا ضخما يدفىء يديه فوق نار مشتعلة هو « بطرس » .

ولو استدار يمنة لرأى « يوحنا » بوجهه الشاحب مندسا بين جموع المأجورين .

وكان «بطرس» لا يزال يدفىء يديه عندما وقفت أمامه فجأة خادمة تحمل سلة ، وكان اسمها « هيلدا » وكانت من رئيسات خدم « قيافا » ، ونظرت إلى « بطرس » طويلا وقالت فى احتقار :

— أنت ! .

وقال « بطرس » فى صوت متعب :

— أنا؟ .

— نعم أنت ، أنت كنت مع « يسوع » الجليلى .

وقال « بطرس » فى صوت متلجلج :

— لست أعرف ما تقولين .

ولكن « هيلدا » ضربت الأرض بقدمها وأصرت :

— أنت كنت معه .

وهز « بطرس » رأسه فى إنكار وقال :

— إنى . . لا أعرفه .

وحاول « بطرس » أن يمشى ، آملا أن يضيع بين الزحام ولكن خادمة أخرى وقفت وصاحت :

— إنه واحد منهم وهو أيضاً جليلى . انظروا إلى لهجته .

وعندئذ أكد « بطرس » :

— لست منهم .

ولم تكد تغادر الكلمات الكاذبة شفتيه حتى علا فوق ضجيج الأصوات صياح ديك ، وعندما استدار «بطرس» ليرى عينى «يسوع» الحانيتين بكى بحرقة وبمرارة ، فلم يكن فى نظرة « يسوع » أى لوم وإنما إدراك وتقدير وحب ! .

وكان الصوت الذى سمعه بقلبه بعد أن صمت الديك . هو صوت محبة الله ! .

الفصل الثاني والستون

القضاة

أبقى السجين خارج قاعة المحاكمة بينما وقف الجمهور بين عمودين فى المدخل عالما أن « يسوع » سيظهر أمامهم حالا .

وكانت قاعة المجلس ذات الأقبية حيث تجرى المحاكمة مضاءة بمئات من شعلات الزيت موضوعة فى تجوات فى الجدران ، قاعة اجتماعات كبيرة جدا مبنية من قطع رخام ضخمة يطلق عليها قاعة الأحجار المنحوتة وبالعبرية « ليشكاس هجازيس » ، وكان الناس يعتبرونها معقل العدالة الوطنى .

وفى الساعة الحادية عشرة من أمسية ذلك الخميس كان السبعون قاضيا يحتلون مجالسهم فيها ، فقد جهد «قيافا» فى جمعهم ، وكان السقف يردد صدى حديثهم الخفيض ، حديث مصطبغ بالإحساس بأهمية تلك المناسبة ، وكانت الوسائد ذات الأشرطة المطرزة مصفوفة فى شكل دبوس الشعر مثل حرف « U » وقد جلس عليها القضاة حفاة متربعين يفركون أطراف أصابعهم ويهزون رءوسهم ويديرون أعينهم ويمدون أياديهم مفرودة الأصابع فى شكل مروحة ، هازين أكتافهم وحاكين ظهورهم يتهامسون باهتمام عن سبب دعوة « قيافا » الفجائية لهم ومقدار القلق والإزعاج الذى دعا « حنانيا » لعقد هذا المجلس فى مثل هذه الظروف التى لاسابقة لها ، أتراه خاف إلى هذا الحد من قوة السحر الذى قيل بأنه يشع من كل جسم السجين ؟ .

وفى قلب ذلك الحرف « U » جلس موظف طاعن فى السن مسطح الوجه يطلق عليه اسم «تامى» وكرئيس جاد مثقل الضمير كان يتحدث إلى «قيافا» الفخم الملابس الكثير الأبهة عند ذاك والذى كان يتوقع أن يثير الخوف حتى فى قلب السجين المقول عنه إنه لايخاف .

أما « حنانيا » حموه ، فإنه لم يكن قد ظهر بعد .

وفى كل من طرفى حرف « U » جلست صفوف من الكتبة ومعهم المحابر والأقلام وأوراق طويلة يسجلون فيها كل ما يقال ويحصل ، يلى هؤلاء ثلاثة صفوف من شبان سود اللحى مع استثناء قليل منها دب فيها الشيب ، هم أحداث المعدين لتولى القضاء ، الذين كانوا

حاضرين كاحتياطيين للحلول محل من يمرض أو يشل أو يموت من القضاة الشيوخ ، فسرعان ما يحتل أحدهم وسادته الخالية ، حتى لا تتعطل المحاكمة .

ومن كل هؤلاء كان يتكون «السنهدرين» ، المجمع الدينى والمدنى لليهود ، المختص وحده حسب شريعة « موسى » ، بمحاكمة من يدعى النبوة كاذباً .

وكانوا كلهم من فلاسفة القانون المعروفين ، من بينهم معلمون ومحامون وفريسيون يحاولون أن يفسروا طبقا لكتبهم كل حركة أو همسة أو نسمة تخرج من فم إنسان ، ويؤاخذون صاحبها عليها مؤاخذة عسيرة ، طبقا للتقاليد وللشكل الذى يقدسونه ، ذلك أن كلا منهم كان قد قبل مهمته جادا ناويا تأدية رسالته كما يجب ، وكان هناك مستشارون ينأون بأنفسهم عن أن يكونوا محل تهديد أو تأثر بأمزجة الناس ، غير مصغين إلا لما يختلج فى نفوسهم هم من معان أو مخاوف ، عالمين أنهم إنما يحتلون أرفع المناصب وأشرفها ، كرسى السنهدرين ، الذى لم يصلوا إليه إلا بعد درس عميق وحياة طويلة فى خدمة القانون والتضحية فى سبيلها ، وكانوا كلهم يعرفون القانون والسوابق عن ظهر قلب ، فيستطيع أى منهم أن يذكر لك فورا مكان هذا النص أو ذاك ومن من القضاة السابقين فسره على هذا الوجه أو غيره ، وماذا كانت ظروف تلك القضية ، كما يجمعون إلى هذا درسا وخبرة فى الطب والكيمياء والفلك ؛ عالمين بطرق السحر الأسود وقارئى الفأل ومحضرى الأرواح ؛ مجيدين الرومانية اليونانية والمصرية وعالمين بلهجات كثيرة أخرى فى الدول المجاورة ؛ ومفروض فيهم أن سمعتهم حسنة نقية ؛ وكانوا فى الغالب كذلك ! .

وكانوا طبعا شيوخا للدين ومهرة فى شئون الحديث والمناقشات ؛ لا يمارسون مباشرة تجارة ولا وظيفة ولا حرفة تتعارض مع مقامهم الدينى .

وكان نفوذ هذه المحكمة يمتد إلى شئون العقائد ، والمثل العليا للخلق والسلوك الإنسانى ، ناظرين إلى الأشياء والمعانى أكثر منهم إلى الشخصيات ، ذلك لأن أحكامهم نهائية وعلى ضمائرهم وحدهم يقع عبء المحافظة على حقوق المحاكمين أمامهم ومصالحهم ، وقد ربطت كلا منهم اليمين التى أقسمها بأن يكون عادلا ومحاميا عن المتهم مفسرين القانون فى صالحه كلما أمكن وباحثين عن ظروف التخفيف ، ولذلك فقد كانت الاحتياطات كلها متخذة حتى لا يحكم على برىء .

وكان « حنانيا » و « قيافا » يعلمون أن هؤلاء القضاة ، لو راعوا فى تلك الليلة ضمائرهم لبرأوا « يسوع » ، وأطلقوا سراحه ، واثقين بأنه سيقتضى منهما جهدا عظيما أن يسوقا هؤلاء

القضاة إلى الحكم بقطع رأس «يسوع» أو خنقه أو رجمه أو حرقه أو تعليقه على صليب ، وأن هناك اثنتى عشرة قاعدة قانونية تقف بين « يسوع » وعقوبة الموت ، وعلى الأخص القاعدة التى تقضى بأنه لا يصح الحكم بالإعدام لمثل الاتهام الموجه إلى «يسوع» قبل التنبيه عليه بالكف عن ذلك ، ثم عودته إليه .

وهى قاعدة عادلة ورحيمة ، لا مثيل لها فى القوانين الجنائيـة العادية ، ولذلك فإنه لم يكن من الممكن الحكم على «يسوع» بالموت قبل إثبات أنه قد سبق أن نبه عليه مقدما بالكف عن التجديف وإلا حكم عليه بالموت .

وأكثر من ذلك أنه يجب أن يثبت أن المتهم أجاب عن هذا التنبيه بأنه يعلم مقتضاه ، ويصر مع ذلك على موقفه .

فكيف إذن يمكن الحكم على إنسان بالإعدام ، وعلى الأخص وفوق كل إنسان ، «يسوع» الناصرى ؟ .

وفتح فجأة فى الشمال باب ولج منه ريح القوة والسلطان مع «حنانيا» ، وكان ذلك فى منتصف الليل وكان وجهه فى ضوء المشاعل مصفرا وخصلة الشعر الأبيض الباقية فى رأسه مطبية مدفوعة إلى الوراء ، وسار الرجل الصغير المهيب فى بطء نحو المائدة التى وقف إليها « قيافا » مسندا ذراعيه متظاهرا بهدوء البال والضمير .

وتحدث «حنانيا» إلى صهره سريعا ، ثم اتجه إلى وسادته الخالية وجلس عليها فى عناء . وصمت الناس فى انتظار إعلان افتتاح الجلسة .

وبغير تباطؤ تقدم « قيافا » إلى الأمام فى أبهـة وفخامة ووقف يمارس سلطته بصوت جاد رقيق :

— إنى أطلب السكون وأطلب الانتباه وأطلب الحق والعدالة ! .

وفى صوت خفيض جاءت إجابة القضاة :

— فليكن الأمر كذلك ! .

ثم استدار « قيافا » ناحية الباب الكبير وصاح :

— « يسوع » الناصرى ، ادخل ! .

الفصل الثالث والستون

المحاكمــــة

وظهر «يسوع» فى أعلى الدرج بين العمودين الرخاميين الكبيرين ثم تراجع الحراس قليلا ليدعوا «يسوع» مباشرة أمام قضاته .

وعندما وقع نظر «حنانيا» عليه هذه المرة الثانية تملكته رعدة أقوى من رعدته الأولى فى بيته ، فإن وقار ذلك الرجل الطويل وتقاطيعه الهادئة عذبت «حنانيا» بقسوة ، ليس لأن «حنانيا» لم يفهم لغز «يسوع» وقوته ، ولكن لأنه بدأ يفهم .

وكان تواضع السجين الهادىء الوقور كافياً لأن يخترق قلوب القضاة ويوقظ انتباههم ، وفى نظرة جادة فتش «يسوع» قلوب قضاته وأدرك القوة الكامنة الموجهة ضده وبدا أنه أصاخ بسمعه إلى صوت مجهول ، لعله صدى أقوال الأنبياء القدامى عنه ، التى نسيها هؤلاء القوم ، أو تناسوها .

وعلت همهمة عندما دفع الحراس «يسوع» إلى الأمام أكثر ، وكانت قد مضت دقائق بعد منتصف الليل ، وبدا «يسوع» فى ضياء مشاعل الغرفة الضخمة واضحا كل الوضوح لقضاته الذين تملكتهم الدهشة للمعانى التى تشع منه وهدوئه غير الطبيعى .

ألا يدرك هذا الرجل الخطر المحيق به ؟ .

ولكنه يدرك كل شيء ويعرف هـذا المجمع المنعقد خلسة فى غسق الليل بشكل باطل ومخالف للقانون ، ويعرف القواعد التى يسير عليها والمثل الإنسانية الزائفة التى يتبعها ، وأنها مصطبغة عند ذاك بخوف عظيم على المال والجاه .

وكان «قيافا» واقفا فى منتصف حرف « U » وعلى رأسه شريط أزرق موشى بالذهب وعلى صدره نجمة نحاسية كبيرة مزدانة باثنتى عشرة جوهرة كريمة ترمز إلى مقامه ، وكان ثوبه الفضفاض أيضا أزرق ولكن أشرطته كانت قرمزية وبنفسجية وذهبية . وقد بدا من تحتها ثوب وظيفته الأبيض الناصع ، وكان الوحيد الذى يحتذى صندله الذى يكاد يختفى تحت شرابات ردائه الموشاة بدوائر صغيرة قرمزية .

وافتتح «قيافا» المحاكمة بإلقاء صلاة بشكل تمثيلي ووقفات هستيرية ، وكان يجب عليه أن يبدأها بصلاة الصباح وذبيحته ، ولكنه هرب ببساطة من هذا الإجراء ووضع كفيه على طرف لحيته السفلى ، وتوجه إلى «يهوة» بصلاته ، الله الواقف كعمود من السحاب فى النهار وكعمود من النار فى الليل الذى قاد الإسرائيليين بعيداً عن عبودية المصريين ، داعيا الله أن يشرق نوره على إجراءات هذه المحكمة وأن يرشد الشيوخ والكهنة والكتبة إلى الحق فيحكموا بالعدل .

وقال « نيقوديموس » فيما بعد إن تلك الصلاة استطالت أكثر من اللازم ، وعندما انتهت تململ الأعضاء ملتمسين مزيدا من الراحة فى جلستهم ، متنحنحين وساعلين من وراء أيديهم ومتهامسين جارا إلى جار ثم صمتوا جميعا فى توقع .

وأشار «قيافا» فدفع الحراس «يسوع» إلى درجتى السلم الأخيرتين ، ووقف فى أول فراغ شكل حرف « U » محوطا بقضاته .

وقال «قيافا» :

« ليعلم الكل أن التهمة الموجهة إلى « يسوع » الناصرى الماثل من أجلها أمامكم ، إنما هى الكفر والزندقة ، وهو متهم بأنه استعمل كلمات وقال عبارات تنطق بذلك . فإذا صحت هذه الاتهامات وثبتت من أقوال الشهود ، فعندئذ يكون مدينا ليس فقط بكسر المقدسات وامتهان كرامة الهيكل ، وهذه أفظع الجرائم ، بل وأيضا بارتكاب ذلك الجرم المحرم منذ أعطانا «موسى» الشريعة ، جرم السحر والشعوذة » .

— فليناد الشهود .

وأحضر الشاهد الأول ، طويل .. أشعث . . نهم . . ذو عيون صغيرة عميقة تطل من تحت أهداب حمراء مندهشة من ارتفاع وعمق الغرفة وضياء المشاعل والشموع فيها وفخامة الملابس وأبهة المنظر فى هذه الساعات المظلمة التى تسبق الفجر .

ولعبت أصابع «قيافا» بلحيته وهو يوجه السؤال الأول :

— اسمك ؟ .

— ابن «عزريل» .

— لقد وعدت بأن تقول الحق ولعلك لم تنس الشريعة ! .

ووضع ابن «عزريل» يده تحت فخذه الأيمن علامة على أنه يقول الحق ، وأجاب :

— نعم أعرف الوصية . لا تشهد بالزور ضد جارك .

وشبك الكاهن الأكبر يديه وبدأ يتلو العبارات التقليدية :

— لا تنس أيها الشاهد أن هناك فرقا بين أن تدلى بالشهادة فى موضوع مدنى وأن تدلى بها فى محاكمة من أجل الحياة نفسها ، فإنك إذا كنت تشهد فى قضية مدنية ، وسببت شهادتك خطأ ، فإن ذلك الخطأ يمكن أن يصلحه المال . أما فى محاكمة جنائية مثل هذه تتعلق بالحياة نفسها ، فإنك حين تخطىء يقع دم المتهم ودم من كانوا سيولدون له من أولاد وأحفاد كله على رأسك ... من أجل ذلك خلق الله آدم رجلا واحدا ليعلمنا أنه لو أهلك شاهد نفسا من بنى « إسرائيل » لكان كمن أهلك العالم كله ، وأن من ينقذ نفسا واحدة فكأنه أنقذ العالم ، لأن رجلا ذا طابع يمكن أن يصبغ بطابعه كثيرين يغدون مثله ، تماماً كأنه هو ملك الملوك ، القدوس المبارك ، فإنه خلق على شكل آدم كل الرجال الأحياء ، حتى يكون كل بشر ممثلا للجنس كله .

ولذلك فلتعرف ولتؤمن أن العالم كله مخلوق من أجل إنسان مثل هذا المعلق مصيره على شهادتك .

وصمت «قيافا» برهة ثم بدأ يوجه الأسئلة الرسمية :

— هل رأيت وسمعت هذا السجين يرتكب الجرم الذى يحاكم الآن عليه ؟ .

— نعم .

وهل نبهت السجين إلى خطورة هذا الجرم ؟ .

— نعم فعلت .

وهل أصر هو على فعلته ؟ .

— نعم أصر .

— وهل حذرته بالعقوبة التى يستحقها إذا هو أدين بهذه التهمة ؟ .

— نعم فعلت يا سيدى .

— وهل تعتقد أنه كان مدركا تماما لخطورة جرمه هذا ؟ .

— أنا متأكد أنه كان مدركا تماما هذا .

— والآن ما هى الكلمات التى سمعته يقولها ؟

— سمعت هذا الرجل يقول ما يأتى : « سأهدم هذا الهيكل المصنوع بأيد بشرية ، وبعد ثلاثة أيام أقيم هيكلا غير مصنوع بالأيدى » .

وسرت همهمة بين الشيوخ والكهنة والكتاب . هل جرؤ هذا « الجليلى » بأن يقول شيئا كهذا ، أم تراه ينكر ؟ .

واستدار « قيافا » ناحية السجين .

— حسنا ، « يسوع الناصرى » . ماذا تقول فى هذا الذى سمعته ؟ .

وصمت « يسوع » .

— هل تنكر شهادة ابن «عزريل» ؟ .

وظل «يسوع» صامتا ينعكس منه نور القاعة الكبيرة ، مقيد الرسغين ، هادىء الوجه ، إذ أن السكوت من حقه .

— هل تقر الشهادة التى سمعتها ؟ .

ولا إجابة ! .

وقطب «قيافا» جبينه ونظر حول القاعة نظرة طويلة وهز كتفيه وكأنه يقول :

— ألعلكم ترون أن أمامنا متهما قويا عنيدا ؟ .

ولكنه لم يقل شيئا يضر بالمتهم ، وإنما صرف « ابن عزريل » بإشارة من يده ، وأمر أن يدخلوا الشاهد الثانى .

وكان الشاهد الثانى « إسحق » بن « ماراس » تاجر حبوب متواضع فى شارع الملك داود يدفع ضريبة المعبد ثلاث مرات فى السنة . وبدأ « قيافا » :

— حسنا يا «إسحق» بن «ماراس» . أخبرنا ما هى الكلمات التى سمعتها من هذا الرجل ؟ .

— سمعت « يسوع » الناصرى يقول : « اهدموا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أقيمه » .

وقال « قيافا » :

— يمكنك أن تخرج .

واستدارت عيناه فى بريق انتصار يمنة ويسرة حول المحكمة تقولان :

حسنا أيها القضاة لقد سمعتم الشاهدين القانونيين ، ألا تتفق شهادتاهما ؟ .

وكإجابة عن هذا السؤال الذى لم ينطق به ، وقف أحد أعضاء المحكمة المحترمين جدا - هو « يوسف » الذى من « الرامة » - فى نشاط غريب على مثل عمره ، وأعلن « قيافا » فى حزم :

— إن الشهادتين لم تتفقا ، ولو ظننت أنهما تتفقان لكنت خاطئا جـــدا ، فقد قال الشاهد الأول ، وقد كتبت ما قال حرفيا : إن هذا السجين « يسوع » قال الكلمات الآتيـة :

« سأهدم هذا الهيكل المصنوع بأيد بشرية وبعد ثلاثة أيام أقيم هيـكلا غير مصنوع بالأيدى » .

— هذا هو أول اتهام سمعناه .

— أما الشاهد الثانى فقد قال شيئا مختلفا كلية ، فإنه ينسب إلى « يسوع » قولا آخر نصه الآتى : « اهدموا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أقيمه » .

وسرت من جديد همهمة تباينت فيها الآراء وبدا أن القضاة مختلفون فيما بينهم اختلاف الشهود ، واستمر « يوسف » فى عناد يقول :

- فى الشهادة الأولى يتهم «يسوع» بأنه أعلن قصده فى أنه هو سيهدم الهيكل ثم يعيد إقامته بواسطة السحر . أما الشهادة الثانية فإنه يعد بإقامته إذا ما هدمه آخرون .

- إذن فما الذى قاله « يسوع » ؟ .

- إن أحد الشهود إذن مخطىء .

- وشريعتنا تقول إن الشهادتين يجب أن تتفقا .

ونظر «قيافا» إلى حميه مستجيرا به وتلقى الإجابة فى شكل إشارة لا تـكاد تلحظ ، وأطلق تنهدة غضب مكتومة ثم أجاب :

— حسنا . حسنا جدا لا حاجة بنا إلى هذا الجدل حول الشهادتين ، ودعونا نستمع لشاهد آخر .

وجاء دور «يعقوب» بائع القمح وهو رجل كان « قيافا » يتـكل عليه ويحتفظ به لوقت الحاجة ، وضرب «يعقوب» لحيته إعلانا بأنه يقسم اليمين ، ثم أجاب عن الأسئلة التقليدية وانتقل إلى صلب الموضوع فقد كان فى الهيكل وسمع ما قاله « يسوع » :

ــ فماذا قال إذن ؟

ــ لقد قال هذه الكلمات بالنص : « إنى قادر أن أهدم هيكل الله وأن أعيد بناءه فى ثلاثة أيام ! » .

ومرة أخرى واجه «قيافا» «السنهدرين» بابتسامة رضا سرعان ما أقتضها إذ سرت همهمة أخرى ووقف « يوسف الرامى » على قدميه معلنا :

ــ هذا إذن لبس فوق لبس وإبهام فوق إبهام . إن هذه الشهادة الثالثة مجرد سفسطة لا قيمة لها ، إن كل ما قاله هو : « إنى قادر أن أهدم هذا الهيكل» وليس هذا ما ذكره أى من الشاهدين الأول والثانى بل هو جد مختلف عنهما . إن الأول روى تهديدا والثالث روى مجرد ادعاء .

ــ أتهديد ما قيل إذن أم هو ادعاء ؟ . . أم أنه لا هذا ولا ذاك ؟ .

ــ إن حياة إنسان معلقة على الإجابة عن سؤالى هذا . وإن شريعتنا لتقتضى الاتفاق التام بين الشهود ولكننا لا نرى غير الاختلاف التام ــ « قيافا » . . . إنك لم تثبت شيئاً قط ضد « يسوع » الناصرى ! .

وقال كبير الكهنة فى صوت أجش غاضب :

ــ إن الشهود الثلاثة اتفقوا فى النقطة الرئيسية وهى عبارة ثلاثة أيام ، أليس كذلك ؟ ، أو ليس هذا اتفاقا ؟ .

وابتسم «يوسف» فى احتقار :

ــ إن هذا منطق يصح لدى الرومان ، ولكنه لا يصح لدى اليهود ، وأنا أذكرك ثانية أيها السيد « قيافا » أن هذا الرجل يحاكم من أجل حياته وأن له الحق فى كل حماية يفرضها القانون .

وقال « قيافا » فى نظرة متسمة بالوعيد :

ــ أرى أنك شديد الحمية فى حق المتهم .

ــ إنه من واجبى وواجبك أن نكون شديدى الحمية لصالح المتهم .. ثم كلا يا « قيافا »

لقد قلت لك من قبل إنك لم تثبت شيئاً ضد هذا الرجل ، وأضيف أنني أرى هناك رجلا يبدو عليه أنه يطلب أن يسمع . دعنا إذن نسمعه .

واستدار « قيافا » كمن لذع ورأى واقفا إلى جانب السجين رجلا قويا مصفر الوجه تلمع عيناه ، قال فى صوت يهزه التأثر :

— إنى أحب أن توجه الأسئلة إلى ، وقد مثلت من قبل أمام اللجنة .

وبصبر نافذ وضيق ظاهر وجه إليه « قيافا » الأسئلة العادية .

وكان اسمه « بنيامين » وهو أيضاً من سكان شارع النبى « داود » .

— حسنا يا « بنيامين » ماذا لديك من الأقوال ؟ .

وركع «بنيامين» على ركبتيه وأمسك برداء « يسوع » المترب وقبله وقال :

— لقد كنت مولوداً أعمى ، وصنع هذا السيد «بريقه» طينا وطلى به عينى ، وعندما غسلت الطين كانت قد خلقت لى عينان .

وهز « قيافا » أصبعه فى وجه الشاهد غاضبا مهددا وصائحا :

— قف . إنك لم تأت لتقص على المحكمة خرافات ، قل لنا ماذا تعلم يقينا من شأن هذا السجين ؟ .

— شيئا واحدا أعرفه على وجه اليقين : لقد كنت أعمى ، وأنا الآن أبصر ! .

وساد القاعة صمت عميق فإن شيئاً فى طريقة إدلاء هذا الرجل بشهادته ، ملأ القضاة يقينا ، وعادوا ينظرون إلى « يسوع » فى اهتمام جديد . . أيكون حقا ؟ .

ورفع « قيافا » يده المليئة بالخواتم المرصعة فأخرج الجنود الشهود من القاعة .

وقال « قيافا » فى غضب : إنه لاجدوى من مثل هذه المقاطعة ، لا جدوى على الإطلاق إننا لسنا هنا لنقرر ما إذا كان المتهم طبيبا أو غير طبيب . إن الموضوع واضح تماما . . هل هو يجدف أم لا ؟ .

ورد «يوسف» فى تحد :

— إن عليك أن تثبت هذا .

وعلت صيحة من القضاة تأييداً « ليوسف » ورأى «قيافا» عندئذ إذا لم يكن قد رأى من قبل ، أنه لا هو أو حموه أو أى إنسان آخر يستطيع أن يضع « السنهدرين » فى جيبه ، فإن هؤلاء القضاة لا يحترمون غير القانون كما يفهمونه .

وبينما ازداد الاضطراب فى الجلسة وقف قاض آخر وهو «نيقوديموس» وصفق بيديه يريد السكوت ليلقى كلمة ثم قال :

ـــ أرجو أن تلاحظوا أيها السادة أنكم إذا كنتم تريدون أن تبنوا الدليل على تهمة التجديف التى توجهونها إلى هذا السجين ، على مجرد الاتهام الفرعى بالتنبؤ بهدم أو بإعادة بناء الهيكل ، فإنه يستحيل عليكم أن تقيموا الدليل على أن ذلك التنبؤ غير صحيح ، ولن يمكنكم ذلك حتى يهدم الهيكل فعلا ، فإذا ما هدم فعلا ولم يستطع « يسوع » أن يقيمه فى ثلاثة أيام فإنه عندئذ ، وعندئذ فقط ، يثبت أنه كذاب ، هذا هو أيها الرئيس مقتضى القانون ، وإنا لنازلون عليه ! .

وبينما كان « نيقوديموس » يجلس وقف ثانية « يوسف الرامى » وقال :

ـــ أيها السادة . إنى أقترح عليكم أن نصرف « يسوع الناصرى » الآن فوراً ، و ندعه يمضى فى سبيله ! .

وبينما كان « يوسف الرامى » يجلس كان الكثير من الرءوس يهتز بالموافقة .

وارتبك « قيافا » فترة ثم رفع يده المزدانة وقال :

ـــ أيها السادة . صحيح أن كل اختلاف فى شهادة الشهود يسقط الاتهام فى قضية خطيرة كقضية اليوم ، ولكن ليس معنى هذا الاختلاف الشكلى أن تسقط القضية ، من أساسها ، فإن لدينا شهوداً آخرين ، وأنا أتهم هذا الرجل بأنه يدعى أنه «المسيا» الذى ينتظره كل اليهود . . « المسيح » ، هذه هى تهمته الأكثر شناعة والتى يجب عليه أن يجيب عنها الآن .

وصاح فيه «نقوديموس» و«يوسف» معا:

ـــ انتظر ! .

ـــ إنك تغير الاتهام من أساسه ، وهذا غير عادل وغير قانونى ! .

وارتج « قيافا » ووقف « حنانيا » فى وسط تلك القاعة العلنية المزدحمة ، مهيبا ،

مجسمة فيه الحنكة السياسية ، والسلطان الطاغى ، وعمق التجربة ، والدهاء . ويبدأ يقول :

— لا يحسن بنا أن نسمع الحديث عن الظلم فى هذه المحكمة الموقرة ، ولا عن بطلان ومخالفة القانون ، فإننا هنا لنستخدم كل إمكانياتنا فى صالح المتهم بأشنع التهم أعنى التجديف، وليس الاتهام بأن هذا الرجل يدعى أنه «المسيا» إلا فرعاً آخر من الاتهام ، وليس هناك ما يمنع من أن يثبت الفرع الأصل ، إن هذا مقبول وعادل وقانونى . . «قيافا» ، ادع شهوداً .

ولم يحاول أحد أن يعارض هذا الرأى فقد ظل « حنانيا » دهرا رئيسهم وأكبرهم مقاما وأعمقهم حكمة وإنه لمستشار مشهود له بالكفاءة .

ونودى الشهود الجدد : « سمعان » الملاحظ فى بوابة «داود» . و « عزرا » بن « ثابت » ذو الصوت الموسيقى . « وكالى » من بيت « عنيا » وهو جار « لمريم » و « مارتا » . وضربوا أفخاذهم مقسمين ، ورفعوا أيديهم وأجابوا عن الأسئلة الروتينية ، ثم أدلوا بشهاداتهم .

وشهد « سمعان » بأن « يسوع » سمى نفسه ابن الله .

وشهد « عزرا » بأنه سمع « يسوع » يقول إنه ابن الإنسان .

وشهد « كالى » بأنه سمعه يسأل تلاميذه عما إذا كان الناس يظنون أنه «المسيح» .

وبدا الاختلاف بين هذه الشهادات واضحا ، ووقع « قيافا » ثانية فى حيص بيص ولمعت فوق جبهته قطرات العرق من فرط الغضب والجهد وابتلت رقبته وهو ينحنى لاجئا إلى رأى « حنانيا » .

وهمس الشيخ :

— إن « يوسف الرامى » على حق ، مادمت لم تستطيع أن تثبت اتهاما ضد «يسوع» ؛ ومع ذلك يا سيد « قيافا » ، مادمت أنت قد وصلت إلى هذا الحد فإنه يجب عليك أن تثبت شيئاً . . أى شىء ضد السجين .

وأضاف « قيافا » :

— نعم وبكل سرعة وإلا اقترح الأعضاء فض الجلسة، وفضوها فعلا .

— إن « نيقوديموس » يهم بشىء من ذلك ! وإنه لرجل يحب أن يلقى خطابا يتمسك فيه بالدفوع والشكليات ، أعطه الفرصة ليتكلم إذاً ، فقد تلوح لنا من أقواله فرصة .

— إنه لجدير بأن يعلق ويحرق ، ولكن دعه يتكلم حتى أفكر فى خطة جديدة ! .

الفصل الرابع والستون

أثبت هذا

وطلب « نيقوديموس » أن يسمع ، ووقف وقال :

ـــ لقد سقطت هذه القضية وانهارت وانتهى أمرها . لاشيء فيها قد ثبت . وها قد مضت ساعة كاملة بعد منتصف الليل . فهل ننام هنا ؟ ... أنا عن شخصي أريد فض الجلسة والانصراف إلى منازلنا .

وسرت همهمة موافقة شبه إجماعية على هذا الاقتراح .

لكن « نيقوديموس » مضى يقول :

ـــ وما كان يجب أن يحصل ما حصل هذه الليلة لأنه واضح لكل إنسان أن هذا السجين لم تراع حقوقه كما يجب .

« ثم ماذا لو قال إنه « المسيح » ؟ هل نستطيع أن نثبت العكس ؟ .. إنه يقرر واقعة ، وقد لا يكون فيها تجديف على الإطلاق .

« وياسيد « قيافا » كان يجب أن نسائل أنفسنا كثيرا من أجل الدفاع عن « يسوع » هذا الذي لادفاع له . فهلا وجدنا في تاريخنا ظهور الله على الأرض يوما في شكل إنسان .... ؟ .

وصمت برهة ثم قال :

ـــ فإذا كان ذلك قد حصل . فكيف نستطيع أن نعرف أنه لا يفعل نفس الشيء ثانية ؟ كيف نستطيع أن نعرف ؟ .

ـــ كلا ثم كلا يا «قيافا» . وقد كدت أنهي حديثي .. دعنا إذن ننهي موكب الشهود هذا ، الموكب المتفكك المتهاوي . وقل لنا أرجوك ماهي النتيجة النهائية .. إنها واضحة وضوح النهار الذي يوشك أن يشرق ، وقد بقي « يسوع » رجلا بريئا . وأنا أقول إنه يجب أن نطلق سراحه وأن نعود إلى مخادعنا ، وعن نفسي فإني مسن متعب وفي أشد الحاجة إلى ذلك ! .

الفصل الخامس والستون

الاعتراف

لو أخذت الأصوات عقب جلوس « نيقوديموس » لبرىء « يسوع » وأطلق سراحه .

وكان « قيافا » و « حنانيا » يعرفان ذلك ، ولكن الوقت الذى استغرقته خطبة « نيقوديموس » أعطت السياسى المسن الوقت الذى كان يحتاج إليه ليواجه الموقف كما يريد ، وتبادل « قيافا » وحموه الهمسات ثم وقف يلعب لعبة جديدة يائسة ، وقف فى ملابسة القضائية المزركشة الفخمة وسط سكون القاعة الرهيب ورفع يده اليمنى ووجه منها أصبعين إلى أعلى ، وأدرك المجلس أن « قيافا » يريد أن يوجه إلى « يسوع » أقوى قسم تعرفه شريعة « موسى » .

ولكن على أى شىء ؟ .

وكان ذلك لأن « حنانيا » أدرك خلق أسيره على حقيقته ، وقد فشل صهره فى إثبات أى اتهام . ولكن «حنانيا» كان يعرف أن الاتهام بالرغم من ذلك صحيح . وأن الأسير يعتقد أنه هو « المسيح » . فهل تراه ينكر هذا لو نطق ؟ ! .

إذن فليوجه إليه اليمين وسنرى هل يتنكر هو لنفسه ؟

إذن فسيدفعونه إلى أن يجدف أمام سمع كل أعضاء المحكمة وبصرهم . فاسمع يا «قيافا» ، ياصهرى العزيز . ماذا يجب أن تفعل ؟ .

ووعى « قيافا » الدرس ووقف يقول فى صوت التماس مخلص :

— « يسوع الناصرى » . إنى أقسم عليك بالله الحى .. أن تقول لنا : هل أنت «المسيح» ابن الله ؟ .

وأخذت الجميع رهبة وساد صوت عميق ، فقد وجه « قيافا » إلى « المسيح » أقدس قسم تنص عليه الشريعة ، القسم الذى يعتبر السكوت عن الاستجابة له جريمة ، إنها آخر ورقة فى يد « قيافا » ، وقد لعبها بمهارة .

فسينطق السجين أخيرا ، هذا الذى لم ينطق إلى الآن بكلمة .

وجاءت الإجابة واضحة شجاعة :

ـــ أنت قلت ! .

أنت قلت ، لقد رنت العبارة فى آذان القضاة ولم يكن فيها لبس وإنما فيها تأكيد ، وإنها تعنى طبقا للعرف « لست أعترض على هذا » .

ولكن « قيافا » لم يكتف بهذه الإجابة وأعاد الهجوم مرة أخرى :

ـــ « يسوع الناصرى » ! إنى أستحلفك بالصاباءوت رهط ملائكة السماء الذى لا يعد ، وبالله المجيد الرحيم ، أن تخبرنا إذا كنت أنت « المسيح » .

ورن صوت « المسيح » فى القاعة الرحيبة :

ـــ أنت تقول ! .

وسرت فى أعطاف رجل الاتهام دفعة فرح طاغ ، لقد حكم السجين على نفسه ، إن عبارة أنت تقول هى إجابة الرجل المثقف على سؤال جدى حرج ، يأبى عليه أدبه أن يرد عليه «بنعم» أو « لا » وإنها لتعنى أنى أنا كما تقول .

وأعاد « قيافا » الهجوم ، حتى يؤكد النصر ثلاثاً :

ـــ « يسوع » الناصرى . . إنى أستحلفك بالله المحب الغيور أن تخبرنا إذا كنت أنت ابن الله .

ورن صوت « يسوع » واضحا مرة أخرى .

ـــ أنا هو ! .

وكأن القاعة أضاءت فجأة بمثل وهج البرق واصفر وجه « قيافا » فقد تعدى الانتصار أقصى ماذهبت إليه آماله وتحقق أمام القضاة كلهم ما توقعه الداهية « حنانيا » ، فقد اقترف « يسوع » حالا فى اعتبارهم الجريمة التى فشلوا فى إثباتها عليه .

وأمسك « قيافا » الفرصة بكل يديه وأطلق صرخة عالية ثم شد ملابسه وأخذ يدور حول نفسه ، بينما استمر «يسوع» يقول فى صوته الهادىء :

ـــ وفوق ذلك فإنى أقول لكم ، وسترون ابن الإنسان جالسا عن يمين قدرة الله وآتيا على سحاب السماء ! .

وما برح « قيافا » دائراً حول نفسه يصرخ ويشد ملابسه بقوة كأنما يريد أن يمزقها شرائح متناهية فى الصغر ، فقد كان هو السلوك الذى تتوقعه الشريعة من كاهن غيور يسمع التجديف بأذنيه ، وكان يجب عليه أن يمزق ملابسه فعلا ، ولكن « قيافا » كان اقتصادياً ماكراً ، فإنه لم يكد يمزق منها شيئاً يذكر ، وإنما ظل يصرخ بشكل هيستيرى .

— لقد جدف وجدف ، فما حاجتنا إذاً إلى الشهود . تد سمعتم كلكم أقصى التجديف ! .

ثم وقف فجأة وسألهم فى صوت ثابت :

— فماذا ترون إذاً ؟ .

ورن فى القاعة صوت الكثيرين :

— إنه مذنب !

وكانت الوجوه صفراء ينضح منها العرق ، وقد عرفوا الواجب الثقيل الملقى الآن على كواهلهم ، وقال بعضهم :

— لقد سمعنا بأنفسنا من فمه التجديف .. إنه ليستحق الموت ! .

وبدا عندئذ اقتناع القضاة ، والحكم الذى انتهوا إليه ، ولكن هذا ليس كافياً فى حد ذاته ، ولذلك قال « قيافا » :

— أيها السادة .. لقد كنت واسع الصدر إلى الآن ، ولو أن بعض المقاطعة التى سمعناها الليلة أدخلت إلى قلبي الشك وجعلتنى أتساءل .. ألا يكون من وراء كل هذا مؤامرة دبرها أشخاص معينون لينقذوا « يسوع » من أجل عمله الحقيقى ، وهو إثارة الجماهير ضدنا وإحداث انقلاب يطيح بنا ، كان واجبى عسيراً ، وأقول لكم إننا فى هذه الساعة يجب أن نواجه مشكلتنا ونضع لها حداً . وانطلقت من جوانب القاعة أصوات تقول :

— اسأل .. اسأل . . . ضع السؤال وخذ منا القرار .

وبدأت تفصيلات أخذ الرأى كما تقضى بها الشريعة ، حتى يبدو الحكم أمام كل الناس سليما شكلا وموضوعاً .

ولفت « قيافا » نظرهم إلى أنه يجب أن يسألوا قلوبهم فى أعماقهم ، هذه القلوب التى يحكم عليها الله العلى وحده .

وكان هذا هو الشأن فى القضايا التى يحكم فيها بالموت ، وبدأ بسؤال أحدث القضاة ، حتى

لا يتأثر برأى الكبار ، وكان السؤال لا يحتمل غير إحدى إجابتين .. « نعم » أو « لا ».

وصوت أصغر القضاة إلى جانب الموت .

وكلما نودى قاض تحرك من فوق وسادته الحريرية واستقامت قامته ونطق قراره ، وأضاف بعضهم إلى قراره إيضاحاً كثيراً ، حتى أصدقاء «نيقوديموس» و «يوسف الرامى».

ولم يكن « قيافا » يتوقع حكما بالإجماع ؛ أولا لأنه لم يكن فى حاجة إليه ؛ وثانياً لأن الرأى العام لا يطمئن إلى المحاكمات السريعة التى يصدر الحكم فيها بالإجماع إذ يراها أقرب إلى المؤامرة منها إلى المحاكمة النزيهة . ولذلك كان «قيافا» يحتاج على الأقل إلى صوتين معارضين ، فلو أن المعارضة اقتصرت على صوت واحد لاضطر « قيافا » إلى إطلاق سراح « يسوع » .

ومضى أخذ الأصوات نعم .. نعم .. نعم .. ولم يكن من بينها «لا» على الإطلاق ، ولكن « نيقوديموس » و « يوسف الرامى » لم يكونا أصيلين فى السياسة ، فلم يكد يأتى الدور إلى أحدهما حتى صاح فى قوة : « لا » .

ثم استمرت الأصوات نعم .. نعم .. نعم .. حتى قطعها اندفاع خطوات ثقيلة من ناحية السلالم ، نحو « قيافا » مباشرة ، وكانت يد الرجل اليسرى ممتدة متصلبة كأنه يريد أن ينزع بها قلب « قيافا » من صدره بينما قبضت يده اليمنى على حقيبة صغيرة ، وصاح «قيافا» :

— « يهوذا أسخريوط » ! . ماذا أنت فاعل ؟ .

— إنى أعلن أن هذا الرجل الذى حكمتم عليه بالموت برىء .

« وقد وعدتمونى بغير هذه العقوبة . خذ .. هذه نقودك ! » .

وألقى « يهوذا » بالحقيبة على الأرض ورنت القطع الفضية رنين جرس مكتوم وانفلت رباطها وأخذت تجرى فى كل اتجاه حتى اصطدمت إحداها برجل « حنانيا » .

وصاح « قيافا » وهو يتقدم إلى الأمام :

— « يهوذا » .. اخرج من هنا ! .

ثم التفت إلى الحراس وصاح :

— أيها الحراس . . .

وصاح « يهوذا » :

— أيها الكاهن الأكبر . إنى أعلن ندمى على ما فعلت ، وقد أخطأت فى أن أسلم إليكم دما بريئاً !.

وساد صمت رهيب ، ووجه « يهوذا » عينين ملتاعتين إلى وجه « يسوع » الهادىء وقال بعض القضاة :

— وماذا يعنينا خطؤك ؟.

وقال آخرون :

— إن هذا من حر شأنك !.

وندت من حنجرة الرسول الخائن صرخة مكسورة واندفع خارجاً من القاعة فأفسح المتدافعون على بابها له طريقاً جرى فيه ثم اختفى فى ظلمة الليل الحالك ، واستمر يجرى لا يلاحقه أحد حتى وصل إلى حقل منبسط وجد فيه حبلا وشجرة ، علق فيها نفسه ، وبقى معلقاً حتى تعفن جسمه وانفجر !.

أما فى المحكمة فقد استمرت عملية التصويت حتى انتهت ، وواجه « قيافا » المحكمة معلناً :

— أيها السادة . . إن لدينا أغلبية موافقة على الحكم بالموت وأقلية معارضة تتكون من صوتين اثنين ، وهذا ينهى عملنا الآن !.

الفصل السادس والستون

مدفاة بيلاطس

فى فجر يوم الجمعة السابع من أبريل ، فى الظلام والصقيع ، كان « بيلاطس » لا يزال مستيقظاً فى انتظار ما تسفر عنه المحاكمة المنعقدة فى قاعة الأحجار المنحوتة ، وقد ظل ينتظر طول الليل فى قاعة استقباله الخافتة الضوء ، مستعداً التصرف فى شأن « الناصرى » السجين بمجرد أن يطلب إليه ذلك ، وكانت قد وصلت إليه تقارير عن الاجتماع الأول فى بيت « حنانيا » وعن الاجتماع الثانى ، وما دار فيهما من جدل حول مسائل غير ذات أهمية ، فى حين بقى خيط حياة الرجل معلقاً ، وأخبره رسله أيضاً عن الإهانات والسخرية التى انصبت على السجين من جمع من المشردين والسكارى الذين كانوا يحيطون به فيما بين الجلستين .

وكان « بيلاطس » يشعر أنه هو الآخر مضطهد ، فقد كان هذا الحاكم الرومانى محارباً شديد البأس وجندياً ممتازاً ، كارهاً الظروف التى أرسلته حاكما على مستعمرة صغيرة كفلسطين ، وفى الغليان السائد عند ذاك كان يعرف أنه بينما هو يواجه موقفاً محلياً محضاً ، إلا أن لذلك الموقف آثارا سياسية وآثاراً تتعلق بها مصالحه هو نفسه .

وزاد فى بؤسه أن « حنانيا » و « قيافا » يضعانه تحت رحمتهما . فلو أنهما شكياه مرة أخرى إلى « روما » ، أو لو أن ثورة قامت فى « فلسطين » ؛ لفقد رضا «القيصر» نهائياً.

وكان هذا الموقف يملؤه غضباً ، وكم تمنى لو استطاع أن يساعد « يسوع » إذاً لفعل من كل قلبه ، على الأقل ليضايق « حنانيا » .

وكم تمنى أن يترك هذه الغرفة الخاوية ويذهب إلى حيث تنتظره الجميلة « كلوديا بروكولا » بكل ما يجده عندها من راحة وهناء ، إذ هى تظل تقرأ فى كتبها حتى ساعات متأخرة من الليل ، وهى كتب يرى « بيلاطس » أنها مجرد سفسطة وهراء . إذ ماذا ترى «بروكولا» فى ذلك الرجل «هوراس» — « كوينتوس هوراسيوس فلاكوس» — حتى لتدع وصيفاتها يقرأن لها لفافاته الطويلة ليلة بعد ليلة ، ثم هذا الـ « جوليوس فيرجيليوس مارو » الذى تستمتع بقراءته . وحتى «بليوس» و«قيليوس نازوا» بالرغم من أن كتبه محرمة قراءتها منذ نفاه « أوغسطس قيصر » فى سنة ٨ قبل الميلاد ؛ إذ وجد كتابه عن فن الحب تحدياً مباشراً

لسياسته فى الاصلاح الإجتماعى ، ولم يفهم « بيلاطس » قط لماذا تقرأ « بروكولا » هذه الكتب السخيفة ، ولم يخرج من سوء تقديره هذا إلا كتاب المؤرخ « تيتوس ليفيوس » الذى كان صديقاً لجدها والذى روى حقبة من التاريخ لا سخف فيها .

وكان أرق «بروكولا» يزداد ، فما أن كادت تغفو فى الليلة السابقة حتى دهمها حلم مخيف استيقظت منه مرتاعة ، ثم روته « لبيلاطس » ، ومن عجب أنها كانت تحلم « بيسوع » ، وقد أخبرته أنها تعرف عن فلسفته الكثير ، أما كيف سمعت عن هذا الرجل وكيف عرفت فلسفته فقد علم أنه حضر إلى القصر مرة رسول من بيت « هيرودس » حاكم الجليل وتحدثت معه طويلا ، واحتج « بيلاطس » فصححت الملكة الوضع : كلا لم يكن رسولا وإنما كان رسولة ، وصيفة فى قصر « هيرودس » تدعى «حنة» كانت من تابعات « يسوع » المخلصات ، أما مادة الحلم نفسها فقد عدلت « بروكولا » فجأة عن أن ترويها له مؤكدة أنه لن يستطيع أن يفهمها .

وكان الحال دائماً هكذا ، ولعله كان متفقا بينهما على أن هناك أشيـــاء لا يتعلق بها ولا يصلح لها ، وكأنما ينقصه ركن رئيسى من أركان الحيـاة الذهنية يفر منه طليقاً كما يفر بلبل الربيع ، وأنه ليؤدى واجباته كما يجب ، فإن عليه أن يكون مستعداً للحرب فى كل وقت وأن يحكم وأن يدير وأن يكتب التقارير ، وأن يحرص على أن ينتج «سهل حوران» أكبر كمية من القمح يرسلها إلى « روما » ، كانت حياته عملية وواجباته عملية ، ولكن آخرين يرون فى الحياة قيماً أخرى لا يعرف هو عنها شيئاً ، ولا يعنى كثيراً بأن يعرف .

خذ مثلا هؤلاء الأهالى ، إنهم يحبون شيئاً غير منظور ، حياً ، يحكم حياتهم ويجعلهم يحبون بعضهم بعضاً ويعطفون على بعض ولا يستجيبون لمحاولته كسب تقديرهم .

وهنا فى «فلسطين» ليس له من صديق غير زوجته ، ولا راحة له إلا معها ، ومع ذلك فقد وضع هؤلاء الأهالى بينه وبينها فاصلا فكرياً ، أما الآن فقد برم بكل هـذا وصمم على أن يحطم هذا الفاصل ، فسيترك إذاً جانب المدفأة ويذهب ليواجه « حنانيا » الذى يحترمه ؛ ولكنه لا يثق به ، و« قيافا » الذى يحتقره ، و « يسوع » الذى حلمت به زوجته وأبت أن تخبره عن موضوع الحلم .

وكان جو القلعة فى ذلك الفجر المتقدم رطباً بارداً ، كأنف كلب ، وارتعش «بيلاطس» فجأة إذ سمع ضوضاء ثم صوت نفير وقعقعة ؛ إشعـاراً بأن « حنانيا » وسجينه قد وصلا إلى البوابة .

الفصل السابع والستون

حلم الملكة

لا يبرح الحجاج القادمون إلى «أورشليم» يصرفون ساعة فى دير راهبات «سيون» نازلين الدرجات المؤدية من كنيسته إلى تسعة عشر قرنا انصرمت ، فإنه من هذه الكنيسة يبدأ الدرج الهابط إلى الشارع الرومانى الواقع أمام سراى « بيلاطس » المرصوف بأحجار الجير والجرانيت الضخمة ، التى تجرى عليها دائماً عجلات العربات والتى أحالتها ملايين الأقدام الحافية إلى أرض ملساء .

إن الوقوف هناك فى الضوء الخافت يحمل إليك حقيقة ذلك الشارع وتاريخه واضحا ، فتلوح مدينة « أورشليم » الحديثة المزدحمة من أعلى ، كحلم خافت تدفعه إلى بعيد بوابة « البريتوريوم » وذكرى الجمع الصاخب الواقف عندها ، الجمع المأجور المهدد بقبضتيه الذى كان يتبع الحراس الذين كانوا يفسحون الطريق لرجل نحيف قصير مهيب تنحدر فوق عينيه اليسرى خصلة من الشعر الأبيض . « حنانيا » سياسى « أورشليم » الشيخ الداهية .

وكان يمشى إلى جوار « حنانيا » صهره رافعا ذيل ردائه الأزرق حتى لا تصل شراريبه إلى التراب ، ثم يأتى بعدهما وسط حلقة من الجنود السجين المحكوم عليه .

وشدوا حبلا طويلا ، ورن جرس ، وأدرك « حنانيا » ماذا سيحدث ، فقد اتفق مع « بيلاطس » مقدما على أن يخرج إليه « بيلاطس » دون أن يدخلوا عنده ، ويسمع دعواهم خارج بوابات «البريتوريوم» ، احتراماً لتقاليد الشعب ، إذ كان الوقت وقت عيد لديهم ، وكانت تقاليدهم تحرم عليهم أن يدخلوا بيت أجنبي ، وإلا وجب عليهم أن يتطهروا ، حين يقتضى التطهير عزلة سبعة أيام ، والوقت على العيد ضيق .

ووقف «حنانيا» و « قيافا » إلى جانب ، وكان « حنانيا » يحك طرف أنفه بيده بينما كان « قيافا » يلعب بلحيته ، حتى بدءا الجنود يدفعون السجين ليقف أمام البوابات المقفلة .

وبدا أن السجين عذب طويلا فقد كان أحد خديه محمرا مزرقا من أثر الضرب والتعذيب ، وكانت عينه اليسرى تبدو وكأنها قد كسرت ، وتلون الجلد تحت شفته السفلى وتعلقت برقبته منشفة

عقدتها إلى الوراء وقعت من فوق عينيه حيث ربطها بعض المأجورين وأخذ كل واحد منهم يضربه بدوره صائحا : تنبأ من منا ضربك ؟ .

وكان رداؤه الرائع المكون من قطعة واحدة قد تلوث ببصاق من اهتموا بالبصق عليه ، ومع ذلك بقيت عيناه هادئتين حتى لقد قال جندى لزوجته فيما بعد : « إنه لاشىء يمكن أن يعكر هدوء الرجل » . إذ حجبوا عينيه ودفعوه من أكتافه إلى الأمام وإلى الخلف ويمنة ويسرة وأداروه حول نفسه وسخروا منه وشتموه وضربوه بكل قسوة ، ولكنه بقى محتفظا بهدوئه ، وكأن قوة داخلية تحافظ عليه ووقارا خلقيا فيه استمر يعلو فوق كل استهزاء حتى خجل معذبوه وكفوا عن رياضتهم وعادوا ساهمين ! .

وكانت يداه أمامه لا تبرحان مربوطتين وعيناه متجهتين إلى البوابة ، حتى بدت خيوط ذهبية قليلة آتية من الشرق ضاربة فى كبد السماء ، ونزل « بيلاطس » فى بطء شديد .

وكأنما كانت الخيوط الذهبية علامة دارت عندها العجلات وعلا رنين السلاسل الحديدية وضجيج المفصلات وانفتحت بوابات « البريتوريوم » إلى الداخل .

وجلس « بيلاطس » على كرسيه العادى « البرونزى » فوق الشرفة العالية .

ودفع « يسوع » مقيدا إلى الأمام ورفع وجهه إلى قاضيه الجديد وتقابلت النظرات . وكان « بيلاطس » فى لباس ثقيل يقيه برد ذلك الصباح ، واسترد نظرته سريعا إذ بدا له أنه يعرف « يسوع » منذ زمن ، وأن شيئاً يدفعه لأن يرفع يده ويلقى إليه بالتحية ، ولذلك أدار بصره سريعا إلى الوجوه السوداء الملتحية ، التى يبدو عليها الإجرام والتشرد ، ذات العيون الضيقة المريضة منذ نزلت من أرحام الأمهات ، وذات الأيدى المشرعة المستعدة لارتكاب أية جريمة .

وسمع الحاكم ضوضاء حديثهم وهز نفسه ليتخلص من هذا الإحساس الذى يضايقه ، واستدار إلى « حنانيا » يوجه إليه السؤال :

— أية اتهامات تسوقها ضد هذا الرجل ؟ .

ورد « قيافا » فى لغة تكاد تخرج عن حد الأدب ، إذ لم يستشعر حاجة لأن يلتمس رضا « بيلاطس » . .

— لو لم يكن هذا الرجل مجرما لما سقناه إليك ! .

ورد « بيلاطس » فى إصرار بأنه إنما يطلب حقائق محدودة ثابتة ، ولذلك تولى « حنانيا » الرد :

— لقد وجدنا هذا الرجل يفسد الأمة ويأبى أن يدفع الجزية لقيصر ، ثم يدعى أنه « المسيح » الملك .

هذا الرجل المقيد الرسغين ، الملوث الرداء ، الممزق الوجه .. ملك .. ياللسخف .. هل لم ير هؤلاء الغوغاء ملكا من قبل ؟ كل هذا دار فى خلد « بيلاطس » الذى كسر الخبز مرتين «مع طيباريوس قيصر» . وشعر «بيلاطس» بالحاجة إلى أن أيخلى يده من هذا الشأن ، فاتجه إلى « حنانيا » وقال فى وضوح :

— خذوه أنتم وحاكموه طبقا لشريعتكم ! .

وصاح « قيافا » غاضبا :

— لا يحل لنا أن نسوق إنسانا إلى الموت .. وأنت تعرف ذلك .

طبعا يعرف «بيلاطس» ذلك ، ويعرف أن محاكمتهم « ليسوع » ابتدائية محضة أو هى أقل ، مجرد رأى محلفين إن لم يصدق هو عليه يسقط .

وتوجه « بيلاطس » إلى المتهم ولوى فمه فى ابتسامة شفت عن سن مكسورة ، وسأل بصوت عال :

— هل أنت ملك اليهود ؟ .

ورد « يسوع » ابتسامته بخير منها وقال :

— أنت تقول ! .

ورفع « قيافا » أصبعه محذرا « بيلاطس » وقال :

— نحن نعرف أن هذا الرجل هو ابن «يوسف النجار» المولود من « مريم » ، ولكن أتباعه يقولون عنه إنه ابن الله وإنه ملك .

وابتسم « بيلاطس » وهو يقول « لقيافا » :

— إذن خبرنى كيف أكون أنا مجرد حاكم ، ثم أحاكم ملكا ؟ .

ولكن « قيافا » لم يكن مستعدا للمزاح ولذلك صاح محتجا :

— إننا لم نقل إنه ملك ولكننا قلنا إن أتباعه يدعون ذلك .

وألقى « بيلاطس » نظرة طويلة على « يسوع » رأى فيها شعره البنى المتموج النازل على كتفيه وجبهته العريضة التى لا جعدة واحدة فيها ، وعينيه الغامقتين المضيئتين المتباعدتين ،

والكسور والدم النازل منها ، وارتعد « بيلاطس » وشعر بأنه طول حياته يضيع منه شيء خفي يهرب منه .. أتراه يراه الآن في ذلك الضـــوء اللامع العجيب الذي يشرق من وجه المحكوم عليه ؟ .

والآن إذا كان قد وجد حقا فيه ما أعياه البحث عنه ، هل يجب عليه أن يقتله ؟ .

وأشار « بيلاطس » بيده بما معناه أن ادخلوا السجين إلى وحده فإني أريد أن أتحدث إليه . فماذا يعني هذا ؟ .

وأسقط في يد « حنانيا » و « قيافا » ، فهما يعرفان تأثير « يسوع » الشخصي على من يتحدث إليه ، ويعرفان أن « بيلاطس » يدرك واجبه ويؤديه ، وأنه لا يجهل كل شيء عن فلسفة « يسوع » ومعجزاته المشهورة وطباعه المحبوبة ثم ها هو ذا . . « بيلاطس » .. يهتم « بيسوع » أكثر وأكثر مما كانا يتوقعان .

وتقدم « بيلاطس » ، « يسوع » إلى داخل داره الفخمة ، عائداً إلى جانب المدفأة ، وقد ارتفع صوت تنفسه عالياً ورنين أساوره الذهبية ذات الميداليات ، تفوح رائحة العطر من إبطيه ، ودفع إلى المدفأة كرسياً ثانيا وأمر «يسوع» أن يجلس ، فجلس مواجها له ، كان أحدهما هو القاضي والآخر هو السجين المحكوم عليه بالإعدام ، ومع ذلك فإنهما كانا جالسين الآن ، كما يبدو من تعبير وجه كل منهما ، رجل إلى رجل ! .

وأعاد «بيلاطس» في اهتمام خلو من التكلف سؤاله السابق :

— هل أنت ملك اليهود ؟ .

كان « يسوع » جالسا مستقيم الظهر مرتفع الرأس ، وانحنى قليلا إلى الأمام وكفاه إلى ركبتيه ، وفي عينيه سحرهما العادي ينساب سهلا إلى قلب « بيلاطس » وإحساسه ، ثم في هذه اللحظة بالذات ظهر جندي بين أستار الباب البعيد فألقى التحية ، ثم قدم إلى الحاكم خطابا من « بروكولا » ، وقطب الحاكم جبينه وقرأ :

— إياك وهذا الرجل الصالح ! فقد تألمت كثيرا اليوم وحلمت حلما بشأنه .

إذن فهذا حلم ثان ، فلماذا تحلم هي به أحلاما قوية ؟ .

وكان « بيلاطس » معروفاً بأنه رجـل شديد الحب لزوجته ، مغرما بها ومخلصا لها ، ولكنه لم يكن يتصور في هـذه الليلة بأنها تحاول التدخل في شئونه الإدارية ، وتوجيه سلوكه ، الشيء الذي لم تفعله قط من قبل. إنها حفيدة قيصر، ومولودة وفي دمها احترام القانون

الرومانى الذى لم يخرج «بيلاطس» على مقتضاه فى شأنه مع هذا الرجل ، وقد أثار هذا التدخل «بيلاطس» ودفعه إلى مقاومتها وتحديها .

فإنه ليس لسيدة مهما بلغت مكانتها فى قلبه ، أن تخبره ماذا عليه أن يفعل ! .

وعاد يفكر فيما سمعه ضد هذا السجين ، أنه يثير الشعب ، وقد أجمعت التقارير على أنه يدعو إلى تغيير نظم المجتمع المستقرة . ومن المحتمل أنه يدعو إلى ثورة يأتى من بعدها حاكم من نوع جديد ، حاكم ممسوح من الله ، مستقر عرشه فى « أورشليم » ، أترى « بروكولا » تتوقع إذاً من زوجها أن يشجع على ذلك ، وعاد ينظر إلى « يسوع » فى ثبات بينما لعبت أصابعه السميكة بالخطاب تمزقه إربا .

* * *

المسيحية إذن هى الشىء الجديد الذى يعمل هذا الرجل له ، ولا تعنى هذه «المسيحية» أقل من الفوضى والخيانة ، وإنها لشىء فظيع فى هذه الرقعة الموبوءة من الامبراطورية ، وثقل قلب «بيلاطس» وامتلأ بالقسوة .

وعاد يفكر .. لا ريب أن هذا الرجل — مما يبدو من ملامحه وفى هذه النظرة الهادئة من عينيه الكبيرتين — لايدرى أنه قريب جدا إلى تعذيب فظيع ، وأنه لمن العجب ألا يعرف تماما ماذا يعنى الصلب ، فإنه يبدأ بالجلد والتعذيب الشديدين وأنهما ليتساويان قسوة وإيلاما مع الصلب الذى سيعقبهما ، فإن الجالد مطعمة بالمسامير وبأجزاء من كسرات العظام مدببة الأطراف ، يستعملها جنود أشداء من أبطال حملة الأثقال ، فماذا تكون حاله لو أن «بيلاطس» أعاد هذا الرجل إلى أيدى هؤلاء الجلادين ؟ إن من المحتمل جدا عندئذ ألا يعيش حتى يصلب ، فإنه بجسمه هذا وبطباعه تلك سيموت حتما من عذاب الجلدات الأربعين .

فإذا ما عاش بشكل ما بعدها ، فلن يتبقى فيه ما يعينه على حمل صليبه ، فقد كانت هذه إجراءات تنفيذ الحكم بالصلب . أولا الجلد أربعون جلدة ثم حمل الصليب خلال الشوارع والبوابات ، إلى خارج أسوار المدينة ، وإلى التل المرتفع حيث تنفذ هذه العقوبات ، ثم إن عليه أن يشاهد كل إجراءات الصلب التى تبدأ بحفر الحفرة التى يوضع فيها الصليب ثم وضع الصليب إلى جوارها ، ثم تمديده عليه ، ثم تسمر يديه ورجليه .

وضاقت عينا «بيلاطس» ، وهو يفكر فى كل هذا ، إنها طريقة فظيعة للموت ، مسمرة يداك فى وضع غير طبيعى ، مشدود جسمك بشكل مخيف ، بحيث تحمل إليك كل خلجة

فى جسمك آلاما لا تطاق ، ثم هذه المسامير التى تخترق يديك ورجليك ، وجروحها التى سرعان ما تلتهب ، والعروق المشدودة المنتفخة والعذاب الطويل الأمد والعطش المخيف القاتل .

كل هذه الآلام ستنزل على ذلك الرجل الرقيق الهادىء ذى العينين الكبيرتين المضيئتين وقارا وطيبة. واليدين النحيفتين المعرقتين المسنودتين إلى ركبتيه ، إنه عندذاك مستريح نسبيا لولا عينه المكسورة قليلا والعلامة الحمراء الزرقاء من التعذيب على خده الأيسر والبصاق المتناثر على ردائه ، إن حاله الآن لا بأس بها ، ولكن ماذا سيكون من حاله بعد برهة قصيرة ، لو أن « بيلاطس » أصدر القرار الذى يريده «حنانيا» و «قيافا» والغوغاء الذين يحيطون بهما ؟ .

وأدرك «بيلاطس» من ناحية أخرى أن رؤساء الهيكل سيرضون عنه أكثر لو أنه وافقهم على صلب « يسوع » .

ولكن ماذا يكون رأى من تبعوا «يسوع» فى الطرق المتربة وفوق التلال المرتفعة ، وماذا يكون إحساس من رأوه يشفى برضهم ويرد البصر للعمى منهم ويقيم أحياءهم من القبور ، وآلاف الرجال والنساء والأطفال الجياع الذين أطعمهم ، والفقراء الذين ملأ قلوبهم عزاء وأضاء فيها الأمل ، ماذا يكون رأى هؤلاء ؟ .

وكانوا يهتفون له : أوصنا فى يوم الأحد الماضى ويصلون ويسبحون ! .

ونحن الآن فى فجر الجمعة وآلاف الناس الذين فرشوا له ملابسهم فى الطريق وزينوها بفروع الزيتون وسعف النخيل ، لم يبرحوا نائمين ، لا يدرون عن حاله شيئا وليس أمامه الآن إلا رؤساء الكهنة والمأجورون الذين يزحمون الطريق أمام بوابات القصر .

وأعاد «بيلاطس» السؤال بصوت وحشى وقد ذهب عنه كل تردد :

— هل أنت ملك اليهود ؟ .

وقال «يسوع» فى هدوء :

— أمن عندك تقول هذا ، أم آخرون قالوا لك عنى ؟ .

ورد «بيلاطس» فى صوت عال :

— ألعلى أنا يهودى ؟ إنها أمتك ورؤساء الكهنة هم الذين أسلموك إلى. فما الذى صنعت؟

وسرح «بيلاطس» بنظره وبفكره فى الطريقة التى رد بها «يسوع» على سؤاله الأول ، كأنه يطلب إلى «بيلاطس» رأيه الشخصى فى شأنه ، أتراه — «بيلاطس» — يجب أن يقصر بحثه على الناحية السياسية لهذا الموقف ؟ إذ ما ذا يهمه كقاض رومانى أن يكون «يسوع» مجدفاً أو غير مجدف، وماذا يعنى «روما» من خلافات اليهود الداخلية هذه ؟. وانتهى «بيلاطس» إلى أن «يسوع» يعنى بسؤاله :

« أتراك توجه إلى هذا السؤال خشية أن أكون أنا أدعى لنفسى ملكا وتاجاً أرضياً ، ومن ثم أغدو عدوا لإمبراطورية قيصر ؟ أو أنك تسأل لمجرد أن تعرف هل أدعى أننى « المسيا » ؟ .

ولذلك كانت إجابة «بيلاطس» القاسية . . ألعلى أنا يهودى ، يقصد أنه ليس منهم وأنه فاتح رومانى ، لا يطيق مدعيـــا الملك ولا ساعيا إليه ، وأنه هنا ليخنق كل فوضى وكل اضطراب .

وعندئذ أجاب «يسوع» بكل وضوح :

— إن مملكتى ليست من هذا العالم ! .

وحصل «بيلاطس» فى هذه الكلمات الست على الإجابة الدقيقة عن سؤاله ، ولكنه لم يكن يريد تماما هـــذه الإجابة ، وإنما كان يفضل عليها أن يقول «يسوع» كلمة نفى واحدة ، ولكن «يسوع» فضل أن يقول : «مملكتى»، وقد ضايقت هذه الكلمة الحاكم ، فإن المملكة هى مملكة ، وأما العالم الآخر الذى ينسب «يسوع» إليه مملكته فإنه شىء غريب ، هل هناك عالم آخر غير هذا العالم ! ثم كيف يكون الإنسان ذا مملكة دون أن يكون هو ملكا ، ألا ترى أن «يسوع» يحكم على نفسه إذاً بالموت ؟ .

وفى صوت هادىء أجاب « يسوع » على هذه الأفكار :

— لو أن مملكتى كانت من هذا العالم لكان خدامى يحاربون عنى لئلا أسلم إلى اليهود ، والآن فإن مملكتى ليست من هنا ! .

وطرفت عينا «بيلاطس» الزرقاوين وأعاد فى بطء شديد :

— إن ما أريد أن أعرفه هو .. هل أنت ملك ؟ .

وأجاب «يسوع» عن هذا السؤال إجابة وجهها إلى «بيلاطس» وإلى كل الأجيال القادمة:

— أنت قلت إنى ملك ، إنى لهذا ولدت ؛ ولهذا أتيت إلى العالم ، لأشهد للحق ، فكل من كان من الحق يسمع صوتى ! .

وسمع «بيلاطس» هذا الصوت وأحس بالشيء المجهول الذى هرب منه دائما ، ومال إلى الأمام فى اهتمام وضغط بذراعيه على مسندى كرسيه وذهب عنه كل سخرية وسأل فى همس عميق :

— وما هو الحق ؟ .

ولم يكن «بيلاطس» عند ذاك يهزل ، وإنما كان جادا غاية الجد .

ولم يصبر ليسمع الجواب فقد قرأه فى عينى السجين . ولذلك وقف وانحنى فوق «يسوع» وقال له فى رجاء :

— ألم تسمع الاتهامات الخطيرة التى يسوقونها ضدك ؟ ! . ألا ترى كم هى كثيرة هذه الاتهامات ! ألا تجيب بكلمة ؟ .

وصمت «يسوع» ولم ينبس ببنت شفة ، ورفع «بيلاطس» ذراعيه إلى السماء مستجيرا :

— ألا أجبتنى بكلمة ؟ ... ألا تعرف أن فى إمكانى أن أصلبـــك وفى إمكانى أن أفرج عنك ؟ .

وعندئذ أجاب « يسوع » :

— ما كان لك على من سلطان لو لم يعط لك من فوق ! . ومن أجل هذا فالذى أسلمنى إليك خطيئته أعظم ! .

ولمعت عينا «بيلاطس» بفرح وكأن حملا انزاح عن كاهله ، إن هذا الرجل « يسوع » قد فهمه تماما ، وليس هذا فحسب ، بل إنه ليعفو عنه ويسامحه ، وإنه ليؤكد له أنه يقدر ظروفه والمصاعب التى يعانيها فى موقفه الراهن . وأحس « بيلا طس » بأن عليه أن يفعل شيئا من أجل هذا الرجل الكريم ، ليس من أجل « بروكولا » فحسب ، ولكن من أجل المتهم نفسه ، وسيبذل جهده للإفراج عنه ، ولذلك أشار عليه بأن يمشى أمامه خلال الردهات الطويلة التى كان يرن فيها صوت خطا صنادله الرومانية ، أما قدما « يسوع » فقد كانتا عند ذاك حافيتين ولا صوت لهما ، ومر الاثنان ، المتهم وقاضيه ، بين مشاعل الحرس إلى الردهة الخارجية المكشوفة .

الفصل الثامن والستون

الملك المخمور

عندما ظهر « يسوع » أمام الجموع صاحوا وضحكوا وأخذوا يقلدون أصوات القطط فى ذلك الوقت من السنة ، ثم ما أن ظهر الحاكم وراءه حتى صمتوا ، ووقف « يسوع » برسغيه المربوطين أسفل الدرج قريباً من متهميه « حنانيا » و « قيافا » ، وجلس « بيلاطس » على كرسيه العاجى المذهب ودار عقله بسرعة . . هذا العقل البسيط غير المعقد الذى يحزم الأمر عادة بسرعة ويرفض التردد ، ولكنه كان عند ذاك يموج بالأفكار المتعارضة التى تتنازعه . . . ما الذى حلمت به « بروكولا » ؟ . . وماذا أبلغ «حنانيا» الإمبراطور عن الحاكم ؟ . . وذلك الضوء الذى يشع من عينى المحكوم عليه ، باعثا الدفء والطمأنينة إلى الأفئدة المتعبة ، ومضى على « بيلاطس » دهر وهو يبحث عن قرار أو عن كلمات يقولها .

ثم بماذا يدافع عن نفسه لو أنه أصدر قراراً خاطئاً واستدعته « روما » لتحاسبه ، إنه ليعرف القانون لأن عليه أن يعرفه ، إن القانون المطبق فى هذه الحالة هو « لكس جوليا ماجيستاتس» ، الذى صدر منذ سنة ٤٨ قبل الميلاد . . والذى ينص على أن كل من يدعى أنه مساو للملك يعتبر خائنا ويستحق عقوبة الموت ، وأن الاثنتى عشرة قاعدة الرئيسية فى القانون الرومانى المكتوبة أصلا بالدم تبيح للحكام الخائفين إنزال أقسى العقوبات التى يمكن أن تخطر على قلب خائف منتقم ، فلو أن ماقاله « يسوع » يكون الخيانة العظمى المذكورة فليست هناك جريمة أشد فظاعة .

واستخار « بيلاطس » الآلهة ليهدئوا عقله الثائر ، ثم مضى يسأل نفسه : من أعماق قلبك يا « بيلاطس » أترى أن المتهم مذنب . . . . . !

وما بقى الجمع المضطرب ينتظر ، وما برح « بيلاطس » يتردد ويستعيد ماذا أجاب « يسوع » فى هذا الشأن ، لقد قال : « مملكتى ليست من هذا العالم » . إذن فإنه واضح . إن «يسوع» يحتمى بقوة القانون الرومانى الزمنى . وكأنه عند ذاك قال : أيها الحاكم «بيلاطس» لو أننى قلت إن مملكتى من هذا العالم لكان لك كل الحق فى أن تحكم على ، ولكننى لم أقل ذلك ، فإن مملكتى مملكة روحية محضة .

وفكر « بيلاطس » فى أن أى رجل قانون آخر يستنتج من هذا أن « يسوع » يعترف وينكر فى نفس الوقت ، فهل « يسوع » إذن مذنب أم غير مذنب ؟ .

« بيلاطس » ! . هيا احزم أمرك ، فقد استطال الوقت فعلا وكثيراً » .

وبغير أن ينظـــر إلى « حنانيا » ولا إلى « قيافا » ولا إلى « يسوع » ، وقف « بيلاطس » وأعلن :

— إنى لا أجد علة فى هذا الرجل ! .

وألجمت الدهشة ألسنة الجموع . لا علة فى«يسوع» على الإطلاق ! إن هذا الرأى لا يمكن أن يكون نهائيا ، ولابد أن « بيلاطس » قلب الأمر على وجهه الآخر ، فقد عقد اجتماعا مع « يسوع » وسأله واستمع إلى إجاباته وانتهى إلى أن القرار الذى أصدرته المحكمة لا يتفق مع القانون ولا مع الواقع ، إن « بيلاطس » يعلن الآن أن الحكم باطل وخاطىء ، وأنه يجب الإفراج فورا عن « يسوع » . ورأيه هذا صادر فيما يعتبر استئنافا ، فهو بهذه الصفة نهائى ، و « يسوع » إذن غير مذنب .

فقد أدى الفقه الرومانى واجبه وأعلن براءة « يسوع » .

واحتقن وجه « قيافا » ثم اصفر فى ضوء الفجر الباهت وصاح :

— إنه يثير الشعب . .

وردد الجمع المأجور من ورائه :

— إنه يثير الشعب ويخطب محرضا على الثورة فى كل اليهودية وبدءاً من الجليل إلى هذا المكان .

وقال « بيلاطس » :

— الجليل ؟! .

وتنفس الصعداء . . فقد أشرق عليه نور الخلاص من هذه الورطة وسأل ثانية :

— أتقولون إن هذا السجين آت من الجليل ؟ .

— نعم . إنه كذلك .

وابتسم «بيلاطس» إذ رأى بداية ثورة من هؤلاء المأجورين أمام قصره، وها قد جاءه

الفرج ، فإن كان « يسوع » قد أتى من «الجليل» فإن أمره لا يهم «بيلاطس» ؛ والمسألة بعد مسألة اختصاص ، إنها لتتبع « هيرودس » ، ومن حسن الحظ أن « هيرودس » الآن فى « أورشليم » فسيتحمل إذاً عنه مسئولية الفصل فى هذه القضية الشائكة ، ياله من حل سعيد إذاً ، وخصوصاً إنه ليس بين « بيلاطس » « وهيرودس انتيباس » الآن حب موجود أو مفقود ، وستأتى إحالة هذه القضية إليه ، فى شكل مجاملة لياقة ، وستضع حداً لما كان بينهما من خلاف سابق :

— خذوه إذاً إلى « هيرودس » ! .

وأطلق «حنانيا » صرخة مكتومة وصرخ «قيافا» ، وصرخت من بعدهما الجماهير ، ولكن بغير جدوى . فقد حزم « بيلاطس » أمره وقام ، ورفعوا كرسيه من الشرفة ، وأغلقت بوابات القصر ، وشرب «بيلاطس» كوبين كبيرين من النبيذ الأحمر ، ولم يبق إلا أن يعود الكاهنان أدراجهما طوال الشوارع المظلمة إلى قصر « هيرودس » ومشوا جميعا فى صمت ثقيل ولم يتحدث « حنانيا » ولا « قيافا » ، فقد غلبهما « بيلاطس » على أمرهما ، وكان موقفه سليما ومطابقا للقانون .

ومن الواضح أن « بيلاطس ألقى عن كاهله مشكلة « يسوع » وتخلص منها ببراعة . وقد يصر محامو اليهود وقضاتهم على أن « يسوع » يثير الشعب باستمرار ، وصحيح أن هذه الجريمة بدأت فى جليل «هيرودس» ، ولكنها استمرت فى اليهودية وفى « أورشليم » حيث قبض على « يسوع » ، ولا ريب أن « بيلاطس » محام هو الآخر ويعرف أن من اختصاصه البت فى هذه القضية لو أنه أراد ، ولكنه يصر على معارضة شيوخ إسرائيل ، بملاحظات قانونية لا تتعلق بالجوهر .

ومع ذلك فإن « هيرودس أنتيباس » ليس غبيا هو الآخر ، وإنه ليتمتع بفكر قانونى بارع ، عندما يكون ذلك ضروريا ، لقد سبق أن أعدم نبيا اسمه « يوحنا » المعمدان ولصقت به سمعة قطع الرءوس منذ ذلك الوقت وضايقه ذلك حتما . ترى هل تجوز عليه لعبة « بيلاطس » المكشوفة ؟ .

فى ذلك الفجر عند ما ترك «بيلاطس » «يسوع» عند البوابة واستدار إلى داخل قصره ، كان « هيرودس » يقيم فى قصر عائلته فى « أورشليم » القابع فوق قمة التل المواجه للهيكل ، وكان « هيرودس » لا يزال جالساً على مائدة مزينة بالأطايب متناثر فتاتها وبقع النبيذ على

المفارش ، وقد اكتسى برداء أبيض مطرز له شراريب من الذهب ، وجلس ووقف حوله جمع من الفتيات المتثائبات شبه العاريات متظاهرات بأنهن مازلن يستمتعن بصحبته ، ومنهن فتاة بدينة زين أنفها بخاتم تتجشأ كل دقيقتين ، وكلما تجشأت ألقى « هيرودس أنتيباس » الصغير رأسه إلى الخلف مقهقها .

وكانت الفتاة قد تجشأت وعاد « هيرودس » يقهقه عندما سمعوا ضوضاء عند البوابة الخارجية ، ودخل أحد الخدم وقد ربط رأسه لنزلة برد وانحنى طويلا أمام حاكم الجليل وأخبره أن فرقة من جنود «البريتوريوم» حضرت إلى الخارج ومعها « حنانيا » و « قيافا » وسجين محكوم عليه .

وتعجب « هيرودس » وساءل نفسه : أية مفاجأة غريبة هذه ؟ ومن يكون السجين . . . « يسوع » ؟ كلا . . أو على الأقل ليس « يسوع الناصرى » . . حسنا . . لا أحد يدرى ماذا سيحدث بعـــد . ولكن « يسوع » هـــذا سبق أن بعث برسالة إلى « هيرودس أنتيباس » ، الذى له بالأسف شكل ثعلب ، يصفه بأنه ثعلب ويتحداه ، فلم ينس «هيرودس» له قط هذا التحدى

ولما كان « هيرودس » رجلا يعيش للذاته فقط ، ولا يفكر بعمق فى شىء يخرج عن هذا النطاق ، لذلك لم تكن له آراء كثيرة حول « يسوع » .

ومنذ تردد على الجب الذى اعتقل فيه «يوحنا» المعمدان وانتهى به الأمر إلى قطع رأسه ، بقيت ذكرى النبى القتيل تؤرقه .

وكان شأنه فى هذا شأن « بيلاطس » و « طيباريوس » وغيرهم من القادة الذين يعيشون للحرب وللملذات ، ويستشعرون شيئا من الحسد لهؤلاء الفلاسفة الذين يستطيعون أن يعيشوا بعيدين عن هذه وتلك .

وقد أمضى زمنا خائفا متصورا أن « يسوع » هو « يوحنا » المعمدان قائما من الأموات حتى طمأنه مستشاروه بأن الأمر ليس كذلك ، وبأن « يسوع » نفسه لم يدع شيئاً منه .

ثم أخذت أخبار معجزات « يسوع » تصل إلى « هيرودس » وكغيره من عشاق الملذات كان يطرب لهذه الأخبار طرب صبي ذاهب إلى السيرك ، وكم كان يتمنى أن يرى «يسوع» وهو يقوم

بلعبة الحبل التى حدثه عنها التجار القادمون من الهند ، ثم هل تراه يستطيع أن يخفى كرات العاج تحت الكؤوس كما تفعل السحرة ، أو يجعل بذرة تحت وعاء تورق وتخرج زهراً ؟ ، وهل يستطيع أن يخرج أصواتا من حيث لا أحد ؟.

ولذلك فإنه فى ذلك الصباح ، وهو محوط بأنواع الخمور والمأكولات والعقاقير التى تساعد على إشباع نهمه ، تذكر « هيرودس » الإجابة التى سمعها عن تلك الأسئلة ، إن «يسوع» يختلف عن سائر السحرة فى أنه لايقوم باستعراضاته لمجرد أن يثير دهشة المتفرجين ، وإنما هو يقوم بها خدمة للمحتاجين إليها منهم ، ثم لا يتقاضى أى أجر، وزاد ذلك فى دهشة « هيرودس » ، فإن «يوحنا» المعمدان هو الآخر كان لايأخذ أجرا ، فأى صنف من الناس هما « يوحنا » و « يسوع » ، إذاً ؟ .

وكم تمنى « هيرودس » أن يرى « يسوع » يجرى شيئا من هذه العجائب أمامه ثم ها هو ذا الآن فى الصباح المبكر مرسل إليه من عدوه السابق « بيلاطس البنطى » ، كم فى هذا الزمن من عجائب ؟ . . .

وبينما كانت الفتاة السمينة تتجشأ وتغمز بعين ثقيلة متراخية ، ضربها « هيرودس » على فخذها ثم أمر بإحضار السجين .

وكم ضايق ذلك السجين عندئذ « هيرودس » . . .

كان « هيرودس » فى أشد حالات السكر ، وعندما وقع بصره على الجليلى التابع له طلب إليه أن يريه شيئا من عجائبه ، ولما صمت « يسوع » زجره بشدة قائلا :

— هيا أيها الساحر .. تقدم وأرنى بعض ألاعيبك .. ولاتقف هكذا . .

وأخذت القوم الدهشة ممزوجة بشىء من الاستهجان ، حتى « حنانيا » و « قيافا » تساءلا عندئذ : لماذا لايسلك حاكم مسلك حاكم ؟وقد صمتا مأخوذين عندما اندفع «هيرودس» يمزح مع السجين ، وألحف عليه فى أن يريه على الأقل معجزة واحدة ، ولكن « يسوع » ظل صامتا تماما .

وعندئذ شرح الكاهنان الموقف « لهيرودس » وأصرا على الاتهامات الثلاثة الموجهة إلى « يسوع » من حيث هو يثير الشعب بين جموع الأمة ويأبى أن يدفع الجزية « لقيصر » ويدعى أنه ملك اليهود .

ولعل تشدد الكاهنين وصوتهما العالى أعادا إلى « هيرودس » بعض حاسته السياسية ، ولذلك نظر إلى السجين ثم قهقه وضرب بيده معدته وصاح :

— ملك اليهود .. ياه .. فليحيا الملك . !

وبكل بدانته ودوران رأسه بأبخرة الخمر ضرب على فخذيه وقهقه وحاول الانحناء أمام « يسوع » وقال :

— الطاعة لك أيها الملك .. أيها العبيد. أحضروا لى حلة ملكية بيضاء .. لا ... ليست هذه فإنها لا تليق بملك كهذا .. يحيا الملك صانع العجائب . أين الرداء؟ ألم تحضروه بعد .. هاتوه إذن .. ياه .. نعم إن هذا رداء لائق .. أنظر أيها الملك .. إنه لك ، وإنه لرداء فاخر بديع .. البسه إذاً ماذا .. إنك تقف مستقيما ومتصلبا وتنظر إلى بعينيك هاتين ولا تجيب ولا حتى تطلب الرحمة .. إنك إذاً مثل ابن خالتك « يوحنا » المعمدان . لقد قطعت رأسه ووضعوها على طبق ورقصت « سالومى » بالطبق . . ولكن لاتخف فلست مزمعا أن أفعل ذلك ثانية ، وسوف لا أقطع رأسك يا « يسوع » .

فلتحيا أيها الملك .. ها .. ها .. كيف حالك الآن أيها الملك العجوز ، العجوز العجوز الذى اعتاد على الملك ، أيها الصبى . سأبقى لك رأسك على كتفيك عاليا هكذا ، أما إذا كان لابد له من أن يقطع فدع « بيلاطس » يقطعه ، لا أنا . فإن واحدا كفانى . اذهب إذاً عنى . أيها الجنود حيوا ملك اليهود وانحنوا له وخذوه عنى .. فقد كنت أظن أنه ساحر ... ياه . !

وقاد الجنود « يسوع » الأسير نحو الباب فى لباسه الأبيض السخرى ، ولكن « هيرودس أنتيباس » استرد وعيه فجأة وقام واقفا وصاح :

— انتظر «يسوع».. أتذكر منذ ثلاث سنوات مضت عندما أردت أن أقتلك ؟! أتذكر أنك لقبتنى بثعلب عجوز وأنك تحديتنى وقلت إننى لا أستطيع أن أقتلك . لأن نبيا لا يهلك إلا فى « أورشليم » : وإنك ستمشى فى ذلك اليوم وغده ، وبعد غده ، لقد مضت السنوات الثلاث وها أنت ذاهب إلى « أورشليم » لهذا المصير ، .. كيف استطعت عند ذاك إذاً أن تقرأ المستقبل بهذه الدقة ؟ ! أتراك نبى ؟ ! .

وأغلق الباب وذهب السجين عن « هيرودس » ، ولكنه تركه كما ترك « بيلاطس » ، خائفا ، يتعمد الهرب من أن يأخذ على عاتقه دمه !

وبقى « هيرودس » خائفا ، وذهب يزور « بيلاطس » فى اليوم التالى وأمضى معه ساعة طويلة يتحدثان عن « يسوع » .

وقد كان بينهما فيما مضى بعض جفوة ، ولـكن كلا منهما بعد الليلة المؤرقة التى رأى فيها « يسوع » ، شعر بالحاجة إلى أن يتحدث إلى الآخر عنه .

وهكذا أحالتهما هذه المناسبة صديقين .

الفصل التاسع والستون

اصلبـــــه

كان « بيلاطس » يتحدث مع زوجته ، وقبل أن تصل إلى سمعهما أصوات أقدام الكهنة ومأجوريهم كان قد علم من رسله أن « هيرودس » لم يأكل الطعم وأنه أعاد إليه السجين مع أطيب تمنياته ، مقرراً أنه مهما كانت جرائم « يسوع » فقد ارتكبت فى «أورشليم» ، أى فى اختصاص « بيلاطس » ، فقد عادت القضية إذاً إليه أكثر أهمية مما كانت ، بعد أن تحدث عنها مع « كلوديا » .

ولم يكن «بيلاطس» قد رأى من قبل سيدة رومانية كبيرة المقام تبدى اهتماما خاصاً بشيء ما ، ولكن تلك أخبرته أنها لا تتصور قتل « يسوع الناصرى » ، ومهما يكن من أمر « بيلاطس » الذى رأى أن اهتمامها مبالغ فيه ، فقد كان يدرك أنها حاولت إفهامه أنه إذا ما خيب طلبها هذا ، فإن الحياة بينهما لن تكون كما كانت . وقد ضايق « بيلاطس » هذا أشد المضايقة ، إذ دائما فكر أنه لم ير لها مثيلا فى كل البلاد التى تنقل فيها من « طليطلة » إلى «التيجر» ، وأنه لرجل خشن غير معقد ، وقد وضع كل قلبه وفكره وخياله فى تلك السيدة ، ثم هاهى ذى توشك أن تفلت منه .

فماذا عليه أن يفعل إذن ؟ .

إن عليه أن يجد طريقة يبرىء بها « يسوع » دون أن يعرض نفسه لانتقـــام الكهنة الثائرين ، وعاود الجلوس فى كرسيه فى مواجهة السجين المكسر الوجه ، وكان هادئا وقوراً كعهده به ، حتى فى الرداء الملكى ذى الشرابات الذهبية الذى وضعه على أكتافه الملك الثمل المازل .

وكان وجها « حنانيا » و « قيافا» مصفرين مشعثين من طول ما جهدا نهاراً وليلا وحتى ذلك الصباح ، وقد زاد من حالتهما سوءا أن مؤامرتهما ، ومحاكمتهما غير الشرعية ، وجريهما من منزل إلى منزل ، ومن قاعة المحاكمة إلى «بيلاطس» ، ومن «بيلاطس» إلى «هيرودس» ، ثم من «هيرودس» إلى «بيلاطس» . كل ذلك أصاب أرجلهما بالوهن وبالأورام ، ولما كان « قيافا » بديناً فقد بدا أكثر تعباً وإرهاقاً من حمية الشيخ ! .

وفرك « بيلاطس » أصابعه فوق مدفأة من الفحم وضعوها إلى جانب كرسيه ، وأدار وجهه من « يسوع » إلى « حنانيا » وارتفعت أصوات خشنة غاضبة فرغ صبرها ، أما وقد رفض « هيرودس » أن ينظر قضيته ، فإنه لا يستطيع إلا أن يعيد ما سبق أن قال :

— إنى لا أجد علة فى هذا السجين ، وقد قدمتموه إلى بتهمة أنه يفسد الشعب ، وناقشت السجين ولم أجد فيه علة مما تسندونه إليه ، لا أنا ولا « هيرودس » ، وها قد أرسلتكم إليه فلم يجد فيه ما يستحق العقوبة .

واستطاع « بيلاطس » الآن أن يرى وجوه القوم المسوقين إليه ، بحارة يونانيين مختلطة شواربهم بلحاهم ، وفى آذانهم حلقان ذهبية ، وقد لفوا أذرعهم وأسندوا أجسامهم المثقلة بالخمر والتعب إلى سيدات بشعات ثملات من الأخريات ، ومتشردين ولصوص ومقامرين غشاشين لهم علامات زرقاء على أعناقهم ومعهم رفيقاتهم من سوقة البلد ، وكانت عجوز شوهاء تهز قبضتها فى وجهه . وتابع « هيرودس » :

— وسأطلق سراحه ! .

وانطلقت من الجمع صيحة غضب :

— تطلق سراحه لكى يشفى عمياناً ويقيم أمواتاً ويكسب أنصارا جددا ويلقى دروسا فى كيف يقلب النظام المستتب .

— تطلق سراحه .

واستدار «قيافا» وألقى ببضع كلمات فى أذن طأطأت إلى لحيته لتسمع ، ثم نقلها صاحبها إلى الجمع وعلا صياحهم :

— اصلبه .. اصلبه ..

وتكررت الصيحات حتى أخذت شكل نشيد مرتل :

— اصلبه .. اصلبه ..

ورفع « بيلاطس» حاجبيه يتساءل : هل تصدقه أذناه ؟ وأخذ عقله يفكر بسرعة : إن لهذا الرجل أعداء فى الهيكل ، ولكن له أصدقاء فى الشوارع ، وهذه الصيحة التى تطلب الصلب منبعثة من قلة من الغوغاء ، فلأن يتهاون ذرة فى شأن « يسوع » معناه قتله ، فلن يرضى هذا الجمع المتعطش إلى الدماء أقل من القتل ، أما أن يدع «يسوع» يعيش فإنه سيرضى به ضميره من ناحية ، وسيبر بوعده « لبروكولا » ، من ناحية أخرى .

ومع أنه يعرف تماماً ماهية هذا الجمع الصاخب أمامه وقيمته الحقيقية ، ولكن الموقف يستدعى إعمال الفكر ، فإن كراهيتهم وعاطفتهم الثائرة حقيقية كانت أو مصطنعة ، حقيقة بأن تسرى عدواها إلى الجموع الأخرى المسالمة ، ولعل هؤلاء الواقفين أمامه قد دبروا فعلا ثورة ، ومع ذلك تردد «بيلاطس» فى أن يقبل الهزيمة .

وطرأت عليه فكرة لعلها تنقذ السجين . ليجربها إذاً .

إن لهم فى « أورشليم » عادة واظب هو على اتباعها ، وهى أن يطلق لهم فى عيد الفصح سراح سجين مشمولا بعفو مطلق ، فما على كل منهم إلا أن يصيح باسم السجين الذى يريد إطلاق سراحه ، وسيفوز الصوت الأعلى بمن يطلب ، وظل « بيلاطس » إلى ذلك الوقت متمسكا بوعده لزوجته مفكراً فى أن يضع أمام الجمهور اسمين .. « يسوع النـــاصرى » ، « ويسوع باراباس » .

وكان « باراباس » داعياً إلى الثورة وقلب نظام الحكم بالقوة ، وفى سبيل هذا ارتكب القتل فعلا . وقال « بيلاطس » موضحاً :

— أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود ؟ من تختارون ؟ « يسوع باراباس » أو «يسوع الناصرى » ؟ .

ونظر الناس إلى « قيافا » وأطاعوا إشارته وصاحوا جميعاً :

— امسك هذا الرجل وأطلق لنا « باراباس » .

وفى هذه المرة كان بين الجمهور مخلصون ، فقد كان بينهم أصدقاء « لباراباس » ، وعلت الصيحات حتى سد « بيلاطس » أذنيه .

ومد « بيلاطس » يديه محاولا تهدئة الجمهور وشرح الأمر لهم ، ولكن كلماته ضاعت أمام صراخهم ، وبدأ الناس يضربون الأرض بأرجلهم وأمسكت سيدة عجوز بقبقابين وبدأت تخبط مع الأرجل ، وعاد الصياح رتيباً :

— اصلبه .. اصلبه ..

ورفع « بيلاطس » يده غاضبـــاً وصمت الناس رهبة . وقال « بيلاطس » فى صوت من جرح كبرياؤه :

— لماذا ؟ وأى شر صنع ؟ أى شر صنعه هذا الرجل ؟ .

وعلا الصياح مرة ثانية :

— اصلبه . . اصلبه . . اصلبه . .

وسقط « بيلاطس » فى كرسيه العاجى وأشار بيده أن خذوه !.

وصاح الناس فرحاً بينما اقتيد « يسوع » إلى مصيره .

وأخذه الجنود عندئذ وبدأوا يضربونه حتى كاد أن يموت بين أيديهم ، فلم يكن ضربهم كضرب الأستاذ للتلميذ ، ولا كان ضرب بجرم عادى ، وإنما ضربوه بسياط من ثلاثة سيور من الجلد ربطت إليها أجزاء من مسامير وكسر عظام ، وقد جلدوه أربعين جلدة . وعندما انتهت كان الضعف قد بلغ منه مبلغه حتى لم يعد يقوى على الوقوف . كان كل جسمه شرائط من الجروح ممزقة دامية ، وإنه لمن عجب أنه لم يمت .

ولكن كان عليه أن يستمر واقفاً ، ووضعوا على ظهره الممزق رداءه ، وجمع جنديان من جنود الهيكل فروعا من الشوك الموضوع سياجاً حول الحقول ليمنع عنها الذئاب والثعالب ، وضفروا له منها إكليلا ضغطوه على رأسه فأضاف إلى الدماء دماء وإلى العذاب عذاباً ، وقد نفذت ضده كل هذه المقدمات فى أسفل دار « بيلاطس » بينما كان هو عائداً يائساً إلى « كلوديا بروكولا » ، التى انسحبت إلى غرفة نومها مصفرة من الكمد وفى عينيها لوم شديد ، وأخبرها باختصار بما حصل ، بينما وصل إليهما من الجمع المنتظر موكب الصلب صياحه الهازىء .

— يحيا ملك اليهود .

وبكت « بروكولا » وهى تقول :

— لقد جلدوه كثيراً جداً ولم يطلق صرخة واحدة !.

— لقد ضربوه حتى على رأسه وبصقوا عليه .

— لقد حذرتك من أن تفعل شيئاً ضد هذا الرجل الصالح .

— بل وقلت لى أكثر من ذلك ، لقد قلت لى إنك تألمت طويلا طول اليوم وحلمت حلماً مزعجاً عنه !.

وحاول أن ينحنى إليها مصالحاً ولكنها دفعته عنها بعيداً ، وقام مستحلفاً :

— حسناً .. سأخرج وسأحاول ثانية إنقاذه!.

ومرة أخرى وقف السجين وقاضيه أمام الجمهور وكان « يسوع » واقفا إلى « بيلاطس »

وكان وجه « بيلاطس » متعبا متهالكا وفى عينيه نظرة زائغة . أما وجه « يسوع » فكان داميا .

وقال «بيلاطس» محاولا أن يجعل فى صوته رجاء ونغمة تعقل :

— اسمعوا .. لقد أحضرته إليكم ثانية لأعيد أننى لم أجد فيه علة ! .

ونظر الجمع المأجور إلى « يسوع » الممزق جسمه ووجهه وإلى يديه المقيدتين ، المرتفع الأكتاف والقامة ، الهادئة .. الوقورة نظرته .. وكأن التاج الشوكى المغموس فى رأسه قد زاده وقارا وهيبة .

وفى هذا السكون .. استأنف :

— انظروا إذاً إلى هذا الرجل ! .

ثم وضع أصبعيه فى أذنيه يحميهما من صياح الجمع المأجور الذى كاد يصممهما .

— اصلبه .. اصلبه .. اصلبه ..

وصاح فيهم « بيلاطس » غاضبا :

— خذوه أنتم واصلبوه ، لأنى لا أجد فيه علة ! .

وخطا « حنانيا » فى حزم خطوة إلى الأمام وقد صمم على ألا يدع « بيلاطس » يهرب من المسئولية ، ودفع إلى أعلى خصلة الشعر من فوق عينه اليسرى وتنحنح وقال بصوت مرتفع :

— أيها السيد «بيلاطس» .. إن لنا شريعتنا التى تقضى بأنه يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابنا لله .

وأيده الجمهور صائحا :

— اصلبه .. إنه يجعل من نفسه ملكا يقاوم قيصر ، فإذا أطلقت أنت سراحه فلست مخلصاً لقيصر ! .

وأخذ الصياح يتزايد ويزحف رويدا إلى قلب «بيلاطس» ويملؤه خوفاً ، ومع ذلك ظل يقاوم ، ووقف إلى جوار « يسوع » وحاول أن يمزح لعله يستطيع أن يلهيهم عن قصدهم . وأشار إلى «يسوع» :

— هذا ملككم ! .

ولم يشاركوه مزاحه وأصروا علـــى الغضب الذى استؤجروا لـكى يصروا عليه . . وصاحوا :

— خذه عنا . . اصلبه .

وخاف «بيلاطس» واستمر يحاول أن يخفى خوفه وراء المزاح :

— أأصلب ملككم ؟ .

— ليس لنا ملك إلا قيصر ! .

وسمع «بيلاطس» تلك الصيحة وانهارت لها أعصابه ، فأى سياسى يحرص على جلده يجب أن يقف عند هذا الحد ، فلو أنه تعدى هذا الحد ، لتغيرت نظرة الناس له ، ولتغير وجه التاريخ كله .

وقد أحس عند ذاك فى أعماق نفسه أن السر السعيد الذى طالما سعى إليه ، ثم اقترب منه كثيرا ، قد فر منه الآن ثانية وإلى الأبد ، ولذلك طلب حوضا وإناء ماء وتقدم أحد أتباعه برجليه المثنيتين وذراعيه الطويلتين حاملا إبريقا من الذهب وحوضا ، وكل ما يلزم للتطهير ، وأمام الكهنة والجموع وقف هذا الحاكم الرومانى ، يغسل يديه ، ولمعت قطرات من الماء على شعر ظاهر يديه الأسود فى الضوء الخافت ، ورفع رأسه إلى السماء وصاح فى صوت متكسر :

— إنى برىء من دم هذا البار . . ! .

وارتفعت أصوات الكهنة والجمع المأجور :

— دمه علينا وعلى أولادنا ! .

وهكذا فى دفعة من الشر والكراهية نطق ذلك الجمع المأجور ومؤجروه معا بالكلمات التى ما برحت ترددها الأجيال التى كانت عند ذاك فى علم الغيب ، حاملة هذه الكلمات معها ضررا بليغا لأبناء وأحفاد لم يأخذهم هؤلاء السادة فى اعتبارهم ، ولم يحسبوا لهم حسابا ، وهكذا سرت الكلمات الطائشة مسرى الطاعون الذى يورث ، ولم تفتر بعد حدة فتكها بالنفوس والضمائر ، وقد أطلق «حنانيا» و «قيافا» زوبعة كراهيـة عاتية ثم لم تبرح على مر الأزمان عاتية .

وهكذا انتهت المحاكمة وأطلق سراح « باراباس » الثائر وأخذ « يسوع » إلى الصلب ، بأمر «بيلاطس» الذى لم يعد يعترض على رغبة «حنانيا» وصهره ، وبدأ « يسوع » رحلته الأخيرة ، عائدا إلى الشكنات ، بينما مشى إلى جوار « باراباس » أصدقاؤه ، دون أن يفطنوا إلى السيدة ذات العباءة الزرقاء الغامقة التى وقفت إلى ظل الحائط باكية ، تنظر إلى «صموئيل» صديق زوجها الراحل ، فى موكب ابنها الحزين .

الفصل السبعون

طريق الآلام

كانت هناك دفعة من الضوء الأصفر تزحف من الشرق وتطغى على لون الفجر الأحمر الباهت .

وبدأت رحلة «يسوع» حيث أخذ ينزل السلالم العريضة فى ضوء الصباح الباكر الغريب، غير ملحوظ من كثيرين لأن الناس انصرفوا عنه مرحبين بالثائر الذى أطلق سراحه فخرج منتفخ الأوداج فى قامته العالية ، أشعث الشعر ، محنياً رأسه إلى جانبه ، هاتفا إلى إخوانه متقبلا ترحابهم الخشن كأنه من صريح حقه ، وأصبح « باراباس » محط الأنظار بينما وصل « يسوع » فى نزوله إلى المكان الثانى فى رحلته ، الواقع أسفل الدرج حيث كان الصليب فى انتظاره .

وكان الصليب من الخشب الخشن مدهونا بالسواد تفوح منه رائحة القطران ، الجزء الرأسى منه مستدير وكبير كشراع مركب صغير، والجزء الأفقى منه مكون من جذع شجرة مشطوراً نصفين ومثبتا إلى القائم بقطعتين كبيرتين من الحديد المطروق ، ولم يكن هذا الصليب من صناعة نجار ماهر ، فلو أنه أعطى إلى النجار الناصرى لخرج من يده أرق صنعا وأنعم ملمسا .

وكان هناك جمع من الناس ليسوا جنودا وإنما هم الخدم والصناع الذين أحضروا الصليب وربطوه فى سلسلة كبيرة كانوا يجرونه بها . وتقدم رئيسهم إلى الجنديين اللذين كانا يحرسان «يسوع» المضروب ، المهان ، الدامى ، وأعطاهما التعليمات فيما يجب أن يحصل ، فإن على المحكوم عليه أن يركع ، وتوضع على كتفه زاوية الصليب ، ثم يقف حاملا ثقل الصليب على ظهره واضعا إحدى قدميه أمام الأخرى، ثم يجره وحده وسط الشوارع الضيقة ، ولا يسمح له بالوقوف فى المنحنيات ، ولا بالوقوف بأى شكل ليغير الوضع أو ليستريح أو ليستعيد قدرته على التنفس ، إن هذه هى طريقة التنفيذ على العبد ، وسيشاطره هذا المصير لصان آخران يحملان صليبيهما فى نفس الموكب .

وما كان من شىء أشد إذلالا من هذا ، أن يحمل الإنسان صليبه إلى حيث يصلب ،

وفى هـذا الجانب الضيق من الطريق حيث يوجد إلى الآن عمود مكسور مثبت فى الحائط الصخرى ، تعثر «يسوع» وتأرجح ، ثم سقط تحت الصليب ولـكنهم أخذوا يضربونه حتى قام على قدميه واستعاد السير حاملا الصليب .

ومر صبى يدفع أمامه عجلته بواسطة عصا مدببة ، غـير ملق بالا إلى ما يجرى ، وبعـد دقائق رأى «يسوع» وسط الزحام الشديد على جانب الطريق والدته واقفة فى ممر مقفل مؤد إلى الشارع حيث يمشى وقد تعلق بأهدابها أطفال قذرون مهملون ، أما كيف وصلت عندئذ إلى هذا المـكان مع طول الطريق من « الناصرة » وكيف أحست مقدما بما سيحصل لابنها ويؤدى به فى ليلة واحدة إلى هـذا المـكان نفسه فإنه سرها ، ولـكنها بعد إذ لم تستطع أن تشهد المحاكمة وقفت فى ذلك الطريق منحنية من الهم تتنفس بصعوبة بينما هو يتقـــدم بصليبه .

وتقابلت أعينهما وتمثلت فى النظرة المتبادلة كل السنوات التى انصرمت ، ثم أخفتها الجموع عن ناظرى « يسوع » ، ومرة ثانية غلبه الإرهاق ووقع وضرب ، وسرت همهمة حزن وأسى بين الجموع ، إذ رأوا أنه تحمل فوق مايتحمله البشر، وأدرك الجنود أنهم قسوا عليه أكثر مما كان يجب ، وأنه قد يمـوت منهم الآن وهو بعد فى منتصف الطريق حيث الزحام على أشده ، وعندئذ فلا صلب ولا موت بطىء على الصليب يمـكن أن يتسلى الناس بمرآه ، وقد يغضب الناس لأنهم سلبوهم هكذا أهم منظر فى هذا المشهد .

أفتراهم إذن قـد انتظروا طول الوقت لـكى يموت المزمع صلبه فى منتصف الطريق ؟ . وشعر الحراس بأنهم يعرفون ما ينتظره الجمهور منهم ، وبأنه يجب ألا يعرضوا المحكوم عليه للموت قبل الأوان ، بعد إذ لم يتركوا فيه إلا بصيصا من الحياة ، ولذلك دفعوا واحدا من الوقوف على جانب الطريق ، لمساعدته على حمل الصليب الثقيل ، وكان اسم الرجل «سمعان» وكان قادما للحج من «قرينية» من شمال ليبيا مع ابنيه «رءوف» و«اسكندر» حيث كان اليهود يعاملون معاملة حسنة ، وعلى قدم المساواة مع اليونانيين الذين أسسوا المدينة ، حتى لقد أقيم الهيكل إلى جانب معابد آلهة اليونانيين .

* * *

إلى اللحظة السابقة لهذا التكليف كان «سمعان» مجرد نقطة مجهولة فى بحر البشرية الهائل ، ثم ما أن وجه إليه جندى رومانى أصبعه مشيراً وألقى إليه أمراً وتقدم هذا المجهول القادم

من بعيد جداً إلى «يسوع» نادبا سوء حظه فى تحمل ثقل الصليب معه ، يتبعه ابناه وهما يبكيان ، ثم ما أن شد على نفسه واستقام عوده بالصليب حتى استقام فى التاريخ أيضاً عوده وأصبح شخصية خالدة على الدهر !.

ولم يكن « سمعان » قد ارتكب إثماً ، وقد أفسدت عليه متعة رؤية المشهد المثير ، وضويق وتحمل ثقل الصليب فى طول الطريق الطويل بعد إلى « الجلجثة » غير مأجور ، ولكن مشقة نصف الساعة هذه ، أعطته من الشهرة ما لا يقدر بثمن .

وبينما كان يتقدم بالصليب وسط الجموع مع «يسوع» كان المنظر يتغير ، ولم يعد الغوغاء المأجورون وحدهم . إذ انتشر الخبر فى المدينة المستيقظة انتشار النار فى الهشيم فجرى الناس من منازلهم إلى النوافذ والأسطح والشوارع ليروا ما إذا كان الخبر صحيحا .

* * *

وتقول الإشاعات إنه بينما كان « يسوع » ومساعده يمران أمام باب سيـــدة تدعى « نيرونيكا » اندفعت تلك المرأة إلى « يسوع » باكية تجفف عرق وجهه بمنديل ، ثم تمضى الإشاعات بأن رسم وجه «يسوع» الغارق فى العرق والدماء انطبع على ذلك المنديل بدقة ، ثم أخذ هذا المنديل يتنقل من يد إلى يد خلال حقب التاريخ ، حتى ضاع فيها .

وخلال بوابة العدالة ، التى أقامها الرومان ، مر « يسوع » و « سمعان » متوجهين إلى الخلاء الذى ينتهى بتل صخرى داكن ، واندفع أيضاً إلى هناك كثير من سيـــدات « أورشليم » ، مختلطات برعاع البلد ولصوصها ومشرديها وسائر المأجورين الذين كانوا يتبعون الصليب ، غير خائفات منهم ولا من الكهنة الذين استأجروهم ، مقتربات قدر الإمكان إلى جوار «المسيح» باكيات ، نادبات .

وهدأت آلام «يسوع» برهة وبدت فى عينيه قوة وهو يقول لهن :

ـــ يابنات «أورشليم» ، لاتبكين على، بل ابكين على أنفسكن وعلى بنيكن . فهذا تأتى أيام يقال فيها طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع . حينئذ يبتدئون يقولون للجبال أسقطى علينا ، وللآكام غطينا ، لأنهم إن كانوا صنعوا هذا بالعود الرطب فماذا يكون باليابس ؟!.

وسرعان ما أتت على «أورشليم» تلك الأيام العصيبة ، وكان الأحياء من الناس لا يزالون يذكرون تلك النبوة الحزينة التى تحققت هكذا سريعا !

* * * *

وحتى مع مساعدة « سمعان القيروانى » وقوته المكتملة ، « سمعان » الذى ما أن خفت غضبته لتسخيره فى حمل الصليب حتى بدأ يحس عطفا على المحكوم عليه وقوة خفية تدفعه إلى حمل الصليب فى عزم وعن رضا تام ، ومع ذلك خانت « يسوع » ركبتاه ، وللمرة الثالثة سقط ، ولكن معذبيه لم يعودوا ينزعجون فقد قارب الموكب نهايته وأصبحت «الجلجثة» على بعد خطوات ، يصعدها السجين إلى أعلى التل ، وهناك يستريح حتى يثبت الصليب فى الأرض .

وتعنى «الجلجثة» أو الجمجمة كما يلقبها الأهالى مكان الجماجم ، وهناك كان مع « يسوع » لصان ينضحان هما الآخران عرقا ودما من قسوة الجلد ومن طول حمل الصليب ، ثلاثة سيصلبون إذاً ، فلابد أن العرض سيكون رائعا .

الفصل الحادى والسبعون

قد أكمل

كان الوقت ظهراً عندما رتب العمال الصلبان على الأرض ، ووقف المحكوم عليهم الثلاثة ، «ديماس»و«جوستا» و «يسوع» ، بينما كان الجنود يدفعون الجموع إلى الوراء بحرابهم والعمال يدفعون الصلبان إلى جوار الحفر وكثبان تراب الأرض الخارج منها .

وكانت الشمس تضىء الأشجار الضخمة البعيدة ولكن السحب كانت تتجمع فى أركان السماء الأربعة ، ولم يكن غريباً أن يحصل هذا فى الربيع ، ولكن قليلين لاحظوا أن هناك أيضاً إطاراً أسود يلف أسفل الأفق ، فقد كانت الجموع مشغولة بما يجرى أمامها إذ أعدت الصلبان الثلاثة وربطت إليها ثلاث سلالم ووقف إليها رجال بالمسامير والمطارق ، وأخذ آخرون يدفعون بالحراب كلا من المحكوم عليهم ليرقد على صليبه .

وكان العمل يجرى سريعاً وبغير عقبات ، إذ كان المحكوم عليهم قد تعبوا كثيراً وأصبحوا عاجزين عن أية مقاومة .

ومددوا «يسوع» على الصليب ، وثنوا أصابعه فى قبضتى يديه ، وأمسكوا برأسه فى مركز تقابل عمودى الصليب ، ومددوا رجليه إلى أسفل وثبتوه هكذا حتى دقوا مسامير كبيرة فى قبضتيه ، وثبتوا قدميه فى القائمة الرئيسية ، ثم رفعوا رأس الصليب ، وأنزلوا قاعدته إلى الحفرة المفتوحة .

وهكذا نفذت أخيراً رغبة « حنانيا » و « قيافا » وصلب « يسوع » بين لصين وارتفعت الصلبان الثلاثة بالمتألمين غاية الألم ، يلوحون من بعيد كخيالات ضاربة فى السماء المصفرة ، وكان يمكن أن يفكر كثيرون أن هذا الصلب قد وضع حداً للكراهية الموجهة إلى « يسوع » ، ولكن الأمر لم يكن كذلك فقد شاءت إرادة «بيلاطس» الساخرة ، أن يغيظ كهنة «إسرائيل» فثبتت فى أعلى الصليب فوق رأس «المسيح» لافتة كتب عليها باللاتينية واليونانية والآرامية : « يسوع الناصرى ملك اليهود » .

واستشاط « قيافا » غضباً لذلك وحاول « حنانيا » تهدئته ، ولكن «قيافا» أمر بحمل فى محفة إلى قصر « بيلاطس » الذى كان يتناول عندئذ الإفطار والغداء معاً ، ودخل « قيافا »

غاضباً إلى القاعة الزرقاء ذات المدفأة حيث يستقبل «بيلاطس» ضيوفه وقال « لبيلاطس» :

ــ لماذا تصنع هكذا بنا وتكتب « ملك اليهود » ، إذا كان لا بد من كتابة شيء فليكن أنه قال : « إنه ملك اليهود » .

ونظر « بيلاطس » إلى « قيافا » في هدوء وتحد وقال :

ــ ما كتبت فقد كتبت ! .

واستدار مولياً ظهره « لقيافا » ومضى إلى داخل القصر .

وتقول الإشاعات إنه أبلغ عندئذ زوجته أنه يشعر بأنه قد غدا قاتل أنبيـــاء ، وأن زوجته ردت عليه باكية :

ــ بل لعلك غدوت قاتل آلهة ، إذ قد يكون أنك تقتل الآن إلهاً ! .

وصاح عندئذ « بيلاطس » الذى ولد متسائلا :

ــ ولكن من ذا الذى يستطيع أن يقتل إلهاً ؟ .

وردت زوجته :

ــ فى هذا يا سيدى يكمن الأمل الوحيد الباقى لك ! .

أما على تل « الجلجثة » فقد كانت الجموع تتزايد وتلتف فى شبه هلال .

ومر « يسوع » بناظريه على وجوه قاتليه ثم رفعهما إلى السماء وقال :

ــ يا أبتاه . اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون ! .

وخلدت الكلمة مثلا لعظمة الغفران المسيحى .

* * *

أين أنتم إذن يا أصدقائى ؟ أين « بطرس » الصخرة التى سأبنى كنيستى عليها ، فلن تقوى عليها أبواب الجحيم ؟ ها أنت هناك وراء الصفوف أيها الصياد الشجاع الأصلع إنك تتألم من أجلى ، ولا تدرى أن الثمن يجب أن يدفع الآن كاملا.

ثم أين « يوحنا » ؟ « يوحنا » الحبيب . « يوحنا » الذى كان وقت العشاء الأخير يسند رأسه إلى صدرى ويبكى ، أين هو الآن ؟ إنى لا أراه وسط هذا الزحام . و «يهوذا» الذى لم يعد هنا لكى يرى ماذا فعلت بنا جميعاً خيانته ، « يهوذا » المعلق نفسه إلى شجرة فى الحقل هناك ، بعيداً فى الطريق إلى « بيت لحم » ! .

والآخرون كلهم .. أين الرسل التسعة ؟ لقد جريتم بعيداً ، فلماذا جريتم ؟ « يعقوب » و « توما » و « بارتلماوس » والباقون . من أجل حياتكم هربتم فى آخر صفوف أشجار الزيتون المظلمة فى بستان «جسثيمانى» ، ثم انصرفتم فى الطريق الكبير راجعين إلى الجليل موطنكم.

لماذا إذن هربتم أيها التسعة ؟ إن السبب مفهوم .. إنكم إلى الآن لم تؤمنوا تماماً بى ، وقد أردتم أن تتقبلوا الإيمان كاملا وبلا قيد ، ولكنكم فى قرارة نفوسكم لم تستطيعوا قط أن تؤمنوا بأنى والآب واحد ، وذلك لمجرد أن الجنود حضروا وأخذونى . وإلا فلماذا إذاً لم أنج نفسى من بين أيديهم كما سبق أن فعلت من قبل .. إنكم خفتم أن تشاطرونى مصيرى هذا ، هنا على الصليب . ولكنكم أنتم أيضاً ستسيل منكم الدماء وستموتون . ويومكم هذا قريب وإن بعد ، إذ سأرسل إليكم الروح القدس ليثبتكم فلا تخشون بعد الموت .. ! .

ثم صاح « يسوع » :

— إنى عطشان ! .

ولم تطامن صيحته الأليمة من وحشية الجنود ، فأعدوا له كأساً من الخل ممزوجاً بمرارة ولكنه أبى أن يشرب ، وظل آخر كأس له على هذه الأرض هو كأس عصير الكرمة فى العشاء الأخير ، إذ لم يستطع من مزجوا له هـــذا المشروب القذر أن يلقوه فى حلقه ، ومن ثم ألقوه على الأرض .

وكان مرتفعاً هناك معلقاً عندما رأى الحراس الذين سمروه إلى الصليب ، ملتفين فى شبه حلقة يلقون النرد مقترعين على ردائه القرمزى المنسوج كله قطعة واحـدة ، بعد أن قسموا باقى ملابسه أربعة أقسام خص كلا منهم واحـد ، ولكنهم عندما رأوا ذلك الرداء الجميل اقترح أحدهم :

— كلا . . لا يجمل بنا أن نقطعه ، وإنما نلقى عليه القرعة ونرى لمن منا يكون ! .

وبينما كان الجنود مشغولين باقتسام الملابس نظر «يسوع» إلى أسفل ووجد أنه لم يعد وحيداً إذ كانت «المريمات» الثلاث تتقدمن بجهد وسط الزحام نحو الصليب.. ثم ها هى ذى « مريم » أمه واقفة نحو الصليب وخالته « مريم » زوجة « كليوفا » راكعة إلى جوارها ثم « مريم » المجدلية التى أخرج منها سبعة شياطين جاثية تحت قدميه .

ومن هذا الواقف إلى جوار والدته المباركة ؟ إنه « يوحنا » .. نعم « يوحنا » التلميذ

المحبوب ، هذا إذاً هوسبب تأخيرك يا « يوحنا » إذ كنت تنتظر بعيداً حتى تحضر الوالدة الطهورة معك .

واستجمع « يسوع » قوته التى كانت فى سبيلها إلى الهرب وقال :

— أيتها السيدة .. هو ذا ابنك ! .

وكان صوته رقيقاً عطوفاً يهز القلوب .

ثم التفت إلى « يوحنا » وقطرات الدم تلمع فوق جبهته ووجنتيه ورقبته ، وجمع كل اهتمامه بأمه وكل محبته لتلميذه هذا فى ثلاث كلمات :

— يوحنا .. هذه أمك ! .

ومنذ ذلك اليوم أخذ «يوحنا» «مريم» إلى خاصته وصار لها ابنا ثانياً ، وصار إخلاصه لها مثلا لما يجب للأمومة من تكريم ، ورمزاً لمقامها السامى فى المجتمع الإنسانى .

كانت السماء تفقد بنفسجيتها وتسير إلى الزرقة الداكنة ، وكان عذاب المحكوم عليه الرقيق وذكرى أعماله المجيدة ونشيج النساء الراكعات تحت قدميه قد بدأت تغير من إحساس جمهور الناظرين ، وقد سمعوه يتحدث من أعلى الصليب طالبا من الآب أن يغفر لمن علقوه عليه . وسمعوه يشتكى العطش وسمعوا وصيته لأمه و « ليوحنا » كل ذلك فى طيبة وعطف غريبين من رجل بلغ الألم منه غايته ، ولذلك بلغ عطف النظارة عليه وأساهم أيضا غايته ، ولذلك أيضا جاء الكهنة ومأجوروهم يصيحون ثانية :

— لقد خلص الآخرين .. أفليس الأجدر به أن يخلص نفسه ، لوأنه كان « المسيح » مختار الله .

وهزوا قبضاتهم فى وجهه مهددين وصاحوا وجدفوا ثم اندفعوا مستهزئين من جديد فى حماس شرقى :

— ياه ... أنت يا من تهدم هيكل الله وتبنيه ثانية فى ثلاثة أيام ... ياه . أنقذ نفسك .. وانزل من فوق الصليب .

حتى « قيافا » الواقف إلى جوار « حنانيا » الصامت وبعض أتباعهما من كهنة الهيكل ، تحدث من جانب فمه :

— لقد خلص الآخرين ، أما نفسه فلم يستطع أن يخلصها ! .

ورد عليه أحد الكتبة :

ـــ لو أنه حقا ملك « إسرائيل » فلينزل عن الصليب فنؤمن به ، وقد كان هو يدعى بأن الله معه فليخلصه إن كان حقا معه !

وكثيرون رأوا عندئذ أن قتامة السماء تزداد حلكة ولكن نوراً يتجمع حول «يسوع» ويزداد لمعانا كلما اقترب منه الموت .

وفى هذا كان الكهنة يتحدثون إلى أنفسهم بينما رفع الجنود إلى « يسوع » إسفنجة مملوءة بالخل ، وبينما كان الجنود يعذبونه هكذا ، كان بعض الجمع يمزح ويتهكم والنساء تندبن والدم يتساقط من ثقوب يديه وقدميه .

وتلقف أحد اللصين المصلوبين وهو « جيتس » الصياح من فم الكهنة ، وبصقه من فمه ممزوجا بالدم والرغاوى :

ـــ إن كنت أنت « المسيح » . فنج نفسك وإيانا .

ورد عليه « ديماس » المصلوب عن يمين « المسيح » :

ـــ ألا تخاف الله أنت الواقع تحت نفس الحكم ؟ ! . . ولكنه فيما يتعلق بنا «عادل » ، فنحن نتلقى الجزاء الحق لأعمالنا ، أما هذا الرجل فأى شر صنع .

ثم أدار رأسه ناحية « المسيح » وقال فى التماس رقيق غريب على خشونة صوته :

ـــ يارب اذكرنى عندما تجىء فى ملكوتك .

وتفتحت عينا « يسوع » المغمضتان تقريبا وعادت الحدقتان إلى مكانهما وأشرقت ابتسامته بين الدماء والعرق وقال فى صوته الواضح المعتاد :

ـــ الحق أقول لك إنك اليوم تكون معى فى فردوس النعيم .

وشعر الناس بأن العاصفة تتجمع فى هذه الظلمة وصار الجو ثقيلا وتصادمت السحب وعلا زئير الرعد وبدا أن الصاعقة ستنصب على رءوس القوم ، وانهمر المطر سيلا وتفرق القوم وتفرق كثيرون من الناس ودب الخوف حتى فى قلوب المأجورين ، إذ اختفت الشمس وراء الغيوم السوداء ، وأدرك الناس أن العاصفة ليست عادية ، وأنها نذير لهم من السماء ونقمة عليهم ، عاصفة عاتية طاغية مظلمة بغير بصيص فيها ، وعلت همهمة الذعر وكاد الزمام أن يفلت فى نوبة جنون مفاجىء .

وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر عندما سمعوا « يسوع » يقول فى وضوح بين زمجرة الطبيعة الغاضبة :

— إلهى . . إلهى . . لماذا تركتنى ؟ .

أترى ما سمعوه صحيحا ! . . . أترى آذانهم لم تكذبهم ؟.. أترى الجملة العبرية الآرامية « ألوى ألوى لما شبقتانى» صدرت عنه حقيقة ؟ . . أتراه فى عذابه يستجير بالنبى « إيليا» ؟ » ورفع بعضهم إليه على قصبة طويلة الإسفنجة المملوءة بالخـــل ودفعوها فى اتجاه فمه وهم يصيحون :

— دعنا نرى إذا كان « إيليا » يحضر وينقذه .

ولـكن «يسوع» لم يدع « إيليا »،وقد فهمت أمه «مريم» ما قال ، كما فهمه كل القديسين المجتمعين عند ذاك حتى الـكهنة والفريسيين المرائين تذكروا أن « يسوع » قال ما سبق أن تنبأت به عنه كتبهم ! .

— إلهى . . إلهى . . لماذا تركتنى ؟ .

وأمسك « قيافا » بفرح يد حميه وقال :

— أسمعت هذا أيها السيد « حنانيا » ؟ . لن يعيش أنصاره بعد هذه الـكلمات . إنه يدعى أولا أنه الله ، ثم يعود يسأل نفسه لماذا أهمل هو نفسه ، ألا ترى معى كم أنه يهزل ؟ .

وزمجر الرعد وسمع « قيافا » صوت « حنانيا » المتألم اليائس :

— يالك من غبي كامل الغباوة مطلقها .

— « حنانيا » . . أترانى سمعت ما تقول ؟ .

— لا شك سمعت، أتـكون الـكاهن الأكبر يا «قيافا» ولاتذكر نبوات كتبك ، وعلى الأخص المزمور الثانى والعشرين الذى أوله إلهى . إلهى . لماذا تركتنى . . ثم يتتابع ويرسم بصورة واضحة ما حصل اليوم حتى تقسيم ملابسه وإلقاء القرعة على ردائه .

— حمى . . إلى أين ستمضى ؟ .

وتنهد « قيافا » وأدار ظهره لصهره وقال :

— أنا ماض إلى منزلى .

وكان « حنانيا » يريد أن يذكر « قيافا » أيضاً بالمزمور التالى الذى لقب « المسيح »

بالراعى الصالح والذى قال عن لسانه : « وبينما أنا أمضى فى ظلال الموت لا أخشى شرا لأنك إلى جانبى ! » .

ووجه « يسوع » ابتسامة علوية محببة إلى أمه ومن معها ، وفعل وقال ما سبق أن تنبأ به النبى الملك «داود» ، إذ قبل هذه المرة أن يشرب من الإسفنجة المرة الممدودة أمامه ، ثم قال جملته السادسة :

— قد أكمل .

وأدرك «قيافا» ماذا تعنى هذه الجملة ، إنها تعنى أن كل نبوات أنبياء العهد القديم ونبوات «يسوع» نفسه حتى ذلك الوقت قد أكملت ، بدءا بميلاد « يوحنا » المعمدان بروح «إيليا» مبشرا « بيسوع » ممهدا الطريق له ، ثم بميلاده هو « يسوع » من «مريم العذراء» فى « بيت لحم » مدينة «داود» ، وفى «مذود» ، ثم تتابع النبوات متحدثة عن مجرى حياته وطباعه ومميزاته الشخصية وفلسفته ومعجزاته ، حتى تفصيلات محاكمته والحكم عليه ثم صلبه فداء عن البشر كلهم وضحية عن خطاياهم ، حتى الكلمة الأخيرة التى قالها فى قمة ألمه وخضوعه لمشيئة الآب « قد أكمل » ، ولم يبق إلا أن يموت .

وأخذ « يسوع » المسيح نفسا طويلا عميقا وقال فى الرقة المتناهية التى تذكرها عنه «مريم» صلاة النوم التى يرددها مذ كان صبيا ، الرقة التى يتجسم فيها تسليمه أمر نفسه للآب والاطمئنان إليه غاية الطمأنينة .

— يا أبتاه . . فى يديك . . أستودع روحى ! .

وكانت هذه هى المرة السابعة والأخيرة التى تكلم فيها من أعلى الصليب ، وعلى أثرها أحنى رأسه وأسلم الروح .

* * * *

وهكذا مات « يسوع الناصرى» فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة الحزين الثامن من أبريل فى السنة الثلاثين الميلادية .

وروى الناس أحاديث غريبة عن هول تلك الساعة . . لقد انشق حجاب الهيكل من تلقاء نفسه من أعلى إلى أسفل . . الحجاب الذى يشبه قوس قزح ، والذى يحجب قدس

الأقداس عن أعين النظارة ، واهتزت الأرض وتهاوت الصخور من رءوس التلول وتفتحت القبور وانشقت قبابها ورأى الناس أرواح موتاهم تروح وتجيء ، ورأى الكهنة ذلك وسمعوا أحاديث الناس ، ولم يستطيعوا شيئاً تلقاءه .

وضرب الواقفون حول الصليب صدورهم بأيديهم وانخرطوا فى البكاء . والتفت القائد الرومانى الذى باشر إجراءات تنفيذ الحكم نحو السيدات ثم أدار ظهره ومضى فى الظلام الحالك وقد أثقل الهم كتفيه ، أو لعلها الزلزلة أو غضبة السماء أو منظر « مريم » الأم أو هذه جميعا هى التى أثقلته ، فأخرج منديلا حريريا من جيبه ومسح دموع عينيه والتفت إلى أحد ضباطه وتنهد طويلا وقال :

— بالحقيقة كان هذا الرجل ابن الله !.

الفصل الثاني والسبعون

لماذا لا يا بهون ؟

جلس الزعيم الشيخ « حنانيا » فى غرفته الكبيرة وهز مروحته وكان على المائدة مصباح عن يمينه يلقى على وجهه الذى يشبه وجه الماعز ضياء تتميز فيه الخصلة البيضاء من شعره، المتراخية فوق عينه اليسرى ، بينما جلس على الديوان أمامه « قيافا » زوج ابنته يفوح من ذقنه الكبير عطر نافذ .

وشكا « حنانيا» من وطأة الحر وهو يقول :

ـــ إنها الليلة شديدة الحرارة وإننا لقادمون على صيف لاذع حره ، إنى أعرف العلامات .

وقال كاهن « أورشليم » الأكبر وفى صوته لوم :

ـــ ألا تلقى بالا لما أقوله لك الآن من أن البلد فى هياج شديد ؟ .

ـــ إنك تعرف جيدا أننا فى عيد الأسابيع وكل مافى الأمر أن البلد مزدحم بالزوار .

وقاطع « قيافا » حماه فى مرارة :

ـــ بل قل إنها ملأى بالمسيحيين ... لقد تعبت فى أن أجعلك تصدق ما أقول ، وأنك لتزداد عنادا يوما بعد يوم ، وها قد مضت أسابيع سبعة منذ استطعت أن أجعلك تتحرك ضد ذلك الدعى « يسوع الناصرى » ، والآن ...

وأتم « حنانيا » الجملة فى صوت خفيض قائلا :

ـــ والآن ، عاد إلى البلد من جديد أتباع دعيك المقتول ، وفى هذا الأسبوع بالذات حولوا ثلاثة آلاف من أهل المدينة إلى المسيحية .

ـــ بل خمسة آلاف ! .

ـــ يبدو عليهم أنهم جد مؤمنين بعقيدتهم .

ـــ ويبدو أن خطر الثورة « بيسوع » ميتا أكبر منه به حيا .

وسأل « حنانيا » وهو يتصنع عدم المبالاة :

ـــ أأنت واثق بأنه ميت ؟ .

ـــ ألم تره وهو يموت ؟ .

ـــ كلا فإنى لم أنتظر إلى تلك اللحظة ... ولكن قل لى يا « قيافا » ، ما الذى تظن أنه حدث لجسمه ؟ .

ـــ لقد دفن .. وهناك حكاية طريفة تتعلق بهذا .. هل عرفت أين وضعوا جثته ؟

ـــ فى القبر الذى بناه « يوسف » لنفسه .

ـــ « يوسف » ! .. الذى من الرامة ؟

ـــ بالضبط .. واحد منا ولكنه خائن لإخوانه ولطبقته .. لقد ذهب إلى « بيلاطس » وطلب منه الإذن بذلك فأذن له ، وقد تصرف بسرعة ونفذ أحكام الشريعة كلها قبل غروب شمس يوم الجمعة ... وساعده فى هذا خائن آخر .

وحدجه « حنانيا » بنظرة متحركة :

ـــ إنه « نيقوديموس » بغير شك ! .

ـــ نعم هو « نيقوديموس » . . . رجلان عظيمان كهذين يقدمان شخصيا منتهى العناية والتكريم لبقايا مجرم ! وقد لفا الجثة فى كفن تقليدى فاخر ، طوله ثمانية أقدام ، بعد أن دهنوها بالعطور والتوابل التى تعلمها أجدادنا من المصريين ، وكان معهم فى هذا التكريم سيدات أيضا ، سيدات غبيات يؤمن « بيسوع » .. ياه ! .

وخفض « حنانيا » مروحته وضم ذراعيه وأظهر امتعاضة احتجاج لاتكاد تبدو فى الظلام وسأل فى خبث :

ـــ وهل لاتزال جثة ذلك الأفاك فى القبر ؟ .

ـــ لا .

ـــ لا ؟ ! ..

ـــ لا ...

ـــ تقول لا ؟ .

ـــ لقد قلت لا ...

— هل ذهبت الجثة ؟ .

— نعم ...

— ولكن أين يا « قيافا » ؟ لقد انقلبت فجأة لا تنطق إلا بكلمات من مقطع واحد . . .

— لقد سرقت ! .

— فهمت ... لماذا إذاً لم يحرص « يوسف » و « نيقوديموس » على أن يوضع الحجر الضخم فوق القبر بإحكام ؟ .

— لقد فعلا ذلك . ولكن ...

— ألم يكن هناك حراس ؟ .

— أظنهم كانوا ..

— بل أنت تعرف أنهم كانوا لأنك أنت نفسك طلبت إلى « بيلاطس » أن يشدد الحراسة على القبر ، إذن فكيف كان يمكن لإنسان أن يسرق الجثة بالرغم من كل هذا ؟ .

— ياه .. إنى لا أعرف .. وقد وددت لو عرفت .

وقال « حنانيا » ناصحا :

— « قيافا » .. هدئ روعك وخذ كوبا آخر من الماء المثلج المحلى وأصغ إلى جيدا ، فقد اهتممت أنا أيضا بهذا الشأن واخترت بعضا من أبرع رجالى ليتحروا الحقيقة ، ومن المؤكد أن قبر « يسوع » لا جثة فيه الآن .

— إنهم تلاميذه الخبثاء .

— سرقوها .. كلا .. لعلهم حاولوا ذلك ولكنهم لم يفعلوا لأن الحراس أو الظروف نفسها لم تتح لهم الفرصة . ولكن لنفترض أنهم فعلوا . فأين إذن وضعوها ؟ ! .. لقد استخدمت أمهر من لدى من الرجال ، واختلطوا مع تلاميذه متظاهرين بأنهم مؤمنون به ومع ذلك لم يصلوا قط إلى شيء يتعلق بالسرقة ، وإنها لحقيقة أن جثة مجرم نفذت فيه العقوبة اختفت من تحت أنفك ، وأنت الآن تخبرنى أنها سرقت ، فماذا تستطيع أن تقول بعد هذا ؟!.

— أرى أنك بدأت تتكلم كواحد منهم .

— كلا .. إن كل ما فى الأمر أنى أحاول أن أكون واقعيا وأن أنظر إلى الموضوع

بغير ما عاطفة تغيم على ناظرى ، إن هناك أسبابا كثيرة يمكن أن تعلل فراغ القبر ، فيمكننا أن نفترض مثلا أن الجثة لم توضع فيه قط ، ونفترض أيضا أن « يوسف الرامى » و « نيقوديموس » لا يأمنان جانبك — وأنا أعرف أن هذا صحيح — وقد يكون أنهما خشيا أن ترسل أنت بعض رجالك ليسرقوا الجثة حتى لا يجعل تلاميذ « يسوع » ذلك القبر مزارا لهم ، أو لعلهما خشيا أن تجعل أنت جثته مأكلا للكلاب ، ولذلك نقلا جثة « يسوع » إلى قبر آخر لا نعلم نحن مكانه .

— سأواجههما بهذا وأتحقق الأمر .

— لا تتعب نفسك ، فقد قمت بذلك أنا وتأكد لى أنهما لم يفعلا شيئا من هذا القبيل ، وأنهما لجد مندهشين لاختفاء الجثة .

— إنه « بيلاطس » إذاً .

— وماذا يعنى حاكم اليهودية من جثة محكوم عليه ؟ لقد فعل أقصى ما استطاع لإنقاذه ما دام حيا ، أما بعد ذلك فلم يعد يعنيه من الأمر شىء .

— إذن يا حمى فأين هى ؟ .

وضحك « حنانيا » ضحكة بطيئة دبت فى قلب « قيافا » كالخنجر

— ألا تعرف بعد ؟ .. إن المسيحيين يقولون إنه قام بعد ثلاثة أيام ، الحقيقة الكبيرة : لقد مات ودفن ثم قام ومشى معهم وأكل معهم ورأوه وحادثوه فى الميعاد الذى حدده بالضبط ، وقد وعدهم بمثل هذه القيامة وبميلاد جديد فى حياة أخرى أرفع وأسمى .

وقال « قيافا » غاضبا :

— أتظن أن من واجبك أن تذكرنى بما يقوله هؤلاء المسيحيون .. « بطرس » الصياد و « يعقوب » و « يوحنا » أبناء « زبدى » وسائر الرهط الذين نراهم واقفين فى الميادين يعلنون على الجماهير هذه الأكاذيب المجنونة : « إن « يسوع » هو « المسيح » . إنه قام من الأموات . إننا جميعاً رأيناه ، وجميعا تحدثنا إليه وها هو « توما ديديموس » كثير الشك ، هذا الذى أعلن أنه لن يصدق أن « المسيح » قام وأتى إلينا حتى يرى جروح المسامير فى يديه ورجليه ويضع يده فى مكان الحربة من جنبه .. اسألوه إذن » . هذا هو نوع الأحاديث التى تروج الآن فى المدينة ، وأن الناس ليستدعوننى لأسمعها بأذنى ، وقد

وقفت منهم على بعد قليل . وسمعت ذلك ، وقد سألونى : لماذا لم أذهب إلى القبر لأرى بنفسى ؟ ولماذا لا أستدعى البستانى وأسأله عما يعرفه عن هذا الأمر ؟ .

واعترضه عندئذ « حنانيا » :

ـــ حسنا .. لماذا إذاً لم تفعل ؟ .

وكان واقع الأمر أن « حنانيا » فعل بنفسه ما نصح الناس « قيافا » ونصحه هو أن يفعل ، وقال « حنانيا » أنه تحدث إلى البستانى وإلى الجنود « الرومانيين » الذين كانوا يحرسون الموقع كما تحدث إلى شهود العيان المسيحيين أنفسهم ، وبدا أن هناك خلافات بسيطة تتعلق بالتفاصيل الفرعية ، ولكن الروايات كلها تتفق فى الجوهر ، ولم ير « حنانيا » أن يؤمن بما قالوا ، ومع ذلك فإنه واثق بأن أحدا منهم لم يكذب ، وكان هذا ظاهراً جداً .

وقد ذكره هؤلاء بأن « المسيح » صلب يوم الجمعة الكبيرة ، فى ليلة الاستعداد للسبت ولعيد الفصح ، وإنه كان من الواجب من الناحية الدينية والناس قادمون على سبت وعلى فصح معا ألا يدعوا الجثث الثلاث معلقة على صلبانها لتتعفن فى الهواء ، ولذلك فإن الكهنة ذهبوا إلى « بيلاطس » فى ذلك اليوم ، بعد انصراف « يوسف الرامى » من حضرته ببرهة ، وطلبوا إليه أن تكسر أرجل المحكوم عليهم ، وتحمل الجثث وتدفن ، وكسر الجنود أرجل اللصين ، ولكنهم لم يلمسوا رجلى « يسوع » إذ اكتفوا بأن جنديا منهم اسمه « لونجينوس » فتح جنبه بطعنة من حربته ، فنزل من الجنب المفتوح دم وماء دلالة على تمام موته منذ مدة ، وقد شاهد ذلك كله الجنود وجمع من أتباع « يسوع » واعتقدوا أن الحربة وصلت إلى قلبه ، ولما تم هذا أبرز « يوسف الرامى » لهم الأمر الكتابى من « بيلاطس » بأن يسلموه جثة « يسوع » ، فأطاعوا وفعلوا ، واكتفوا بأخذ جثتى اللصين ودفنهما فى قبر عام . أما جسد « يسوع » فقد تسلمه السيدان الكبيران .. « يوسف الرامى » و « نيقوديموس » ، متحديين بذلك كل طائفتهما .

وقد اعترف « يوسف » و « نيقوديموس » « لحنانيا » بذلك صراحة ومباشرة واصطحباه إلى القبر القريب جدا من « الجلجثة » المنحوت فى الصخر الذى كان « يوسف الرامى » قد أعده لنفسه ... وقد حمل الزعيمان الكبيران جثة « يسوع » ، وفتح « نيقوديموس » حقيبة أعدها من قبل وأخرج منها مائة رطل من الحنوط دهن بها جسد « يسوع » ولفه « يوسف » بكفن كبير من التيل الفاخر ، وساعدتهما فى ذلك « المريمات » حتى أتموا تجهيز الجثة فتعاونوا جميعاً على وضعها فى القبر ، قبل غروب الشمس فى نفس يوم الجمعة .

وإنه لمدهش ما قاله الناس بعد ذلك ، فإن الحراس يقولون إن زلزالا حصل قبيل فجر يوم الأحد ويقول بعضهم إنهم رأوا ملاكا يشع وجهه نورا ، يخرج من القبر فوقعوا جميعا من الرهبة مغشيا عليهم ، وقد حضرت بعد ذلك إلى البستان سيدة اسمها «مريم» من «مجدلة» ، وكان حزنها على «يسوع» عظيما — وهذا طبيعى — وقد حملت معها مزيدا من الحنوط لتضعه على الجسد ، وكان الوقت ظلاما ولكنها استطاعت مع ذلك أن ترى ما ملأ قلبها دهشة ورهبة ، فعادت إلى البلد جارية تلهث لتخبر زعيم المسيحيين الجديد بما رأت .

وقد تحدثت أنا نفسى مع هذا الزعيم ، وإنه لرجل ضخم ثورى لا يتراجع ، اسمه «بطرس» من « كفرناحوم » ، وقد أخبرت «مريم» «بطرس» أنها تخشى أن يكون اللصوص قد سرقوا جسد «يسوع» .

وصرخ « قيافا » :

— هراء .. !

— هراء خفى جدا . فقد ذهبت بعد ذلك سيدات أخريات منهن خالته زوجة « كليوفا» ودهشن أيضا عندما رأين الحجر الضخم المغطى به القبر مدحرجا من مكانه ، وفى هذا يا «قيافا» يقول رجل إنهن رأين فى القبر ملاكين ، ولم أر أنا ملاكا ولذلك فلست أستطيع أن أتصور كيف يمكن أن يكون هذا .

— ولماذا تحاول أن ترى ملاكا ؟ أو أن تتصور شكله ؟ أليست مناقشاتنا هذه حول كل هذا الخيال مجرد ضياع للوقت .

— إن هذا كله يتعلق بمقدار ما تستطيع أن تدرك منه ، وقد سمعت أيضا أنهن وجدن شابا جالسا على الجانب الأيمن للقبر بالنسبة للداخل إليه ، وكان الشاب مرتديا لباسا أبيض وقد طلب إليهن ألا تخفن ، وأظن أن لدى نص ما قال . . .

وتناول «حنانيا» لفافة من الورق موضوعة على المنضدة اليونانية على شماله وفتحها وغص بريقه ثم قرأ :

— لا تخفن . أنتن تطلبن «يسوع» الناصرى المصلوب . . لقد قام . ليس هو هنا . وها أمامكن الموضع الذى وضعوه فيه . لكن اذهبن وقلن لتلاميذه و « لبطرس » إنه يسبقكم إلى «الجليل» ، وهناك سترونه ، كما سبق أن قال لكم .

وقال «قيافا» مندفعا :

— وأنا أفترض أنك أرسلت رجالك وراءهم إلى «الجليل» .

— آسف لأن أقول لك إنى لم أفعل لأننى عند ذلك لم أكن قد آمنت بعد بهذه الشهادات ، وقد ظننت أنه لا داعى إلى أن أبعث برسلى وراءه .

ووقف «قيافا» أمام «حنانيا» وقفة درامية وصاح :

— أتعنى بذلك أن تجلس هنا وتطلب إلى أن أومن بأنك تؤمن بهذا الآن ؟ وهل ستقول لى إن «يسوع» الناصرى قام فعلا من بين الأموات ؟ .

وتمتم «حنانيا» وتململ فى اضطراب وقال :

— لست أعرف .. وقد وددت لو عرفت ، ولكنى لا أعرف ! .

واستأنف «قيافا» فى برود :

— بل إنك تعرف أن مثل هذه الفكرة جنون محض .

ولعب الشيخ بخصلة شعره البيضاء وبدت بسمته باردة كالثلج . .

— اسمع هذا واحكم لنفسك بما تشاء . ثم لا تنس أنه لو أن الأمر اقتصر على هذا لكان وحده قصة لا مثيل لها ، ولكن النساء ذهبن بعد ذلك إلى «بطرس» وإلى تلميذ آخر أصغر منه خجول اسمه «يوحنا» ، وأخبرنهما بذلك ، وسمعت أنا منهما كل هذا وناقشتهما فيه بدقة ، ولم أستطع أن أجد فى أية شهادة فجوة ، وجرى الرجلان بعد أن سمعا من السيدات هنا إلى القبر ، إذ وجدا أنه من الصعوبة بمكان أن يصدقاه تماما كما فعلت أنت وأنا .

وصحح «قيافا» كلامه قائلا :

— أفعل . وليس فعلت .

— على أى الأحوال جريا إلى بوابة العدالة بأقصى ما يستطيعان ، ونظر «يوحنا» إلى القبر ورأى كفن التيل وغطاء الرأس موضوعين على الرف ، وانتظر «يوحنا» «بطرس» ، ولم يخبرنى لماذا انتظره ، ولكنى أرى أنه كان مدهوشا لما رأى ، شأنه فى هذا شأن أى رجل عادى ، إن هؤلاء التلاميذ يظنون أن «يسوع» إلها ، ولكنهم قوم عاديون . ثم جاء «بطرس» يلهث من الجرى ..

— دعنا من التفاصيل ، وأنا أعرف أنك شاعر ، ولعل هذا هو الذى جعلك سياسيا ناجحا ، أترانى سأسمع الكثير بعد .

ولم يتأثر «حنانيا» لهذه المقاطعة ومضى يروى فى هدوء :

— كان « بطرس » يتنفس ثقيلا ، ومع ذلك لم يقف عند الباب ... كلا ، ليس «بطرس» هو الذى يقف ، ولكنه اندفع مباشرة إلى داخل القبر ورأى الأكفان موضوعة ، والمنديل الذى كان على رأسه ليس موضوعا مع الأكفان بل ملفوفا فى موضع وحده .

— سيد «حنانيا» .. ثم ما وراء هذه القصة العجيبة ؟ .

ولمعت عين السياسى الشيخ وقال :

— إن ما أريد أن أخرج به إليك يا صبرى ، هو استنتاج منطق ونتيجة معقولة لا فكاك منها ، دعنا إذاً نصرف النظر عن هذا التفصيل إذا كنت تريد ، ونستغنى عن كل هذه الروايات ، وننظر إلى الحقائق المادية كما هى . إنهم يقولون إن «يسوع» ظهر لكثيرين وحدثهم ، ولكن دعنا من هذا ، ودعنا أيضاً مما قاله لى الجنود الرومانيون من أنك حاولت رشوتهم ليغيروا شهادتهم .

ووقف «قيافا» وقفة درامية ثانية وجمع أطراف ملابسه وسأل مستنكرا :

— أنا ؟ ! .

— نعم . أنت ، اجلس ولا تلجأ للتمثيل ، فليست الرشوة بعيدة عنك ، وقد سبق أن رشوت « يهوذا » والشهود والمتشردين الذين عملوا معنا طوال ذلك اليوم ، وهكذا حاولت أن ترشوا الجنود ليقولوا إن اللصوص سرقوا الجسد ، وإن هؤلاء اللصوص هم تلاميذه ، وكم كنت غبيا فى أن تتوقع من هؤلاء الجنود أن يقرروا أمام «بيلاطس» بأنهم لاهون عن واجبهم وغافلون ، حتى لقد سرقت الجثة أمام عيونهم المفتوحة ، ولم يمنعوها أو يقفوا دونها . وقد أخذوا منك نقودا ثم ضحكوا على ذقنك فى حضورك لأنك جريت خلفهم إلى القلعة ، دعنا من هذا أيضاً . ولكن هناك قرية صغيرة اسمها «عمواس» تقع على بعد سبعة أميال من « أورشليم » يروى أهلها أن «يسوع» ظهر لهم ثم تناول الغداء مع عائلة معروفة فيها .

— هراء . ، هراء . . هراء . .

— ثم ليس سهلا أن ننتقل إلى الواقعة الثانية . فقد ظهر وسط تلاميذه ، وكانوا مختفين مغلقين عليهم الأبواب والشبابيك وارتعدوا حتى مرضوا من الرعدة ، فهل رأيت التقرير الذى نقل عنهم ما قاله « يسوع » لهم ؟ .

— إنى أنا هو . . لا تخافوا ، ما بالكم مرتعدين ، ولماذا ثارت الأوهام فى قلوبكم ؟ ، انظروا يدى ورجلى ، إنى أنا هو . جسونى واحكموا لأنفسكم ، فإن الروح لا لحم له ولا عظام كما ترون لى الآن .

ومضى « حنانيا » يقول :

— وأراهم الجرح الذى فى جنبه ، وإذ كانوا غير مصدقين عيونهم من الفرح ومتعجبين ، سأل : أعندكم هنا طعام ! ، فأعطوه قطعة من سمك مشوى وشهد عسل . فأخذ وقسم وأكل أمامهم ، ثم منحهم نعمة خفية تتعلق بالروح القدس أو بشىء من هذا القبيل هو بطبيعته فوق إدراكى ، ولكن له يا « قيافا » علاقة بغفران الخطايا .

« وصاح « قيافا » :

— هذا تجديف من جديد !.

وقال « حنانيا » باسما ومتحديا :

— قد يكون .. ولكن «يسوع» لن يبرح مصراً على الاستمرار فى ارتكاب هذا الجرم، ومن أسف أنك لن تستطيع قتله ثانية !.

ولعن « قيافا » ، ولم يأبه « حنانيا » واستمر يقول :

— ثم إن هناك حقيقة أخرى لن نستطيع نحن أن ننساها ، ولن ينساها العالم من بعدنا فإن أحد تلاميذه واسمه « توما ديديموس » لم يكن حاضراً تلك المقابلة ، ولما أخبره زملاؤه بها هز رأسه شاكا كعادته ورفض أن يصدق شيئاً مما قالوا .

— إنه أول مسيحى عاقل .

— بل إنه أول مسيحى يحترم قواعد العلوم المادية ، وعلى أى الأحوال فإن « يسوع » عاد ليواجه « توما » الشاك مظهراً له يديه ورجليه ، وآثار مسامير الخيام الكبيرة التى دقت فيه وأخذ يده ووضعها فى الجرح المفتوح فى جنبه حيث اخترقته حربة « لونجينوس » .

— وسأل « قيافا » متعجبا رغم أنفه .

— وماذا قال عندئذ « توما » ؟ .

— لقد قال : « ربى وإلهى ! » وسجد له ، وعندئذ قال له « يسوع » قالته التى ترويها كل البلد :

— لأنك رأيتنى يا « توما » آمنت ، مباركون هم الذين لم يروا ، وآمنوا .

وصاح « قيافا » :

— ولكن هذا فوق كل منطق .

وقال «حنانيا» ضاحكا لنفسه ضحكة طويلة صامتة كأى شيخ ممعن فى الغباء أو ممعن فى العقل :

— طبعاً . وأنا عن نفسى أوافقك على أنه يتحدى كل منطق ، ولكنى سعيد من أجله ، لأنى لا أحب التشاؤم .

« وهذه القالة تفتح للبشرية باب الأمل من جديد !.

« وأدرك كلاهما أنه لا داعى للاستمرار فى سرد هذه الروايات ، فقد حاول كل منهما أن

يرد هذه الظواهر إلى أصل معقول طبقا لما درج عليه الناس فلم يستطع ، وسمع كلاهما التقارير عن ظهور « المسيح » لرسله على شاطىء بحر « طبرية » ، وظهوره لآخرين على جبل « الجليل » ، ثم سمعوا أخيراً القصة التي يصعب جداً تصديقها عن جمع « يسوع » أكثر من خمسمائة من تلاميذه حوله على قمة جبل الزيتون حيث قرر أنه ينبغي أن يكرز بالإنجيل للخليقة كلها ثم أمرهم «أن اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم ، وعمدوهم باسم « الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به » ، ثم مضى يطمئنهم بوعده الغريب « وها أنا معكم كل الأيام . . . إلى انقضاء الدهر » ثم صعد أمام أعينهم إلى السماء رويدا حتى اختفى عنهم وراء السحاب .

وسجدوا له ، ثم عادوا إلى البلد فرحين مبشرين بالإنجيل .

واستمر « حنانيا » و « قيافا » في ذلك الليل الحار الرطيب جالسين يفكران ثانية في كيف أنهما بعد جهد جديد استطاعا أن يقتلا هذا الرجل ، ثم ها هو يقوم ثانية ولا يزال يؤرقهما ، ويمنع عنهما هدوء البال .

وقطع « قيافا » الصمت الذي استطال ، وقال :

— إنما حضرت إليك الليلة لأنه يجب أن نتفق على سياسة حازمة .

— ألا تزال تتعطش إلى مزيد من الدماء ؟ .

— نعم .

ولعق « حنانيا » سقف فمه ، وشفتيه وقال :

— ولكني أظن أنك تنفذ هنا فعلا حتى قبل أن تستشيرني، وسمعت أنك حاكمت فعلا شابا يدعى «أسطفان» . ألم يكن هو تابعا « ليسوع » ؟ وهل سببت محاكمته اضطرابا ؟ .

— لقد حكمنا عليه .

— نعم.. ورجمته حتى الموت، وعفى أيضاً عن قاتليه قبل أن يلفظ النفس الأخير . وقد أعلن أتباع « يسوع » بعد أنه شهيد ، وأنه الأول من بينهم الذي أسعده الحظ فنال إكليل الشهادة !

— ولن يكون الأخير .

— ولكن ألم يخطر ببالك يا «قيافا» أن هذه الميتة الشجاعة تتحدى كل ما شعرت بأن من واجبك أن تقوله لي بخصوص قيامة « يسوع » . أترى أي إنسان يتمنى الموت ، ويبدي

فيه مثل بطولة «أسطفان» وكرمه وفضله على قاتليه ، لمجرد أن قتيلا سرقت جثته وأخفيت كما تدعى . كلا . . وإنما هو كان حاضراً عندما أشهد « يسوع » الناس على مكان المسامير فى يديه ورجليه ومكان الحربة فى جنبه .

— لست أفهم ...

— من المحتمل أنك لم تفهم . ولكنى سأحاول أن أضع أمامك بصيصاً من النور ، فإنك تذكر أنه فى الليلة التى قتلناه فيها كان اثنان من أتباعه يتبعانه متخفيين ، حتى لقد أنكره أحدهما ثلاث مرات ، فماذا كان عندئذ من أمر التسعة الآخرين ؟ لقد أطلقوا أرجلهم للريح عائدين إلى «الجليل» حيث اختفوا هناك . لماذا ؟ ، لأنهم كانوا خائفين من أن يلحقوا «بيسوع» ويلاقوا نفس المصير ، وقد آمنوا فى وقت ما بأنه « المسيا » أو لعلهم ظنوا ذلك ، ولكنهم عند ما واجهوا ذلك الخطر نسوا الإيمان وجروا .

— جبناء وذوو غفلة ! .

— نعم . . ولكن ما الذى أحالهم شجعاناً الآن ؟ كيف يستطيع مثل « أسطفان » أن يتقبل الموت بكل ذلك الإيمان وتلك الشجاعة . وكيف يجرؤ الباقون وغيرهم وهم عالمون بأن نفس المصير ينتظرهم على الوقوف علناً فى الميادين العامة معلنين إيمانهم «بيسوع» مرحبين بأن ينالوا نفس المصير ؟ . « قيافا » . . إنهم يؤمنون الآن بأن هذا العالم مليء بالخوف والمنازعات والحروب والمصائب والآلام المبرحة مادام أن هناك وجهى سلوك يتنازعانه ، ولابد أن العالم يا « قيافا » سيكون أفضل كثيراً عندما تنتصر فلسفتهم . . وستنتصر . . ستمضى نحن وغيرنا قتلا فيهم ، ولكنهم سيظلون يتزايدون ! .

« واسأل نفسك لماذا إذن لا يأبهون ، وسواء لديهم أعاشوا أم ماتوا ماداموا يؤدون الرسالة التى كلفهم بها « يسوع » ، إن ذلك لأنهم رأوا « يسوع » عياناً قائماً من بين الأموات وحادثوه ووعوا رسالته ، وإنهم ليؤمنون الآن بأنهم سيقومون كما قام ، وبأن الحياة والموت ليسا إلا اسمين لحوادث عارضة لا أهمية لها فى الواقع مادامت هناك قيامة لحياة خالدة فى الفردوس . إن هذه هى روح المسيحية وقوامها .

وساد ثانية صمت لم يكن يقطعه إلا أصوات حشرات ليل الصيف ، وتاه « قيافا » فى بيداء الفكر دهراً ثم عاد يقول :

— سيد « حنانيا » . . إن حكايات القيامة من الأموات كوميدية ، وإن ما يعلم به

أتباعه فى هذا ليس فقط كوميديا ولكنه ظاهرة جنون .

ومص « حنانيا » سنته الباقية وقال :

ـــ حسناً إذاً ! . امض فى طريقك الذى رسمته لنفسك يا « قيافا » . امض فيهم تقتيلا ، ولكن بذور المسيحية تزداد عمقاً وانتشاراً وثباتا ، وقبل أن تأتى أنت عليهم سيكون قد حدث الكثير مما لا يعلمه إلا الله . وإنى لأحس بأننا ضللنا الطريق وأخطأنا خطأ جسيما سيذكره لنا التاريخ مصحوباً بلوم شديد ، وأسوأ من هذا أن التاريخ سيوجه اللوم إلى كل أمتنا ، كل « إسرائيل » ، من أجل الخطأ الذى لا يتعلق إلا بى وبك وبأصدقائنا الأثرياء الأقوياء ، الذين خافوا أن يفتحوا عيونهم وأذهانهم للحق .. ! .

وسأل « قيافا » فى مكر :

ـــ وما هو الحق ؟ لقد وجه إليه « بيلاطس »هذا السؤال . فهل تعرف بماذا أجاب ؟ .

ـــ كلا .. ولكننى أعرف أن الحق هوهذا الذى سمرناه على الصليب ، ثم دفناه ، وإن الحق ـــ كعادته ـــ هو الذى قام ثانية ! .

وتملك « قيافا » الرعب وصاح مستنكراً :

ـــ سيد « حنانيا » ! إلى أين أنت ذاهب ؟ .

وصمت « حنانيا » دهراً مفكراً ثم حزم أمره وضغط بيديه على مسندى كرسيه وقام متثاقلا مولياً ظهره إلى « قيافا » وهو يقول :

ـــ أنا . . . ذاهب لأنام ! .

[وآيات أخر كثيرة صنعها « يسوع »]

خريطة تبين الأماكن التى شهدت معجزات السيد المسيح

تصويب الأخطاء

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١١	٨	لأعزب	الأعزب
١٤	٤	ولكن هو يريد	ويريد
١٤	٥	. . . . كلا	ولكن كلا
٢٦	٢٥	تخطيا	تخطى
٣٥	٢٧	حدد	حددت
٣٧	١١	يجرى	يرى
٤٨	٢٠	ما أن	وما أن
٥٠	١٠	يخص	يخاص
٥١	٢	ركع	وقع
٥٥	٢٠	وأنها	أنها
٥٩	٢٠	أعفت	أعفيت
٦٧	٢	كانا	كانتا
٦٩	٥	ولمعت	لمعت
٧٦	١	ما أغمضنا	ما أغمضتا
٧٨	٢	عيتاى	عيناى
٨٣	١٤	حنانا	حنانيا
٨٦	٢	وخرجوا	خرجوا
٨٦	٤	حتى	حيث
٨٦	٩	وعبادهم	وعبادتهم
٩٤	١	هربا	وهربا
٩٤	٢	وكانت	كانت
٩٥	١٤	يعلمون	يرون
٩٥	٢١	قوة	فى قوة
٩٧	٥	الثلاثين	الثلاثون
١٠١	١٧	ومكونة	مكونة
١٠١	٢٣	الجليل	نهر الجليل
١٠٣	٩	الوضح	الوضع
١٠٤	٨	قوة	قسوة
١٠٤	٢٥	حيث	بحيث
١٠٥	٢١	لذك	لذلك
١٠٨	٢٤	أرميا	أرميا هذا
١٠٩	٩	الغارية	الغاربة
١٢١	٨	بيت عنيا	بيت عبرة
١٢٥	٤	بيت عنيا	بيت عبرة
١١٨	٢٠	لبهيج	البهيج
١٣٦	٢٢	باتو	باتوا
١٣٧	٩	يهويا	يهودياً
١٣٧	١٨	السامريون	السامريين
١٤٣	١٥	بلنسبة	بسنة
١٤٣	٢٣	رؤوساء	رؤساء
١٤٤	٥	يتسالون	يتساءلون
١٤٧	٦	كان	كانوا
١٤٩	١٤	إذ	ذا
١٤٩	١٤	أن	إذ
١٥١	٨	سريرك	سريره
١٥٤	١	وجائته	وجاءته

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٥٤	٤	خطاة	خطأة
١٦٢	٢٢	المعدان	المعمدان
١٧٦	١٠	الجيل	الجبل
١٧٧	٥	الداعى	الدعى
١٩٢	١٨	والسدومين	والسدوميين
١٩٣	١٩	يرى	يروى
١٩٥	١	الرابع -	الخامس
١٩٧	٧	ليسوع	اليسوع
١٩٨	٧	العادى	والعادى
٢٠٤	٤	بالإيمان	الإيمان
٢٠٦	١٥	للناس	الناس
٢٠٧	٢٣	فإن المسيح هو الذى ابن الله	بأن المسيح هو ابن الله
٢٢٢	٣	لمعونون	الملعونون
٢٢٤	٨	أشياء	الأرض
٢٢٦	٥	يأخذا	يأخذوا
٢٢٨	١٨	وتحريك	تحريك
٢٣٢	٦	خارجها	من خارجها
٢٣٤	١٩	وعندما	عندما
٢٣٦	١٧	إنه مع	مع
٢٣٩	٣	عنوان	تمام النبوات
٢٦٥	١٠	على ما	معلق على ما
٢٧٧	١٤	تلاميذه	إخوانه
٢٨٠	٢٠	فسجلون	فيسجلون
٢٨٥	٢	عل	على
٢٨٦	١٣	يقبض	تقبض
٢٨٨	٧	من	إلى
٢٨٩	١٦	رأى	سراى
٢٩٤	١٢	سليمان	سليمان فيه
٢٩٩	١٣	أذناً	أذن
٣٠٤	١٥	اليونانية	واليونانية
٣٢٤	١٣	العادى	العاجى
٣٢٥	٥	أيخلى	يخلى
٣٢٨	٢٤	العلى	ألعلى

محتويات الكتاب

الجزء الأول

ميلاد الطفل

الجزء الثانى

صبي الناصرة

الجزء الثالث

الإعداد

الجزء الرابع

السنة الأولى

الجزء الخامس

السنة الثانية

الجزء السادس

السنة الثالثة

الجزء السابع

تمام النبوات

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح — تليفون ٩٠١٧٢٥

دار الكرنك

للنشر والطبع والتوزيع

عمارة رمسيس - ميدان رمسيس - القاهرة

تقدم

مشروع المكتبات العشرين

١ - المكتبة الثقافية

٢ - المكتبة الدولية

٣ - المكتبة الطبية

٤ - المكتبة العلمية

٥ - المكتبة السياسية

٦ - المكتبة المسرحية

٧ - المكتبة الفنية

٨ - مكتبة «أطفالنا»

٩ - مكتبة الحضارات

١٠ - المكتبة القصصية

١١ - مكتبة «العقائد والدين»

١٢ - المكتبة الوطنية

١٣ - المكتبة العمالية

١٤ - المكتبة الصناعية

١٥ - المكتبة القانونية

١٦ - المكتبة الاقتصادية

١٧ - مكتبة الأعلام وأبطال التاريخ

١٨ - دائرة المعارف العامة

١٩ - المكتبة الأدبية

٢٠ - المكتبة التربوية والفكرية

الثمن ــــ ص